

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 40 - May 2002

مجلة شهرية . العدد الأربعون . السنة الرابعة . مايو ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

الحصار
الاجتياح
المقاومة

قراءة فى ما يجرى

ومقال
محمد حسنين هيكل
تحالف
ضد الملك !
ثورة يوليو
خمسون عاما

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الأربعون
مايو ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أيمن الصياد .. صحفى.
- تونى يوت .. مدير معهد رومارك بجامعة نيويورك.
- حسن حنفى.. أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عفيف البهنسى.. أستاذ وباحث فى العمارة والفن.
- قدرى حفنى.. أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد الميلى.. المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- حلمى محمد قاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- هاشم النحاس.. ناقد سينمائى.
- هبة رءوف عزت.. مدرس مساعد العلوم السياسية ـ جامعة القاهرة.
- يوسف القعيد.. صحفى وروائى.

رسوم العدد للفنان:
محمد حجى





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

إعادة قراءة

إذا كانت الصحيفة اليومية تقدم الحدث «متابِعةً»، والأسبوعية تقراه «وصفًا وفهمًا وتحليلاً»، فإن «تأصيل» ما يجرى، والبحث المتأنى فى جذوره وأبعاده، ربما كان المهمة التى يجب أن تضطلع بها شهرية مثل «وجهات نظر». هى بطبيعتها - وبحتمية دوريتها - «مجلة أفكار لا أخبار». لا يمكنها - كما أنه غير مطلوب منها - اللهاث خلف تدافع أحداث تقذف أخبارها كل لحظة وسائلُ إعلام، تلك وظيفتها وهذا دورُها.

قبل أن تندلع «النارُ فى الجوار» منذرةً بحريق قد لا يبقى ولا يذر، كانت المطبعة قد دارت بعدد أبريل من «وجهات نظر»، وكان الأستاذ هيكل قد بدأ قراءة جديدة للتاريخ تظل فى التحليل النهائى ضرورية لفهم بعض أبعاد ما جرى ويجرى. بادئًا سلسلة مقالاته «ثورة يوليو/خمسون عامًا» فى مناسبة ذكرى مرور نصف قرن على قيامها. طارحًا ومحاولاً الإجابة عن مجموعة من الأسئلة بينها:

* هل كانت الثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ حتمية، أو ضرورية؟
* من هو جمال عبد الناصر - الرجل فيه قبل الرئيس أو الزعيم أو الأسطورة - وهو أهم شخصية عربية فى القرن العشرين، حتى وإن وقع الاختلاف على تقييم دوره بين مؤيد ومعارض. محب وكاره؟
* ما الذى صنعته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وما الذى عجزت عنه، وما الذى بقى منها - أو ضاع - بعد نصف قرن، وعلى مداخل قرن جديد؟

هيكل الذى بدأت علاقته بيوليو - التاريخ والحدث - ربما فى حرب فلسطين ١٩٤٨، استمرت علاقته «الوثيقة» طوال تلك السنوات: مشاركًا ومتابعًا، ومهتمًا.. أو بالأحرى مهمومًا. وبعد كل ذلك.. وربما قبله أيضًا «كاتبًا» ينتظر منه قُراؤه أن يكتب، وأن يحكى.. خاصة ووراء كل كلمة - كما عودنا - سند ووثيقة.



أيًا ما كان أمر ما كان من علاقة درامية ومتوازية بين قصة يوليو ١٩٥٢ وما بدأ فى فلسطين ١٩٤٨. يظل الثابت والمتفق عليه - مهما كانت زاوية النظر - أن العلاقةَ، تأثيرًا وتأثرًا، مازالت قائمة - بحكم التاريخ والجغرافيا.. وحسابات السياسة - بادية ملامحها، رغم السنين والأيام والتحولات.. والقول بأن «مياهًا كثيرة قد جرت فى النهر..».



ولأن حقائق التاريخ تقول بأن «الأمس هو الأب الشرعى لليوم كما هو للغد» تأتى دائمًا أهمية «قراءة اليوم» لما حدث وظن البعض أن «طواه التاريخ»!!

قبل حوالى العامين، وقبل أن تمور المنطقة بالأحداث.. والدماء، قدمت «وجهات نظر» قراءة لكتاب يحكى فيه كاتبه - الإسرائيلى هذه المرة - ميرون بنفينستى كيف قام الإسرائيليون قبل نصف قرن بأكبر عملية تطهير عرقى لم تجد حظها أبدًا فى إلقاء الضوء أو الاهتمام التاريخى.

يحكى الكتاب الإسرائيلى وقائع النزوح القسرى للفلسطينيين قبل خمسة عقود. يومها - كما هو معروف - أصدرت الأمم المتحدة توصيتها بتقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية على ٥٤٪ من مساحة فلسطين مُنحت لمن يملكون ٥٪ فقط منها، ودولة عربية على مساحة ٤٦٪ تركها القرار لمن يملكون فعليًا ٩٥٪ من الأرض. ويومها استقبل العرب القرار «الظالم» بالاحتجاجات والتظاهرات، فى حين استقبله اليهود، الذين صار اسمهم «الإسرائيليون»، بعمل منظم، وتنفيذ لخطة كانت تفاصيلها بين أوراق «بن جوريون» قبل سنوات. وقد لا تكون مصادفة - فالتاريخ لا يعرف المصادفة. عادة - أن الأسلوب لم يختلف كثيرًا عما نراه اليوم على شاشات الفضائيات. يومها حاصروا القرى الصغيرة، ونسفوا المنازل العربية فى أبو كبير ودير أيوب تطبيقًا «لمبدأ الردع بالترويع» الذى دأب الإسرائيليون ومازالوا على انتهاجه.. ويومها - وليس فى الأمر أيضًا مصادفة - لم يكن اسم «إريل شارون» بعيدًا عما يجرى.

ويمضى المؤلف الإسرائيلى ليحكى وقائع الأيام الستة والثلاثين، والتى كان على اليهود أن ينهوا فيها الجزء الأكبر من عمليتهم، قبل أن ينهى البريطانيون انتدابهم فى ١٥ مايو ١٩٤٨. وكيف نجح بن جوريون فى طرد ٤١٠,٠٠٠ من سكان القرى الفلسطينية. ويصف المذابح التى كان الإسرائيليون يقومون بها لترويع سكان القرى. وكيف كان المستوطنون والجنود يقتلون الشباب الفلسطينى بعد اعتقالهم فى مجموعات بحيث تدفن المجموعة التالية من سبقها «قبل أن تقتل بدورها». وكيف شحنوا النساء والأطفال فى سيارات لرميهم - كدرع بشرى على خطوط القوات العربية - ثم كيف أجلسوهم فى منتصف الطريق على أكوام حصيد القمح الناشف، وصبوا عليهم بنزينًا.. وأحرقوهم.

هل يذكرنا اليوم بالبارحة.. ربما.



كثير من القراء والذين استوقفهم مقال رئيس تحرير النيوزويك: «شارون.. وزير خارجية أمريكا» تذكروا مقال الأستاذ هيكل فى «وجهات نظر» قبل عام كامل عن رواية «عملية هبرون» والتى تحكى تفاصيل عملية استخباراتية «مغامِرةٍ ومخاطِرة» خطط لها الموساد الإسرائيلى، بهدف وضع أحد عملائه فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية، ليكون ذلك هو «الضَمان النهائى الذى لا ضَمان بَعده ولا ضَمان فوقه.. فهو كفيل بأن يُحَقِّق لها كل ما تَحلم به، وأبعَد وأوسَع من الحلم أيضًا». ذلك أن رئيس وزراء إسرائيل - فى القِصةِ - يَشعُر أن إسرائيل تَحتاج إلى ضمان أمريكى نهائى يُوَفِّر لها طول السنوات القادمة الحاسمة - وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط - ما لا تَقدِر عليه جَماعات الضغط المؤيِّدة لها، وما هو أنفع من «أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب، وما هو أقوى من صَفٍّ طويل مُتَعاطِف من رُؤساء تحرير الصحف ومديرى الفضائيات وشركات السينما».



وبغض النظر عن تفاصيل رواية يلتبس فيها - بالضرورة - الواقع بالخيال.. والقص بالمحتمل والممكن. رغم أن كاتبها رجل مخابرات أمريكى سابق. يذكر القراء أيضًا قراءة هيكل للوثائق الإسرائيلية (وجهات نظر - نوفمبر ٢٠٠٠) والتى تحكى كيف يتعاطى الإسرائيليون مع القمم العربية... وتشرح أيضًا كيف يرى بن جوريون أن «العرب، المثقلين أصلاً بتناقضاتهم الداخلية، نفسهم قصير.. فهم قد يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم، وضعفت حماستهم، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جمعت بينهم..».

يومها حكى هيكل حواره مع الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» حول اتفاق أوسلو بعد أسابيع من إعلانه عام ١٩٩٣ والذى عبر فيه الرئيس الفرنسى - رغم أجواء التفاؤل الاحتفالية وقتها - عن اعتقاده بأن الطرفين لن يصلا إلى حل قبل خمس أو ست سنوات «رغم كل ما قدمه عرفات يومها» لأن الإسرائيليين سيلجئون إلى تدويخ الفلسطينيين حتى يخفضوا سقف توقعاتهم قبل الدخول فى التفاوض الجاد. وذلك بإضاعة الوقت و«الجهد» كليهما فى الاقتراب من مائدة المفاوضات ثم «الابتعاد» عنها.. وطرح الصيغ الواسعة المطاطة، التى تصبح كفيلة بإضاعة وقت إضافى فى تفسيرها. فضلاً عن إغراق المفاوض الفلسطينى فى بحر من الأفكار والمقترحات، والوسطاء والوساطات.. ثم الالتفاف حول كل شىء للعودة دائمًا لنقطة البداية.



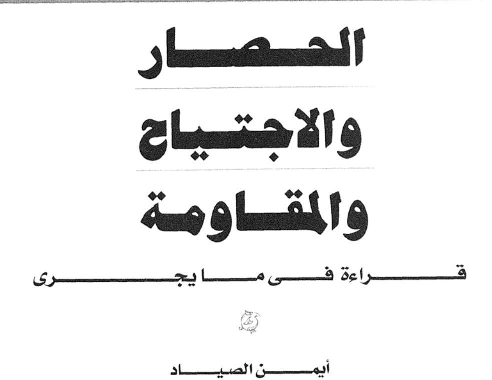
لا شىء يتغير إذن، ولكن بعضنا لا يقرأ.

ورغم كل ما يجرى، وكل ما يقال. تؤكد هيئة تحرير تلك المجلة على ما نبه له هيكل قبل أشهر من خطورة اتجاه بدا حريصًا - بقصد أو بدونه - على أن «تظل الأمة حبيسة لإحساس الهزيمة وأسيرة لذلها حتى تقبل فى أمورها الداخلية والخارجية ما هو مقبول منها أن تقبله، دون مراجعة أو احتجاج..».

وجهات نظر



لأسباب يقدرُها، ترتبطُ - كما قال لنا - «باهتمامات مفترَضة للقارئ فى هذه اللحظة الساخنة»، ارتأى الأستاذ هيكل ألا يأخذ مقاله هذا العدد مكانه «الطبيعى» الذى اعتاده وأَلِفَهُ قارئ هذه المجلة طوال سنوات ثلاث انقضت من عمرها منذ أن بدأت فكرةً تحمس لها ورعاها.. وكان أن خصها بمقال شهرى ينتظره المتشوقون - دائمًا - إلى معرفة رأيه فيما يجرى.. وقراءته لما جرى. [مقال الأستاذ هيكل صفحة ٤٤].



الحصار والاجتياح والمقاومة

قراءة في ما يجري

أيمن الصياد

حجر.. وحجر.. وحجر.. ودماء.

قصة هذا الشعب/الوطن: نصف قرن من الحجارة والدماء.

حجارةُ بيت تركوه في الـ ٤٨ على ظنٍ في عودة.. لم تحدث أبدًا.

وحجارةُ بيت سوته الجرافات أيام القهر والغل والإهانة، على ما فيه من طمانينة قلقة.. وذكريات مختلطة.. ورغبةٍ متعطشةٍ ـ بحكم آلام الزمن وتجاعيد السنين ـ فيَ الأمنِ والسكينة و... السلام.

وحجارةُ طفل فشلت صورتُه «عاريَ الصدر أمام دبابة» ولدة عامين كاملين أن تستصدرَ قرارًا من المنظمة «الدولية» بإرسال مراقبين لضمان أمن «الطرفين».

وتحت وطأة الفيتو الأمريكي «المتكرر» وإطلالة «الاباتشي» اليومية، يبدو أن خيار الحجارة كان حتميًا أن يسقط أمام خيار الدماء.

هل كان الفلسطينيون حقًا بحاجة إلى سفينة الأسلحة «ذات الروايات المتعددة المتضاربة» كي يحاربوا؟!

في وطن اختار دماء أبنائه «الاستشهاديين» سلاحًا، لا يصبح للسؤال محل. وتفقد «هل» مضمونها الاستفساري.. وتلحق علامةُ التعجب ـ بالضرورة ـ علامةَ الاستفهام.

ماذا بعد أن قال السياسي الإسرائيلي يوسي ساريد: «لم يبق في المناطق المحتلة حجر فوق حجر..»؟

ماذا بعد أن قال عزمي بشارة «الإسرائيلي / العربي» الذي لم تقبله الديمقراطية الإسرائيلية: «لم يعد أمام الشعب الفلسطيني غير المقاومة»؟

وماذا بعد أن أدمى الجنود بكعوب بنادقهم وجه «النائب» محمد بركة عضو الكنيست، عندما خرج إلى الشارع يعبر عن رأيه و«رأي ناخبيه» في بلد يقول ـ أو يدعي ـ أنه الديمقراطي الوحيد في الشرق الأوسط؟

الذين جربوا إذن وعمليًا الديمقراطية الإسرائيلية، لفظتهم عنصرية الإرث والواقع.

والذين راهنوا على أوسلو، أحبطتهم مفارقة أن تل أبيب هددت باعتبار المبعوث الدولي رود لارسن (السياسي النرويجي وأحد مهندسي أوسلو) شخصا غير مرغوب فيه. لانه تجرأ وأعلن عن أله لما شاهده في مخيم جنين المدمر. وأحبطهم أيضا أن الجميع قد نسوا أن فوهات الدبابات في رام الله مصوبة إلى نافذة «ذلك الحاصل على نوبل». عقابًا له على عدم امتثاله ـ الكامل ـ للعب دور الشرطي الساهر على أمن «عدوه التاريخي» المعن في التملص، حكومةً بعد حكومة، من اتفاقات وتعهدات.. و«تفاهمات». ولن لا يذكر أن يعيد قراءة أوسلو وجدولها الزمني!! ثم واي ريفر وشرم الشيخ وأوراق كلينتون المرفوضة في كامب ديفيد؟

وعليه أن يقرأ ـ ثانيًا ـ على أرض الواقع، مسلسل تهويد القدس واجتياح بيت الشرق، وتوسيع المستوطنات، وتجريف الأراضي الزراعية، ونسف المنازل، واغتيالات الأباتشي اليومية.. والإذلال المهين على حواجز تفصل بين مدن وقرى هي في التوصيف القانوني المجرد «محتلة».

وإذا لم يكن هذا يكفي، فعليه أن يقرأ ـ ثالثًا ـ التقارير المحايدة بحكم طبيعتها ـ للمنظمة (الدولية) للطفولة «اليونيسيف» والتي تقول بوضوح أن ١٤٠٠ طفل فلسطيني لقوا حتفهم نتيجة الممارسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى نهاية ٢٠٠٠ من بينهم ما يزيد على الخمسمائة بإصابات مباشرة من رصاص جنود الاحتلال أو قذائف الدبابات وصواريخ الطائرات!!

ويسألونك عن الإرهاب؟!

ولا يجد الرئيس الأمريكي حرجًا في أن يقف في حديقة الورود يداعب كلبه ويقول للصحافة «بوضوح»: إن شارون رجل سلام. وأن على عرفات أن يتكفل بالقضاء على «أولئك المجرمين» لا أن يكتفي بالتنديد بهم.. وأن على «أصدقائنا» في العالم العربي خصوصًا مصر والسعودية والأردن، أن يلتزموا بوصف «آيات الأخرس» بالإرهاب!!

خلطُ الأوراق والمفاهيم، وغيومٌ سوداء تبدو في الأفق، سرعان ما استدرجت سياسيين و«فقهاء» في بلدان أحرج البعضَ فيها تظاهراتٌ أقدمت على حرق أعلام «صديقة» إلى جدل عقيم حول الألفاظ ومدلولاتها.. ومدى «ملاءمتها». وسرعان ما بحث محررو بعض الصحف في معاجمهم عن لفظة «بديلة» لمصطلحات الشهادة والشهداء والاستشهاديين.



مرة أخرى.. لننظر إلى المشهد بتجرد تام.

طيار إسرائيلي يجلس «مطمئنًا» في طائرته الأباتشي المتطورة، يطلق صاروخًا على سيارة «مدنية» في أحد أزقة نابلس فيقتل من فيها ومن تصادف مروره بجوارها.. ويعود سالمًا ليحتسي فنجالاً من القهوة. يُذكر الخبر مجردًا: «طائرة إسرائيلية أصابت هدفها..».

أما إذا تمنطقت فتاةٌ في السادسة عشرة من عمرها بالشجاعة وحزام من المتفجرات، وذهبت لتفجر «نفسها» قبل أن تفجر حافلة إسرائيلية بها «مدنيون» ـ أو بالأحرى عسكريون في ثياب مدنية ـ عائدون من، أو ذاهبون إلى ميدان القتال والتقتيل ـ تصبح الأوصافُ جاهزة، أو سابقة التجهيز. فالعملية «إرهابية». والفتاة الصغيرة «مجرمة انتحارية».. يا للمقارنة.. ويا لازدواجية المعايير.

كأن الدماء غير الدماء. والبشر غير البشر. وكأن كل المطلوب من آيات الأخرس أن تركب الأباتشي أو تختندق داخل دبابة لتطلق صاروخًا أو قذيفة وتعود آمنة.. لتنجو من دمغها بالإرهاب والوحشية!!

تعالوا مرة أخرى لننظر.. ونقارن.

إذا اغتالت إسرائيل «الدولة» زعيمًا فلسطينيًا «أبو على مصطفى» وهو عضو في قيادة لكيان ارتضت أن تبدأ معه مسيرة سلام.. فلا توجد مشكلة. ولا يوجد ثمة انتهاك لخطوات «بناء الثقة». أما إذا انتقم رفاق الرجل لاغتياله في مكتبه وأردوا الإسرائيلي المتطرف «زئيفي» قتيلاً. تقوم الدنيا ولا تقعد وتراق دماء الفلسطينيين أنهارًا قبل أن تضطر سلطتهم المدنية



«المحاصرة» إلى إصدار أحكام مشددة على «قتلة العدو» أملاً في فك الحصار، أو على أحسن الفروض في إنقاذهم من «إعدام بلا محاكمة».

من يحاكم إذن قتلة أبو علي مصطفى..؟ لا أحد!

ومن يطالب حتى بمحاكمتهم..؟ أيضًا لا أحد!

فرغم أن كوفي آنان وعد بإعادة تشكيل اللجنة بناء على طلب إسرائيل وتعهد بأن مهمتها لن تشمل «التحقيق»، اعتبر نتانياهو أنه «من الوقاحة» أن ترسل الأمم المتحدة لجنة لتقصي الحقائق في مجزرة جنين. وأعلن مسؤول إسرائيلي آخر أن الخطأ الوحيد الذي ارتكبه الجيش في المخيم هو أنه «ترك فيه أحياء».

ولأن صور الصحافة العالمية لانتشال الجثث والأحياء من تحت أنقاض المخيم لم تمنع شيمون بيريز أن يقول إن عدد الضحايا لم يتجاوز «الثلاثة»، فلا شيء أبدًا يمنع آري فلايشر الناطق باسم البيت الأبيض أن يخرج «ليوضح» للصحافة أن أولئك الفلسطينيين مفجري أنفسهم، ليسوا حتى انتحاريين «بل قتلة.. فقط قتلة»!

كما أنه. وبالتالي. لا شيء أبدًا يمنع جورج دبليو بوش أن يطلب منا. ويحذر ربما. من إطلاق صفة الشهادة على هؤلاء!



هل كان يمكن حقًا. كما يقول البعض. بكثير من الدبلوماسية وقليل من الحجارة، تجنب الدمار؟

لم يترك شارون أبدًا فرصة لأحد.

هل تذكرون الشرط الإسرائيلي بأسبوع من الهدوء «الفلسطيني»؟

للذين نسوا نُذَكِّر أنه. قبل شهرين. وعندما استجاب عرفات. في واحدة من استجاباته الكثيرة. واستجاب له الآخرون، أحصى العداد الذي لا يتوقف ٨٣ عملية اغتيال لقيادات فلسطينية معظمهم في العشرينيات من العمر.

وللذين نسوا نُذَكِّر أن آيات الأخرس ذات الثمانية عشر ربيعًا والشعر الأسود الفاحم الطويل والعينين العسليتين والنظرة البريئة على غلاف «النيوزويك»، والأسرة التي نزحت مرتين (في ١٩٤٨ من إحدى قرى الداخل إلى غزة، وفي ١٩٦٧ من غزة إلى مخيم الدهيشة قرب بيت لحم)، لم تكن يومًا منتمية إلى تنظيم من تلك المصنفة أمريكيًا «إرهابية». بل لم تكن منضوية أصلاً تحت لواء أي تنظيم كان. بل لم تكن حتى بشهادة الجميع ذات اهتمامات سياسية. وللذين نسوا نُذَكِّر أنها لم تذهب «للثأر» والشهادة إلا بعد أن شهدت بعينيها جارها عيسى فرج «المدني» والمسالم، والمقهور أصلاً تحت احتلال دام خمسة وثلاثين عامًا يفقد حياته في باحة منزله المجاور بعد أن أطلق عليه جنود «الاحتلال» النار من نافذة بيته المفتوحة. ساعتها كان عيسى يلعب بالمكعبات الملونة مع ابنته الصغيرة. وساعتها قررت آيات أن تثأر. غير مبالية، أو غير عارفة أصلاً برأي آري فلايشر أو جورج دبليو بوش في البيت الأبيض.

يخطئ جدًا من يعتقد أنه لو لم تكن الهجمات الاستشهادية لما كانت عملية الاجتياح النازي التي أسمتها إسرائيل «الجدار الواقي». كما بالضبط يخطئ من يريدنا أن نصدق أن عرفات المحاصر «دائمًا» أضاع فرصة تاريخية عندما لم يقبل في كامب ديفيد العرض «السخي» الذي قدمه له كلينتون وباراك قبل عامين ليتنازل عن القدس وحق العودة مقابل ٨٦٪ من الضفة الغربية (مزروعة بالمستعمرات/ المستوطنات الإسرائيلية ومقسمة بشبكة طرق تقع تحت السيطرة الكاملة للجيش الإسرائيلي)!! هذا أو لا حل.

مستر عرفات.. أو السيد الرئيس – لافرق – عليك أن تنسى. بشجاعة الفرسان. ليس فقط حلمك القديم بتحرير كل فلسطين. ولا حلمك اليوتوبي: «دولة ديمقراطية للشعبين». ولا حتى كل تلك القرارات الدولية التي لم تأخذ منها على مدى نصف قرن غير أرقام حُفرت في ذاكرتك. وإنما عليك أن تنسى. أيضًا. كل ما كانت أوسلو قد وعدتك به. رغم التوقيعات والتطمينات والشركاء.. والرعاة.



ماذا بعد كل تلك الدماء والدمار..؟

يقول الإسرائيليون. الذين مازالوا يبحثون عن شرطي مناسب مستعيدين من الذاكرة ما فعلوه مع أمين الحسيني رئيس حكومة عموم فلسطين قبل نصف قرن. إننا نفكر في الإفراج عن عرفات ليذهب إلى غزة (٣٦٠ كيلومترا مربعا) لنجرب ما إذا كان سينجح في كبح جماح كل أولئك الذين أصبح الحائط وراءهم ودماؤهم أمامهم.. ولا خيار.

ويقول الأمريكيون أن الكرة في ملعب عرفات.. وأن الإسرائيليين وفوا بوعدهم بالانسحاب.

ويقول الواقع. والأرض. أن الإسرائيليين لم يغيروا خطتهم أبدا نتيجة للتدخل الأمريكي. فبوش طلب في الرابع من أبريل وقف الغزو وبدء الانسحاب «بلا تأخير». وخرجت كوندوليزا رايس بعد يومين فقط لتوضح المعنى: «بلا تأخير، تعني بلا تأخير.. أي الآن». إلا أن الأمر احتاج في الواقع لثلاثة أسابيع إضافية من القتل والتدمير (هي بالضبط الفترة التي كان الإسرائيليون قد قرروها مسبقا لعمليتهم) ليبدأوا. لا بالانسحاب. وإنما فقط بإعادة الانتشار. أي الخروج بالدبابات من داخل (بعض) المدن للمرابطة خارجها. فضلا عن اجتياح مدن وقرى أخرى.

لا يهم.. فالأمريكيون مرتاحون في تصريحاتهم الرسمية إلى أن الإسرائيليين «يستجيبون».. ونحن ننتظر الآن من عرفات.

يخطئ كثيرا إذن من يراهن. وفقط. على واشنطن كما يخطئ من يعتقد أن الموقف الأمريكي. البادي الانحياز لإسرائيل. هو فقط من تداعيات ١١ سبتمبر. التي يخطئ أيضا من بين العرب من يعتقد أن عليه الاكتفاء بالتراجع أمام التداعيات.. أو الانحناء حتى تمر العاصفة. فطول الانحناء قد يكسر الظهر.. كما يقول المثل العربي القديم.



في «وجهات نظر» خصصنا الصفحات التالية لقراءة في بعض أوراق الملف القديم الجديد.. المتفجر والدامي. والذي اختلطت كثير من سطوره ومفاهيمه.





إسرائيل إلى أين؟



تونى يوت

في عام ١٩٥٨، وفي ذروة أزمة الجزائر، حيث كان العرب يفجرون المقاهي الفرنسية، وتدين باريس في السر لجوء الجيش الفرنسي المحتل للتعذيب، وبينما كان الكولونيالات شبه العسكريين يطالبون بحرية اتخاذ ما يؤدي إلى إنهاء الإرهاب، أصدر الفيلسوف الفرنسي ريمون آرون كتاباً صغيراً بعنوان (L'Algérie et la République الجزائر والجمهورية). وبعد تجاوزه لمزاعم الطرفين الانفعالية والتاريخية، شرح آرون في كتابه شديد الروعة سبب ضرورة أن يرحل الفرنسيون عن الجزائر. وكانت فرنسا تفتقر إلى كل من الإرادة والوسيلة لفرض الحكم الفرنسي على العرب، أو إعطاء العرب مكاناً متكافئاً داخل فرنسا. فإذا بقي الفرنسيون، فإن الوضع لن يزداد إلا تدهوراً، وسوف يضطرون للرحيل في يوم ما - ولكن في ظروف أشد سوءاً وبإرث أكثر مرارة. وكان الضرر الذي تلحقه فرنسا بالجزائريين يفوقه الضرر الذي تلحقه الجمهورية بنفسها. وبغض النظر عما كان يبدو عليه الاختيار من استحالة، فقد كان شديداً في بساطته رغم ذلك؛ فلا بد أن ترحل فرنسا.

وبعد سنوات كثيرة، سُئل آرون عن سبب عدم دخوله في المسائل شديدة السخونة في ذلك الوقت: وهي التعذيب، والإرهاب، والسياسة الفرنسية الخاصة بالاغتيال السياسي الذي ترعاه الدولة، والمطالب الوطنية العربية، وتراث الفرنسيين الاستعماري. فرد بقوله إن الجميع كانوا يتحدثون عن تلك الأشياء؛ فماذا سيضيف صوتي؟ لم يكن المهم هو تحليل أصول المأساة، ولا تحديد من يلقى عليه اللوم في حدوثها. بل كان المهم هو عمل ما يجب عمله.

ووسط الأصوات المتنافرة من التعليقات والاتهامات التي تدور حول مأساة الشرق الأوسط، نفتقد بشدة وضوح آرون الذي لا زواق فيه. ذلك أن حل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني واضح وضوحاً جلياً. فإسرائيل موجودة، وسوف يقبل الفلسطينيون وغيرهم من العرب وجودها في آخر الأمر؛ بل إن كثيرين قبلوه بالفعل. ولا يمكن محو الفلسطينيين من «إسرائيل الكبرى»، ولا دمجهم فيها؛ فإن هم طردوا إلى الأردن، فسوف ينفجر الأردن انفجاراً تكون عواقبه وخيمة على إسرائيل. والفلسطينيون بحاجة إلى دولة حقيقية خاصة بهم، وسيحصلون عليها. وسوف ترسم حدود الدولتين حسب الخريطة التي رسمت في مفاوضات طابا في يناير ٢٠٠١، التي ستعدل بموجبها حدود ١٩٦٧، إلا أن كل الأراضي المحتلة تقريباً ستخضع للحكم الفلسطيني. وبذلك يكون محكوماً على كل المستوطنات الإسرائيلية في المناطق المحتلة بالاختفاء، وسوف يفكك الكثير منها، وهو ما يعترف به إسرائيليون كثيرون في السر. ولن يكون هناك حق للعرب في العودة؛ وقد حان الوقت للتخلي عن حق العودة اليهودي الذي ينطوي على مفارقة تاريخية. كما أن القدس مقسمة بالفعل على أساس عرقي، وسوف تكون في النهاية عاصمة لكلتا الدولتين. وبما أنه ستكون لهاتين الدولتين مصلحة مشتركة في الاستقلال والاهتمامات المدنية المشتركة، فسوف تتعلمان في الوقت المناسب كيف تتعاونان. وسوف تسير المنظمات التي لها قاعدة مجتمعية مثل حماس، إن هي مُنحت الفرصة لتحويل نفسها من شبكات إرهابية إلى أحزاب سياسية، في نفس السبيل. فهناك العديد من السوابق.

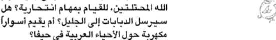




إذا كان هذا هو مستقبل المنطقة، فلماذا يبدو الوصول إلى ذلك شديد الصعوبة؟ لقد أخرج ديجول أبناء وطنه من الجزائر بسهولة نسبية، بعد أربع سنوات من مقال آرون. وبعد خمسين سنة من القمع والاستغلال البغيضين، سلم الجنوب أفريقيون البيض السلطة للأغلبية السوداء التي حلت محلهم بدون عنف أو انتقام. فهل الشرق الأوسط يختلف اختلافاً شديداً؟ إن الفلسطينيين يرون أن التناظر الاستعماري متوافق، وأن السابقة الخارجية يمكن تطبيقها. إلا أن الإسرائيليين يصرون على عكس ذلك.

لا يزال معظم الإسرائيليين أسرى قصة تفردهم. فالبعض يرى أن هذا التفرد يكمن في الوجود الأزلي لدولة يهودية قديمة على أرض إسرائيل الحديثة. ويرى غيرهم أنه كائن في اللقب الذي منحهم إياه الرب لأراضي يهودا والسامرة. ولا يزال كثيرون يثيرون مسألة الهولوكست ويزعمون أنه يعطي اليهود الحق في جعل المجتمع الدولي يدفع الثمن. بل إن هؤلاء الذين يرفضون كل تلك الدعاوى الخاصة يشيرون إلى الجغرافيا دفاعاً عن تميزهم. فهم يقولون إننا معرضون للخطر، ويحيط بنا الأعداء، بالشكل الذي يجب علينا معه عدم المخاطرة أو ارتكاب خطأ واحد. لقد انسحب الفرنسيون عبر البحر المتوسط؛ وجنوب أفريقيا بلد كبير جداً. أما نحن فليس لنا مكان نذهب إليه. وأخيراً، فإن وراء كل رفض إسرائيلي لمواجهة حتمية الخيارات الصعبة يقف الضمان الخفي الذي تقدمه الولايات المتحدة.

والمشكلة بالنسبة لسائر دول العالم أن إسرائيل تغيرت منذ عام ١٩٦٧ بطريقة تجعل من التوصيف التقليدي الذي تصف به نفسها أمراً مثيراً للضحك. فهي الآن قوة استعمارية إقليمية، تعدها بعض الحسابات رابع أكبر مؤسسة عسكرية في العالم. وإسرائيل دولة، بكل ما للدولة من أمارات وقدرات. وفي المقابل الفلسطينيون ضعاف بحق. فرغم عظم أخطاء القيادة الفلسطينية ودموية العمليات الفلسطينية، فالحقيقة هي أن إسرائيل تملك المبادرة العسكرية والسياسية. وبذلك فإن مسئولية الخروج من المأزق الحالي تقع في المقام الأول على عاتق إسرائيل (وإن لم يكن بالكامل كما سنرى).



ولكن الإسرائيليين أنفسهم لا يرون ذلك. فهم يرون أنهم لا يزالون مجتمعاً ضحية صغيراً، يدافعون عن أنفسهم بضبط نفس وتردد في مواجهة صعاب طاغية. في حين أن قيادتهم السياسية العاجزة أضاعت ثلاثين عاماً منذ انتصار ١٩٦٧ الذي شجع على الشعور بالصلف والغرور. وفي ذلك الوقت بنى الإسرائيليون مجتمعات غير مشروعة على الأراضي المحتلة واتخذوا لنفسهم درعاً من الاستخفاف بالأعراف: تجاه الفلسطينيين، الذين ينظرون إليهم باحتقار، وتجاه الولايات المتحدة، التي استغلوا تحررها المتعاطف السابق بلا حياء.

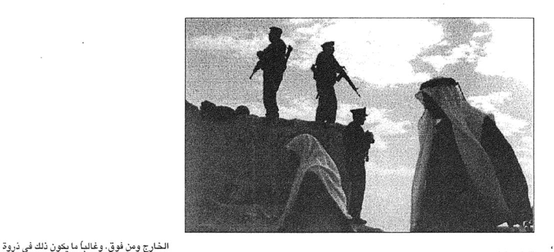
ولا تشكل إسرائيل خطراً دائماً بالنسبة لسوريا أو لحزب الله في لبنان، أو للجناح العسكري في حماس، أو لأي تنظيم متطرف آخر. بل على العكس من ذلك، حقق هؤلاء نجاحاً منذ زمن طويل بسبب ردود أفعالها غير المتوقعة تجاه هجماتهم. ولكن حكومة إسرائيل الحالية توشك أن تقضي على السلطة الفلسطينية. وبعد أحداث الشهر الماضي، سوف يعاقب الساسة الفلسطينيون، الذين كانوا من الغباء بحيث صدقوا الإسرائيليين، باعتبارهم خونة يتعاملون مع قوات الاحتلال، ويقضى بالتالي عليهم. وبذلك تكون دولة إسرائيل قد حرمت نفسها من المحاورين الفلسطينيين الذين يتمتعون بالمصداقية.

هذا هو الإنجاز الواضح لأريئيل شارون، المشهور بين الجنود بعجزه الاستراتيجي - حيث لم يكن نجاحه التكتيكي فيما يتعلق باجتياح الدبابات الجسور متوافقاً قط مع أي فهم للصورة الأكبر - والذي أثبت أنه على ذلك القدر من السوء الذي كان يخشاه كثيرون منا. فقد كرر (أو حاول أن يكرر في حالة طرد عرفات) كل أخطاء احتلاله للبنان عام ١٩٨٢، بما في ذلك الخطاب الذي يستخدمه. ويذكرنا انشغال شارون الشديد بياسر عرفات بشخصية المفتش جافير عند (فيكتور هيجو) في روايته البؤساء، الذي كرس بجنون حياته ومستقبله العملي للقضاء على جان فالجان، على حساب أي إجراء ومنطق، بما في ذلك منطقه هو (والمقارنة الأدبية تظهر كلاً من شارون وعرفات على السواء أفضل مما هما عليه).

وفي الوقت نفسه رفع شارون وحده وبلا أية مساعدة مكانة عرفات الدولية إلى أعلى نقطة لها منذ سنوات. وإذا تخلص شارون من عرفات في يوم من الأيام، وظل مفجرو القنابل يأتون، كما سيحدث، فماذا يفعل حينذاك؟ وماذا سيفعل حين يتطوع الشباب العربي داخل إسرائيل نفسها، وقد ألهبت حماسهم معاملة إسرائيل لأبناء عمومتهم في جنين ورام الله المحتلتين، للقيام بمهام انتحارية؟ هل سيرسل الدبابات إلى الجليل؟ أم يقيم أسواراً مكهربة حول الأحياء العربية في حيفا؟

يقع اللوم في المقام الأول فيما يخص الأزمة الحالية على المؤسسة السياسية الإسرائيلية - ناهيك عن الطبقة المثقفة الليبرالية في البلاد التي نفضت يدها من المسئولية، كما فعل (بيلاطس) - وإن لم تكن وحدها. فالإسرائيليون يفترضون على وجه التحديد أن معهم شيكاً على بياض من واشنطن بمشاركة الولايات المتحدة في هذه الفوضى شاءت أم أبت. فقد بدأت كل الجهود الجادة في الثلاثين سنة الماضية لإيجاد السلام في الشرق الأوسط، من هنري كيسنجر إلى بيل كلينتون، بتشجيع أمريكا وبتدخلها. فلماذا تنحت إدارة بوش جانباً كل هذا الوقت، مما يثير الغضب العالمي ويعرِّض تأثيرها المستقبلي للخطر؟

لماذا ظل الرئيس الأمريكي حابساً نفسه في أواخر مارس وأوائل أبريل داخل الاقتراح المراوغ بأن «على عرفات أن يفعل المزيد» لكبح جماح مفجري القنابل الانتحاريين، بينما زعيم





السلطة الفلسطينية حبيس داخل ثلاث غرف، وتحت يده تليفون محمول واحد؟ ولماذا قَبِل رجل بحصافة كولين باول وذكائه أثناء تزايد حدة الأزمة الحالية صاغراً طلب شارون بفترة غير محددة من «الهدوء التام» (فيما عدا الاغتيالات الإسرائيلية) قبل بدء أية مناقشات سياسية؟ لماذا وقفت الولايات المتحدة تتفرج بينما «قُتل ما يزيد على ٢٠٠ فلسطيني وجُرح أكثر من ١٥٠٠ آخرون من اجتياح الدبابات وطائرات الهليكوبتر للضفة الغربية في ٢٩ مارس»، كما جاء في صحيفة «نيويورك تايمز» في عددها الصادر في ٩ أبريل؟ باختصار، لماذا ربطت الولايات المتحدة نفسها طواعية بمقود اسمه «الإرهاب» يمكن لشارون أن يدفعها به للأمام وللخلف متى شاء؟

الإجابة بكل أسف هي الحادي عشر من سبتمبر. فحتى ذلك التاريخ كان بوش عازماً على ضرورة تحذير إسرائيل من «الاغتيالات المستهدفة»، كما فعل في أغسطس الماضي. ولكن منذ الحادي عشر من سبتمبر أسكتت كلمتا «إرهاب» و«إرهابي» الجدل العقلاني الخاص بالسياسة الخارجية. ولم يكن على شارون سوى أن يعلن أن عرفات رئيس «شبكة إرهابية» كي تتفق واشنطن بطريقة غبية مع أي تدبير عسكري يتخذه. ونحن مندهشون من الخطاب الجديد الخاص بهذه «الحرب ضد الإرهاب»؛ ذلك أن أي سياسي يمكنه أن يلصق بطريقة مقنعة صفة «إرهابيين» بأي منتقدين له في الداخل أو الخارج سوف يضمن على أقل تقدير أذناً مصغية في الحكومة الأمريكية، وعادة شيئاً آخر بالإضافة إلى ذلك.

إن التهديدات «الإرهابية» في سبيلها لأن تكون تعويذة عصرنا هذا، كما كانت «الشيوعية» و«الرأسمالية» و«البورجوازية» وغيرها من أخطار قبلها. وهي مثلها تغلق باب كل مناقشة تالية. وهذه الكلمة لها تاريخها؛ فقد وصف هتلر وستالين خصومهما كذلك بأنهم «إرهابيون». والإرهابيون موجودون في الواقع بطبيعة الحال، تماماً كما أن هناك بورجوازيين حقيقيين وشيوعيين فعليين؛ فالإرهاب ضد المدنيين هو السلاح المفضل لدى الضعفاء. ولكن المشكلة هي أن «الإرهابي» شأنه شأن «الدولة المارقة» خدعة خطابية سريعة التشكل ترتد إلى نحر قائلها؛ فالإرهابيون اليهود كانوا بين مؤسسي دولة إسرائيل، وقد لا يمضي وقت طويل حتى توافق الأمم المتحدة على قرار يُعرِّف إسرائيل على أنها دولة مارقة.



إذن فالمرحلة الأولى من أي حل في الشرق الأوسط هي أن تتخلى الولايات المتحدة عن الفكرة الخطابية المسيطرة عليها التي تحمل هزيمتها في طياتها والخاصة بالحرب ضد الإرهاب، وهي الفكرة التي أعادت الولايات المتحدة إلى جيب شارون من جديد، والبدء في التصرف كدولة عظمى كما هو شأنها. وبدلاً من أن يبتز رئيس وزراء إسرائيل واشنطن كي تلوذ بالصمت، لا بد أن تطلب هي منه ومن أي ممثلين فلسطينيين نجوا من اتهاماته أن يبدءوا المحادثات. ومنذ عامين، بل منذ عام واحد، كان من المنطقي أن يُطلب من السلطة الفلسطينية وقف مثل هذه التفجيرات قبل بدء المحادثات. ولكن بفضل شارون، فإن أي فلسطيني يمكنه الدخول في مفاوضات ليس في وضع يمكنه من تلبية هذا المطلب. ولذلك فلا بد أن تكون هناك محادثات واتفاقية سلام في وجود التفجيرات أو عدم وجودها.

وبالطبع سيسأل الإسرائيليون كيف يمكنهم التحدث مع أناس تغاضوا عن التفجيرات الانتحارية التي استهدفت مدنيين إسرائيليين. وسوف يرد الفلسطينيون بأنه ليس لديهم ما يقولونه لهؤلاء الذين يزعمون أنهم يرغبون في السلام الدائم ولكنهم بنوا ثلاثين مستوطنة استعمارية جديدة في العام المنقضي وحده.

هناك الكثير الذي يجب نسيانه. فالفلسطينيون يتذكرون الطرد الجماعي في عام ١٩٤٨، ونزع ملكية الأراضي، والاستغلال الاقتصادي، واستعمار الضفة الغربية، والاغتيالات السياسية، والإهانات اليومية البسيطة. ويتذكر الإسرائيليون حرب ١٩٤٨، ورفض العرب الاعتراف بدولتهم قبل ١٩٦٧، والتهديدات المتكررة بإلقاء اليهود في البحر، والمذابح المدنية العشوائية المرعبة في العام المنقضي.

ولكن الذاكرات الشرق أوسطية ليست فريدة من نوعها وليست مميزة في حجمها. فعلى مدى عقدين ظل الجيش الجمهوري الأيرلندي يقتل المواطنين البروتستانت على أعتاب دورهم، وأمام أعين أطفالهم. وكان رد المسلحين البروتستانت بالمثل. والعنف مستمر، ولكنه خف كثيراً. ولكن هذا لم يمنع البروتستانت المعتدلين من التحدث علناً مع نظرائهم من الشين فين؛ (الجناح السياسي للجيش الجمهوري).

وبينما كانت الحرب العالمية الثانية توشك أن تضع أوزارها، قُتل مئات الآلاف من البولنديين والأوكرانيين أو أخرجوا من ديارهم على أيدي جيرانهم البولنديين والأوكرانيين. ومع ذلك فإن البولنديين والأوكرانيين اليوم يعيشون، رغم ذكرياتهم المأساوية، ليس فقط في سلام، بل في تعاون متنام تفصلهما حدود تتسم بالهدوء.

وهذا ممكن حدوثه. ففي الشرق الأوسط اليوم يعيش كل طرف داخل ذكريات أُحكم إغلاقها، وسرد وطني لا تسمع فيه ألم الطرف الآخر ولا تراه. ولكن ذلك كان حال الجزائريين والفرنسيين، والفرنسيين والألمان، والأوكرانيين والبولنديين، وكان بالأخص حال البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا الشمالية. وليست هناك لحظة سحرية تنهار فيها الأسوار، بل هي سلسلة واضحة الحلقات من الأحداث: فياتي أولاً الحل السياسي، وهو يُفرض عادة من الخارج ومن فوق، وغالباً ما يكون ذلك في ذروة الاستياء المتبادل. وساعتها فقط يبدأ النسيان.

واللحظة الآنية، حيث يوشك شارون على بدء دورة طويلة من الموت والفناء في المنطقة، قد تكون هي آخر فرصة ممكنة، كما أدرك الرئيس الأمريكي متأخراً. وهي بالتأكيد كذلك بالنسبة لإسرائيل. فقبل أن يحصل العرب على أرضهم ودولتهم بوقت طويل، ستكون إسرائيل قد تحللت من الداخل. فالخوف من الظهور كمن يبدي تضامنه مع شارون، وهو ما يمنع بالفعل الكثيرين من زيارة إسرائيل، سوف يمتد بسرعة إلى المجتمع الدولي ككل، مما يجعل إسرائيل دولة منبوذة. ورغم ما عليه شارون من سوء بالنسبة للفلسطينيين، فسوف ينجون منه. كما أن التوقعات بالنسبة لإسرائيل أقل ضماناً. فأزمة الشرق الأوسط تمثل بالنسبة لسائر دول العالم احتمالاً يجري تعزيزه لوقوع حرب دولية، وضماناً محتملاً لفشل حرب أمريكا ضد الإرهاب، مهما وصف.

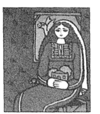
وفي بعض الأحيان يضع مراقبو الشرق الأوسط المعاصر ذوو النوايا الحسنة ثقتهم في المصلحة الذاتية المستنيرة لدى الطرفين المتحاربين. فهم يرون أن الفلسطينيين سيكون حالهم أفضل بكثير إن هم قبلوا الهيمنة الإسرائيلية مقابل إعادة رفاهيتهم المادية وأمنهم الخاص، بحيث يتخلون بالتأكيد عاجلاً أم لاحقاً عن مطالبتهم بالاستقلال التام. وفيما يتصل بالحساب الاستراتيجي الذي وراء دبابات شارون، فالأمر هو أن العرب الذين يتم ترهيبهم بالقدر الكافي سوف يرون مقدار ما سيخسرونه بقتالهم ويوافقون على حياة آمنة بالشروط الإسرائيلية.

قد يكون هذا هو أكثر الأوهام الاستعمارية خطورة. فهناك بعض الشك في أن حال معظم العرب الجزائريين كان سيصبح في ظل الحكم الفرنسي أفضل مما هو عليه في ظل الأنظمة الحاكمة الوطنية القمعية التي حلت محله. ويصدق الشيء نفسه على المواطنين في الكثير من الدول ما بعد الكولونيالية التي كانت في يوم من الأيام تُحكم من لندن. ولكن مقياس الحياة الطيبة لا يحسب فقط بالدخل وطول العمر، أو حتى بالأمن. فالأمر كما أشار آرون «هو إنكار لتجربة قرننا كي نفترض أن الناس سوف يضحون بعواطفهم من أجل مصالحهم». وهذا هو السبب في أن الإسرائيليين بمعاملتهم لرعاياهم العرب يسيرون في سبيل لن يؤدي بهم إلى أي مكان. فليس هناك من بديل لمفاوضات السلام والتسوية النهائية. وإن لم يحدث ذلك الآن، فمتى؟

بترتيب خاص مع:

The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود






شارون من هو؟ وماذا يريد؟



قدري حفني

حين يكتب مثلي من المتخصصين في علم النفس تحت هذا العنوان، يتوقع القارئ أن يجد شيئًا مثيرًا يتعلق بطفولة شارون وما بها من أحداث تركت بصماتها على شخصيته وعلى سلوكه الراهن. وربما يتوقع القارئ أيضًا ما يشبه الشهادة الطبية التي تثبت جنون شارون.

وللقارئ الحق كل الحق في توقعاته. فالشائع لدى غير المتخصصين في علم النفس أن صفة الجنون يمكن أن تطلق على جميع أنواع السلوك التي نستبشعها لخروجها عن المعايير الأخلاقية والإنسانية التي نعرفها، في حين أن الإنسان «العاقل» هو ذلك الإنسان الطيب المتزن ذو الخلق الرفيع إلى آخر تلك الصفات الأخلاقية السامية. والأمر بالنسبة للمتخصصين في علم النفس ليس كذلك على الإطلاق، بل إننا لا نستخدم تعبير «الجنون» مطلقًا في كتاباتنا وتقاريرنا العلمية، والتعبير الشائع لدينا علميًا هو «المرض النفسي». ويحكمنا في تعاملنا مع هؤلاء المرضى قاعدة نلتزم بها التزامًا صارمًا في هذا التعامل خلاصتها التسامح حيال ما يصدر عن ذلك المريض من أفعال قد تدهشنا وقد تغضبنا وقد تدفعنا للاشمئزاز ولكنها أبدًا لا ينبغي أن تدفعنا للغضب. ويتفق ذلك مع القول السائر «ليس على المجنون من حرج». ولا أظن أحدًا يطلب مثل تلك المعاملة المتسامحة مع شارون، لذلك أرجو ألا أكون محبطًا للقارئ إذا ما افتقد في هذه السطور ما قد يتوقعه من إثارة.

شارون لمن ينتمي؟

تضم اللغة الإسرائيلية العديد من تلك المصطلحات ذات المذاق الخاص، والتي تم صكها داخل المجتمع الإسرائيلي، ومن واقع التجربة الإسرائيلية، ولا نعني هنا بطبيعة الحال ذلك الركام الهائل من المصطلحات التي شملتها عملية العبرنة السريعة التي لجأ إليها الإسرائيليون، ومازالوا ماضين فيها لاعتبارات عديدة لسنا بصدد التعرض لها. فالأمر لا يتعدى في تلك الحالة مجرد ترجمة أو تسمية بسيطة أو حتى معقدة لظواهر اجتماعية أو طبيعية تعرفها مجتمعات كثيرة وتتعدد تسمياتها بتعدد لغات تلك المجتمعات. إن ما نعنيه بالتحديد هو تلك المصطلحات التي تم صكها للتعبير عن واقع إسرائيلي فريد لا نظير له في المجتمعات الأخرى ولا تعني عملية الصك هذه بالضرورة ابتداع المصطلح ابتداعًا، بمعنى إضافة كلمة جديدة إلى مفردات اللغة لم يكن يضمها قاموس تلك اللغة من قبل لتعبر عن ذلك المقصد الجديد. بل إن ما يحدث في كثير من الأحيان خاصة في مجال المصطلحات الاجتماعية إنه من خلال ملابسات اجتماعية محددة يتم إضفاء معنى جديد على كلمة مستخدمة بالفعل، أي على كلمة موجودة من قبل ضمن مفردات اللغة المعنية. وذلك هو ما حدث بالتحديد بالنسبة لمصطلح الكيبوتز مثلاً في إسرائيل. إن كلمة كيبوتز بالعبرية تعني جماعة، ولكن ثمة ملابسات اجتماعية تاريخية محددة أضفت على تلك الكلمة القاموسية المعتادة معنى اجتماعيًا خاصًا بحيث أصبحت تعبر عن ظاهرة اجتماعية يتميز بها المجتمع الإسرائيلي، والأمر بالمثل بالنسبة لمصطلحات أخرى عديدة تضمها اللغة المستخدمة في إسرائيل حاليًا.



وقد توحي القراءة العابرة للكتابات الإسرائيلية بأن مصطلح الصابرا ليس سوى تسمية عبرية تدل على الشباب الإسرائيلي، وتحت عنوان «الصابرا» يدور الحديث عادة عن طلبة وجنود وأطفال ومراهقين وما إلى ذلك.

أي أنه حديث يدور عن شباب، ومادام الشباب ظاهرة تعرفها المجتمعات البشرية جميعًا. فإن تناول مصطلح الصابرا باعتباره تعبيرًا عن واقع إسرائيلي فريد قد يعد تعسفًا لا محل له في مجال التناول العلمي الموضوعي.

إن المعنى الحرفي لكلمة الصابرا في اللغة العبرية هو نبات التين الشوكي ولعل معرفتنا بالملابسات الاجتماعية التي صاحبت إضفاء ذلك المعنى الفضفاض لجيل «الصابرا» على كلمة التين الشوكي وتحويلها إلى مصطلح اجتماعي تسهم إسهامًا كبيرًا في إلقاء الضوء على دلالة ذلك المصطلح.

لقد أصدر جورج فريدمان عالم الاجتماع الفرنسي المعروف والرئيس الأسبق للجمعية الدولية لعلم الاجتماع في عام ١٩٦٥ كتابه المعنون: «هل هي نهاية الشعب اليهودي؟» وقد ضمنه تقييمًا مفصلاً للتجربة الإسرائيلية كما شاهدها خلال زيارتين قام بهما لإسرائيل في عامي ١٩٣٦، ١٩٤٦ على التوالي وقابل خلالهما العديد من قادة الفكر والعلم والدولة في إسرائيل فضلاً عن لقاءاته بالعديد من الإسرائيليين المنتمين لمختلف الفئات. وفي مستهل الفصل الرابع في ذلك الكتاب والمعنون «الصابرا: أزمة القيم» يورد فريدمان قصة الملابسات الاجتماعية التاريخية التي صاحبت إطلاق تسمية الصابرا هذه مقررًا أن ذلك المصطلح قد أخذ يتردد في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة وأنه قد انبثق للمرة الأولى في مدرسة هرزليا الثانوية في تل أبيب. وكانت من كبرى المدارس في فلسطين آنذاك، أي في فترة الانتداب البريطاني وكانت تلك المدرسة تضم بين تلاميذها اليهود آنذاك شبابًا يهوديًا من مواليد فلسطين إلى جانب آخرين من أولئك الذين نزحوا مع آبائهم من أوروبا إلى فلسطين. وغالبًا ما كان أولئك الأوروبيون الذين قدموا من حضارة أكثر تقدمًا ونشأوا في ظروف أكثر يسرًا، يتفوقون في الدراسة على زملائهم من مواليد فلسطين أبناء الحضارة الأقل تقدمًا والذين نشأوا في ظروف أكثر خشونة، وبالتالي فقد كان مواليد فلسطين هؤلاء يحسون نقصًا حيال أقرانهم الأوروبيين اللامعين دراسيًا، ومن ثم كانوا يلجأون لتعويض شعورهم بالنقص إلى تحدي أولئك الأقران المتفوقين في نوع من النشاط يرد لهم اعتبارهم وقد تمثل ذلك النشاط في الإمساك بثمرات التين الشوكي وتقشيرها بالأيدي العارية. وكان اليهود من أبناء فلسطين في مدرسة هرزليا يكسبون التحدي في ذلك المضمار عادة، ويتمكنون بسهولة من نزع القشرة الشائكة وتحمل وخز أشواكها والحصول على الثمرة الحلوة. ومن هنا التصقت كلمة «التين الشوكي» - «الصابرا» - بأولئك الذين كانوا يتفوقون في تقشيره في مدرسة هرزليا ومن هنا أيضًا انتشرت التسمية لتغطية ما يسمى بجيل «الصابرا» ذلك الجيل الذي يختتم فريدمان روايته هذه بالإشارة إليه قائلاً: «وهكذا فقد شهدت إسرائيل في العشرينيات جيلاً من الصابرا بلغ أفراده الآن سن التقاعد».



ويلقي جورج مايكس مزيدًا من الضوء على هذه القضية في كتابه «عزم النبي: إسرائيل اليوم وغدًا». يقول مايكس في معرض حديثه عن الصابرا: «لقد غيَّرت كلمة الصابرا من معناها مرتين. كانت تطلق في الأصل على ثمرة حلوة صغيرة شائكة، ثم أصبحت تعني الشباب المولود في إسرائيل. لقد كان الصابرا منذ عشرين عامًا شيئًا نادرًا بين أصحاب ذلك البلد من المهاجرين. أما اليوم فإن ما يزيد على نصف السكان مولودون بالفعل في إسرائيل. ومن ثم فقد غيَّرت الكلمة معناها مرة أخرى.. إن الأطفال الستة والسبعة الذين أنجبتهم أسرة مغربية مثلاً، والذين ولدوا بالفعل في إسرائيل، ولكنهم تربوا في ظل التقاليد الشرقية البالية مثل هؤلاء الأطفال بعيدون عن الصابرا بُعد موشى ديان عن القرآن»؟

مرة أخرى: من هم هؤلاء الصابرا؟ يقول جورج فريدمان في كتابه الذي أشرنا إليه آنفًا والمعنون: «أهي نهاية الشعب اليهودي»:

«أعتقد أن ثمة ثقافة فرعية هي ثقافة الصابرا قد اتخذت لها مكانة راسخة في إسرائيل حيث يمكن التمييز بالفعل بين عدد من مثل تلك الثقافات الفرعية: ثقافة الفاتيكيم ذات الأساس الراسخ والتي اندمج فيها جميع المهاجرين القدامى، وأغلبهم من الاشكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية في جميع قطاعات الحياة الإسرائيلية، ثم هناك ثقافة الكيبوتزيم، وثقافة الموشافيم القدامى التي تشكلت قبل موجات الهجرة الكثيفة التي شهدتها الخمسينيات.. وهناك أخيرًا ثقافة جيل الصابرا الجديد، وهم أبناء الفاتيكيم الذين لم يبلغوا الثلاثين».

الصابرا إذن وفقًا لعبارة فريدمان هم أبناء الفاتيكيم الذين هم أساسًا من الاشكنازيم الذين يحتلون مراكز المسئولية في جميع قطاعات الحياة الإسرائيلية.



والصابرا - وفقًا لفهمنا لذلك التعبير - هم الأقرب إلى تصور السلطة الإسرائيلية لما ينبغي أن يكون عليه الشباب في إسرائيل، وليس ذلك على أي حال بالأمر المستغرب، فهؤلاء الصابرا ليسوا في النهاية سوى الأبناء الشرعيين لأصحاب السلطة التاريخية الحقيقية في إسرائيل. كذلك فإن أولئك الصابرا يمثلون الجانب الغالب - عددًا وتأثيرًا - من بين العسكريين الإسرائيليين الذين يواجهوننا بالفعل.

ولقد حظي جيل الصابرا بالعديد من الدراسات النفسية المتخصصة التي قام بإجراء غالبيتها علماء من اليهود والإسرائيليين. ولسنا بصدد عرض تفصيلي لتلك الدراسات. يكفينا أن نشير في عجالة إلى أهم ما أسفرت عنه من نتائج. لقد أسفرت تلك الدراسات عن جيل الصابرا أنه يتميز بعدد من الخصائص النفسية أبرزها: الانطوائية والكآبة والتشكك والتشاؤم والشعور بالدونية والعدوانية واللامبالاة والبرود الانفعالي والإحساس بالفشل والحساسية المفرطة للنقد والحاجة إلى المديح والإطراء وخشونة المظهر والعدوانية.

شارون نموذج يجسد جيلاً

كان صموئيل موردخاي شينرمان المزارع وزوجته التي تعمل بالتمريض من الأسر الصهيونية المتشددة التي هاجرت من روسيا إلى فلسطين في فترة مبكرة واستقرت في مستوطنة كفار مالال وهي واحدة من أوائل المستوطنات الزراعية اليهودية «الموشاف» التي أقيمت في فلسطين، حيث أنجبا أرييل شينرمان عام ١٩٢٨ بعد أن اتخذت عائلته اسمًا يهوديًا



هو شارون، وهو اسم لواد يبعد عشرة أميال من تل أبيب وفيه يقع موشاف كفار مالال.

ورغم أن عام ١٩٣٤ كان هادئًا نسبيًا فيما يتعلق بالمواجهات بين المسلمين واليهود فى فلسطين، فما يروى عن شارون الذى كان يبلغ السادسة آنذاك أن والده قد زوده بهراوة لحماية المزرعة من الأطفال الذين يحاولون سرقة الفواكه منها، وتمضى الرواية لتقول إن شارون الطفل حين بلغ العاشرة والتحق بحركة شباب العمل كان مازال يحتفظ بهراوته محاولاً أن يسيطر بها على أقرانه إلى أن منعه رئيس الفريق من ذلك.

وعندما بلغ شارون الرابعة عشرة أى فى عام ١٩٤٢ التحق بالجادناع وهى منظمة صهيونية شبه عسكرية تتبع منظمة الهاجاناه وتتولى تدريب وإعداد الشبيبة.

وحين بلغ العشرين شارك فى حرب ١٩٤٨ ضمن ضباط المدفعية، وجرح خلال الحرب.

وفى يونيو ١٩٥٣ شكلت قيادة الجيش الإسرائيلى مجموعة عمليات خاصة عرفت باسم الوحدة ١٠١ لشن عمليات ترويع للفلسطينيين، وقد تولى شارون قيادة هذه الوحدة التى تولت تحت قيادته ارتكاب مذبحة مخيم البرج فى غزة فى أغسطس ١٩٥٣. وتشير مذكرات الجنرال فاجن بيننيك من قادة قوات الأمم المتحدة إلى أن تعليمات شارون كانت تقضى بإلقاء القنابل من نوافذ أكواخ المخيم التى ينام فيها اللاجئون الفلسطينيون، فإذا ما حاول أحدهم الفرار اصطادته طلقات الأسلحة الخفيفة».

وبعد أقل من شهرين أقدم شارون ورجاله على ارتكاب مذبحة قبية فى أكتوبر ١٩٥٣ التى وصفها موشى شاريت رئيس وزراء إسرائيل آنذاك فى مذكراته بأنها «سوف تظل لصيقة بنا ولن نستطيع محوها لسنوات طويلة». ولقد أثبتت تقارير شهود الرؤية من رجال الأمم المتحدة الذين دخلوا القرية فى اليوم التالى أن رجال شارون كانوا يجبرون الأهالى على البقاء داخل منازلهم ثم يفجرونها على رؤوسهم.

كان لشارون ومازال موقف مستمر من كافة مشاريع واتفاقيات السلام. لقد صوت ضد اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩ حين كان وزيرًا فى وزارة بيجن، كما صوت عام ١٩٨٥ ضد انسحاب القوات الإسرائيلية من لبنان لما أطلق عليه «الحدود الآمنة» فى جنوب لبنان، وعارض مشاركة إسرائيل فى مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١، وعارض فى الكنيست إبرام اتفاقية أوسلو عام ١٩٨٣، كما امتنع فى العام التالى عن التصويت لصالح اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية. حتى أنه عندما اضطر للمشاركة فى محادثات واى ريفر باعتباره وزير الخارجية فى وزارة نتانياهو عام ١٩٩٨، رفض محادثة عرفات أو مصافحته ولو من قبيل المجاملة البروتوكولية.

لقد سجل شارون كتابة عام ١٩٩١ أى بعد مضى ثمانية أعوام على توقيع اتفاقية أوسلو، أنه يرى أن الفلسطينيين جميعًا إرهابيون لا يستثنى منهم أحدًا. وصرح لمجلة التايمز فى ١٩/١٠/١٩٩١، أى بعد اثنى عشر عامًا من توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية أن الدول العربية جميعًا تمثل تهديدًا لإسرائيل، وأنه منذ انهيار الاتحاد السوفيتى أصبح التهديد الأساسى لأمن العالم يتمثل فى الدول العربية وإيران.

خلاصة القول إن شارون يعد أكثر القادة الإسرائيليين اتساقًا مع أفكاره، وتمسكًا بها، وإصرارًا عليها. ترى ألا يعنى ذلك أن له سياسة واضحة المعالم من البداية إلى اليوم؟

ولكن يبقى سؤال قد يخطر للقارئ. لقد كان شارون بمثابة القاسم المشترك الأعظم فى كافة المذابح التى ارتكبتها إسرائيل ضد الفلسطينيين عبر تاريخهم من مذبحة مخيم البرج فى غزة فى أغسطس ١٩٥٣، وهو أول من يعلم أن تلك المذابح لم تكفل أمنًا للإسرائيليين. ترى هل يعتقد شارون حقًا أن نتيجة المذابح الجارية هذه الأيام ستكون مختلفة عما سبقها؟ لا نظن أن شارون على هذا القدر من السذاجة. إنه يعرف نتائج ما يفعله جيدًا. وقد يبدو الأمر بهذه الصورة متناقضًا، ولكن فلنتأمل بعض التفاصيل.

لقد كان هدف شارون المعلن لمذابحه الأخيرة هو القضاء على البنية الأساسية لما يسميه بالإرهاب، مادام الرئيس عرفات لا يبذل جهدًا حقيقيًا فى هذا الصدد. فماذا فعل شارون؟ لقد بدأ بحصار عرفات صاحب أوسلو والحائز على جائزة نوبل للسلام، وانقض على رجاله من أفراد الأمن الوطنى، ودمر معالم البنية الأساسية الوليدة للسلطة الوطنية الفلسطينية. وارتكب المجازر دون تمييز فى جنين ونابلس وامتد عنفه ليشمل كنيسة المهد وغيرها من المواقع التى يعلم شارون قبل غيره مدى قداستها، ومازالت المجازر مستمرة. إنه يقوم عمليًا بإفناء ذلك الجيل من رجال وشباب وأطفال فلسطين الذين نما لديهم أمل واهن فى إمكانية السلام والتعايش مع الإسرائيليين. ومع انتهاء هذا الأمل لا يصبح أمام الجيل الفلسطينى الجديد إلا ممارسة العنف لتحقيق الاستقلال. وقد يبدو غريبًا أن يكون ذلك هو الهدف الحقيقى لشارون، ولكن فلنعد إلى التاريخ القريب.

لعلنا مازلنا نذكر الوعد الباراكى الذى أتى بحكومة باراك السابقة والذى تركز على تحقيق الوحدة القومية ليهود إسرائيل، وهو الأمر الذى أخفق باراك فى تحقيقه، وانهار ائتلافه الحاكم ليأتى شارون إلى الحكم بوعده الجديد: تحقيق الأمن ليهود إسرائيل ومع تصاعد العنف الإسرائيلى فى مواجهة الانتفاضة الفلسطينية يومًا بعد يوم منذ تولى شارون رئاسة الوزارة الإسرائيلية، واستمرار الصمود الفلسطينى، ومن ثم خفوت تحقيق الوعد بالأمن ظاهريًا، توقع الكثيرون أن تتدهور شعبية شارون. ولكن ما حدث هو العكس تمامًا.

ولعل تفسير ذلك التناقض يقتضينا أن نسترجع ظروف اشتعال الانتفاضة الفلسطينية الراهنة: لقد بدأت الانتفاضة كردة فعل لزيارة شارون للمسجد الأقصى رغم ما تلقاه من تحذيرات بأن هذه الزيارة سوف تفجر الشارع الفلسطينى. ولعله لم يكن فى حاجة أصلاً لمثل تلك التحذيرات، فقدر بسيط من الحنكة كفيل بالتنبؤ بما حدث بالفعل فى أعقاب الزيارة، ومن ثم فليس من المعقول أن يكون شارون قد أخفق فى قراءة ما سوف يترتب على خطوته تلك. ترى لماذا أقدم عليها إذن؟ ترى هل نبالغ إذا قلنا أنه كان يستهدف بالفعل إشعال الشارع الفلسطينى. ولكن لماذا؟ وكيف يتفق ذلك مع جوهر الوعد الشارونى للشارع الإسرائيلى عشية الانتخابات الأخيرة؟ وهو ما ردده ويردده دومًا من أن هدفه الأساسى بل والوحيد هو القضاء على ذلك «العنف» الذى يهدد إسرائيل. ومن ناحية أخرى ترى لماذا لم تنخفض شعبيته إذن بمقدار إخفاقه حتى الآن فى القضاء على «العنف»؟

ألا يدفعنا ذلك إلى مراجعة حقيقة جوهر ذلك «الوعد الشارونى»؟ إن الجوهر الحقيقى لذلك الوعد فيما نرى هو نفس جوهر الوعد الباراكى القديم الذى أخفق باراك فى تحقيقه وهو الوعد بالوحدة القومية. وفيما يبدو فقد استوعب شارون أسباب إخفاق باراك فى تحقيق تلك الوحدة، مدركًا أن ذلك الهدف المنشود يتناقض تناقضًا جوهريًا مع التفاوض من أجل السلام. بمعنى أن تحقيق الوحدة القومية ليهود إسرائيل وفقًا للتصور الاستيطانى التوسعى، لا يمكن أن يتفق مع رفع شعارات سلام إسرائيلى فلسطينى أيا كان جوهر تلك الشعارات، إنها تتعارض مع مبدأ التفاوض الإسرائيلى الفلسطينى، الذى يعنى كحد أدنى التسليم أصلاً بوجود طرف فلسطينى، بل مع مبدأ التفاوض الإسرائيلى العربى على الإطلاق. ولذلك فقد استهل شارون مواجهته للانتفاضة التى تعمد إشعالها بأن يعلن انتهاء اتفاقات أوسلو وما تلاها وترتب عليها، وأنه «لم يعد ثمة شريك فلسطينى للتفاوض معه». لقد أدرك الجنرال شارون بحكم خبراته العنيفة السابقة أن أداة التوحيد القومى التى أثبت تاريخ دولة إسرائيل فعاليتها هى «افتقاد الأمن».

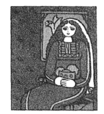


لقد قامت إسرائيل منذ البداية كتجمع استيطانى عسكرى يضم أبناء قوميات عديدة يتباينون فى أصولهم الحضارية، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يوحدهم تمهيدًا لصهرهم سوى زرع الإحساس بالخطر فى أعماقهم بحيث يستشعرون دومًا بأن العالم المحيط بهم - أى العالم العربى - يهددهم بالفناء، مع تأكيد مواز للقدرة العسكرية الإسرائيلية على التصدى لذلك التهديد. وكانت تلك هى المهمة الأساسية التى مارسها باقتدار قادة ومؤسسو إسرائيل، مهمة ترويع يهود إسرائيل لكى يتوحدوا، وتأكيد قدرة الدولة على حمايتهم. وكان أبرز هؤلاء القادة وأقدرهم على تحقيق الهدف هو شارون صاحب أشهر المذابح، وعدو أية اتفاقيات مع العرب من حيث المبدأ.

إن رعب شارون الحقيقى إنما هو من استعادة مشهد تحول إسرائيل إلى مجتمع طبيعى تحكمه تناقضاته الداخلية. وقد كانت نذر ذلك التحول قد بدأت بالفعل فى ظل السلام متمثلة فى تأييد قطاعات متزايدة من الشارع اليهودى فى إسرائيل للسلام، إذ ترى فيه المناخ المناسب لحصولها على مزيد من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية. وبالفعل فقد ارتفعت أصوات جماعات السلام فى إسرائيل، والأهم من ذلك أن معالم الخريطة الفئوية داخل يهود إسرائيل بدأت فى البروز والتبلور. ولعل الأمر يزداد وضوحًا لو استعدنا كلمات باراك فى حملة الانتخابات التى فاز فيها على نتانياهو إذ يشير إلى أنه «منذ انتخاب نتانياهو لرئاسة الوزراء انفتحت بوابات جحيم الكراهية والتصادم: السكان القدامى فى مواجهة المهاجرين القادمين، واليمين فى مواجهة اليسار، والاشكنازيم فى مواجهة السفارديم.. لقد افتقدنا التسامح فيما بيننا.. ومسئولية ذلك كله تقع على عاتق نتانياهو». وفى حقيقة الأمر فإن نتانياهو لم يكن بحال هو مصدر ذلك التفكك الذى يشير إليه باراك، بل إنه تآكل التهديد العربى، وفشل نتانياهو فى استعادته، وهو بالتحديد ما يسعى شارون لاستعادته من خلال مذابحه المروعة.

لقد كان هدف شارون الحقيقى ومازال يتمثل فى استعادة ذلك الحد من التهديد الذى تآكل منذ مسيرة السلام. ولم يكن أمامه لتحقيق ذلك سوى البدء بإشعال الأرض الفلسطينية، لتكون مجرد بداية ولعل الأمر يتطور بعدها لتمتد نيران التهديد إلى المنطقة بأسرها.

ترى هل يستطيع الاستمرار؟ وإلى متى؟ ■



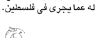

أنا أكذب
أنا أكره
أنا أقتل

إذن أنا شارون



يوسف القعيد

■■ حتى لو لم يرتكب شارون سوى مجازر الأيام الأخيرة منذ اقتحامه المسجد الأقصى منذ تسعة عشر شهراً وحتى الآن - أبريل ٢٠٠٢ - لأصبح من أكبر السفاحين في التاريخ. انتهك حرمة الأقصى. وضرب كنيسة المهد بالطائرات. وهدم المساجد. ترك الجرحى في الشوارع حتى وفاتهم. وضع جثث شهداء فلسطين على مدافع الدبابات التي دارت بهم في شوارع قراهم. لم يستثن من حظر التجول المرضى والحوامل. ولدت النساء على نقاط التفتيش ومات المرضى على المعابر. مثّل بالأجنة. ما إن احتل جنوده رام الله حتى أوقفوا البث الفلسطيني من تليفزيون فلسطين ووضعوا بدلاً منه مواد جنسية فاضحة. ولأن حظر التجول يشمل الأربع والعشرين ساعة فلن يكون أمام المحاصرين سوى مشاهدة التليفزيون. ضخ مياهاً ملوثة لمقر عرفات مما دفع مرافقي عرفات إلى طلب زجاجات مياه من الصليب الأحمر الدولي. فلم يسمح سوى بعشرين زجاجة في اليوم لكل المحاصرين. ولكل فرد حبة بطاطا واحدة في اليوم بليلة. في جنين أعلن جنوده وقف إطلاق النار ولمن يريد الحصول على ماء أو غذاء الخروج. وما إن خرجت النساء حتى استخدمهن كدروع بشرية فوق مقدمات الدبابات وبهذه الدناءة تمكن من اقتحام المخيم. وفي نابلس القديمة سمح جيشه لسيارات الإسعاف بالدخول لنقل الجرحى وما إن دخلت حتى استخدمت كسواتر للضرب من ورائها. كثير من التفاصيل الصغيرة التي تؤكد وحشية هذا الإنسان وتجرده من أبسط المشاعر الإنسانية. لدرجة أن الروائي جارثيا ماركيز طالب له بجائزة نوبل في القتل في مقال شهير له عما يجري في فلسطين.



صدرت عن شارون في المكتبة العربية ستة كتب. أولها وأقدمها: شارون هذا الرجل وحياته مترجم عن العبرية مباشرة وهو عبارة عن مجموعة مقالات عنه. قدم لها الدكتور محجوب عمر. وصدر سنة ١٩٨٤ عن مؤسسة الأبحاث العربية «بيروت»، وثانيها: هو مذكرات أريل شارون. وثالثها: هو شارون مصاص الدماء لمازن النقيب. ورابعها: هو مدافع شارون لمدحت الزاهد. وكتاب شارون مجرم مذبحة الأسرى المصريين، كيف يكون مفاوضًا في السلام لجابر عبدالسلام. وكتاب شارون ابن هيرودوس وتحديد نهاية العالم باليوم والساعة من إعداد إبراهيم عياد جرجس. وذلك علاوة على مذكراته. فضلاً عن فصول عنه في مذكرات زملائه ومن شاركوا في معارك الصراع العربي الإسرائيلي. هذه محاولة لرسم صورة له من بعيد. تنطلق من المبدأ القديم: اعرف عدوك. في زمنه عرفت البشرية - ربما لأول مرة - موتى لا يدفنون. جرحى لا يعالجون. حريقًا في كنيسة لا يجد من يطفئه. قتلى على الحواجز. وهو تقريباً ما فعلت أمريكا مثله في أفغانستان منذ شهور. وإن كان شارون قد تفوق على أمريكا. إن الرجل يخوض منذ ٧٤ عاماً في دماء الضحايا. يسبح في ٧٤ بحراً من الدماء. يعترف أنه لم يعرف نفسه ولا أهله ولا وطنه ولكنه ركز معرفته بالعدو. وحتى هذه المعرفة لم يحرز فيها أي تقدم. لأنه يقول أنه طالما أن هناك فلسطينيًا واحدًا على أرض إسرائيل لن يكون هناك أمان ليهودي واحد.

مذكرات أريل شارون، ٧٦٦ صفحة
وضعها بالعبرية: دافيد شانوف
ترجمها إلى الفرنسية: غبريال روث
وترجمها إلى العربية: أنطوان عبيد
بيروت: مكتبة بيسان، ١٩٩٢

يقول عن طفولته: لم أعرف المودة في ظل عائلتي. أبي صموئيل وأمي فيرا لم يفصحا عن عواطفهما أبداً وميزة أمه في نظره أنها امرأة تفعل ما يتوجب عليها دون أن تطرح أسئلة كثيرة أو حتى تشكو. والصورة التي تبقى في ذهنه عن أسرته، تتلخص في أربع كلمات: القوة، العزم، العناد، العزلة. الكلمة الوحيدة التي كان والده يكثر من استخدامها: فردي. لم يكن يخفي عداءه للآخرين. جده لأبيه كان صديقاً لوالد مناحيم بيجين ومن الأعمال التي قاما بها معاً. أنهما خلعا باب المجمع الديني الحديد لأن الحاخام رفض إعطاءهما الإذن لتنظيم حفلة دينية. في ذكرى تيودور هرتزل.

يقول شارون إن جده هاجر إلى إسرائيل سنة ١٩١٠، إنه يطلق على فلسطين اسم إسرائيل قبل اغتصابها واحتلالها بـ ٣٧ سنة. كما أنه لا يقول سوى يهودا والسامرة ولا يذكر سوى أورشليم. إن كل مفردات فلسطين لا تعرف طريقها إليه. يهرب والده وأمه من روسيا إلى فلسطين سنة ١٩١٧. وسمى والده الرحلة: عودة إلى البلاد. ينحدر من عائلة برجماتية. ذرائعية لا مكان للخيال فيها. عائلة عاجزة عن القدرة على الحلم. ترفض الاعتراف بكل ما لا تعترف به الحواس الخمس. ينتمي لعائلة كان اسمها تشيرمان قبل أن تغير اسمها إلى شارون قبل هجرتها إلى فلسطين.



أول هدية قدمتها له أمه بعد ميلاده سنة ١٩٢٨ بخمس سنوات كانت بندقية، وأول هدية قدمها له والده كانت خنجراً. ولذلك كانت أول هدية من شارون لابنه بندقية قتل الطفل بها نفسه. وأول لعبة كان شارون يلعبها في طفولته إدخال القط على الفئران التي كانت تتقافز في بيتهم. والتمتع بمشاهدة المعركة غير المتكافئة. القط يلتهم الفئران المذعورة. كان يتساءل لمن ستكون الغلبة في المعركة؟ رغم أنه كان يدرك أن القط هو الذي سيكتب له البقاء وأنه لن يبقى من الفئران سوى أذنابها.

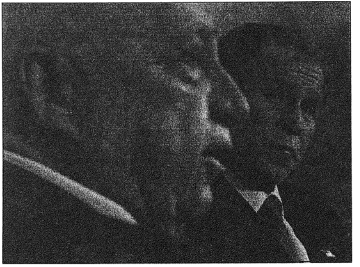
كان يشاهد أمه وبيدها مقص ضخم كانت تستخدمه في قص السور الذي يحد الأرض بينهم وبين جيرانهم. عندما كان شارون في القاهرة يتفاوض مع المصريين. اتصل بوالدته، ولأنها تعرف أن المكالمات مراقبة. قالت له بالروسية: لا تصدقهم. لا تثق بهم. لا تضع ثقتك في قطعة من الورق يوقعون لك عليها. وخاله الذي كان يعيش في تركيا. زور في أوراقه وغير اسمه حتى يتمكن من الهجرة إلى أمريكا.

فشل في تعليمه. حاول أن يتعلم الزراعة وفشل، وحاول تعلم التجارة وفشل، وحاول تعلم الإدارة وفشل، وأخيراً وفي سنة ١٩٦٦ عندما كان في الثامنة والثلاثين من العمر حصل على إجازة الحقوق. وعندما كان ابنه غور في الحضانة. أخذه في زيارة لوحدته العسكرية، يفرض على أبنائه في البيت أن يؤدوا له التحية العسكرية عند الدخول عليه أو الانصراف من عنده. لم يحسن في حياته سوى صناعة الحرب. ولم يمارس سوى القتل. وإن كان يفعل هذا من خلال الجنود الذين يكتفي بإصدار الأوامر لهم. يقف في المؤخرة دائماً. لأن أعماقه ترتجف من الخوف. وحتى كضابط فإنه يفقد أهم شروط العسكرية. غير منضبط لا ينفذ تعليمات رؤسائه. يلغيهم. وعندما يستدعي لتأنيبه يأخذ معه عدداً من الضباط الأقل رتبة منه. مرءوسيه. يحتمي بوجودهم. يضع بهذه الحيلة حداً للتأنيب والشتائم التي يمكن أن توجه له.



إنسان غير سياسي. لا يملك خطة ولا تصوراً من أجل المستقبل لا تخيفه سوى كلمتي الأفق السياسي. تبدأ مشاكله عندما يتكلم أحد أمامه عن الأفق السياسي. تتوقف عملية الفهم لديه. لا يستطيع استقبال ما يقال له. أما فهمه فتلك مسألة أكثر من مستحيلة. تقول عنه صحافة بلده: لا يجيد سوى حرق الطبخات. وتصفه بأنه يفكر ولكن بمسدسه. والناس تطلق عليه في الشارع مستر سيكيورتي وذلك للتدليل على إحساسه المتضخم بفكرة الأمن. تصفه يديعوت أحرونوت في ٢٠٠٢/٣/٨: إنسان مبتز. الخوف الداخلي المترسب في أعماقه يجعله أقرب إلى الإنسان المجنون بالمعنى المرضي للجنون.

سجله الإرهابي طويل. في الرابعة عشرة انضم إلى منظمة الهاجاناه السرية التي مارست القتل والإرهاب ضد الفلسطينيين. في ١٩٥٣ وهو في الخامسة والعشرين. أسس وحدة كوماندوز تسمى الوحدة ١٠١. وهو



شارون.. وبوش



المسئول عن مجزرة قبية. راح ضحيتها ٦٩ مدنياً فلسطينياً. هو المسئول عن قتل الأسرى المصريين فى حرب ٦٧. اغتال أبو جهاد فى تونس. شارك فى الهجوم على القيادة العسكرية فى تونس. قام بالعديد من العمليات القذرة خارج إسرائيل وداخلها لم يحن أوان الكشف عنها فى إسرائيل. شارك فى حرب يوم الغفران. ضمن كتيبة احتياط. ومع هذا طرد من الخدمة العسكرية. ثم عاد إلى الجيش أكثر من مرة. بعد زواجه ظل مهدداً لسنوات طويلة بانه لن ينجب. بسبب رصاصة أصابت خصيتيه فى أول حياته. وعندما كانت أمه وأبوه يمران بحالة حسن المزاج فى الفراش. كان يتظاهر بالنوم حتى يرى ما لا يجب أن يراه.

الأسرة التى خرج منها:

كان والده عاجزاً عن قبول التسويات والحلول الوسط. فى تعامله مع الآخرين لم يكن يعرف سوى المماحكات. كان يعارض الآخرين. وحتى إن خسر كان يرفض الخضوع للقرارات التى تتبناها الأكثرية. عندما مات أبوه لم يكن يريد أن يرثيه أحد من سكان الموشاف. وتشاء الصدف الغريبة أن تكون قطعة الأرض المجاورة لقبر والده مخصصة لمن كان خصمه الكبير طوال سنوات عديدة. أمه لاحظت ذلك. فامرت بوقف الدفن. أوقفت إنزال الخشبة إلى التربة وطلبت من حفارى القبور أن يحفروا قبراً فى مكان أبعد. ثم دفنت أمه بين أبيه وخصمه. يكمل شارون: وهكذا ترقد أمى بين الخصمين. قضى شارون طفولة معزولة وحيدة. لم يدخل منزل أى طفل فى سنه. والألعاب كانت تتوقف عند باب بيته.

وهو شخص كسول بطبعه. لديه نهم للطعام. عندما يتناول طعامه فإنه يتناوله باقصى سرعة ممكنة. يلتهم طعامه دون تذوق. أو حتى مضغ. يمارس عملية بلع شديدة السرعة. كانه فى حالة سباق. وليس تناول طعام. وكان يسرق لنفسه من وراء والده قرون الخروب التى كان يضيفها والده إلى علف البهائم. متعصب ضد العرب منذ سنواته الأولى. يتكلم عن غزو عربى لإسرائيل سنة ١٩٢٩. كان عمره سنة واحدة. إنها نفس قدرته على قلب الحقائق. التى تطورت معه إلى حالة من احتراف الكذب. بل إنه ابتداء من سن الخامسة من عمره. يصف العربى بالإرهابى. ولهذا كان والده وكانت أمه.. مسلحين بمسدسين طوال الوقت. وفى سن الخامسة قدمت له أمه أول هدية فى حياته. كانت بندقية. أما والده فكانت هديته خنجرًا مزين القبضة يشكه تحت حزامه. يصف ثورة ١٩٣٦ بالتمرد وأعمال التخريب. كان يرى أن حياة اليهود أصبحت خطرة بسبب العنف العربى المنظم. وعندما يكبر يكتشف أن العداوة ليست حكراً على اليهود ضد العرب. بل هى تتحكم باليهود بعضهم مع بعض. عندما بدأ القراءة كان يقرأ عن العنف. طوال دراسته كان طالباً متوسطًا أو أقل من المتوسط. لم يرتفع إلى مستوى فوق المتوسط أبداً. أخته كانت أفضل منه وكانت تهمته هى: الكسل. وهكذا قرر والده أن يبقى للعمل فى المزرعة.

عندما وصل إلى تل أبيب لأول مرة وهو فى الثالثة عشرة من عمره. تصور أنها قطعة من خيرات السماء وذلك بسبب روائح الطعام الخارجة من مطاعمها. رائحة الخبز الطازج وفطائر السبانخ الخارجة من الأفران. ودخان الكباب الخارج من المطاعم. كان يتوقف أمام كشك المثلجات فى تل أبيب ويبتلع زجاجات كثيرة من الليمونادة المثلجة. التى أصبحت شرابه المفضل فيما بعد. انتظم فى ليسيه تل أبيب. وكان ينظر من نافذتها إلى فندق مقابل. تقصده بنات هوى تل أبيب والجنود الإنجليز من طالبى اللذة. عندما بلغ الرابعة عشرة انتظم فى منظمة الهاجاناه السرية، وضع يداً على التوراة والأخرى على المسدس وأقسم يمين الولاء. وبدأ التعليم على أسلحة أخرى: بندقية آلى. القنبلة اليدوية. والرشاش. المسدس. السكين. مع التدريب على العراك الجسدى.

كانت العملية الأولى التى كلف بها. هى سرقة سيارة من شاب عربى. سرقها بالإكراه. ولكن صاحب السيارة نجح فى الهروب ومعه مفاتيح السيارة. يرى أن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨ كان «مذبحة مغولية جديدة» وكانت مهمته الأولى فى هذه الحرب هى نسف الجسر المؤدى إلى قلقيلية. فى حرب ٤٨ تلقى رصاصة فى بطنه فصاح «ماما». وتطلع حوله ليرى إن كان أحد قد سمع صرخته. ذلك أنه كان قائد الفصيلة. وقال لرفاقه وهو يتصنع الشجاعة: ساخرجكم من هذه الورطة. وكانت إصابته فى ٤٨ فى خصيتيه كما يحدد هو نفسه بخط يده.

بعد انتهاء علاجه شارك فى حصار الفالوجا. ويكتب اسم قائد الأربعة آلاف جندى مصرى المحاصرين وهو سعيد طه بك. وتتخصص وحدة شارون فى الهجوم على عراق المنشية ولم يكن يعلم أن الضابط الذى رفض الانسحاب والاستسلام وقرر أن يقاوم حتى آخر نفس لأنه يدافع عن شرف الجيش المصرى. كان جمال عبد الناصر. ويعترف شارون أن قتلاه كانوا ثمانية وتسعين. عندما قبلت الدول العربية وقف إطلاق النار كان شارون قد أمضى ثمانية عشر شهراً فى القتال وراء خطوط العدو فى كل الجبهات ويعترف: «وساهمت فى معارك دامية ومعارك جريئة». وكان شعوره كما يصفه: لم أستطع تحرير نفسى من الشعور بأن هذه العمليات كان يمكن التخطيط لها والقيام بها على نحو أفضل. وبالتالى كان يمكن تغيير مسارها إلى الأفضل.

وهكذا نكتشف أن شارون الذى وصل إلى العشرين لم يشارك سوى فى حروب. ولم يعرف غير القتال. وأن كلمة السياسة لم ترد فى ذهنه. والثقافة لم تداعب خياله. والأنانية هى التى ملأت ذهنه. عمل ضابطاً. ثم ضابط استخبارات وكان من القادة الذين تعامل معهم موشيه ديان. الذى نادراً ما كان يكلم أحدًا ولا يلقى السلام على أحد. كان إنساناً وحيداً. ولذلك يعجب به شارون بدون حدود. يصفه بكلمتين: ثعلب الحكاية. كانوا يسمون المناطق بأسماء حيوانات. الثعلب كان رمز منطقة الجنوب العسكرية. والأسد رمز منطقة الوسط العسكرية. وبعد أن يوجه له لوم بسبب التقصير فى عمله يقرر ترك الاستخبارات.

يصاب بمرض الحمى. ويعالج ويتقرر سفره خارج البلاد لأول مرة. وهكذا اشترى أول جاكيت وأول حذاءين واطئين. لم يكن ينتعل سوى أحذية الفلاحين. ورغم هذا فإن عمه عندما أخذه من مطار أورلى إلى المنزل. كان أول ما فعله أن رمى ملابسه واستبدلها ببدلة فاخرة. وأخذه إلى الترزى، الذى صنع له بدلة. ومن باريس إلى لندن ومنها إلى نيويورك. حاولت عمته استخراج رخصة قيادة له. حتى يتفسح على راحته. فشل فى امتحانات القيادة الخطية بالإنجليزية. ولكن العمة عندما شرحت للفاحص أنه قائد سرية فى الجيش الإسرائيلى. أصابت وتراً حساساً فى نفسه. فمنحه الرخصة متجاوزاً عن «سقوطه» فى الامتحان. وينبهر بأمريكا أكثر من باريس. يعود إلى بلاده التى أصبح اسمها دولياً إسرائيل. يعين رئيس استخبارات منطقة الشمال العسكرية. وعين ديان قائداً للمنطقة نفسها. ورغم إعجابه السابق بديان إلا أنه يصف علاقته به «بالمعقدة» وأنه كانت هناك حالة من الريبة بينهما. ويدخل جنديان إسرائيليان إلى الأراضى الأردنية فيتم القبض عليهما. ولا يكون لدى شارون سوى حل واحد. خطف رهائن أردنيين حتى تتم إعادة الجنديين ويتجاوز دوره كرجل استخبارات. بل ويتحرك دون أمر خطى أو شفهى له بذلك من ديان حسب الأصول. ألغى رئيسه وتصرف بفوضوية. ونفذ ما طرأ على ذهنه. فكيف يتصرف الآن وهو على قمة السلطة فى تل أبيب؟ ويصل إلى جسر نهر الأردن. يجد ثلاثة من الجنود الأردنيين. يقول لهم بالعربية أنه يبحث عن بقرة سرقت من الكيبوتز. كان الأردنيون الثلاثة عبارة عن رقيب واثنين من العساكر. طلب شارون



أنا أكذب
أنا أكره
أنا أقتل

من الرقيب أن يرسل من يبحث عن البقرة. فأرسل اثنين وبقى اثنان. وبحركة غدر جردهما من سلاحهما وأخذهما كرهائن. يعترف أنه لم يشعر بندم لأنه استغل طيبة وثقة الرقيب الأردنى وتعامل معه بنذالة. رقى شارون بعدها وأصبح على رأس وحدة من صفوف الجيش أعدت لمكافحة الإرهابيين.



فى خريف ١٩٥٢ كان عمره أربعاً وعشرين سنة. منها خمس سنوات خدمة فى الجيش. أمه كانت تلح عليه أن يكمل تعليمه. كان قد سجل نفسه سنة ١٩٤٧ فى كلية الزراعة. ولكنه انصرف عنها. ثم عاد بعد خمس سنوات وسجل نفسه من جديد لدراسة الإدارة. ثم سجل نفسه لدراسة الحقوق وأخيراً لدراسة تاريخ الشرق الأوسط فى الجامعة العبرية. وبعد أن عاش طفولة وحيدة منعزلة فى المزرعة. وتعلم الكراهية فى سنوات الجيش. فإنه يقابل الفتاة التى تلفت نظره «غالى». يصفها بأنها ذات شخصية باردة التفكير ميالة إلى التحليل وفى ٢٩ مارس ١٩٥٣ تزوجها. عقد قرانهما حاخام عسكرى وأرسلا برقيات إلى والديه اللذين كانا يبعدان عنه مسافة ساعة بالسيارة. وإلى عمته سانا فى أمريكا وإلى أهل غالى فى حيفا.

يقطع دراسته من جديد. لأنه يكلف بخطف فلسطينى هو مصطفى صموئيل الذى يعيش فى قرية النبى صموئيل وقتله. كان يسكن فى بيت ملاصق لمسجد. ورمى شارون الديناميت عليه ولكنه لم ينفجر. ثم ألقى قنبلتين ولم تنفجرا. فشل فى مهمته. وكتب تقريراً يقول إن مثل هذه العملية لا يجب إسنادها إلى الهواة. وإلا ماذا يفعل المحترفون. وطلب إنشاء وحدة خاصة من خيرة أبناء الجيش لمثل هذا النوع من المهمات. وعندما استجاب بن جوريون لتقريره عينه على رأس هذه الوحدة. وهكذا أنشئت وحدة الكوماندوز ١٠١ مكونة من خمسة وأربعين عنصراً. وكان الهدف الوحيد هو تصفية عصابات الإرهابيين. وأول درس كان عن العراك بالسلاح الأبيض. والعرك بالأيدى وذلك للرد على الرعب العربى. يقول أن ما علمه لجنوده كان الفظاظة والوقاحة فهل هناك مفردات عصابات أكثر من هذا؟ فى المهمة الأولى كان شارون وجنوده يحملون ستمائة كيلو جرام من المتفجرات. بواقع عشرة كيلو جرامات يحملها كل رجل. فى الطريق إلى قرية قبيه قتل شارون عشرة من الجنود العرب يصفهم بالمليشيات. ويقتل جنديين فى سيارة جيب. هرب أهل القرية فدمر بيوتها بالديناميت. استغرق التدمير ساعات. وكانت النتيجة التى قدمها شارون عن المهمة. نسف اثنين وأربعين بيتاً. قتل تسعة وستين شخصاً من المدنيين.

ولكنه عندما عين قائداً للمظليين تم دمج الوحدة ١٠١ مع المظليين. كل من زاملوه وكتبوا عنه يقولون أنه لم يكن فى مقدمة جنوده فى أى موقعة. كان يفضل أن يكون فى آخر الجنود. وعندما سئل عن السبب فى ذلك. قال حتى لا يترك أى جريح أو قتيل ويضمن أن يأخذه معه. كانت بطولته هى البقاء فى المؤخرة. وكان من عاداته أن يطلب من كل جندى أن يتجسس على الآخرين ويبلغه بما يعرفه. ومن يعرف أى شىء كان يمكنه طرق باب بيت شارون حتى لو كان الوقت ما بعد منتصف الليل. لم تعرف حياته كلمة أخلاق أبداً. وعندما يقابل جنوداً عراقيين يتجمد الدم فى عروقه من الخوف يصبح مشلولاً. عاجزاً عن تحريك أى عضلة فى جسمه. استولى عليه الذعر من رؤية العدو. فوضى فكرية انتابته. تجمد الذراعان والقدمان والعقل. تعوزه اليقظة. يصبح على آخر رمق.

فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥ يهاجم شارون مقر قيادة الجيش المصرى فى قطاع غزة. ولأن المصريين كبدوه خسائر فادحة. قال له ديان: «القتلى قتلى والأحياء أحياء» معبراً عن غضبه إزاء فشل شارون فى عملية غزة. ورغم فشله فلم يكن يضايق ديان منه سوى عدوانيته. عندما يخطئ قائد كتيبة تابعة له. فإن شارون يصفعه بيده على وجهه. يلجأ الضابط إلى القضاء العسكرى. وينتحر برصاصة من سلاحه. ولكن القضية تظل منظورة. وفى المحاكمة يتضح أن شارون يتعاطى المخدرات أثناء وجوده فى وحدته. مع أنه صفع زميله الضابط لمجرد أن صديقته كانت معه فى سيارته عند قيامه بإحدى المهمات. وعندما يصل جنديان من الشرطة العسكرية لتفتيش مكتب شارون. حول موضوع الصفعة. يوسط أحد زملائه حتى يكلم ديان. وهكذا تتأجل القضية. وتتوه ولا تنظر ولا يبقى لها أى وجود.



يتقرر عزل شارون من منصبه. ويعين حاييم بارليف مكانه. فيقدم شارون استقالته احتجاجاً على ذلك. ولكن ديان قال له إن بارليف مؤقت وإنه هو الذى سيبقى. فعدل عن الاستقالة. ثم يعزله ديان بعد ذلك. ويبلغه بقرار ديان قبل إعلانه جندى يعمل فى مكتبه مكلف بالتجسس عليه لصالح شارون. ويذهب شارون إلى بن جوريون والدموع فى عينيه. ويستجيب بن جوريون ويبقيه فى موقعه. يسيطر على بن جوريون من خلال سكرتيره نحميا أرغوب. عندما ينتحر نحميا لا يأسف سوى على أن بن جوريون بتأثير سكرتيره كان سيعين شارون رئيساً لأركان الجيش الإسرائيلى. لا يأسف عليه إلا لأنه حليف ممتاز لشارون فى الصراعات التى يواجهها فى الجيش. الناس بالنسبة له مجرد أدوات تحقق أهدافه وقطع غيار بشرية. يستخدمها حسبما يريد.

عند الاستعداد للعدوان الثلاثى على مصر واستدعائه لمقابلة بن جوريون. يفرح. تصل سعادته إلى ذروتها. يكتب. كنت أشعر أن نفحات التاريخ تمر بجانبى. وعلى الرغم من التحالف الإسرائيلى الفرنسى البريطانى فى هذه الحرب. فهو يصفهما بقوله: امبراطوريتان آفلتان. وغداً ستتورطان فى مسألة شديدة التعقيد وجسيمة النتائج للعالم أجمع. يقول: أطلال دولتين. فأى أخلاق هذه؟ يقول: لم نكن نثق ببريطانيا وفرنسا. كنا أقل ثقة بهم. لم يكن هناك يهودى مستعد أن يغفر لهما موقفهما من اليهود خلال الحرب العالمية الثانية. يصفهما ديان: أنهما «يريدان غسل أيديهما فى مياه نظيفة».

فى طريقهم إلى سيناء قبل عدوان ٥٦ كانوا يسرقون طعامهم من مزارع المصريين الذين فى سيناء. يصف هجومهم بأنه اقتصاص من مصر وليس سرقة. كان يقود ألفا ومائتى رجل ومعهم بعض مدافع الميدان وثلاث دبابات صغيرة. كانت التعليمات لديه ألا يتقدم أبعد من الممر الشرقى لممر متلا فى سيناء. ولكنه تقدم. ويقتل المصريون سائق الدبابة الأولى. ثم أصيبت الدبابة الثانية. قتلى المعركة كانوا ثمانية وثلاثين. ومائة جريح. يصبح الناس ضده. فيتحصن بالكذب. يقول أن قتلى المصريين أكثر من ثلاثمائة. وتشكل لجنة لمحاكمته بعد انتهاء الحرب التى يسميها حملة سيناء. يلعب على التناقض بين ديان وبن جوريون. وتهدأ القضية ولكن من الصعب نسيان الأمر. ضابط غير منضبط. يتصرف من تلقاء نفسه وكان وحدته هى مزرعته يتصرف فيها كيف يشاء. دون الرجوع لأحد. وتأتيه برقية أن زوجته أنجبت ولداً ويكتب بالحرف الواحد: أعجوبة. وعندما يذهب إلى المستشفى يكتب: هذا الصبى هو ابنى. ومات أبوه بعد ثلاثة أسابيع. ويكتشف أرييل بعد وفاة والده أنه لم يحاول أن يعرفه أبداً. كان الابن مشغولاً عن الأب بطموحه المدمر وطاووسيته التى يحاول إخفاء فراغه الداخلى بها. عندما كان ينام فإنه لم يكن يحلم. كانت هناك كوابيس عبارة عن معارك وحروب مستمرة بلا نهاية والأعداء فيها والقتلى من العرب. وفى المقدمة منهم المصريون والفلسطينيون والسوريون والعراقيون واللبنانيون.



يكتب بخيلاء وغرور: «كنت فى عمر يقتنع فيه المرء أنه قادر على كل شىء وأنه خالد. وأنه قادر على غزو العالم». يحتفل الصهاينة بالانتصار فى حملة سيناء. تحضر الممثلة أورنا بوارت تقدم مشهداً من إحدى مسرحياتها. يعجب بها بن جوريون. وبدلاً من أن يرى شارون فى هذا الإعجاب معنى إنسانياً. يكتب أن بن جوريون كان ينظر إلى الممثلين فى شهوة. ويقول أننا جميعاً كنا نعرف علاقته السرية بها. ولأن شارون إنسان لا يعرف ما يريد فهو يعد أن يكتب عن علاقة بن جوريون بالممثلة ويتكلم عن الشهوة. يعود ويقول أن أسرار الحياة كانت مصانة فى جيلهم.

الجيش الذى عمل فيه

يذهب إلى بريطانيا للتدريب فى معهد عسكرى. ويقابل الملكة إليزابيث. ويرتكب حماقة. فيها خروج على البروتوكول. تسأله الملكة: كيف حالك؟ وبدلاً من أن يقول لها: شكراً سيدتى. سألها بدوره: كيف حالك سيدتى؟ فأثار استغراب واستنكار كل الضباط الحاضرين. فى مايو ١٩٦٢ تموت زوجته فى حادث سير. كل ما يعنيه كان كيف يبلغ ابنه وهو فى الخامسة من عمره خبر فقد أمه. تلك كانت مشكلته الوحيدة. ثم يتزوج من أختها ليلى لمجرد أن ابنه ارتبط بها وأنها نجحت فى أن تنسيه أمه. وفى نهاية ١٩٦٣ يعين إسحق رابين رئيساً لأركان الجيش. يطلب منه بن جوريون حل مشكلة شارون الذى يرفض الجميع التعامل معه. فيعين فى المنطقة الشمالية العسكرية. ولا يسلمه قائد المنطقة العمل إلا بعد أن يفهمه أنه لن يتولى قيادة المنطقة بدلاً منه أبداً. يسافر إلى أفريقيا. كانت

أول لعبة كان شارون يلعبها فى طفولته إدخال القط على الفئران التى كانت تتقافز فى بيتهم. والتمتع بمشاهدة المعركة غير المتكافئة. القط يلتهم الفئران المذعورة. كان يتساءل: لمن ستكون الغلبة فى المعركة؟ رغم أنه كان يدرك أن القط هو الذى سيكتب له البقاء وأنه لن يبقى من الفئران سوى أذنابها

هناك سياسة «الاستراتيجية الدائرية» وهى إقامة علاقات مع كل الدول التى تحيط بالدائرة العربية. يصل إلى مصوع فى الحبشة أولاً. ومنها إلى عنتيبى فى أوغندا. يعود إلى إسرائيل. ينتظر ترقية فى عمله. يبقى فى منزله ثلاثة شهور ونصف. يوشك أن يصل إلى حافة الجنون. من أين له بالصبر؟ كان الانتظار يخرجه عن شعوره. وقبل أن يبلغه رابين بالترقية. يعدد له عيوبه وأخطاءه الكثيرة. والترقية هى إلى رتبة عميد. ورئيس فرع التدريب فى قيادة الأركان. علاوة على قيادة فرقة عسكرية احتياطية.

فى ١٩ مايو ١٩٦٧، كان شارون منهاراً. يكتب شارون: لم نكن قادرين على مواجهة جيش مصر مرة واحدة. القيادة ترى أنه يجب محاربة جيش مصر على مراحل. هكذا اعتقد الجميع. والمرحلة الأولى تبدأ بقطاع غزة أولاً. شارون رفض فكرة حرب المراحل. قال له ليفى أشكول: كلامك غير مسئول. لا يرد على أشكول فى مواجهته. يكتب عنه فى مذكراته: رجل يفتقد الثقة بنفسه وتأكله الحيرة. كان محبطاً. وأعزل وضائعاً. يبحث عمن يستند إليه. إن الرجل الذى تنسب إليه كل هذه الصفات كان رئيس وزراء إسرائيل. ولأن شارون كذاب بطبعه يقول عن حرب ٦٧: كانت هذه الحرب مفروضة علينا. وليس أمامنا سوى سحق الجيش المصرى.



يكتب رسالة لزوجته. يقول فيها: لا خيار أمامنا سوى خوض هذه الحرب. يطلب من ضابط معه اسمه ناتكى أن يضرب المصريين. يقول له: تستطيع الإطباق عليهم بقدر ما تريد. فهم المصريون. يعود إلى سيناء بهدف تجميع آلاف المصريين التائهين فى الصحراء. يلمح إلى تصفية قسم كبير من الناجين من أبناء الجيش المصرى. لسبب بسيط وهو أنهم كانوا سيفعلون هذا بجنود إسرائيل لو وقعوا فى أياديهم. انظر إلى الكذب. لم يرتكب الجيش المصرى أى مذبحة ضد الصهاينة أبداً. يبرر هذا بقوله: من طبيعة الحرب أن يقتل الجندى عدوه.

انظر إلى قسوته وعدم إنسانيته؛ قرروا الاحتفاظ بالضباط فقط لمبادلتهم مع أسراهم لدى مصر. لم تكن هناك علامات تميز الضابط عن الجندى. اختفت العلامات. والكل غير حليق. يكتشف الصهاينة من خلال التجسس على المصريين أن الضباط يلبسون سراويل من الحرير بينما سراويل الجنود من القطن. يسخر من الفكرة لأنها ضد الديمقراطية. وهكذا أمر آلاف الأسرى بإنزال البنطلونات. من كان سرواله من الحرير يسجن ومن كان سرواله من القطن يقتل. رائحة الموت كانت تخيم على سيناء وسحابات الذباب الأسود كانت تشكل غيمة متحركة على الرمال. كانت تحتها الجثث. تنهى خدمته فى الجيش. يلجأ شارون إلى ديان فيرفض مساعدته. يصف ديان: جبان ورعديد عند اتخاذ أى قرار. يذهب إلى جولدا مائير حتى تبقيه فى الجيش فترفض التدخل. كان فى الحادية والأربعين ولذلك يتجه إلى الميدان الذى يكرهه بدون حدود: العمل السياسى. رغم أن شعار حياته كان: كلما سمعت كلمة أفق سياسى تحسست مسدسى. يكتب: ماداموا لا يريدوننى فى الجيش. فسأتجه إلى ممارسة السياسة. ذهب يعرض نفسه على مناحيم بيجين. «كنت أحس عرقاً بارداً يتساقط على عنقى». ليس أمامى سوى الاندفاع إلى عالم يخرج عن سيطرتى. ثم إن نظرات بيجين لى لم تكن مريحة. يصل إلى اتفاق مع بيجين. وبعد الاتفاق: أحسست كأن انسكاباً جديداً من العرق البارد يسيل فوق عنقى. يطلب بيجين زجاجة كونياك احتفالاً بالاتفاق. يقول شارون: وهكذا أصبحت سجيناً. هل نحتاج إلى دليل أكثر من هذا على فشله السياسى؟ رجل يعتبر العسكرية قمة الحرية والعمل السياسى سجناً. لقد تورط فى مأزق حرية العمل السياسى. فى صباح اليوم التالى يهرب من اتفاقه. ذلك أن بارليف عندما قرأ فى الصحف احتراف شارون العمل السياسى. أعاده فوراً إلى الجيش. هنا يمكن أن يكون أقل ضرراً. أعاده بدون عمل محدد. ولكن بعد أن اتضحت نذالته أمام بيجين الذى وثق به. لأنه نسف اتفاقه مع بيجين أمام عودته إلى الجيش.

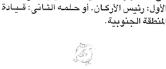
خلال حرب الاستنزاف يتحرك الفلسطينيون فى غزة. كان رأى ديان الإيقاع بينهم. وتركهم يتقاتلون. ولكن شارون كان يرى أن البتر النهائى هو الحل الأمثل. ويوافقه ديان على أن يبدأ العمل. لأن شارون هو الضابط الوحيد الذى لا يطلب تعليمات مكتوبة بما يطلب منه. كان شارون ينفذ حتى إن كانت أوامر ديان حركة من رأسه. كان عليه تصفية ثمانمائة «إرهابى» حسب وصفه مختبئين وسط نصف مليون فلسطينى مستخدماً القوة العسكرية وسط المدنيين. ولذلك فإن شارون عندما يعمل كان يرتجل من العدم وهذا نص ما يكتبه. وكان جوهر خطته يقوم على التخلص من مخيمات اللاجئين. وبمجرد أن ينتهى من قتل كل من وصل إليه من الفلسطينيين. طلع ديان على التليفزيون وشكره على ما قام به. وفى صباح اليوم التالى عزله من عمله. وهكذا لم يعد أمامه سوى جبهة قناة السويس ليعمل فيها. وفى نهاية ١٩٧٢ قال له دافيد اليعازر رئيس الأركان الجديد أنهم فى انتظار استقالته من الجيش.



كان فى الخامسة والأربعين من عمره. ولم يصبح أمامه سوى المرور بالتجربة المذلة التى يتجرعها الجنرالات المتقاعدون. يشترى مزرعة فى شمال النقب. جذبه إليها وحشة المكان ورهبته وعزلته. حتى علاقته بالمكان فيها وحشية. يبحث عن المال. يذهب إلى صديق قديم. ميزته الوحيدة فرديته المطلقة. يساعده فى الحصول على قرض قدره ٢٠٠ ألف دولار. ومن فرع لبنك أمريكى يحصل على ٤٠٠ ألف دولار أخرى. ونقل إلى المزرعة أربعة خيول. حصان له وآخر لزوجته والثالث والرابع لابنيه. يحاول أن يؤسس تجمعاً للمعارضة. يستأجر قاعة ويدعو الصحفيين ويفجر قنبلته. وإن كان لا يعرف سوى الخطوة الأولى فقط. إنه يقول: إن من يدخل عالم السياسة. يكتشف أنه لا يملك سوى فم ليتكلم ويد لتنتخب. مثل جاره على الطاولة. بدون أى تمييز. وهذا الجار قد يكون جاهلاً بكل شىء ومع ذلك له فم ليتكلم ويد لتنتخب. هل من المعقول أن يصبح من يفكر هكذا رئيساً لدولة؟ إلا إن كانت هذه الدولة عصابة؟

فى مايو ١٩٧٢ وردت معلومات ـ هكذا يقول ـ إن المصريين يستعدون لعبور قناة السويس. ومما يؤكد كذبه أنه يقول بعد هذه العبارة مباشرة أنه انتقل إلى بئر سبع فى سيناء والمعروف أن بئر سبع فى النقب فى فلسطين. ووضع خطة عبور مضاد من عند الإسماعيلية. وهذه كذبة كبيرة أخرى. فإسرائيل لم تعرف بخبر الحرب إلا بعد يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣. وكتاب التقصير يذكر هذا. شارون يكذب كما يتنفس وكما يقول من عاشروه أنه أول من يصدق أكاذيبه. يقول أنه فى مايو ١٩٧٢ وضع خططاً لثلاث حالات عبور مضادة لعبور المصريين.

يروى شارون روايتين لاستدعائه للخدمة العسكرية. والروايتان متناقضتان وهما معاً تتناقضان مع الرواية السابقة. فى الأولى يقول: أنه فى الأول من أكتوبر جاءه اتصال من القيادة. كانوا يريدون سؤاله فى معلومات سرية. والرواية الثانية تدور فى الجمعة ٥ أكتوبر. وإن قال فى الرواية الأولى إنه كان فى مقر الليكود لحظة استدعائه. فإنه فى الثانية كان فى مزرعته الخاصة. وفى كلتا المرتين كان مطلوباً منه التوجه إلى القيادة العامة. حرب أكتوبر كانت سلسلة من الأخطاء الإسرائيلية وشارون يخرج نفسه منها جميعاً والمسئولون عنها هم رؤساؤه أو زملاؤه. حتى خط بارليف يقول أنه كان ضده منذ بنائه وأنه أكبر كذبة عسكرية فى تاريخ إسرائيل. وحتى عندما يقول: أن الجنود المصريين الذين واجهونا فى ٨ أكتوبر ١٩٧٣، كانوا أول مشاة فى العصر الحديث مجهزين ومدربين ليقاوموا الدبابات. بل ليصلوها ناراً قاتلة بأسلحة مصممة خصيصاً لذلك. فإن الهدف من هذا هو إدانة زملائه والهجوم عليهم. كان يهاجم دافيد أليعازر رئيس الأركان وحاييم بارليف الذى عين قائدا للمنطقة الجنوبية. لا تستخدم كلمة الجنوب فى مذكراته إلا من أجل الإشارة إلى مصر. يصف رئيس الأركان ومن تولى قيادة المنطقة فوقه بأنهما من أبطال الدسائس والحسابات الصغيرة. يكتب: لم يكن ينقصنى سوى بارليف. لقد وقفت على باب عش للدبابير. إن الوضع يذكرنى بسقوط الجمهورية الأسبانية. لقد بدد الجمهوريون قواهم بدلاً من مواجهة فرانكو. وكل ما يحركه إلى هذا هو رفض القيادة تعيينه فى حلمه الأول: رئيس الأركان. أو حلمه الثانى: قيادة المنطقة الجنوبية.



يقول إنه بدون تعليمات من قادته وفى السادسة والنصف من صباح العاشر من أكتوبر وصل من خلال الثغرة بين الجيشين الثانى والثالث الميدانيين إلى القناة. اتصل برئيسه ليقول له أنه يلمس مياه القناة بيديه. صاح فيه قائده. فى السابعة والنصف طلب منه التراجع. يرفض العودة. يتصل بمساعد رئيس الأركان. وترفض رئاسة الأركان الاستماع إليه. فانسحب وعاد. وهكذا يكتفى بالدفاع فى أيام من ١٠ إلى ١٣ أكتوبر. وإيراد كافة هذه التفاصيل هدفها أن يكون هو وحده الفاعل والفاهم والمدرك. والذى يسبق زمانه. ولا يسمح له بالعبور إلا بعد أن هزم المصريون فى السادسة والثلث من

أسس شارون وحدة كوماندوز تسمى الوحدة ١٠١. وهو المسئول عن مجزرة قبية. راح ضحيتها ٦٩ مدنياً فلسطينياً. وهو المسئول عن قتل الأسرى المصريين فى حرب ٦٧. اغتال أبو جهاد فى تونس. شارك فى الهجوم على القيادة العسكرية فى تونس





أنا أكذب
أنا أكره
أنا أقتل

صباح الأحد ١٤ أكتوبر ١٩٧٣، ويبدأ العمل والتخطيط للعبور المضاد من صباح اليوم التالي ومن شدة غروره يضع عنواناً للمهمة «مهمة منتهية» ويرسل بالشفرة: «مدافعنا تكاد تلامس مدافعهم» ومن أجل مزيد من الدراما يقول كاذباً إنه وردت له معلومات بوقف العبور المضاد فوراً. ويستدعي إلى القيادة فيرفض ترك المكان. ويكتب صفحات كاملة في وصف مزايا وأهمية وجوده بين قواته على الأرض. مع أن التقدم العلمي يتيح له قيادة المعركة عن بعد. ويتجاهل حقيقة أنه لم يعبر في مقدمة قواته. بل بقي في أمان بمقر قيادته يتابع باللاسلكي. يتضاعف عدد القتلى. يقول له بارليف أن هناك مسافة ضخمة بين ما وعد به وما نفذه. يكتب: الجواب الوحيد هو صفع بارليف على وجهه. ينتقم منه في الكتابة: كان بارليف أنيقاً. حليقاً نظيفاً أكثر من اللازم ثم يكتب: لا أعرف كيف سيطرت على أعصابي بدلاً من صفعه. كززت على أسناني. ولا يقول إن السبب في هذا هو فوز بارليف بقيادة المنطقة بدلاً منه.

في المساء تطلب منه القيادة تطوير الهجوم فيأتي رده بالرفض. الرجل يختلف مع قادته لمجرد الرغبة في الاختلاف. يدلي شارون بحديث لمعاريف ١٩٧٤/١/٢٥، يقول أن رؤساءه حاولوا تخطي قراراته التكتيكية دون الحضور إلى الجبهة ليروا ما يراه. ولذلك رفضت تنفيذ تدخلهم في عملي. ولا يقول إن لجنة اجرانات حاكمته بعد الحرب بتهمة رفض تنفيذ أوامر رؤسائه. باختصار أنه إنسان فوضوي. يلغي الآخرين من أجل ذاته فقط. لقد وصفت لجنة اجرانات قراراته بأنها قرارات «غريزية» أي أن الغريزة هي التي تحركه. ومن تحركه الغريزة يلغي العقل والقلب والضمير. إن الغريزة تسيطر فقط على الإنسان البدائي. صاحب العقلية البدائية. أما هو فيكتب: لم أعد أثق في أحد. وكأنه وحده الذي حارب. الحرب عمل جماعي. إلا عند شارون الذي يتصرف وكأن ذاته هي محور الكون. عندما يفقد منصبه العسكري. يصف إسرائيل هكذا: بلاد مرهقة. محاصرة مخنوقة. بلد فقد راحة باله. بلد بلا هدف. وعندما يصل إلى المنصب تتغير نظرته لإسرائيل. تصبح الجنة الموعودة على الأرض.

وفي ٢٠ أكتوبر يبعد شارون عن فرقته. يقول كاذباً أنه كان صاحب القرار وأنه كان موفقاً فيه لأن لحظة الانسحاب آتية. وهو لن ينفذها. وعندما يعود إلى بيته ينفذ الأسلوب العسكري فيه مع زوجته وابنيه. يكتب: «أنا الذي أحرزت النصر» لاحظ أنه يكتب عن حرب أكتوبر. يضيف: أن هذا النصر فريد من نوعه في تاريخ جيش الدفاع الإسرائيلي. وحتى عندما يأتي السلام يزعم أنه هو الذي أرسى قواعده.

يتجه إلى العمل السياسي. يحاول العودة إلى الجيش وأن يكون في نفس الوقت نائباً في الكنيست. يرفض طلبه. لا يجد أمامه سوى المزرعة. التي يشرح كيف اشتراها. ومع هذا تكتب صحف إسرائيل أن هناك فساداً في ذلك. في سنة ١٩٧٤ كان ابنه عمري في العاشرة. وجيلاد في الثامنة. لا يستطيع أن يمتدحهما لأنه عندما مات ابنه البكرى قال أنه هو الأذكى والأبرع. يقول عن صداقة إسرائيل لأمريكا: إنه لابد من المعاملة بالمثل. لا فضل لهم على إسرائيل.

شيطان السياسة

في صيف ١٩٧٥ يعمل مستشاراً لرابين علاوة على إدارة مزرعته. ولكن العمل لم يستمر بعد فبراير ١٩٧٦. في هذه الفترة يقابل هنري كيسنجر الذي يقول له: قيل لي أنك أخطر رجل في الشرق الأوسط. وإن كان يكتب قبيل انتخابات ١٩٧٧: لقد استولى عليّ من جديد شيطان السياسة. دخلت ذلك الميدان وإن كنت عاجزاً عن إيضاح أسباب اتخاذي هذا القرار. ورغم دخوله السياسة يصف علاقاته بقادة الأحزاب جميعاً بالبرودة والجفاف. بل إنه يقول إن السياسي لا ينجح في هذا البلد دون عملاء ودارسين للسوق. عندما تدمر إسرائيل المفاعل النووي العراقي. وكان شارون وقتها وزيراً للزراعة. لكنه ينسب ذلك لنفسه. يكتب: أعجز عن إحصاء المرات الكثيرة التي تكلمت فيها سواء في مجلس الوزراء أو الكنيست عن ضرورة تدمير المفاعل النووي العراقي. ذلك خط أحمر. وكنت أتكلم عن توازن الرعب النووي في المنطقة. أكثر من هذا. كتبت أكثر من مرة لبيجين حول الموضوع. ومن الطبيعي أن يعارض الجميع القرار ثم يرضخون لشارون في النهاية. إنه ينظر لنفسه باعتباره ملهماً. وبعد أن تنجح العملية. يكتب: وضع بيجين يده على كتفي - وهي حركة نادراً ما تصدر عنه - وقال لي: أرييل، لولا عنادك، لا أدري ماذا كنا أطلقنا على هذه العملية. بعدها يكتب عن نفسه: «لقد أصبحت سياسياً محنكاً» والسياسي المحنك يكتب: إن الاتفاقيات القانونية عاجزة عن تحقيق ما نصبو إليه ما لم تستجب للضرورات الجوهرية. ويعود ليكتب: ليس للأوراق والوثائق أهمية في نظري إن لم تدعمها وتبررها حقيقة ملموسة.

ويصبح شارون بعد انتخابات ١٩٨١ وزيراً للدفاع في حكومة الإرهابي مناحيم بيجين. ورغم أن شارون يقول أن ذلك تقدير من بيجين له، إلا أن الصحف تقول إن بيجين جاء بشارون في هذا الوقت وأعطاه حقيبة الدفاع حتى يخلصه من سكان مستوطني مستوطنات سيناء. بدلاً من أن يتولى بيجين نفسه هذه المهمة الصعبة. يقول شارون إنه صاحب فكرة تدمير مستوطنة ياميت: وقلت للمصريين: «إن ذلك هو الحل الوحيد حتى لا يعود سكان المستوطنة إليها من جديد»، لقد محوت ياميت حتى استحالت رمالاً. قالت عنه الصحف: الرجل الذي دمر ياميت. أما هو فيكتب: «إن قيام مدينة مصرية على حدودنا من شأنه أن يهدد السلام». حتى تهجير يهود الفلاشا من أثيوبيا إلى إسرائيل ينسب الفضل فيه إلى نفسه. وكان هناك رافضون للمسألة منهم يوسف جورج وزير داخلية إسرائيل. ولكنه مثل كل مرة يصر وينتصر إصراره على رفض الرافضين.

صبرا وشاتيلا

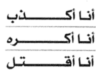
تعالوا ننظر كيف يورد شارون مذبحة صبرا وشاتيلا في مذكراته: بينما كنت في سريري في الساعة الواحدة والنصف. تلقيت اتصالاً من صحفي في التليفزيون الإسرائيلي يدعى رون بن يشاعي. نقل لي هذا الصحفي ما سمعه. ومفاده أن الكتائب يقتلون المدنيين في شاتيلا. فقد تحدث إلى ضباط إسرائيليين سمعوا شهود عيان يخبرون جنودهم عن المجزرة التي شاهدوها. سألته إن كان قد رأى ما يرويه. قال أنه سمعه من أناس سمعوا عنه هم أيضا. لم يكن فيما قاله بن يشاعي أي جديد. فالتقارير التي وردتني من رئيس هيئة الأركان والوزارة. نقلت إلى أن قوات مسيحية تورطت في مجزرة. وكنت أعرف ما جهله بن يشاعي وهو أن القوات الإسرائيلية بقيادة رافول وأميردوري هي التي قامت باللازم لإيقاف المجزرة. وفي اليوم التالي اتضح أن ما حدث في صبرا وشاتيلا تجاوز المجزرة. ولأنه يكذب ومن يكذب ينسى، فهو يكتب في الفقرة التالية: في السادسة مساء. طلبت تقريراً مفصلاً عن الكارثة التي أطلق عليها اسم: المجزرة وعندما انفجرت الفضيحة في إسرائيل. لا يجد أي تبرير سوى أن التنافس مع حزب العمل هو الذي ضخم من أمر المجزرة: لقد استغل حزب العمل الأمر استغلالاً سياسيًا بذيئاً. كان التنافس على مركز الصدارة في البلاد دمويًا.

يكتب: لم يتورط أي ضابط وفقاً لمعلوماتي وحكمي فيما جرى بصبرا وشاتيلا. في نفس الفقرة. يقول أنه رفض تشكيل لجنة للتحقيق في أحداث صبرا وشاتيلا. والسبب: فانا لا أرغب في القيام باي عمل قد يعطي انطباعاً بانني أحاول الاختباء وراء الجيش. وإن كان يرى أن قراره هذا كان خطأ. لأن بيجين تحت الضغوط السياسية والشعبية اضطر لتشكيل لجنة برئاسة القاضي إسحق كاهانا. يكتب: عندما بدأت اللجنة تمارس عملها. وقعت فريسة هواجس أنذرتني بوقوع الشر لأنه لابد من كبش محرقة على الصعيد السياسي. لابد من إنسان يلقون عليه اللوم. في هذه اللجنة خطر يتهدد الشعب اليهودي. لقد أدت إلى مظاهرات تهتف: شارون سفاح. نهاية هذه اللجنة وخيمة. فالحاجة أصبحت ماسة لإيجاد مسئول والقضاء عليه. على رغم عدم ارتباطه بالأحداث نفسها. لقد أصبح ذلك أمرًا لا يقاوم. ثم يذهب إلى الكنيست. عندما كان يقرأ تقريره رأي القاضيين كاهانا وباراك مسئولي لجنة التحقيق في صبرا وشاتيلا يدخلان الكنيست، يصف لحظة رؤيتهما هكذا: راحا يحدجاني بتلك النظرة الحادة والعدوانية وكأنهما غرابان أسودان. كانت نظراتهما إشارة أتقنت التعبير عما سيحدث. فهل يكتب هذا إنسان برىء؟ إن وصف متهم لقاضيه بأنه غراب أسود هو اعتراف باقترافه جريمته. يكتب أنه ذهب إلى بيروت لمقابلة أمين الجميل: وعندما أثرت موضوع صبرا وشاتيلا. نظر الرئيس أمين ورجاله في أعيننا ونفوا أي علاقة لهم بالمسألة من دون أن يرف لهم جفن. كل هذه منه كانت محاولات لرمي التهمة على الآخرين. مذكراته هذه منشورة قبل أن يقوم بقتل إيلي حبيقه بعد أن أعلن أن لديه أدلة تثبت مسئولية شارون الشخصية عن هذه المذبحة. لا أعرف ماذا يمكن لشارون أن يفعل حيال تقرير كاهانا أو تحقيق أمنوك كابليوك حول المجزرة. أو تحقيق جان جنيه حول المذبحة. وكل هذه التحقيقات والتقارير تعتبر شارون هو المسئول الأول والأخير عن المجزرة. لا يرد طبعاً على ما كتبته مجلة تايم في ١٩٨٣/٢/١٣ من أن شارون تحدث في لقائه مع أمين الجميل والشيخ بيار الجميل قبل مراسم دفن بشير الجميل عن «حاجة الكتائب إلى الانتقام لهذا الاغتيال».

يستدعي شارون إلى اللجنة لاستجوابه. كان أول طلب له عدم استجواب ضباط الموساد أو موظفيه. وقبل ذهابه إلى اللجنة أعلن أنه سيقدم استقالته في حالة توجيه أي تهمة له. قبل إعلان تقرير اللجنة يذهب إلى بيجين يطلب منه أن يتحد الوزراء حول براءة الحكومة وبراءة العسكريين. بيجين لم يعده بشيء. قال له فقط: سنواجه موقفاً في غاية الصعوبة.

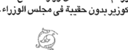
كان قرار اللجنة الذي نشر في ٨ فبراير

إن شارون يقول حتى
الآن أن الفلسطيني الطيب
هو الفلسطيني الميت.
فأي مستقبل ينتظر
دولة يقودها مثل
هذا السفاح؟



أنا أكـــذب
أنا أكــــره
أنا أقـــتـل

١٩٨٣ يرى أن يمارس رئيس الوزراء حقه فى تجريد شارون من حقيبة الدفاع. ورغم أن إسرائيل امتلأت بالمظاهرات أمام مزرعة شارون وأمام وزارة الدفاع وأمام مجلس الوزراء احتجاجاً على سلوك شارون. إلا أنه يكتب أنه عندما وصل إلى مجلس الوزراء ليرد على ما جاء فى التقرير. يقول أنه وجد أمام مجلس الوزراء متعاطفين معه. «ولما توقفت برهة لأحييهم. وجدتنى وسط دوامة تلقيت فيها ألف يد ويد طلبت مصافحتى. وسمعت ألف عبارة وعبارة كان يملؤها الحماس والتشجيع. إن الرجل يكذب كما يتنفس. إنه يحدد عبارات الحماس بألف عبارة وعبارة وكأنه كان يحمل آلة لتسجيل وعد هذه العبارات. ويجرى التصويت فى مجلس الوزراء على قبول تقرير اللجنة. وتكون النتيجة ستة عشر صوتاً تقبل التقرير. وصوتًا واحدًا ضده. وفى الواقع كان هذا الصوت الواحد والوحيد. هو صوت شارون نفسه. فهل لديه ما يمكن أن يقوله بعد ذلك؟ لا يكتفى بهذا. يذهب فى اليوم التالى إلى بيجين فى منزله. فيكون أول سؤال من بيجين له: متى تنوى تقديم استقالتك؟ يرد عليه: بعد أسبوع. يسأله من جديد: لم تستغرق استقالتك هذه الفترة الطويلة؟! يصف خروجه من الوزارة ـ بعد كل هذا ـ: كان الصباح حافلاً بالناس الذين جاءوا لوداعى بعضهم بالزهور. والبعض الآخر بالدموع. يقول إن شاعرة لبنانية اسمها ليلى المر وصلت من بيروت صباحاً يرافقها بعض الأصدقاء. وقفت وقرأت قصيدة جميلة. يدعى أنه وصلت له أربعة آلاف رسالة من كافة أنحاء العالم ـ رد عليها كلها ـ تشجعه وتؤيده وتشد من أزره. ويفسر ما جرى له بأنه خيانة من أناس لم يستطيعوا مواصلة النضال معه. لم يتحلوا بشجاعة قناعاتهم. ورغم استقالته من وزارة الدفاع فقد قبل البقاء كوزير بدون حقيبة فى مجلس الوزراء.



إن السباق بين الحبر ودماء الشهداء مازال مستمرًا. وحتى كتابة هذه الكلمات فجر يوم ١٧/ ٤/ ٢٠٠٢. كان شارون قد ألقى القبض على أكثر من عشرة آلاف فلسطينى دون سند من قانون. يقف فى المقدمة منهم مروان البرغوثى. الذى وصفت وكالات الأنباء الغربية عملية القبض عليه بأنها فتح لبوابة من بوابات الجحيم الفلسطينى على شارون وكل إسرائيل.

أما عدد شهداء مخيم جنين فلم يتوصل إليه أحد. كل المعروف أن سكان المخيم كان عددهم خمسة عشر ألفًا. أما من تبقى منهم فسنعرفه. ولكن من المؤكد أنها مجزرة يزيد عدد شهدائها عن أى من مجازر شارون السابقة. وربما عن أعداد مجازره السابقة مجتمعين.

يعانى شارون من عقدة كراهية شخصية لياسر عرفات. منذ أكثر من عشرين عامًا مضت. وشارون غير قادر ولا هو راغب فى التحرر من جبال الكراهية بداخله. فهل يصلح من لا يستطيع التحرر من كراهيته أن يصبح سياسيًا؟ وهل يؤتمن على مصير مجتمع ومستقبله؟ وهل يمكنه الوصول إلى مشارف أى سلام مع نفسه؟ قبل أن يصل إلى سلام مع الآخرين؟ مشكلة شارون مع شارون قبل أن تكون مع الآخرين سواء كانوا إسرائيليين أم فلسطينيين.

وماذا عن إسرائيل؟

إن كان شارون يعانى من كل هذا العطب الداخلى. فالأمر ليس فرديّاً. المجتمع الإسرائيلى أيضاً مريض. شارون هو ثالث رئيس وزراء ينتخب مباشرة من قبل الناخبين. وقد حصل على أعلى نسبة من الأصوات. أكثر من اللذين سبقاه ناتنياهو وباراك. وجوده فى السلطة يعنى أن إسرائيل مجتمع غير طبيعى. مجتمع غير قادر على إدراك حجم اليأس فى صدور شبان فلسطين. مجتمع يعرف كيف يبدأ معاركه ولكنه لا يستطيع أن ينهيها. وقائده الآن يتوه فى التفاصيل الصغيرة. إنه يقول عن إسرائيل: بلد منعزل يحيط به الأعداء. ولابد من كسر حدة الطوق العربى الذى يحيط بإسرائيل من كل ناحية. حلفاؤنا بعيدون عن حدودنا وراء البحار. عدد القتلى الإسرائيليين منذ توليه الحكم. وقبل بدء الانتفاضة الحالية: ٤٨٠، وهو رقم يفوق قتلى حكم رابين وبيريز وناتنياهو وباراك. نسبة الهروب من الجيش تزايدت فى حكمه. بلغت بين القوات النظامية ٣١٪ والاحتياط ٢٠٪ مع تزايد رافضى الخدمة من جنود الاحتياط فى الأراضى الفلسطينية.

بدأت لأول مرة فى أيامه الهجرة العكسية إلى خارج إسرائيل. وبنوك إسرائيل تواجه أزمة طلبات فتح حسابات فى الخارج. ٢,٨ مليار دولار مودعة فى الخارج لمواطنين إسرائيليين. وهذا لا يعكس الموقف من سعر الفائدة أو السياسة الضريبية. إن تدفق الأموال الإسرائيلية إلى الخارج لا يعكس سوى مخاوف الإسرائيليين حول مستقبل الدولة التى يعيشون فيها. ومع هذا لم نر أى مظاهرات ضد سياساته. هل يعنى هذا أن مجيئه كان يعنى موت الديمقراطية؟ أم أن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية تعلو فوق الأحزاب وكافة مؤسسات المجتمع الإسرائيلى؟ يحكم إسرائيل الآن إنسان يفخر بأنه لا يحترم توقيعه على أى ورقة. تقول عنه أدبيات بلده: إن المستحيل هو القول أن شارون إنسان شجاع. وتتساءل صحافته: متى تمتلىء كأس شارون بالدماء؟! ويقولون إن خطته ستقود المنطقة إلى الفوضى. لأن شارون يقول حتى الآن أن الفلسطينى الطيب هو الفلسطينى الميت. فأى مستقبل ينتظر دولة يقودها مثل هذا السفاح؟

آخر استطلاع للرأى فى إسرائيل يقول أن ٧٥٪ من المواطنين يؤيدون ما يقوم به شارون. وأن ٢٥٪ من الإسرائيليين يرون طرد عرفات خارج فلسطين. هذا على الرغم من المذابح التى ارتكبها شارون فى الأسبوع الثانى من أبريل الماضى. فى يوم واحد السبت ٦ / ٤ / ٢٠٠٢ كانت هناك أربع مذابح تدار فى وقت واحد. الأولى فى نابلس القديمة والثانية فى غزة والثالثة أمام مقر ياسر عرفات والرابعة فى مخيم جنين. من السفاح شارون: أم أن كل سكان إسرائيل سفاحون؟!

كتاب الزاوية

دير ياسين
الجمعة ١٩٤٨/٤/٩

كان اليوم يوم جمعة، ٩ أبريل ١٩٤٨، ولم يكن فجره قد انبلج حين انقضّت فجأة وبمعرفة قيادة الهاجاناه التابعة للوكالة اليهودية، قوات منظمتى شتيرن (ليحى) والإرغون (إيتسل) الإرهابيتين على قرية دير ياسين المواجهة للضواحى اليهودية الغربية للقدس، على بُعد أقل من خمسة كيلومترات من مقر حكومة الانتداب البريطانية السياسى والعسكرى فى عاصمة فلسطين. وما كادت شمس ذلك اليوم تغرب، بعد قتال عنيف دام أكثر من اثنتى عشرة ساعة واشتركت فيه، إلى جانب المهاجمين، وحدات من قوات البلماح الضاربة التابعة للهاجاناه، حتى تم للمعتدين ما عقدوا النية عليه واحتُلَّت القرية واستُشهد من سكانها (البالغ عددهم ٧٥٠ نسمة تقريبًا) مائة شخص ونيف، معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وهُجِّر الناجون كافة ليدخلوا فى شتات لا نهاية له، يحملون فيه إلى يوم الدين جروحًا نفسية لا تندمل، وغدا اسم دير ياسين عبر الآفاق والعقود رمزًا لدموية الصهيونية وبربريتها.

وقد أحسن الدكتور وليد الخالدى الأستاذ الفلسطينى البارز فى الجامعات الأمريكية صنعًا عندما جمع فى كتاب كل الشهادات التى روت تفاصيل هذا اليوم المأساوى فى تاريخ العرب سواء كانت شهادات الناجين من المذبحة، بما فى ذلك شهادات لمقاتلين دافعوا عن القرية أو شهادات قادة وأفراد المنظمتين الإرهابيتين اللتين قامتا بالمذبحة، ثم شهادات للمندوب السامى البريطانى فى القدس فى حينه، وكذلك ردود الفعل العربية.

وقد صدر الكتاب عام ١٩٩٨ عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية فى بيروت.





أحمد وداود

السلام المستحيل



حلمى محمد قاعود



[١]

ولد «فتحى غانم» بالقاهرة عام ١٩٢٤ لأسرة بسيطة، وتخرج فى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) عام ١٩٤٤، وعمل بالصحافة فى مؤسسة «روزاليوسف»، ثم انتقل إلى جريدة «الجمهورية» أو مؤسسة دار التحرير رئيسًا لمجلس الإدارة والتحرير، ثم عاد مرة أخرى إلى «روزاليوسف» حتى وفاته عام ١٩٩٩ عن خمسة وسبعين عامًا.

وقد أصدر عددًا من المجموعات القصصية والروايات، منها: مجموعة «تجربة حب» عام ١٩٥٧، ورواية «الجبل» ١٩٥٩ (أول رواية صدرت له)، ورباعية «الرجل الذى فقد ظله»، و«الساخن والبارد»، و«الأفيال»، و«زينب والعرش»، و«بنت من شبرا»، و«حكاية تو».. وقد ظهر بعضها فى مسلسلات ناجحة على شاشة التليفزيون، وقد لقيت هذه المسلسلات إقبالاً ملحوظًا، خاصة «زينب والعرش» التى تناولت الحياة السياسية فى فترة الستينيات، وكان معظم أبطالها من الصحفيين.

وقد ارتبط «فتحى غانم» ببعض التنظيمات السياسية، أبرزها «التنظيم الطليعى» الذى شكّلته الحكومة فى فترة الستينيات لحماية النظام، ويبدو أنه كان مضطرًا إلى ذلك، فطبيعته كانت تميل إلى الاستقلال والتأمل والتفكير العميق، وهو ما يتناقض مع واقع التنظيمات السياسية من حركية واندماج وبراجماتية.

[٢]

وتتناول روايته «أحمد وداود»، موضوعًا مهمًا يرتبط بصراع الوجود بيننا وبين العدو النازى اليهودى فى فلسطين المحتلة، ويلاحظ أن الرواية صدرت فى فترة حساسة من تاريخنا المعاصر، حيث ظن فريق من الناس أن توقيع بعض الدول العربية لاتفاقيات أو معاهدات مع العدو النازى اليهودى، قد هيأت المجال ليعيش العرب واليهود فى سلام، ويعود اللاجئون الفلسطينيون، إلى وطنهم السليب، وتنتهى مأساة الشعب الفلسطينى التى استمرت قرابة نصف قرن.

ولكن الواقع أخلف هذا الظن، فقد كشف اليهود عن وجههم الحقيقى الذى يحمل ملامح القبح والتعصب والجشع والدموية والرغبة فى الهيمنة على المنطقة العربية كلها، فضلاً عن عدم التسليم بحقوق الشعب الفلسطينى أو الموافقة على تنفيذ القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن الدولى أو الجمعية العامة للأمم المتحدة.

تكشف رواية «أحمد وداود» أعماق القبح والتعصب والجشع والخسّة، والتوحش فى الشخصية اليهودية، وتوضح مراحل اغتصاب فلسطين، وأساليب السيطرة عليها، والقفز على القيم الإنسانية، والقوانين الدولية وتكريس العنف والدم وذبح الفلسطينيين بلا رحمة.

أحمد وداود
فتحى غانم
القاهرة - دار الهلال - ١٩٨٩

يقدم لنا «فتحى غانم» من خلال شخصية «أحمد سالم» المسلم، وشخصية داود بن شالوم اليهودى، صورة مبسطة ولكنها عميقة؛ للصراع الذى فرضه النازيون اليهود على الأمة العربية والإسلامية بمساعدة الغرب الاستعمارى، وذلك عبر العلاقة الحميمة التى كانت تربط بين الشخصيتين منذ الصغر، ثم انتهت هذه العلاقة بالغدر والخيانة والقتل، والاستيلاء على الأرض واستباحة العرض، من جانب داود وأشياعه!

[٣]

تبدأ رواية أحمد وداود هكذا..

«عندما قال لى الطبيب إنى مريض.. قابلت ما سمعت بوجوم وبلادة، وكأنه يتحدث عن شخص آخر لا أعرفه، أو ربما أعرفه ولكننى لا أستطيع أن أحدد نوع علاقتى به، ومع ذلك لابد أنى كنت خائفًا بل مذعورًا دون أن أدرى، فقد عانيت من تقلصات فى بطنى، وكنت ألهث وأنا أمشى كما لو كنت أجرى هاربًا من شىء مجهول يجرى خلفى ويطاردنى، وأنا أرفض أن أواجه أن الذى أريد أن أهرب منه قابع فى أعماقى».(ص٧)

ومن خلال هذه البداية يقوم الكاتب بعملية تخييل ليوهم القارئ أن ما يكتبه يمتزج بالخيال، «فأنا أكتب لأسجل تجربة شخصية غريبة بعد أن راودتنى تلك الأحلام الليلية ولا أدرى كيف بدأت»(ص٧)، ثم يوضح سببًا معقولاً لحكاية هذه التجربة يتلخص فى أن المرض الذى أصابه ويوشك أن يخرجه من هذه الدنيا قد ساعد على إفراز نوع من الهرمونات حولته إلى شخصين. أحدهما المريض، والآخر ذلك الذى تراوده أحلام الليل وهو «أحمد سالم» الذى يعيش فى بلدة «د» على مقربة من القدس «ولا أدرى كيف تتقمصنى شخصية أحمد، ولا أدرى كيف عرفت القدس التى لم أزرها قط، ولكنى واثق أنى رأيتها من خلال هذا الشخص الآخر الذى هو أحمد». (ص٧)



وفكرة التقمص هذه، أو انقسام الشخصية إلى اثنين، سبقت معالجتها، ولعل أبرز من لجأ إليها «نجيب الكيلانى» فى روايته «عمر يظهر فى القدس»، و«لويس عوض» فى روايته «العنقاء أو قصة حسن مفتاح»، وهى وسيلة من وسائل التغلب على بعض مصاعب السرد بالضمير الأول - أو ضمير المتكلم - والتمكن من تقديم صورة أكثر شمولاً واكتمالاً لبعض ملامح الشخصية أو جوانب الحدث. وهو ما نلاحظه على امتداد الرواية التى صاغها الكاتب عبر فصول مرقمة تبلغ ستة عشر فصلاً تتضمن مراحل استلاب فلسطين وذبح أهلها وطرد معظم من تبقى منهم بعد تدمير بيوتهم وقراهم، كما تصور تحول اليهودى الغريب البائس إلى كائن دموى لا يعرف غير القتل والسلب والنهب والإرهاب والترويع!

ويكون الحلم عادة هو الآلية التى يلجأ إليها الروائى لإطلاق عملية التقمص، حيث يتجاوز الزمان أو المكان، ليعبر من خلال الشخصية المتخيلة أو المستدعاة عبر الحلم،

أحمد وداود
السلام المستحيل

عما يريد من تصورات أو أفكار أو مفاهيم، وهو ما يشير إليه «فتحي غانم» في روايته. «ولقد رأيت فيما يرى النائم، أني أجرى لاهثًا نحو قريتي «د» في يوم قائظ وهلع كبير ينهش صدري، لأن أمي وأبي وإخوتي وأطفالهم يذبحون بالخناجر بينما ينسف الديناميت بيوتنا، ولا أعرف كيف جاءني النبأ، وقد أتبين تفاصيل ذلك فيما بعد(ص٩)».



كما يستعين الكاتب بالخيال الذي يطلق له العنان لينقل القارئ إلى الزمان البعيد والمكان البعيد أيضًا، وها هو ينقلنا إلى الشام والماضي الذي شهد المأساة الفلسطينية من خلال الجَد/الإنسان الذبيح الذي قضى عليه اليهود غدرًا وغيلة:

«وكان خيالي يسرح مع جسده المسجى على الفراش فأكاد أراه ممتدًا حتى الشام. تلك البلاد التي لم أزرها والتي يسكنها أشقاؤه. وقبل أن انتبه جذبتني الأيدي بعيدًا عن فراش الموت بينما ارتفع صوت النواح والبكاء يزلزل أرجاء البيت، ومع غياب جدي لم يعد أحد يذكر شيئًا عن أهلنا في الشام، ولكن شيئًا ما ظل محفورًا في أعماقي كما لو كان سردابًا في نهايته عالم مسحور يقف فيه جدي بحكاياته وأهله وعياله في الشام. وأصبحت الشام ذلك الأفق الذي يمتد إليه الخيال، والذي تعيش فيه الذكريات المنسية، وذلك الاتساع أو تلك الرحابة التي تهفو إليها النفس عندما تحاصرها هموم الواقع وأحزانه (ص٨)».

إن الحلم مع الخيال يشكلان مدخلاً إلى البناء الروائي بحيث تتواصل الأرواح، والأحداث أيضًا، كان يرغب «أحمد» بطل الرواية في لقاء صديق الطفولة «داود»، أو ينتظر منه أن ينقذه من الموت الذي ينشره اليهود في كل مكان، ولكنه يطلق الرصاص عليه وتبدو المفارقة في المواقف شاسعة وصاعقة بين سذاجة «أحمد» الطيب، وشراسة «داود» الشرير.

«وتقدمت خطوات وأنا واثق أني رأيته. داود بشحمه ولحمه. رآني كما رأيته. وتهلل وجهه كما تهلل وجهي. فإذا كان داود موجودًا فلا أظن أنه يسمح بذبح أبي وأمي وإخوتي، الأنباء التي وصلتني مبالغ فيها، ولكن هؤلاء الغرباء من اليهود منتشرون في كل مكان.. بينهم فتيات لعل سارة بينهن.. إحداهن تلوح بخنجر.. يا إلهي إنه ملوث بالدماء. أسرع إليّ يا داود، خبّرني ما الذي حدث، سمعته يصيح أحمد، وصحت به داود. كان يقترب مني وأنا أقترب منه، وكانت في يده بندقية ولكن منظرها لم يزعجني. فقد كانت نوبة الهلع تتراجع وتنحسر بسرعة، وذكريات صداقتنا أنا وداود تتدفق في رأسي، حاملة معها مشاعر مختلطة.. (ص٩)».

ولكن الأحداث فيما بعد تشير إلى غير ذلك، فقد نسي داود الصداقة، ولم يقم بإغاثة صديقه، بل قام مع شقيقته «سارة» بالغدر بالصديق وأهله وقريته جميعًا!

وهذا البناء الروائي الذي يعتمد تيار الوعي والمونولوج الطويل الممتد، يتم في وقت ضيق للغاية، أو فترة زمنية قصيرة للغاية هي فترة إطلاق الرصاص على أحمد وانتظاره لطلوع الروح، أو خروجها من جسده، ويشير إليه الكاتب عبر السرد في صراحة، وكأنه يذكرنا نحن القراء بهذه الحقيقة التي تكاد تتلاشى في خضم الصراع بين الأشخاص والأحداث: «هذا الذي أراه كما عاشه داود يتكشف لي كرسالة متأخرة تأتي عبر الزمان. وأنا أقترب من هذا الجزء من الألف من الثانية الذي تبقى لي من الحياة» (ص٩٨).

ولا يمل الكاتب من الإشارة إلى هذه الحقيقة كلما تقدم السرد واقترب من النهاية، «ولكني في لحظات متقطعة أقاوم العتمة والغمام، ويخيل إليّ أنه انقشع فتدب في أوصالي حياة أعرف أنها توشك أن تفلت مني.

وتتراءى لي مشاهد من ذكرياتي يخيّل إليّ أنها تأتيني كتدبير من الله سبحانه وتعالى، فمازالت إرادته فوق إرادة جميع البشر، ولها إشارات تكشف عن نفسها لمريض مثلي وهو يشرف على نهاية الرحلة على ظهر الأرض. إنها إشارات كالأساطير أو هي حقائق، والأيام حبلى بها، ربما ستنكشف عنها بعد طول انتظار في عالم الغيب..» (ص١٣٥).

إن سرد الرواية يأبى إلا أن يذكرنا بأن الراوي يسرد الأحداث في لحظات مكثفة للغاية وهو يقترب من النهاية، التي يصورها في مشهد بديع مع القرين الذي حل فيه وقدم لنا صورة من الصراع بين الغزاة الغرباء وأهل البلاد الطيبين، وانتهت إلى المذابح والإبادة والتهجير لهؤلاء، والتمكين والحياة والتفوق لأولئك:

«يا إلهي. نظرت حولي، كانت شوارع المدينة قد اختفت، رغم أني مازلت أذكرها، ورأيت أمامي غابة من أشجار الزيتون، وكان نور الفجر يشقشق في السماء..

وهمست بصوت ضعيف:

إلى أين تمضي بي؟

قال وهو يضمني إلى صدره:

- أما وقد عرفتني.. آن لك أن تستريح.

كانت سحب كثيفة رمادية في السماء، وكأني أسير إليها مبتعدًا عن الأرض. وكانت قدماي تقودانني إلى سرداب تحت أشجار الزيتون.

وكان أحمد سالم يبتسم» (ص ١٣٩).



إن انتهاء الرواية بالفراق بين الراوي والبطل، يضع حدًا لرحلة عذاب عاشها الشعب الفلسطيني من خلال «أحمد سالم» المسلم وأسرته ومواطنيه، على يد الغزاة اليهود الذين جاءوا من شتى أقطار الأرض ليقيموا دولة تعتمد على الإرهاب والعنف والدم، ويشاركهم اليهود المقيمون الذين تنكروا للماضي والأخلاق والعلاقات الحميمة.



بيد أن الرواية في بنائها الفني، وإن اهتمت بإبراز مظاهر الخداع والغدر والوحشية لدى اليهود، وانتصارهم الإجرامي على الشعب المسالم، لم يغفل الإشارة إلى المستقبل، والتنبؤ به من خلال بعض اللقطات التي تشي بالأمل وتصحيح الخطأ واستعادة الحقوق، فهناك حقيقة أن الفلسطينيين - مع كثرة المذابح والشهداء - يتفوقون في الإنجاب وعدد الأولاد، مما يعني أن الأغلبية لهم بالضرورة في قادم الأيام. ثم إن الفلسطيني يعيش في المنفى ويحمل معه وثائقه ومفتاح داره مما يعني أن حقه لن يضيع طالما ظل يطالب به، فهذا الصندوق الذي يعيش مع الفلسطيني المقيم في بورسعيد يحمل بداخله أوراق التسجيل في الشهر العقاري لأملاكه، «سوف يحمل أولاده هذا الصندوق في طريقهم إلى القدس، كما حمل جنود اليهود صندوق الشريعة يتقدمون به إلى القتال، لابد أن يتحقق العدل الذي تثبته المستندات والأوراق في الصندوق..» (ص١٣٦)، بل إن الحلم بالعودة والحرية والاستقلال يتحول إلى ما يشبه الحقيقة الواقعة من خلال هذا الحوار بين «أحمد سالم» وقرينه أو الراوي، وفيه إشارة لا تخفى إلى الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧ التي تمردت على الخوف والبؤس والاستكانة:

«ورأيت سارة والسكين في يدها يقطر دمًا.

لم أحب سواها، وكان يقول لي:

في أرضنا تلد الأرض الأبناء كما تلدهم أرحام الأمهات.

همست:

- متى ولدتك الأرض؟

قال ضاحكًا وضحكاته تتحول إلى قهقهة صاخبة:

- يوم خصبت الأرض بدمك.

همست:

- يوم قتلني ذلك المارد.

قال ساخرًا:

- أي مارد.. ليس بينهم مردة ولا عمالقة.

ورأيته ينحني على الأرض ويمسك بحصاة.. وقال في مرح وهو يقذف بالحصاة بعيدًا:

- إننا نرجمهم كما نرجم الزاني والزانية.

سألت في لهفة:

- متى يحدث هذا؟

قال بسرعة:

- الآن..» (ص١٣٨).

[٤]

بالضرورة؛ فإن مكان الأحداث هو فلسطين قبل الاحتلال النازي اليهودي، ولكن الكاتب جعل بؤرة المكان تتركز في قرية «د»، وهي تسمية رمزية كما نرى، لأن القرية المجهولة القريبة من القدس صارت تشير إلى كل القرى والأماكن التي تشمل فلسطين، وترتبط بالمدينة المقدسة جغرافيًا أو روحيًا، التسمية الرمزية إذًا تشير إلى عمومية المكان، وبالتالي عمومية القضية التي يعالجها الراوي من مكان آخر لم يوضحه بدقة، ولعله يقصد بذلك أن يكون هذا المكان في القاهرة أو دمشق أو بغداد أو الخرطوم أو الدار البيضاء. هذه الأماكن ترمز إلى العرب خارج فلسطين، مما يعني أن المسألة أو المأساة ليست قاصرة على الفلسطينيين وحدهم، ولكنها تمتد لتشمل المحيطين بفلسطين من المحيط إلى الخليج، وكان يمكن أن تمتد أكثر لتشمل البعد الإسلامي، بوصف القضية تعني المسلمين جميعًا لما تمثله القدس من رمز روحي وتاريخي يعني الشعوب الإسلامية، ولكن الرواية تجنبت الإشارة إلى هذا البعد واكتفت بالبعد العربي، بل إنها اختزلت هذا البعد في شخصيات الرواية داخل مصر وحدها، في صورة ضابط مصري يأتي للتدريب في معسكرات الإنجليز بالقدس، فيقوم بمساعدة الفلسطينيين عن طريق التدريب والإمداد بالسلاح.

شخصية «أحمد سالم» المسلم، وشخصية داود بن شالوم اليهودي، صورة مبسطة ولكنها عميقة؛ للصراع الذي فرضه النازيون اليهود على الأمة العربية والإسلامية بمساعدة الغرب الاستعماري، وذلك عبر العلاقة الحميمة التي كانت تربط بين الشخصيتين منذ الصغر، ثم انتهت هذه العلاقة بالغدر والخيانة والقتل



ويظل المكان في الرواية محورًا مهمًا، فهو من ناحية موطن الفلسطينيين الذين عاشوا فيه قرونًا طويلة، ويتمسكون به، ويستضيفون من يأتي إليهم ويودعونه بعد أن تنتهي ضيافته، ولكنهم لم يتصوروا يومًا أن يتحول الضيوف إلى أصحاب بيت يخرجون أصحابه منه، بل يذبحونهم ويبيدون قراهم ومدنهم، ومن ناحية أخرى فإن

أحمد وداود
السلام المستحيل

الغرباء تحت دعاوى أسطورية باطلة يتصورون أن أرض فلسطين بلادهم الأصلية التي خرجوا منها قبل آلاف السنين ومن حقهم أن يعودوا إليها بالسيف والدم وكل الأساليب المتاحة لهم.. وهكذا تعرَّضت قرية «د» وبقية القرى والمدن الفلسطينية المسالمة إلى حمَّامات الدم التي أقامها اليهود لسكانها، مع أن قرية «د» مثلاً كان أهلها في علاقة قوية مع اليهود من خلال السوق عند «بركة المياه»، لدرجة أن النساء العربيات تعلمن العبرية ليخاطبن الزبائن اليهود. وقدَّمن أفضل ما لديهن من بيض ودجاج وحليب، واشتغل «أبو مروان» في إقامة الصهاريج في مستعمراتهم، ورحب «مختار» العجوز بالدكتور «روزنبرج» مالكًا جديدًا لضيعة الأنصاري!

قرية «د» هي الأرض، وهي البركة، وهي البيارة، وهي قلعة الأنصاري، وهي القدس وبناياتها المغسولة، وهي مدرسة المجلس الإسلامي، وهي فلسطين عند الفلسطينيين يدور حولها الصراع، ويسعى الغاصبون إلى تقسيمها كما فعل وايزمان وكوبلاند في اتفاقهما الغادر.

وقرية «د» هي الأرض الطاهرة، وهي شرف اليهود، وهي المعبد اليهودي، وهي المستعمرات، أو هي الكيبوتزات، وهي دكان شالوم بائع الساعات، وهي الوكالة اليهودية، وهي مدرسة إيفيلينا دي روتشيلد، وهي مستقبل اليهود الغزاة الذين حولوها إلى حمام دم، بعد أن ذبحوا أهلها وروعوهم وطردوا من بقي منهم حيًا!

المكان في الرواية يمثل بؤرة الصراع البشري بين فريقين. الفريق الطيب الساذج الذي يتعامل بعفوية وبراءة، والفريق الشرير الغازي الذي يخطط بخبث ودأب وشراسة ليحقق أهدافه في الأرض «الطاهرة»، حيث وصف هذا الفريق الأرض التي قدم منها في أوروبا وآسيا وأمريكا بالأرض «العاهرة»، وهو ما يعطي دلالة على القسوة اليهودية البشعة ضد الفلسطينيين أصحاب الأرض الحقيقيين.

للأسف لم يفكر الفريق الطيب الساذج في قيمة الأرض إلا بعد أن تكشفت الجريمة والخديعة من الفريق الشرير الغازي، وهو ما عبر عنه «أحمد» بعد حين، في تيار شعوره المتدفق عقب إطلاق الرصاص عليه، وانتظاره للموت، إنه يتذكر علاقة الصداقة بينه وبين داود، ويستعيد معالم الطفولة وهما يلعبان ويتسابقان. وكأن السباق بينهما يعادل السباق بين العرب واليهود على امتلاك فلسطين والبقاء فيها؛ وتبدو أهمية الأرض بالنسبة لأحمد حيث صارت بينها وبينه لغة مشتركة وأحاسيس متبادلة:

«.. كنت واثقًا أني سالحق به، وساصل إلى الشجرة قبله، لأن قدميَّ تعرفان الأرض، وبينها وبين كل موطئ قدم عمار وألفة، والأرض أرضي، والشجرة شجرتي، وارتطام عظام قدمي بالأرض يملؤني دفئًا، وتجري أحاديث خاصة بين قدميَّ وأرضي، لغة مشتركة، بينهما من الأحاسيس والتجاوب الذي يسري في أوصالي، وأشعر به ممتدًا في التراب والحصى والهواء، ممتدًا في عروقي وأنفاسي، وكلنا واحد، وأنا لا أعدو إلى الشجرة، لأني وهي كيان واحد، حتى وأنا بعيد عنها، وهي معي وهي هناك تنتظر مقدمي..».

ولا يفوت البطل، وهو يتحدث عن هذا السباق المحموم بين طفلين ودلالته الجديدة التي تحولت من لعب بريء إلى غدر دام:

«كان داود في تلك الأيام يلهث بجواري، أنفاسنا تتصاعد، وهو يقول لي:

ـ ساسبقك المرّة القادمة.

لم يقل لي في ذلك الوقت.

ـ سنقتلك المرة القادمة»

(ص٤١).

أحمد طفل بريء يرتبط بأرضه شعوريًا ويتبادل معها الأحاسيس، و«داود» طفل غامض، حذر، يسعى لتملك الأرض بعد أن اشتد عوده، وقتل أهلها الأصليين، وأفسح المجال ـ بالقتل والدم ـ لليهود الجدد الذين يخافون من ظلّهم، ويفرون من بلادهم خوفًا من هتلر (ص٤٤).



وتظهر في المكان أهمية المستعمرات اليهودية على أساس أنها بؤر انطلاق عسكرية، ينطلق منها المستعمرون اليهود لشن غارات على أهل البلاد الأصليين وقتلهم أو إرغامهم على الرحيل والهروب، بعد ترك دورهم وممتلكاتهم. لقد تحولت ضيعة «شوكت» مثلاً إلى مستعمرة يهودية تغص بالمتدربين والسلاح، وتحوطها الأسوار والأسلاك الشائكة، وتفضلها البنات اليهوديات على الذهب والحرير، لأنهن يتسلحن بالقنابل ويحملن السلاح.

من أجل ترسيخ المستعمرات وتهويد الأرض يسعى اليهود إلى إزاحة العرب عن كل مكان يساعد على استمرار الحياة العربية ونموها وهو ما حدث مع «بركة المياه» التي كان يشرب منها الفلسطينيون ويتوضأون، وتتجمع حولها القرويات لبيع البيض والجبن لليهود بأرخص الأسعار، ولكنهم اليهود يعملون على سحب مياهها لزراعة المستعمرات، وتعديل مسار الطريق، وتقوية شوكة المستعمرين، ويلقون فيها بجثة جمل ميت حتى لا يقربها العرب، وكأنها ـ أي جثة الجمل ـ نبوءة بأنها ستكون مقدمة لخاتمة «تنتهي بجثثنا جميعًا» كما قال والد أحمد (ص٧٥).

المكان يشكل لب الصراع وجوهره على مدى سطور الرواية. وسطور الواقع أيضًا، وهو ما شكل طبيعة الشخصيات الروائية عبر هذه السطور، ورسم سلوكهم وتصوراتهم. وجعل الرواية قصة مكان يخلو من أصحابه ويحل مكانهم غرباء أشرار أقوياء!

أما الزمان فيبدو وكأنه توقف على مدى قرن من الزمان، حيث إن ما جرى بالأمس هو ما يجري اليوم، أو ما سيجري غدًا، مع تغيرات وتطورات تبدو هامشية، وإن كانت الانتفاضة الثانية (٢٨سبتمبر٢٠٠٠) تبدو وكأنها تبشر بتحريك الزمان لتكون أحداثه كيفية أو نوعية مختلفة عن العقود الماضية، ولعل هذا ما جعل الكاتب لا يحدد الزمان التاريخي تحديدًا قاطعًا. ولكنه تركه لاستنتاج القارئ، حيث يعلم من ثنايا الرواية أنه مرحلة الغدر اليهودي بالشعب الفلسطيني والاستيلاء على أرض فلسطين وإقامة الكيان الصهيوني على أطلال القرى والبيارات والمدن الكبرى والصغرى التي احتلها بقوة السلاح. إنها فترة الثلاثينيات والأربعينيات التي شهدت التآمر الخارجي والقلق الداخلي في البلاد العربية وانتهت بهزيمة الجيوش العربية وانتصار اليهود بإقامة دولة لهم في فلسطين يحميها المستعمرون الكبار في أوروبا وأمريكا وروسيا، سياسيًا ودبلوماسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا. لقد كانت هذه الفترة التاريخية حافلة بالأحداث والآلام، وكان لها تأثيرها فيما بعد على القضية الفلسطينية والدول العربية جميعًا، وإن بدت الأحداث متشابهة والنتائج متشابهة: إحباط وهزائم ودماء وضياع ومتاعب، مع أن الانتفاضة الثانية ـ كما أشرت ـ قد بدأت تعطي الأحداث طعمًا آخر يخرج بها من دائرة الأحداث المتشابهة والنتائج المتشابهة!

أما الزمن الروائي، فهو كما أوضحت سلفًا يجري مكثفًا ومركزًا في إطار لحظة احتضار البطل «أحمد» الذي يتذكر قبيل موته أو استشهاده على يد من كان يعدهم أصدقاءه تاريخ حياته وعلاقته بداود وشقيقته «سارة» اليهوديين منذ الطفولة، وعن طريق الحوار الداخلي يمتد الزمان ويتسع ليقدم لنا قصة الوطن السليب الذي ضاع بسذاجة أصحابه وطيبتهم، وغدر أعدائه ومكرهم، ويلاحظ أنه زمن دائري يبدأ من نقطة الاحتضار ليعود إليها، بعد أن توغّل في الماضي ودار في أرجائه، ثم رجع إلى حاضره المأساوي الذي يشهد موته وانتهاء حياته وضياع وطنه. وهذا الزمن في مجمله غير طيب، ولا يوجد فيه ما يدل على الخير «هذه أيام النحس.. لا شيء يكتمل» (ص١٠٣). والوصف هنا قاصر على ما يخص العرب الفلسطينيين: أشخاصًا وأحداثًا. أما الأعداء فقد سرقوا الوطن وتمكنوا منه واستمتعوا به وأيديهم ملوثة بالدم وصفحاته مجللة بالغدر.

[٥]

«أحمد» هو البطل، ويتقمص الراوي شخصية أحمد ليحكي في لحظة احتضاره تاريخ طفولته مُذْ ولد لرجل بسيط يملك معملاً لصناعة الخزانات المائية للبيوت، وامرأة فلاحة تعمل ليل نهار. الوالد يتعرض للبطش من رجال الحكومة كي يدفع الإتاوات أو الضرائب الباهظة، وللضغوط من مختار العجوز كي يتزوج ابنته، وللديون التي لا يستطيع معمله الذي يملكه الوفاء بها، وفي الوقت ذاته لا يقدر على استمرار تشغيله. والطفل «أحمد» هو آخر «العنقود» مما يجعله محل سخرية من شقيقيه الكبيرين «مروان» و«حسان»، فهو المدلل المرفّه الذي لم يتحمل المسئولية، وهو الذي يشغله «أبوه»: زير النساء، كما تشغله «سارة» اليهودية شقيقة «داود» التي حاول أن يكسب ودّها بحكم نشأتهما معًا منذ الطفولة، ولكنه يخفق، فهو ليس مثل أبيه، ويغمره إحساس بالمهانة أكبر من احتماله. يقول له أبوه:

«ماذا دهاك يا ولد.. مالك ذاهل حزين. أرى دموعًا جامدة تضر عينيك. هل أنت متيم تعاني من غرام امرأة. هأنذا أراها مختفية تحت جلدك» (ص١٥) ويعلق أحمد: «خيل إليَّ أن قلبي يتفسأ، وجلدي يتمزق وقد انتشرت فيه شقوق تؤلمني، ولكن سارة اليهودية تظهر من بين هذه الشقوق» (ص١٥)، لأن سارة في كل الأحوال بالنسبة لأحمد «جسد لذيذ ولا يلد الأولاد» (ص١٤) أو ليس في هذه الحياة «بصيص فرحة أو ضحكة. سوى تلك التي وجدتها عند سارة» (ص٥١).

أحمد يبدو شخصًا طيبًا ساذجًا، يظن أن سارة ستعطيه الحياة، ولكنها في حقيقة الأمر وكما ستثبت الأحداث ستحرمه من هذه الحياة بطريقة وأخرى، وحين تتكشف له طبيعة المؤامرة اليهودية والغدر اليهودي، ويسعى للانضمام إلى المجاهدين الفلسطينيين، فإن سارة تقف حائلاً بينه وبين العمل المثمر. إنها



إن انتهاء الرواية بالفراق بين الراوي والبطل، يضع حداً لرحلة عذاب عاشها الشعب الفلسطيني من خلال «أحمد سالم» المسلم وأسرته ومواطنيه، على يد الغزاة اليهود الذين جاءوا من شتى أقطار الأرض ليقيموا دولة تعتمد على الإرهاب والعنف والدم، ويشاركهم اليهود المقيمون

أحمد وداود
السلام المستحيل

تشغله عن الجهاد، وتحبط محاولة جادة لمقاومة الإجرام اليهودى، شارك فيه «أحمد» لأنه نسى المهمة التى كُلِّف بها، وتسلل إلى المستعمرة التى تقيم فيها وتتدرب(!)، ولكن الشهيد «عبد القادر الحسينى» يتسامح معه، بعد أن يلقنه درسًا فى كيفية أن يتطهر المقاوم من التلوث!

وفى نهاية المطاف لا يسلم «أحمد» من الغدر، ويموت شهيدًا على يد أصدقائه اليهود، ويرى وهو فى غمرات الموت «سارة» فى فناء الدار تقترب من أبيه «تميل عليه، عيناه نصف مغمضتين، أثرياء، مازال جسده دافئًا، مرّت بالسكين على رقبته، نحرته، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها. وقال العازار الكاهن لرجال الجند الذين ذهبوا للحرب هذه فريضة الشريعة، الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والرصاص، كل ما يدخل النار تجيرونه فى النار فيكون طاهرًا.. أحصى النهب المسبى من الناس والبهائم، ونصف النهب بين الذين باشروا القتال الخارجين إلى الحرب وبين كل الجماعة، إنها الشريعة» (ص١١٦ - ١١٧).



هكذا كانت فجيعته فى الفتاة اليهودية التى أحبها. لقد جزّت رأس أبيه بالسكين وفقًا للشريعة اليهودية، وهو الذى كذب على «عبد القادر الحسينى» ولم يذهب لينسف مستودع الذخيرة الذى كُلِّف بنسفه، وذهب لينسف غرامًا يشعر نحوه بالذنب، فكان لابد من الفشل، ولابد من الدموع، وكان على «عبد القادر الحسينى» أن يلقنه الدرس:

« - نحن جميعًا مازلنا نتعلم.. لقد سبقونا.. وعلموا حتى نساءهم.. فاصبر..» (ص٨٦).

وتكتمل الفجيعة حين تتنكر لأحمد وهو جثة ملقاة بجانب الجثث الأخرى التى قتلها المتوحشون اليهود:

«وكانت تقول لهانز أولافسون قبل أن تمد يدها إلى الجثة التى جاءوا بها أخيرًا وألقوا بها فى نهاية الصف، حيث يقف «هانز» مع «سارة»:

- أما هذا فاسمه أحمد.

وسألها هانز فى دهشة:

- أتعرفينه؟

قالت بصوت أجش:

- لا.. لم أعرفه أبدًا.

ولم يسألها هانز كيف عرفت اسمه. كانت خشونة صوتها تعنى أنها لا تستريح لمواصلة الحديث» (ص١٣٣).

لقد كان «أحمد» يلتمس لها الأعذار، وكان يراها عطوفة ناعمة وهى مسلحة بالقنابل ومدججة بالسلاح، وأراها طيبة حنونًا، «وهى مربية خادعة تعيش مع أوغاد يسوسونها» (ص١٧).

إنه يرجع ما تفعله إلى قادتها الذين جندوها، وحوّلوها إلى كائن مسخ، سلاح فى يد الإنجليز، سارة وَهْمٌ، لم تعد فتاة ولا امرأة، ولا أنثى «لن أرى بلادى من خلال جسد امرأة» (ص١٠٥).

«سارة» شقيقة داود. إنها بنت «شالوم» الساعاتى، صاحب دكان فى القدس، وابنة امرأة سمينة ضخمة كسولة مسترخية متدينة بخيلة، على العكس من «أم أحمد» التى تعمل ليل نهار. انضمت سارة إلى العصابات اليهودية وتدربت على السلاح وصارت مثل الشبان، ولكنها عادت إلى البيت مع سائر البنات بعد إعلان فشل التجربة، وقيل إن المرأة للبيت والحياة الوادعة والرفاهية، وأن الاعتماد على الرجل فقط. المرأة ليست لحرث الأرض والتدريب على إطلاق الرصاص والهجوم بالخناجر.. ولكنها مع ذلك عادت إلى المزرعة - المستعمرة (الكوبيتزم). لتتحول إلى فتاة شرسة، ويبدو «فتحى غانم» سباقًا فى استنتاج أن فتيات اليهود أشد قسوة من الرجال، وذلك من خلال الحوار على لسان إحدى الشخصيات (ص٨٢). إنها فى المزرعة / المستعمرة ترتدى السروال والحذاء الضخم، فى يدها مدفع رشاش، وعلى رأسها قبعة، لا تبالى بمن يفترض أن يحبها وهو «أحمد. إنها تسخر منه، وتراه مجنونًا حين ينتظرها فى الشتاء، فهى لا تكترث بحبه أو انتظاره، وتلوح بالمدفع الرشاش فى يدها وتحدثه بمنتهى القسوة، إنه قد ينتظر لتقتله، وأنها لو رأته فى أية مناسبة قادمة يحوم حولها فى المزرعة / المستعمرة، فسوف تقتله برصاص مدفعها الرشاش، وتحذره من الاقتراب من موقعها كى لا ترديه قتيلاً، وهو القتل الذى تمارسه مع العرب، وقد مارسته فيما بعد، مع أسرة «أحمد» ورآها وهى تحزّ رأس أبيه بالسكين.



و«سارة» ليست وحدها فى هذا السياق، فهناك غيرها كثيرات، وعلى رأسهن «راشيل» التى تقود البنات فى المزرعة / المستعمرة، إنها راشيل هادمة اللذات ومفرقة الأحباب، إنها الجادة التى تعلم البنات اليهوديات أعمال الرجال، حتى حراسة المزرعة، وتتحول البنت الأنثى الناعمة إلى أفعى شرسة مقاتلة تقبض على الخناجر تغمدها فى بطون النساء الفلسطينيات، وتمزق الأجنة، وتتوضأ بالدم الطاهر لأطفال أبرياء. إن «راشيل» تعمل من أجل إخراج البنات اليهوديات من المطبخ لزراعة الخضروات التى يحتجن إليها فى المطبخ، وفلاحة الأرض ليجنين المحاصيل والفاكهة، وتدريبهن على السلاح لحراسة الأرض، وتتحدى الدكتور «روزنبرج» الذى يستبعد قيام المرأة اليهودية بهذه الأعمال، وتقنعه بأن هذا أقل ما يجب أن تقدمه فتاة تعيش هنا.. «إنهن محظوظات إذ ولدن فى هذه الأرض» (ص٦٥) لقد أرادت «راشيل» أن تؤجر الضيعة للبنات تجمعهن من البيوت الشرقية ليتحولن إلى فتيات صالحات لبناء مجتمعهن الجديد!

إن «راشيل» تتغلغل فى أعماق البنات اليهوديات، لدرجة تعلقهن بها ودفاعهن عنها وعن خطتها بحكم أن اليهود - آنئذ - كانوا أقلية فى فلسطين، كما يعتقدن ويؤمن.



أما «داود» فلا يختلف عن أخته «سارة» كثيرًا، فقد كان صديقًا حميمًا لأحمد، ولكنه يمثل الشبان اليهود من أمثاله، وهم مصدر الهلاك والدمار بالنسبة للفلسطينيين. لقد تحولوا - وهو معهم - من حملان إلى ذئاب ويتحركون بمقولة إن اليهود لا يعرفون الراحة ولا يتركون للأمم الأخرى فرصة للراحة، ويسعون فى كل الأحوال إلى امتلاك «أورشليم» حتى تصبح بالنسبة لهم «تسبيحة الأرض»!

«داود» يترك فلسطين، ويسافر إلى «باريس» ليدرس هناك. أطبقت عليها جيوش الألمان، فاعتقلته مع أشباهه من اليهود، ونجا بأعجوبة حين زعم أنه - يا للمفارقة - عربى من فلسطين!، فأطلقوا سراحه، ولكنه عاد ليتفوق على النازيين فى قتل الفلسطينيين وتخريب ممتلكاتهم أو الاستيلاء عليها، مسكونًا بهوس إقامة المعبد الثالث مكان المسجد الأقصى.. لقد تحول «داود» إلى مصاص دماء مع أقرانه من الشباب والفتيات.

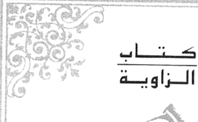
على الجانب الآخر كانت رموز العمل الفلسطينى تبدو مترهلة متناقضة متخالفة، ضاعت فيما بينها الأرض والكرامة، وكان وضع الأشخاص يدور فى إطار ذاتية أنانية أو عجز شخصى أو خيانة مقيتة أو مقاومة ضعيفة تعانى ضغطًا من الأهل والأعداء على السواء. وسوف نتوقف مع بعض الشخصيات التى رسمها الكاتب من خلال سلوكها وأفكارها لنتعرف على المدى الذى وصلت إليه المأساة الفلسطينية.

أبرز الشخصيات الروائية فى الجانب الفلسطينى «شوكت الأنصارى»، وهو زعيم شركسى يتحكم فى المنطقة، وهو سيدها المطلق لا ينازعه أحد. لا يحتاج إلى أن يفرض كلمته غير فرقعة سوط. إنه وتد من أوتاد الأرض برجاله وماله وسلاحه. كما يملك ضيعة عظيمة ولكنه باعها لليهود، يرى أنها ليست أرض أجداده، وإنما أرض أجداده فى أورفة (بتركيا)، وهو لا يريد الارتباط بالفلسطينيين إلى الأبد. ظل يمارس القهر ضدهم طوال وجوده بينهم، ويلعب القمار بالمال الذى يجلبه منهم بالقوة فى «مونت كارلو». ومع ذلك يتعلق الناس به طمعًا فى حمايته لهم، ولكنه لا يستجيب، ويرسل رجاله ليتناولوا الطعام مع اليهود ويطلبوا التعاون معهم، وبعد أن باع ضيعته لليهودى الألمانى الدكتور «روزنبرج» حين كثرت خسائره فى القمار، وقرر الرحيل مع الشراكسة عن فلسطين فى مشهد تمثيلى؛ كان من الطبيعى أن ينكشف سره كما يصفه أحمد:

«شىء ثقيل أصم ينمو فى صدرى بينما الجمال تتهادى خارجة من ضيعة شوكت الأنصارى تحمل الصناديق المزركشة ومن حولها الشراكسة فوق جيادهم متجهمين شرسين. فى نظراتهم قسوة وغضب، والويل لمن يقترب خطوة نحو الجمال، سوف يلسعه سوط الموت.

الويل لمن يقترب من الذهب المكدس فى الصناديق. إنه شوكت الأنصارى أغنى أغنياء الأرض، سيد الأرض ومن عليها، ملاذ الرجال، مصدر القوة، الجاه والنفوذ، مصدر الرهبة والخوف،

بالضرورة؛ فإن مكان الأحداث هو فلسطين قبل الاحتلال النازى اليهودى، ولكن الكاتب جعل بؤرة المكان تتركز فى قرية «د»، وهى تسمية رمزية كما نرى، لأن القرية المجهولة القريبة من القدس صارت تشير إلى كل القرى والأماكن التى تشمل فلسطين



كتاب الزاوية

دير ياسين
قرية فلسطينية

كانت دير ياسين تقع على المنحدرات الشرقية لتل يبلغ علو قمته ٨٠٠متر، وكانت تواجه الضواحى الغربية اليهودية للقدس التى كانت أقربها (مستعمرة غفعت شاؤول) تبعد عنها ١٢٠٠ متر تقريبًا، والتى تألفت من ست مستعمرات هى من الشمال إلى الجنوب: غفعت شاؤول، مونتفيورى، بيت هكيرم، شخونات هبوعليم، يفينوت وبيت فيغان. شكلت سدًا منيعًا بين دير ياسين والقدس. وأشرفت دير ياسين على مشهد واسع من الجهات كافة، وفصل بينها وبين المستعمرات اليهودية واد ذو مصاطب غُرست فيها أشجار اللوز والتين والزيتون وكُروم العنب. وارتبطت دير ياسين بالعالم الخارجى بواسطة طريق ترابى واحد تسلكه السيارات شمالى الوادى، وتمر عبر غفعت شاؤول، ومنها إلى القدس وغيرها.

بلغت مساحة أراضى دير ياسين ٢٧٠٠ دونم، كان أكثر من نصفها مزروعًا سنة ١٩٤٨. وكانت هذه الأراضى غنية بالحجر الكلسى المفضَّل للبناء. وهكذا بازدهار حركة البناء فى القدس فى إبان الانتداب ازدهرت صناعة قلع الحجارة وصقلها وتكسيرها فى دير ياسين، فانتشرت المحاجر والكسّارات على جانبى الطريق الموصلة إلى مستعمرة غفعت شاؤول.

وبازدهار دير ياسين زاد عدد سكانها من ٤٢٨ نسمة سنة ١٩٣١ إلى ٧٥٠ نسمة سنة ١٩٤٨، وارتفع عدد منازلها فى الفترة ذاتها من ٩١ منزلاً إلى ١٤٤ منزلاً. وتنوعت المهن التى عمل أهلها فيها، فمنهم معلمون فى مدارس قروية، وكتبة فى الدوائر الحكومية، ونجارون وسائقو شاحنات ونُدُل فى معسكرات الجيش البريطانى.



وهؤلاء الحراس يحرسون، الكنوز التى تحملها الجمال. هذا الذهب الذى يحرسه الشراكسة جمعوه بالسياط والبنادق وسال من أجله عرق غزير ودماء أغزر...» (ص٣٨).

بالطبع لم يكن ما تحمله الجمال ذهبًا، ولكنها أحجار أغلقت عليها الصناديق ليظل وهم السيادة الشركسية قائمًا، وهو ما كشفت عنه الأحداث فيما بعد، حيث خسر الأنصارى كل ما جمعه على موائد القمار فى «مونت كارلو»!

«شوكت الأنصارى» فى كل الأحوال يمثل النموذج الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه، وتدفعه أنانيته إلى التفاهم مع اليهود وبيع ضيعته وخيانة أشقائه المسلمين على النحو الذى نراه مبثوثًا فى ثنايا الرواية.

فى خلفية الأحداث تظهر شخصية «عبد القادر الحسينى» - شهيد القسطل، ورمز المقاومة الشرسة للغزاة اليهود - خافتة وإن كان تأثيرها يبدو طاغيًا على كثيرين، إنه يبدو نموذجًا وقدوة للشباب الفلسطينى، ومنهم «أحمد» بطل الرواية، كما تبدو كلماته منهجًا يسيرون عليه، ولعله كان سابقًا إلى منهج المقاومة المستمرة حتى لا يستريح العدو ولا يلتقط أنفاسه لتكون حياته صعبة ووجوده على أرض فلسطين مكلفًا للغاية، ومن كلماته المأثورة التى وردت فى الرواية عبر السرد: «عندما يحين القتال لابد أن تكون مستعدًا، اضرب ضربتك بكل قوة وقسوة وبلا تردد. وعندما تضرب اضرب بكل طاقاتك، لا تبخل بشىء، فلحظة أن تضرب، هى كل حياتك، لحظة فيها حياتك أو مماتك، ولا شىء آخر. ولكننا لم نجمع قوانا. انفقناها فى الغضب والانفعالات» (ص١٢٦).

هنالك ما يمكن تسميته بمجموعة الشخصيات على الجانب اليهودى، سواء شخصيات الرجال أو شخصيات الفتيات لهم ملامح مشتركة فى الفكر والسلوك، ويمكن تلخيصها فى الإيمان بالتوراة وتعاليمها وخاصة ما يتعلق بفلسطين والتمسك بها وطنًا قوميًا، ودولة الحلم الموعود، وضرورة تحقيق هذا الحلم بكل السبل وكل الوسائل بدءًا من الخداع والمراوغة حتى القتل وسفك الدماء، هو ما تبدى فى سلوك هذه المجموعات فى المستعمرات أو فى عمليات الذبح والقتل وبقر البطون وتمزيق الأحشاء وطرد الأحياء من الفلسطينيين إلى خارج فلسطين والاستيلاء على ممتلكاتهم وأراضيهم وبيوتهم.

تحرص هذه المجموعات على تنفيذ تعاليم يهودية مثل مهاجمتهم لصحيفة تعمل يوم السبت، ويرون أنها لا يمكن أن تكون صحيفة يهودية وتعمل يوم السبت، ومثل اعتقادهم أن الأم اليهودية هى التى تمنح وليدها ديانته اليهودية. وفى الوقت ذاته نرى هذه المجموعات تعمل بهمة وعزيمة لبناء الكيان الغاصب على أطلال فلسطين وشعبها، «كان الناس يتزاحمون فى الطريق، عيون ساخرة، وعيون هازئة، وعيون فيها قسوة، وبنات يرتدين ملابس العمال يرصفن مدخل حارة بيت إسرائيل. سارة وديبوراه فى فرقة البنات، فرّق بينهن الطرب وجمع بينهن العمل بالزفت والقطران فى رصف الطريق» (ص١٠٨)، وإذا كان رصف الطريق يمثل هذه الهمة وتلك العزيمة فإن هذه المجموعات تمارس القتل والذبح للفلسطينيين بالهمة ذاتها والعزيمة نفسها، وصفحات الرواية لا تبخل بتقديم نماذجها الوحشية والبشعة التى تخلف الجثث والأشلاء، والأصابع المقطوعة، والبطون التى خرجت أمعاؤها، والرءوس المفصولة، وأجزاء الأطفال: الأيدى والسيقان.. لقد زرعوا الموت فى كل بيت!!



ويمكن القول إن رواية «أحمد وداود» قد نجحت من خلال شخصياتها فى تقديم المواقف والأحداث على الجانبين الفلسطينى واليهودى. الأول طيب وساذج مشغول بالأنا الذاتية، يعيش متناقضات مزعجة، الآخر يعلم هدفه جيدًا يمارس المكر والخداع ويوظف كل الإمكانات لبناء قوته ويمارس العنف والإرهاب والذبح لتحقيق غاياته وتصوراته.

ولأن الرواية مكتظة بالأحداث والشخوص، فقد كان من الصعب أن يرسمها جميعًا الكاتب من الداخل، لهذا جاء معظمها مرسومًا من الخارج من خلال الأفكار والسلوك. صحيح أنه توقف مثلاً عند «سارة» ورسمها من حيث هيئتها: وجهًا وخدودًا وعينين وأنفًا وشفتين، كما رسمها من حيث سلوكها الداخلى فهى متقلبة المزاج نهمة إلى الجنس والدماء والعمل من أجل الدولة الحلم، ولكن الشخصية التى حظيت بحفاوة فنية واهتمام تصويرى كبير هى شخصية أحمد، وإن كان قد ركز على داخله من خلال استبطان عميق.

[٦]

«فتحى غانم» أديب يمارس الصحافة، وقد أفسدت الصحافة أساليب كثير من الكتاب، ولكن «فتحى غانم» كان حريصًا على الاحتفاظ لأسلوبه بالسلامة اللغوية والتعبير الدقيق باستثناء أخطاء قليلة، ومن هنا جاء أسلوبه فى روايته «أحمد وداود» بسيطًا دقيقًا يعتمد على سرد ما يقوله بطل الرواية «أحمد» على لسان الراوى من خلال الضمير الأول، مما يتيح له أن يحكى كأنه يتحدث بتلقائية وعفوية إلى صديق حميم، فتأتى جُمله فى الغالب قصيرة وموجزة بلا فضلات ولا زوائد، وكثيرًا ما ترد فى صورة الجملة الاسمية. يكتفى من علامات الترقيم بالنقطة بديلاً عن الفاصلة والفاصلة



أحمد وداود
السلام المستحيل

المنقوطة وعلامتى التعجب والاستفهام، وقد يأتى تكرار بعض أسماء الإشارة تأكيدًا لوصف يلح عليه. الفصل والوصل لهما دلالة وإيقاع وإيحاء:

«الدم يسيل ولكنه فى لحظات سوف يجف. كما جفت دمائى بعد أن سالت ونزفت فى عشق سارة. كرهتها بقدر ما أحببتها. ولا أدرى ما الفرق بين حب وكره لهذه الفتاة. لهذه المرأة، لهذه العاهرة، لهذه الأنثى القاتلة» (ص٥٢).

ولأن الرواية تعتمد الحوار الداخلى أو المونولوج الممتد الذى يكاد يشمل صفحاتها، فإن الكاتب ينجح فى تصوير ما يدور بداخل البطل ويبرزه بصورة ملموسة وحية تكاد تتحرك:

«فعندما يفيض بى الشوق ينخرنى جزع يسلمنى إلى فزع وفزع يسلمنى إلى جزع يستوليان على ويتقاذفانى حتى تصرخ أعماقى لابد من التخلص منها لابد من قتلها. يا إلهى أنا أول من فكرت فى القتل..» (ص٥٢).

ويختلط الحوار الداخلى بالتوليد الذهنى والفكرى مما ينتج عنه الاستطراد فى السرد، ولكنه استطراد محكوم بالبناء الروائى، بل يوظفه الكاتب لتقديم «الحلم» و«التخيل» و«التذكر»، مما يعطى صورة متكاملة عن الشخصية الروائية وأبعادها العميقة، وهو ما نراه على امتداد الرواية:

«كان شالوم يتحدث مع أبى عن الجنيه الفلسطينى ويقول له إنه يساوى ثلاثة دولارات ونصفًا وسمعته يقول:

ـ الحكومة لديها فائض كبير من المال، وسوف يسمح لها هذا الفائض أن تغيث القادمين من ألمانيا.

ثم صاح الرجل بصوت أشبه بولولة زوجته:

ـ إنهم يطاردوننا فى كل مكان..» (ص٣٥).

بيد أن الحوار فى الرواية بصفة عامة يشكل مرتكزًا مهمًا فى الكشف عن الأحداث وسلوك الشخصيات، وقد وظفه الكاتب غالبًا ليقدم صورة مكثفة للوحشية اليهودية وتجلياتها الظالمة والمظلمة، ونرى ذلك فى مواضع عديدة على صفحات الرواية، كما يكشف الحوار عن الرغبات الدفينة لدى اليهود وخططهم المستقبلية المدمرة بالنسبة للشعب الفلسطينى من خلال المواقف العابرة أو الهامشية التى تقدم فى النهاية دلالة عميقة وأصيلة.

وتستدعى الرواية فى بعض المواقف إشارات إلى القصص التوراتية. من ذلك ما تتحدث به سارة إلى أحمد عن انتماء أبنائها إلى العقيدة اليهودية، فيما لو تزوجته:

«لن أسمح لك أن تنازعنى أولادى. لن أطلب من سليمان أن يشطر الولد شطرين. لأنه لى وحدى، وهو يهودى كما أنا يهودية وسيظل يهودى (كذا!) كما أنا يهودية..» (ص٥٤).

كما تستدعى الرواية بعض الحكايات التى تجرى على أرض فلسطين ويغلفها إطار شبه أسطورى، كما نرى فى حدوتة سعود الخضرة وحروب الثأر بين أهل سعود وأهل المسعود، فى الوقت الذى يتناسى فيه الفلسطينيون ما يفعله بهم اليهود والإنجليز.

هناك تضمين من نوع آخر الغاية منه الكشف عن الظاهر والباطن فى مواقف اليهود الغزاة، وأيضًا كشف سلوك الإنجليز المعادى ونفاقهم، وعدم جدّيتهم فى ردع اليهود، وترك الحبل لهم على الغارب لينفذوا مآربهم. وفى الوقت نفسه تحرص الرواية على كشف مواقف جادة وجيدة لبعض الإنجليز. فهناك مثلاً حادثة مقتل اللورد موين بالقاهرة مما يعد غدرًا بالإنجليز، وتشرشل خاصة، وهو الذى قدم لليهود خدمات جليلة وانتصر لوعد بلفور الظالم، ولكن بن جوريون يعتمد على الوقت والنسيان خاصة أن تشرشل رجل عجوز، ويعد بأن تستأنف عمليات القتل والاغتيال بعد أن تهدأ العاصفة، بشرط البدء فى عملية ضخمة واحدة ليتأكد الإنجليز أن اليهود جادون، فإما أن ينفذوا وعودهم أو يبدأ اليهود فى عملياتهم ضد الإنجليز.

فإن «فتحى غانم» قدم فى روايته «أحمد وداود» قصة الغزو الاستعمارى اليهودى لفلسطين، واقتلاع أهلها منها، وزرع غرباء أجانب على أرضها، من خلال شخصية «أحمد» الذى غدر به أصدقاؤه اليهود، وذبحوا أهله وقومه، وقد حكى «فتحى غانم» هذه القصة بسلاسة ويسر، وراءهما جهد كبير وفن جميل.

المفارقة أن «فتحى غانم» وهو من المنتمين إلى اليسار، كتب هذه الرواية بتصور يتطابق مع التصور الإسلامى، ولا يتناقض معه، ولو أن أديبًا إسلاميًا أراد أن يكتب عن المأساة الفلسطينية بمثل هذا الوعى وذلك النضج لما كتب بغير هذا التصور، وهو ما يطرح مسألة هيمنة التصور الإسلامى على الأدباء العرب على اختلاف توجهاتهم الفكرية والأدبية بدرجات متفاوتة حتى يصل إلى درجة التطابق، كما رأينا عند «فتحى غانم»، وإن كان هذا التصور يتلاشى عند بعضهم إلى حد كبير، وخاصة ممن يناصبونه العداء والرفض.

وتبقى الإشارة إلى أن الرواية العربية فى شتى البلاد العربية قد عالجت المأساة الفلسطينية. وجاءت هذه المعالجة فى الغالب ناضجة تنظر إلى الأعماق، وتطرح الحلول الملائمة والمجدية، وتعد رواية «أحمد وداود» من أهم الروايات، حيث أوضحت طبيعة العدو الغادرة، ورصدت أسلوبه وسلوكه مع العرب، وتنبأت بموقف الأجيال الجديدة من المأساة الفلسطينية، ولعل ما يحدث الآن على أرض فلسطين هو تحقيق لهذه النبوءة الروائية أو جانب منها على الأقل.

كتاب الزاوية

دير ياسين
لماذا؟!

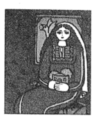
لم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية تعتدى عليها القوات الصهيونية سنة ١٩٤٨، نسفًا وقتلاً، كما لم تكن دير ياسين أول قرية فلسطينية تحتلها القوات الصهيونية سنة ١٩٤٨ وتطرد سكانها منها بعد أن استُشهد منهم من استُشهد، فقد سبقها كل من خُلدة ودير محيسن (الرملة)، ولفتا والقسطل (القدس).

كذلك لم تكن دير ياسين آخر قرية فلسطينية يصيبها ما أصابها، سنة ١٩٤٨، من قتل ونسف وتهجير واحتلال، فقد تبعها خلال السنة ذاتها أربعمائة قرية ونيف. فلماذا اكتسبت دير ياسين، من دون غيرها، هذه «المكانة»؟

أولاً: تميزت دير ياسين عن معظم شقيقاتها بقربها من عاصمة البلد، الأمر الذى مكّن من الاطلاع على ما جرى فيها بكل دقائقه.

ثانيًا: عقد قادة المنظمتين الإرهابيتين شتيرن والإرغون فى القدس، الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة (٩ أبريل) ذاته، مؤتمرًا صحفيًا تباهوا فيه بنصرهم «العسكرى» وبأنهم قاموا باحتلال «أول» قرية فلسطينية.

ثالثًا: اضطرت الوكالة اليهودية، فى إثر ضجة الاستنكار العالمية التى قامت، إلى تكذيب اشتراك قواتها ـ أى قوات البلماح ـ فى الهجوم، وهو ما حدث فعلاً. واضطرت أيضًا إلى توجيه برقية اعتذار إلى الملك عبدالله ملك الأردن، أعقبتها برقية اعتذار شخصية إلى دافيد بن جوريون، وتصاريح تشجب أفعال المنشقين (أى أعضاء عصابتى شتيرن والإرغون) من قبل كبار الحاخامات، الأمر الذى ركز الأنظار على هول ما حدث.



الجهاد في التراث الإسلامى

حسن حنفى

(١) الجهاد من أركان الإسلام

في هذا الوقت العصيب الذى تتم فيه التضحية بشعب فلسطين على مذبحة الكيان الصهيونى وشهادة العرب والمسلمين جميعاً، فى الوقت الذى يقف فيه شعب فلسطين بمفرده يدافع عن كيانه ووجوده وأرضه ومستقبله، فى الوقت الذى تتصدى فيه المقاومة الفلسطينية للعدوان الصهيونى لتصفية القضية الفلسطينية، نصفها فى ١٩٤٨ ونصفها الآخر عام ٢٠٠٢ يصدر العرب البيانات ويصوغون المبادرات، ويطلقون الشعارات، ويعقدون الاجتماعات، وتتكرر مأساة حصار بيروت فى ١٩٨٢ فى حصار مدن الضفة الغربية. وفى كلتا الحالتين وقفت الأنظمة العربية تستنكر وتشجب وتدين والدماء تسيل، والجرحى يموتون، والشهداء يتساقطون، والبيوت تدمر، والكل يستنجد بالغير لا بنفسه، والكل يستصرخ الآخرين، الضمير العالمى، والأمم المتحدة، وروسيا، والاتحاد الأوروبى، بل إن الكل يتوسل إلى الجلاد كى يرحم الضحية.

وماذا يفعل المفكر العربى إلا أن يستصرخ أيضاً، يشحذ الهمة، ويشارك انتفاضة الشارع العربى بالكتابة، ويستنصر تراث الأمة وتاريخها وثقافتها لعله يجد فى الجهاد والشهادة ما يقوى به المناضلين فى فلسطين، يواسى الجرحى، ويعزى بالحياة الأبدية، وبالخلاص القريب. وهو هروب إلى الماضى، وعجز عن مواجهة الحاضر، فمازال الشهيد هو بارقة الأمل الباقية بالرغم من آلام الفراق وعذاب الضمير. فى هذا الإطار وفى هذا الوضع النفسى تتم كتابة الجهاد فى التراث الإسلامى، بيان أنه ركن من أركان الإسلام أولاً، وتحليل معانى الجهاد فى القرآن الكريم ثانياً، وفى السنة النبوية ثالثاً، وفى التراث الفقهى رابعاً، وعند المصلحين المحدثين تماماً ولعل فى ذلك بعض العزاء للنفس وللآخرين.



الجهاد ركن من أركان الإسلام. وهو عند بعض الفقهاء الركن السادس. وعند آخرين الركن الأول لأن الأركان الخمسة الأولى تقوم عليه. فالشهادة فعلان من أفعال الشعور «لا إله» ثم «إلا الله». الأول للرفض والنفى، نفى الآلهة المزيفة للعصر، الثروة والجاه والشهرة والمرأة والترف ومباهج الحياة. والثانى قبول ورضا بأن يتساوى جميع البشر أمام إله واحد، لا ظالم ولا مظلوم، ولا قوى، ولا ضعيف، ولا غنى ولا فقير، بل الكل متساوون بفعل الخلق. وهى شهادة أى رؤية وإعلان بالقول والعمل، بالفكر والوجدان. فالساكت عن الحق شيطان أخرس، (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه). وهى شهادة حق وليست شهادة زور. هى التزام بقضايا العصر وقبول للتحديات، والعمل فى سبيل تقدمه ورفعته.

والصلاة جهاد فى الزمان، وحفاظ على الوقت، وقيام وقعود بالبدن، وحياة الفضيلة، وحب الخير للناس، وإيمان عامر بالقلب، وفعل يحقق مصالح الناس، وعمل فردى وجماعى، وتضامن اجتماعى. فالصلاة أحد أنواع الجهاد، جهاد النفس، ومقاومة الكسل والدعة والخمول، والحرص على الوعى اليقظ، واستبعاد الوعى الخامل.

والزكاة جهاد بالمال، وتزكية وتطهير للنفس بالبذل والعطاء، وحق الآخر فى مال النفس، ورفض الاكتناز، والعمل على سيولة رأس المال حتى لا يدور فى يد حفنة من الأشخاص. هو استثمار جماعى لقضاء حاجات الآخرين، وإيجاد فرص عمل للعاطلين (والذين فى أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم).

والصيام جهاد للنفس، وتقوية للإرادة، وسيطرة على الرغبات والانفعالات والأهواء. هو إحساس بفقر الفقراء، وجوع الجوعى، وحاجة المحتاجين (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً). الصيام صلة بالله كما أن الجهاد عود إليه.

والحج جهاد سنوى للعمل الجماعى، والتذكير بمصالح الأمة، والاجتماع العلنى لكل الناس فى مساواة تامة أمام الحق ولإعلان البراءة من البطالة، وتحديد من هم أعداء الأمة ومن هم أصدقاؤها؟ أين معاركها وما إمكانياتها؟ إلى أى مدى وصل إحساس المسلمين بالأمانة والخلافة فى الأرض وتعميرها؟ الحج سفر وجهد ومشقة، وسعى وطواف كما أن الجهاد سفر للأعداء، ومقاومة للعدوان، وسعى وطواف فى ساحة القتال.



لذلك لا يساوى أى ركن من أركان الإسلام حتى ولو كان الحج ركن الجهاد (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله).

فالجهاد هو كل شيء فى الإسلام، له أشكال عديدة. يقوم على شحذ الطاقة، وبذل الوسع، وإفراغ الجهد. وهو المعنى الاشتقاقى للفظ «جهد» قبل أن يتحول إلى «جاهد» أى «قاوم»، و«اجتهد» أى بذل الجهد فى الفهم والمعرفة. فالاجتهاد مصدر رابع للتشريع بعد الكتاب والسنة والإجماع وكما كتب السيوطى «الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض».



ونظراً لأهمية «الجهاد فى سبيل الله» فى حياة المسلمين المعاصرين بعد أن أطبق عليهم الاستعمار أثناء ضعف دولة الخلافة ثم هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى قبل القضاء عليها كلية فى ١٩٢٦ بعد الثورة الكمالية فى تركيا فى ١٩٢٣ بدأ المصلحون يؤكدون دور الجهاد فى سبيل الله ضد محاولات العصور المتأخرة فى النيل من أهميته واستبعاده. فقد انتهى عصر الفتوحات، ولم يبق إلا جهاد النفس كما يفعل الصوفية. وتم الترويج للحديث الذى يشكك فى روايته معظم المصلحين. «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وكتب كل من أبى الأعلى المودودى وحسن البنا وسيد قطب رسالة فى «الجهاد فى سبيل الله» لتصحيح الصورة، ورد الاعتبار للجهاد ضد الاستعمار والاحتلال والصهيونية باعتبارها استعماراً استيطانياً.

ويرتبط بمفهوم الجهاد مفهوم الشهادة، ومفهوم الحياة. فالجهاد بداية والشهادة نهاية. والشهادة تبدأ بالوعى بالعصر وبالزمن أى الوعى بالحق. فالله يشهد وهو خير الشاهدين، والإنسان يشهد، والحواس تشهد. الشهادة تعنى النطق بالحق، المعاصرة والإعلان دون الكتمان، والشهادة على النفس دون شهادة الزور. والشهادة تدوين للتاريخ، وسجل للحوادث، وحفظ للحقوق فى العقود. واللفظ فى القرآن اسم أكثر منه فعلاً، شاهد وشهيد وشاهدون وشهود وأشهاد وشهداء وشهادة ومشهد ومشهود، مما يدل على أن فعل الشهادة من فعل الشاهد والشهيد. الله شاهد، والرسول شاهد، والملائكة شهود، والمؤمنون شهداء.

والشهيد والشاهد من نفس الفعل. الشهيد يشمل بالفعل، والشاهد يشهد بالقول. وكلاهما إعلان. الشهيد إعلان عملى والشاهد إعلان نظرى. والشهداء مع النبيين والصديقين (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين). فالأنبياء والشهداء يعرفون الحق النظرى والعملى (وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم

> **الجهاد هو كل شيء فى الإسلام، له أشكال عديدة. يقوم على شحذ الطاقة، وبذل الوسع، وإفراغ الجهد. وهو المعنى الاشتقاقى للفظ «جهد» قبل أن يتحول إلى «جاهد» أى «قاوم»، و«اجتهد» أى بذل الجهد فى الفهم والمعرفة. فالاجتهاد مصدر رابع للتشريع بعد الكتاب والسنة والإجماع**

بالحق وهم لا يظلمون). وكما أن الأنبياء والصالحين فى فوز ونجاة كذلك الشهداء (والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم).

ولفظ الحياة فى القرآن اسم أكثر منه فعلاً أى أن الحياة قيمة مستقلة عن أفعالها. هى حياة الأرض والنبات والماء والزرع. فالله أنزل من السماء ماء أحيا به الأرض بعد موتها والله هو الذى يحيى الإنسان بعد أن يميته والإيمان هو الذى يحيى الإنسان ويوقظه من الغفلة، ويجعله يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا. والله هو الحى القيوم. فالحياة صفة لله، وصفة للإنسان على حد سواء. الله يحيا والإنسان يحيا.

والحى هو الذى يقاتل فى سبيل الله، ويشترى حياة الآخرة بحياة الدنيا (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة). والشهيد حى لا يموت، آثر الحياة الأبدية على الحياة الظاهرة (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون). إنما هو ألم الفراق بالرغم من الفرح بالشهادة، وحزن الدم بالرغم من فرح العرس. (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله). وآخرون أحياء فى الظاهر، موتى فى الباطن لأنهم رضوا بالحياة الدنيا ومتاع الغرور. استسلموا لقوى الطغيان بالرغم من الاستنصار فى الله وفى الدين وفى الوطن وفى الأخوة وفى العروبة، وآثروا الحكم على الشرف، والسلطة على الكرامة، والدنيا على الآخرة. هم (أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون).

(٢) الجهاد فى القرآن الكريم

والجهاد لفظاً هو بذل الوسع والجهد واستنفاد الطاقة من أجل تحقيق غاية بصرف النظر عن طبيعة هذه الغاية للحق أم للباطل. فقد يجاهد الآباء الأبناء دفعاً لهم نحو الشرك (وإن جاهداك لتُشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما). وهى الحالة الوحيدة التى يجوز للأبناء فيها عصيان الآباء. والجهاد جزء من طبيعة الإنسان. فالإنسان طاقة وحركة ونشاط وفاعلية، دافع حيوى أو طاقة روحية كما يقول برجسون، تيار متدفق وإلا تحول إلى بركة آسنة، ركدت وتبخرت وتعفنت.



والجهاد جهاد للنفس، شحذاً لطاقاتها، وتقوية لإرادتها، وإحياء لمقاصدها. الجهاد للذات قبل الموضوع، للنفس قبل العالم (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه. إن الله لغنى عن العالمين). وهو ما لاحظه الشاعر الفيلسوف محمد إقبال بأن الذات تتخلق بالمقاصد، وتحيا بالآمال، وتشعر بالجمال، وتدرك الحقائق، وتتحد بحركة الكون والتاريخ. لذلك لا يكون الجهاد إلا قدر الوسع والطاقة لعدم جواز تكليف ما لا يطاق، (والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم).

وإذا كان الجهاد لا يكون فوق الطاقة لعدم جواز تكليف ما لا يطاق فإنه لا يكون أيضاً أقل مما يستطيعه الإنسان، يؤثر عليه الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا). الجهاد لا يكون إلا فى سبيل الله وابتغاء مرضاته. هو الجهاد الخالص الذى لا يهدف إلى شهرة إعلامية «إنى شهيد يا رفاق».

وقد ورد لفظ «جهد» ومشتقاته فى القرآن الكريم فى صيغ اسمية. ويدل ذلك على أن الجهاد فعل أكثر منه شيئاً. وهو أولاً فعل أمر للرسول وللمؤمنين،(يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم). والكفار هم قتلة الأنبياء الذين يعصون الحق ويتنكرون له مثل الصهاينة المعاصرين. والمنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس بقلوبهم مثل الأمريكيين الذين يؤيدون الفلسطينيين باللسان ويدعمون الكيان الصهيونى بالأعمال. والكفار لا أمان لهم حتى ولو عرضوه، (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً). والأغلب هو أمر الجماعة بالجهاد أمراً مباشراً.

يبدأ الجهاد بالتقوى أى بالإيمان الصادق وإخلاص النية. وهو الطريق إلى الله، (اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله). والجهاد بالنفس وبالمال، بالشهادة، وبالعطاء (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله). وهو حكم عام لا استثناء فيه لوجاهة اجتماعية، (وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم). الجهاد فى سبيل الله هو الجهاد الخالص الذى ينطلق من الإيمان العميق بالقضية، (وجاهدوا فى الله حق جهاده).

والجهاد ليس فقط فعل أمر، مباشر للفرد والجماعة، للرسول وللمؤمنين لتحقيق ما يستحيل تحقيقه بل هو حقيقة تاريخية، وممارسة جماعية، قام بها السابقون. لذلك يأتى الفعل فى صيغة الماضى أيضاً أكثر من صيغة الأمر تدعيماً للأمر الحاضر بفعل التاريخ وشهادة المجاهدين السابقين. فالجهاد تجربة ومحك واختبار للفوز والفلاح، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)، (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم). الجهاد ابتلاء (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم).

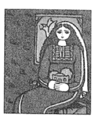
ويتطلب الجهاد الإيمان بالقضية، فالجهاد عمل، والعمل جوهر الإيمان، (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم). وهو إيمان يقينى بلا ريب أو شك، يتحول تلقائياً إلى فعل جهادى، (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم).

وقد يتطلب الجهاد الهجرة فى سبيل الله، فأرض الله واسعة، ولا تضيق على المؤمنين بما رحبت. لذلك ارتبط الجهاد بالهجرة فى عديد من الآيات القرآنية، (والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله). فالأمة واحدة، والعدوان عليها واحد، والعرب الأفغان يجاهدون فى أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وكوسوفو ولبنان وفلسطين وفى أى أرض إسلامية يقع عليها العدوان. فالإسلام أممى لا يعترف بحدود الدولة الوطنية أو القومية، رابطة الأخوة الإسلامية. ووحدة العقيدة دليل على وحدة الأمة.

ويتطلب الجهاد الجمع بين الإيمان والهجرة، فالإيمان بداية، والهجرة طريق، والجهاد نهاية، (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم

ما لاحظه الشاعر الفيلسوف محمد إقبال
بأن الذات تتخلق بالمقاصد، وتحيا بالآمال،
وتشعر بالجمال، وتدرك الحقائق، وتتحد
بحركة الكون والتاريخ. لذلك لا يكون
الجهاد إلا قدر الوسع والطاقة لعدم
جواز تكليف ما لا يطاق

الجهــــــاد فى التـــــراث الإســـلامى



وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضـهم أولياء بعض). وهو عمل جماعى لإيواء المجاهدين ونصرتهم والجهاد معهم بالنفس والمال (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم). وهم أعظم درجة عند الله.

والإيمان والهجرة والجهاد، كل ذلك يتطلب الصبر، والتخطيط على الأمد الطويل. وقد يفتن الإنسان فى جهاده ويضعف استجداء للحق ثم يندم. فإن الله غفور رحيم. (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا، إن ربك من بعدها لغفور رحيم).

والجهاد فقط ليس أمراً من الله للرسول وللمؤمنين، وليس فقط حقيقة تاريخية وممارسات فى الماضى بل هو أيضاً فعل مستمر فى الحاضر، يضم الإيمان والجهاد. (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله). الجهاد حركة مستمرة من أول الخلق حتى نهايته، من البداية إلى النهاية، من الخلق إلى البعث.

والجهاد لا يقتضى القسم بجهد الإيمان بل يتطلب فعل الإيمان وليس قوله. الجهاد بالفعل وليس بالوعد، فى الحاضر وليس فى المستقبل. فى هذه الحالة يكون الإيمان «جهداً» لا جهاداً، أى مجرد إعلان نوايا وليس تحقيق أفعال. (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم). يكون الجهاد مجرد وعد بالإيمان دون تحقيقه. (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها). والقسم عن غير علم جهل مثل القسم على عدم البعث بعد الموت. (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت). والقسم دليل على سوء النية لأن الإيمان لا يحتاج إلى قسم بل إلى فعل. (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن). القسم كلام بلا فعل، وعد بلا تحقق، إعلان بلا التزام. (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم).

ونقيض الجهاد الاستئذان والقعود والتخلف والنكوص. (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا)، فالاستئذان بعدم الجهاد تناقض بين الإيمان والجهاد. فالجهاد من متطلبات الإيمان، والإيمان بلا جهاد كالإيمان بلا عمل، والقول بلا فعل، والنية بلا تحقق، وهى سمة المنافقين. والتخلف ليس فرحاً بل هو حزن ونكوص (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا)، فالرسول قدوة، والقدوة يؤتم بها.

والجهاد لا يقتضى خوف اللائمين، وحسد الحاسدين، وشماتة الشامتين. (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم). الجهاد صدق النية، وإخلاص القصد، والتوجه إلى الله، غاية الغايات، وقصد المقاصد.

لذلك لا يستوى القاعدون مع المجاهدين، (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله) الخائفين على عرض الدنيا، (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)، (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا).



الجهاد إذن مبدأ الحركة فى الإسلام ومناط التقدم فيه، نقيضه النكوص والتراجع والتخلف. الإسلام إقدام لا إحجام، حركة إلى الأمام وليس حركة إلى الخلف. وهو مسار الوحى فى التاريخ تدريجياً ومرحلياً، من نبوة إلى نبوة. وهو مسار التشريع داخل النبوة حتى تتم صياغة الشريعة طبقاً للأهلية والقدرة. وهو مثل الاجتهاد فى التشريع لا يتوقف مادامت الحياة مستقرة والزمان متجددًا، والواقع متغيرًا.

ليس الجهاد مجرد إعلان عن قصد لا يوجد، والتعبير عن نية هشة فى كل مرة تشتد فيها الأزمات، ويزداد فيها الإحساس بالعجز، رغبة فى ادعاء بطولة أو استثارة إيمان. الجهاد جهاد بالفعل دون إعلان بالقول. هو جهاد الصامتين وليس بيانات العاجزين.

صحيح أن مداد العلماء مثل دماء الشهداء ولكن تظل لدماء الشهيد الأولوية المطلقة على مداد العلماء. الدماء تروى الأرض والمداد يجف على الأوراق. الدماء دورة الحياة الأبدية فى حين تبلى الأوراق.

(٢) معانى الجهاد فى السنة النبوية

وقد أفرد البخارى فى الجزء الرابع من صحيحه باباً فى «فضل الجهاد والسير». ويبدؤه بالآية الكريمة: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به). ويتداخل الباب مع الدعوة إلى الإسلام شرقاً وغرباً لكسرى وقيصر، ودخول الإسلام بالبيعة على الإسلام والجهاد.

نحن الذين بايعوا محمدًا
على الجهاد ما حيينا أبدا

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة
فاغفر للأنصار والمهاجرة

فالجهاد ليس فقط عقيدة بل شريعة، وليس فقط أمراً واجباً بل سيرة متحققة فى التاريخ، الجهاد والمجاهدون، النظر والعمل، الأمر والتحقق.

والجهاد فى أى مكان يقع فيه اضطهاد البشر فى عقائدهم وحرماتهم. والشهادة فى أى مكان وفى أى موقع وفى أى موقف. وأنشد أسير للمسلمين:

ما أبالى حين أقتل مسلماً
على أى شق كان فى الله مصرعى

قد تشير بعض الأحاديث إلى أن أفضل الأعمال الصلاة على ميقاتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد فى سبيل الله. وهذا لا يعنى تأخير الجهاد إلى الدرجة الثالثة، فالكل جهاد، الصلاة فى وقتها وبر الوالدين جهاد بالوقت وجهاد بالعمر والنفس. وكذلك إذا روى «أفضل الجهاد حج مبرور، فالحج جهاد بالوقت والجهد والمشقة».

وقد يكون الحج جهاداً لما بينهما من قرينة الجهد والنصب «نعم الجهاد الحج» خاصة للنساء. ومع ذلك تخرج النساء مع الرجال للقتال لرى العطشى ومداواة الجرحى، كما كانت تفعل نساء الرسول وأمهات المؤمنين، ويحملن القتلى إلى دورهم.

ارتبط الجهاد بالهجرة فى عديد من الآيات، (والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله). فالأمة واحدة، والعدوان عليها واحد، والعرب الأفغان يجاهدون فى أفغانستان والشيشان والبوسنة وكوسوفو ولبنان وفلسطين وفى أى أرض إسلامية يقع عليها العدوان

كما أن المجاهد مثل الصائم، جهاد النفس وجهاد العدو. ومع ذلك فقد آثر بعض الصحابة الغزو على الصوم «من آمن بالله، ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان دخل الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها» فالجهاد بالأعمال، أعمال الصلاة والصوم.

ويروى فى نفس الوقت أنه لا يوجد عمل يعدل الجهاد «لغزوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها».

ويتمنى الشهيد أن يعود إلى الدنيا حتى يقاتل ويستشهد مرة أخرى، «ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»، «والذى نفسى بيده لوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل»، «لولا أن فى ذلك مشقة على الأمة ألا تتخلف عن سرية، ولا تجد حمولة تمنعها من الخروج فى سبيل الله وتتخلف عن الركب». ففى الشهادة لذة وفرح وسرور للشهيد ولرفاقه من الشهداء.

والجهاد فى المكان دون الهجرة. الجهاد فى الأرض فى الوقت، «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد نية، وإذا استنفرتم فانفروا». والدنيا رباط وجهاد. والأمة فى رباط إلى يوم القيامة، «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها. والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها». الجهاد تثبت بالأرض، ودرء للعدوان، والدفاع عن الحرمات.

والصبر عند القتال، «إذا لقيتم فاصبروا». والصمود وقت الزحف. والنفس الطويل ينتصر على النفس القصير. والزمان والتاريخ مع المجاهدين. كانت حروب إسرائيل باستمرار خاطفة. والآن انتفاضة الاستقلال تطول وتصبر وتصمد فى حرب المخيمات ونضال المجاهدين. ولا يعنى وجود ضعاف فى الأمة نكوصاً عن القتال. فالقتال دفاع عن الحرمات «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟». القتال دفاع عن النفس ضد العدوان وحماية للضعفاء الذين لا يستطيعون القتال، كالأطفال والنساء والشيوخ والمرضى.



والقتال من أجل الحق وليس من أجل العدوان والغنيمة والسلب والنهب «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله». ويعنى ذلك الانتصار للحق ومواجهة الظلم دفاعاً عن الحرية والمساواة ضد الاستعلاء والاستكبار. الجهاد لدرء العدوان. والقتال

مفروض على المسلمين، «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية. فإذا لقيتموهم فاصبروا». لذلك كتب القتال على المسلمين وهو كره لهم لما فيه من نصب. الجهاد للدفاع وليس للعدوان، لدرء المخاطر وليس لتهديد أحد.

والنصر بالرعب، «نصرت بالرعب». فلا يوجد عدو لا يقهر. والرعب فى قلب العدو، رعب الظلم والعدوان على الأبرياء. لذلك يفر العدو عند اللقاء أو يرفض النزال لأنه يعلم أنه مغتصب للأرض.

والحرب خدعة، الحرب فن الانتصار. ويتحقق النصر بعدة طرق وليس بالمواجهة المباشرة فقط، وفن خداع العدو ضمن الفنون العسكرية.

ويحرم قتل النساء والصبيان فى الحرب أو حرق الدور والنخيل فى حين أنه يجوز قتل العدو المحارب، فللحرب آدابها. وللقتال قواعده. ولا يكون القتال إلا مع المقاتلين القادرين حتى يتكافأ الخصمان.

ويرجز فى الحرب، وينشد الشعر فى القتال، فالشعر والثورة صنوان وكان ينشد يوم الخندق:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا
إذا أرادوا فتنة أبينا

وكان المسلمون يقرأون فى الحرب (سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر). فالشعر والقرآن تقوية للروح المعنوية، ويمثلان الوجدان العربى قبل الإسلام وبعده.

ولا يجوز ربط الأسير أو تجويع الأبرياء أو ترك المرضى يموتون والجرحى ينزفون « فكوا العانى، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض». فللحرب آدابها. ولا نزال إلا بين المقاتلين.

ويقاتل عن أهل الذمة ويدافع عنهم. ولا يجوز استرقاقهم، ويوفى لهم. فللكنائس والمعابد حرمتها. ومن احتمى بكنيسة أو معبد فله الحماية.

والجهاد بالنفس وبالمال. الجهاد بالمال تجهيز المجاهدين والعناية بأسر الشهداء، «من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا». ومن احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة. وفرس اليوم هو الطائرة والدبابة والمصفحة والصاروخ والمدفع والبارجة، البذل فيها والعطاء لها موزون لصاحبه يوم القيامة.

ويطلب الولد للجهاد كما طلب داود. وللطليعة الفضل فى الجهاد، فالسابقون السابقون. وكان الرسول يتعوذ من الجبن والكسل والعجز والضعف.

والمجاهد فى سبيل الله يركب البحر كما تركب الملوك على الأسرة. وأول جيش من الأمة يغزو البحر فله أجر السبق، «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا». وأول جيش للأمة يغزو الروم فله السبق أيضاً، «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم».

والخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة. والخيل الآن هى المصفحة والدبابة والطائرة والصاروخ. كانت الخيل هى السلاح الرئيسى عند القدماء. لذلك كثرت الأحاديث فيه. والآن تنوع السلاح فى البر والبحر والجو بل وفى الفضاء.

والرمى بالرمح قديماً مثل الرمى براجمات اللهب وبالصواريخ حديثاً، «ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»، «مالكم لا ترمون»، «ارموا فأنا معكم كلكم». فإذا تكاثر العدو على المسلمين فالرمى بالنبال «إذا أكثبوكم فاقتلوا بالنبل» مثل الصواريخ المضادة للدبابات والطائرات والرماح للرمى عن بعد مثل النبال، «جعل رزقى تحت رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى».



واليهود ضمن أعداء الأمة وهم اليهود الذين يخونون العهد، وينقضون الوعد، ويضمرون العدوان. وهم أشبه بصهاينة اليوم. وهم فى عداء للمسلمين، والمسلمون فى قتال معهم إلى يوم القيامة، «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر يقول يا عبدالله هذا يهودى ورائى فاقتله». ولا تقوم الساعة قبل أن يحدث ذلك، فينتصر المسلمون على اليهود. وعلى المسلمين إجلاء اليهود عن أراضى العرب درءاً للعدوان والغدر، ومنعاً لوجود بؤرة استيطانية تتوسع فيما بعد حتى تشمل أراضى العرب. ويظل اليهود كارهين للعرب. فقد تحولت النبوة منهم إليهم، وغضب الله عليهم وحكم عليهم بالتيه، فإما أن يسلموا وإما أن يغادروا، «انطلقوا إلى يهود.. اسلموا تسلموا، واعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله». وكان الرسول يكبر فى حروبه مع اليهود «الله أكبر، خربت خيبر» وقد حاول اليهود سم الرسول: فإن كان كاذباً يستريحون وإن كان نبياً فلن يضره السم».

ويعدد النبى ست مراحل مستقبلية حتى يوم الساعة. الأولى من موته حتى فتح بيت المقدس. فبيت المقدس فتح للمسلمين. والثانية والثالثة موتتان ويصبح المسلمون كالغنم وربما هما الغزوتان، غزوة الصليبيين والاستعمار الحديث من الغرب والتتار والمغول من الشرق. والرابعة وفرة المال حتى ليعطى الرجل مائة دينار ويظل ساخطاً وربما هى فترة النفط وثروة النفط وعوائد النفط. والخامسة فتنة لا تترك بيتاً للعرب إلا دخلته. وهو حال العرب الآن من التفكيك والضعف والحروب الأهلية فى لبنان والجزائر أو الحروب بين العرب والمسلمين مثل حربى الخليج الأولى والثانية. والسادسة هدنة بين العرب وبنى الأصفر الذين يغدرون بالعرب، ويأتونهم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً. وهو حال العرب الذين صالحوا إسرائيل، وعقدوا معاهدات سلام معها، وغدرها بالعرب فى فلسطين بعد أوسلو ومدريد، وحصار المدن والمخيمات بمئات من الدبابات والمصفحات، والقضاء على السلطة الوطنية المنتخبة.

ومن أعداء الأمة قوم ينتعلون نعال الشعر، عراض الوجوه، صغار الأعين، حمر الوجوه، ذلف الأنوف، وهم أقرب إلى الآريين وإلى الغربيين الرومان أو الشرقيين التتار والمغول. « إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً ينتعلون نعال الشعر.. وأن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم المجان المطرقة». وأحياناً يعينون بالترك.

لقد نشأ الإسلام وسط الإمبراطوريتين القديمتين، الروم غرباً والفرس شرقاً. وورثهما المسلمون، فلا قيصر غرباً ولا كسرى شرقاً.. فالإسلام هو القوة البازغة فى نظام العالم القديم «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولتقسمن كنوزهما فى سبيل الله». وهو كذلك أيضاً فى نظام العالم الجديد بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية فى الشرق، وبداية التفسخ فى المجتمع الرأسمالى الغربى ومعارضة الشعوب للعولمة ورموزها مثل منظمة التجارة العالمية، ومجموعة الثمانية، واتفاقية الجات، والمجمع الصناعى العسكرى، والشركات المتعددة الجنسيات، واقتصاد السوق.



وللمجاهد الشهيد الجنة إن لم يرجع سليما مع أجر أو غنيمة. الجهاد بمقاييس الدنيا أخذ وعطاء، فوز وتضحية، غنم وغرم، وبمقاييس الآخرة غنم وفوز. وللمجاهدين فى الجنة درجات تبلغ المائة، ما بين درجة وأخرى كما بين السماء والأرض. أوسطها الفردوس، وأعلاها فوق العرش، ومنه تتفجر الأنهار. دار الشهداء أحسن الدور. ويأتى الشهيد يوم القيامة اللون لون الدم، والرائحة ريح المسك. والشهادة تغفر الذنوب. والتضحية بالنفس تجب كل شيء، «ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتموسه النار»، فتمسه و«الجنة تحت ظلال السيوف». وظل الملائكة على الشهيد «مازالت الملائكة تظله بأجنحتها تباركه وتحييه وتسعده».

(٤) معانى الجهاد عند الفقهاء

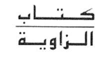
ولم يتأخر الفقهاء عن التأليف فى الجهاد كباب مستقل من أبواب الفقه مثل «كتاب الجهاد» لعبدالله بن المبارك (١٨١هـ). وكتب الفقه تجميع للآيات القرآنية والأحاديث النبوية حول موضوع واحد اعتماداً على الحجة النقلية دون العقلية، ومع أقل قدر من التنظير العقلى أو وصف لبنية الموضوع بالرغم من قسمته إلى جزءين.

ويعتبر ابن المبارك أن الجهاد تطبيق لمبدأ وحدة القول والعمل،(يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون). فالجهاد عمل لتحقيق القول، والقول إعلان عن الإيمان فى الشهادة، (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم). والجنة فى مقابل

الإيمان بلا جهاد
كالإيمان بلا عمل، والقول
بلا فعل، والنية بلا تحقق،
وهى سمة المنافقين.
والتخلف ليس فرحاً بل
هو حزن ونكوص







كتاب الزاوية



دير ياسين
خطة الهجوم

حشدت إيتسل وليحى قوة عددها ٢٠٠ من أشرس مقاتليهما للهجوم على دير ياسين. وقد وُضع نحو ٧٠ منهم فى الاحتياط، بينما نُظّم الباقون كقوة هجومية قُسّمت إلى أربع شرازم، وعُيّن بن تسيون كوهيل (إيتسل) قائدًا للهجوم.

ووُزّعت البنادق والرشاشات الأوتوماتيكية على المقاتلين، كما أعطى كل مقاتل قنبلتين يدويتين ومسدسًا وهراوة. وكان لكل شرذمة مدفع رشاش.

تضمنت خطة الهجوم التحرك على أربعة محاور:

أولاً: شرذمة ليحى بقيادة موردخاى بن عوزيهو تتقدم من غفعت شاؤول إلى دير ياسين من الشمال فى اتجاه الزاوية القائمة حيث تلتقى الطريق الرئيسية غرب - شرق، الموصلة من غفعت شاؤول إلى دير ياسين، الطريق شمال - جنوب التى تمر أمام قلب القرية (الحارة)؛ ثانيًا: شرذمة مختلطة تتقدمها مصفحة عليها مكبّر للصوت بقيادة منشه أيخلر، تندفع من الشرق إلى قلب القرية على الطريق الرئيسية من غفعت شاؤول، ثالثًا: شرذمة بقيادة يهودا سيغل تنطلق من مستعمرة بيت هكيرم وتقتحم القرية من الناحية الشرقية الجنوبية عند جامع الشيخ ياسين، رابعًا: شرذمة بقيادة يهودا لبيدوت تنطلق من بيت هكيرم وتهاجم القرية من الجنوب الغربى كى تسيطر على الأعالى الغربية للقرية من الخلف.

وعُيّنت ساعة الصفر فى الخامسة والربع فجرًا، على ألاّ تبدأ القوات المهاجمة إطلاق النار قبل أن تصل كل منها إلى هدفها فى أطراف القرية وفى وسطها، وبعد أن تُطلق رشقة ضوئية من مدفع رشاش إيذانًا ببدء الهجوم العام.





الجهاد فى التراث الإسلامى

الشهادة: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة).

والشهادة تعبير عن صدق الإيمان، (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً). وهى استباق للخير، (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض). وهى النفير للحق والقيام دفاعاً عنه، (انفروا خفافاً وثقالاً)، (والسابقون السابقون). الشهادة منافسة وتسابق وتسارع لنيل الخير. ومن يقاتل مع النبى فهو ربانى مثله، (وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير).

والشهيد مثل القائم الصائم الخاشع الراكع الساجد. فالشهادة عبادة، وركن من أركان الإسلام. المجاهد فى سبيل الله كالصائم القائم بآيات الليل وآناء النهار. فالشهادة ركن من أركان الإسلام تعادل كل ركن وتفضلها جميعاً. «رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه». المجاهد للعدو فى ساحة الوغى مثل المجاهد نفسه بالصلاة والصيام والزكاة.« يوشك أن يأتى على الناس زمان خير الناس فيه منزلا، رجل أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله، كلما سمع هيعة استوى على فرسه ثم طلب الموت مظانه، ورجل فى غنيمة فى شعب من هذه الشعاب، مقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعتزل الناس إلا من خير حتى يأتيه الموت».

ولا يوجد فضل يعادل الشهادة، «والذى نفسى بيده لو انفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم». فالتضحية بالنفس أغلى من التضحية بالوقت والشبع والمال والجهد. هى التضحية الشاملة، «لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله» فهى رهبانية الخارج وليست رهبانية الداخل، فى العالم وليست مع النفس، و«سياحة الأمة الجهاد فى سبيل الله». فالجهاد سعى فى الأرض، وانتشار فى العالم.

والشهداء أمناء الله، قتلوا أو ماتوا على فراشهم، سقطوا فى المعركة أم قضى نحبهم من جراحهم. فالشهادة نية وفعل، قصد وتحقق. وقد انتقل خالد بن الوليد إلى ربه وهو على فراش الموت ولا توجد بقعة فى جسمه إلا وبها ضربة سيف أو طعنة رمح. والشهيد بالنية حتى لو لدغته هامة أو أوقعته دابة. فالشهادة سعى فى سبيل الله غدوة ورواحاً، «إن خير الناس رجل مجاهد». فالجهاد لا يعدله فضل صدقة أو عون أو تقوى.

والأمة فى رباط إلى يوم القيامة، «إن الله بعثنى بالسيف بين يدى الساعة، وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذل والصغار على من خالفنى، ومن تشبه بقوم فهو منهم». فالأمة حاملة للرسالة، والرسالة أمانة فى الأرض، والتدافع قانون تاريخى. ومن ثم تظل الأمة إلى يوم الدين حاملة لهذه الأمانة.

والشهداء على ثلاث درجات. الأول الشهيد الممتحن وهو المؤمن المجاهد بنفسه وماله، وفى خيمة الله تحت عرشه، ولا يفضله إلا النبى، والثانى الشهيد الذى كفر عن ذنوبه بشهادته، فالسيف ممحاة للخطايا. والثالث الشهيد المنافق وهو أقل الدرجات لأن السيف لا يمحو النفاق. فالشهادة صدق فى البداية وصدق فى النهاية.



وأول من يحبهم الله «رجل كان فى فئة أو سرية فانكشف أصحابه فنصب نفسه ونحره حتى قتل». فهو شهيد مرتين، مرة لأنه ضحى بنفسه، ومرة لأنه أحيا الآخرين. الشهيد من سد الثغرة، وحمى الرفاق، وضحى بالنفس فى سبيل المجاهدين». «وأفضل الشهداء عند الله الذين يلقون فى الصف فلا يلتفتون وجوههم حتى يقتلوا»، أى المجاهد الذى يخلص فى القتال، ويواجه العدو دون تردد، الإقدام دون الإحجام واليقين فى المواجهة، والتركيز على العدو.

وأفضل جهاد « من عقر جواده وأهريق دمه»، أى من فقد سلاحه وداهمه العدو. فالجهاد قوة إرادة أكثر من كثرة السلاح، ويقاتل الفلسطينيون بسلاح أقل وإرادة أشد عدواً بسلاح أكثر وإرادة أضعف. «يوم فى سبيل الله خير من القيام فيما سواه». فالزمان تاريخ، والعمر خلود، المجاهد مصب التاريخ ومحرك الزمان، ومغير الأحوال، ومبدل الأمم والشعوب.

والشهداء أربعة، مؤمن لاقى العدو حتى قتل، ومؤمن أقل إيماناً أتاه سهم فقتل. ومؤمن خلط عملاً صالحاً بعمل طالح، ومسرف على نفسه قاتل فقتل، والكل شهيد ولكن على درجات متفاوتة. أفضلها الإيمان والفعل وأقلها الفعل حتى وإن ضعف الإيمان والشهادة عمل صالح لا يختلط بعمل أقل صلاحاً. الجهاد قصد، وغاية الاستشهاد نية وفتح، وليس مجرد إسراف فى القتل، قتل النفس أو قتل الآخر.

وخير الناس منزلاً من امتطى فرسه فى سبيل الله فجاهد حتى قتل، ثم امرىء اعتزل يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعتزل شرور الناس، فالجهاد فى العالم له الأولوية على الجهاد فى النفس. « المجاهد من جاهد نفسه بنفسه».

والجهاد فى بقاع الأرض بالشام والعراق واليمن. وخير الجهاد فى الشام فإنه جهاد الأنبياء، «إنكم ستجندون أجناداً، جنداً بالشام، وجنداً بالعراق، وجنداً باليمن.. وعليك بالشام، فمن أبى فليلحق بيمنه وليستق بغدره فإن الله عز وجل تكفل لى بالشام وأهلها». وفلسطين جزء من الشام والمدخل إليه. فالجهاد فى فلسطين لإزاحة الاحتلال الصهيونى والحصار عن شعب العراق مثل الجهاد فى الشام. وفى اليمن خير وبركة، فالحكمة يمانية. الشام أرض الأنبياء، والمدخل الشرقى لمصر وأمنها القومى، وقد زرعت إسرائيل بالشام لفصل المشرق العربى عن المغرب العربى وتهديد مصر.



والغزو فى البر والبحر. بل إن القتال فى البحر خير من القتال فى البر. وشهيد البحر له أجران مثل شهيد البر. ومن ثم كان الدفاع عن البحر الأحمر كامن قومى عربى جهادا فى سبيل الله. والدفاع عن سواحل الشام والخليج ضد القواعد الأجنبية جهادا فى سبيل الله. «من لم يدرك معى فليغز فى البحر فإن قتال يوم فى البحر خير من قتال يومين فى البر. وإن أجر الشهيد فى البحر كأجر شهيدين فى البر، وإن خيار الشهداء عند الله عز وجل أصحاب الأكف، قوم تكفأ عليهم مراكبهم فى البحر». لذلك عبر المسلمون أفريقيا إلى الأندلس ركوباً للبحر وفتحوا جزر البحر الأبيض المتوسط قبرص وكريت ومالطة عبر البحر. وانطلقت دولة الخلافة إلى أوروبا الشرقية عبر مضيقى الدردنيل والبوسفور. وانطلق المسلمون شرقاً عبر خليج فارس وبحر العرب حتى ماليزيا وأندونيسيا والفلبين ومن يركب الناقة قادر على أن يركب الفلك وامتداد الصحراء فى الأفق مثل امتداد المحيطات، ولا نهائية اليابس لا تختلف عن لا نهائية الماء، ومن فاته الغزو فى البر مع الرسول فإنه فى البحر مع الأمة.

والغزو فى البر والبحر لا تراجع فيه، ولا انحسار للفتوحات، فالأرض التى يبلغها الإسلام تظل كذلك إلى يوم الدين، «إنكم ستجندون أجناداً، وتكون لكم ذمة وخراج، ويكون لكم على سيف البحر مدائن وقصور. فمن أدرك ذلك فاستطاع أن يحبس نفسه فى مدينة من تلك المدائن أو قصر من تلك القصور حتى يموت فليفعل».

والشهيد أول من يدخل الجنة قبل العبد المملوك والعفيف المتعفف. فهو أول المستحقين. والاستحقاق بالحياة له الأولوية على الاستحقاق بالفعل. والكل يسبق الجزء. فالشهيد فى أعلى عليين. «ومن رمى بسهم فبلغه فله درجة فى الجنة». الشهادة نضال فى الأرض وفوز فى السماء، تحقيق قصد فى الأرض ونيل فوز فى السماء.

وثلاثة عيون لا تحرقها النار أبداً، العين الباكية من خشية الله، والعين الساهرة مع كتاب الله، والعين الحارسة للمجاهد فى سبيل الله.



وأجر المجاهد على الله قد يسلب منه الحق فى الأرض، وقد يناله بعض السوء من طغيان الحكام. ومع ذلك هو فى زمرة الأنبياء والرسل، « إنه سيكون فى أمتى قوم يسد بهم الثغور، تؤخذ منهم الحقوق، ولا يعطون حقوقهم، أولئك منى وأنا منهم، أولئك منى وأنا منهم.

وأفضل الشهداء تدركهم الشهادة وهم فى رباط مثل شهداء المقاومة الفلسطينية، «يبعث الله عز وجل يوم القيامة أقواماً يمرون على الصراط كهيئة الريح ليس عليهم حساب ولا عذاب.. أقوام يدركهم موتهم فى الرباط».

والشهادة عمل مستمر حتى يوم القيامة، عمل يولد أعمالاً صالحة. الشهادة حياة مستمرة فى الأرض وفى السماء، وفى الأوطان وفى الجنان، «كل ميت يختم على عمله إلا الذى يموت فى سبيل الله فإنه يجرى عليه أجر عمله حتى يبعث».

(٥) معانى الجهاد عند بعض المصلحين

وتبدأ معانى الجهاد عند المصلحين من القرآن والسنة والفقه بالإضافة إلى ظروف العصر وتحدياته والقدرة على الخروج من المنهج النصى إلى المنهج الاجتماعى. فالجهاد ليس فقط أمراً شرعياً بل هو أيضاً حركة اجتماعية، تبدأ من الفرد وتمتد إلى الجماعة، ثم تتحول إلى حركة تاريخية.

فاقرب الكتابات الإصلاحية إلى الكتاب والسنة والفقه القديم هو رسالة «الجهاد فى سبيل الله» للإمام الشهيد حسن البنا. إذ يبين - أولاً - أن الجهاد ركن من أركان الإسلام، وفريضة على كل مسلم ومسلمة. ثم يذكرنا - ثانياً - بعض آيات الجهاد فى الكتاب ليس عن طريق تحليل الألفاظ، لفظ «الجهاد»، بل عن طريق معانيه مثل القتال والغزو والاستعداد والتخلف عن القتال والجهاد بالنفس والمال ثم الفوز فى الآخرة. فالجهاد فرض، (كتب عليكم القتال وهو كره لكم)، ومع ذلك فعسى أن نكره شيئاً وهو خير لنا. وعسى أن نحب شيئاً وهو شر لنا. فالقتال فى الظاهر ألم وفراق وجهد ومشقة واستشهاد. وهو فى الباطن فرح ونعيم وسعادة وفوز أبدى. ويظن القاعدون والمخلفون والمنافقون أن التخلف عن الجهاد منجاة من الموت، والموت حكم عام على البشر جميعاً، القاعدين والمجاهدين، (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت). والشهداء أحياء عن ربهم يرزقون، (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون). فالمجاهد هو الذى اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، وقاتل فى سبيل الله فيؤتيه أجراً عظيماً. الجهاد أمر شرعى بالاستعداد لملاقاة العدو، وإرهاب عدو الله. وهو أمر بتحريض النبى المؤمنين على القتال، والقلة الصابرة تغلب الكثرة الباغية. وقتال البغاة جزء من عذاب الله لهم بأيدى المؤمنين. والجهاد استنفار لبذل المال والنفس، (انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون). أما المخلفون فإنهم يخشون القتال لما به من نصيب وجهد ومشقة فى الحر. والقاعد أول مرة لن يجاهد ثانى مرة. فالجهاد طواعية

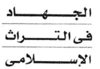
كتاب الزاوية

دير ياسين
القتل الجماعى

تروى زينب عطية، زوجة محمود زهران، الذى كان منزله بعيدًا عن منازل سائر آل زهران وفى وسط القرية، أنها كانت عند بدء الهجوم فى المنزل مع أخيها موسى عطية (١٥ عامًا) وأولادها: آمنة (٥٠ يومًا) وخليل (عامان) ومريم (٣ أعوام) وسهيلة (٥ أعوام)، وسمعت إطلاق رصاص غزير وصراخًا وعويلاً من جهة منازل آل زيدان القريبة منها، والتى كان منزلها ذو الطبقتين يشرف عليها. فتنظر عبر النافذة وتشاهد اليهود وقد جمعوا عموم أفراد عائلة زيدان أمام منازلهم الثلاثة، وأخذوا يطلقون الرصاص عليهم، فلا يسلم منهم أحد.

وتقول زينب: «رأيت هذا بأم عينى حيث إننى أسكن مقابل منازل هؤلاء وكلهم أفراد عائلة واحدة يعيشون مع بعضهم البعض». وبعد فترة يقترب من منزل زينب خمسة يهود تصحبهم فتاتان يحملون السلاح وأكياسًا بداخلها قنابل يدوية، ويطلبون منها أن تفتح الباب وإلا ألقوا قنبلة على المنزل. فترفض وتقول فى نفسها: «قنبلة تجهز علينا دفعة واحدة أفضل من أن نُقتل بالرصاص كما فعلوا بعائلة زيدان». وإذ بهم يقذفون البيت بقنبلة تحطم الباب والزجاج، وتجرح كلاً من آمنة ومريم، ثم يقتحمون المنزل ويمسك أحدهم بأخيها موسى فتستغيث وتستعطف ألاّ يقتله وتعرض عليه مبلغ ٢٠٠ جنيه فى مقابل إنقاذه فيُبدى قبولاً ويأخذ المبلغ ويضعه فى جيبه، لكنه يدفع بموسى إلى الشارع ويوقفه رافعًا يديه أمام حائط ويرديه. وتتابع زينب: «بعدها أخذتُ أنحنى على قدميه متوسلة حتى لا يقتل أطفالى فأخذنا جميعًا إلى حيث كانوا يجمعون النساء وتركنا هناك.





لا جبراً، وحرية لا قسراً، يرتعشون من سورة القتال بعد نزولها.



والأحاديث كثيرة على الجهاد والقتال. يشير البعض منها إلى تمنى الشهيد أن يقتل ثم يعود إلى الدنيا ليقتل من جديد لعذوبة الشهادة. والمجاهد من جاهد بنفسه وماله، من امتطى جواده ومن أعده وجهزه. وهو ركن من أركان الإسلام، يعادل الصيام والصلاة. والحج. ومن رابط ليلة كمن صام ألف ليلة. والشهيد لا يتألم فى موته. ولا يشعر بالضربة إلا كقرصة. ومن عاش ولم ينو الجهاد مرة لقى ربه خجولاً. «من لقى الله بغير أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة». الجهاد ترك عرض الدنيا والتوجه لما هو أبقى، « إذا تبايعتم بالنسيئة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم». ومن مات ولم يغز مرة فى حياته مات وفى قلبه بعض النفاق، « من مات ولم يغزُ ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق».

أما حكم الجهاد عند فقهاء الأمة فإنه عند الأحناف بذل الوسع من القول والفعل، ورد البغاة والمعتدين، فهو فرض كفاية، وبداية بالقتال. وعلى الإمام أن يبعث بسرية إلى دار حرب كل سنة مرة أو مرتين مع إعانة الرعية له. وإن لم تقع الكفاية إلا بجميع الناس فإنه يصبح فرض عين كالصلاة ولقول الرسول «الجهاد ماض إلى يوم القيامة. وإن امرأة سبيت بالمشرق وجب على أهل المغرب تخليصها ما لم تدخل حصونهم وحرزهم». وعند المالكية الجهاد فى سبيل الله فرض كفاية أيضاً إلا إذا جعله الإمام فرض عين كالصلاة إذا ما هجم العدو واعتدى على المسلمين. وعند الشافعية الجهاد فرض كفاية إلا إذا وقع الاعتداء على المسلمين فإنه يصبح فرض عين. وعند الحنابلة هو أيضاً فرض كفاية إلا إذا تقابل الزحفان وإذا وقع الاعتداء على المدن الآمنة وإذا استنفر الإمام المسلمين. وهو فرض على الأقل مرة كل عام.

ويقاتل المسلم استعداداً لردع العدوان وحماية للأمة لأن الإسلام رسالة هداية وعدل . فإذا ما طلب العدو السلم استجيب له، (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله). والقصد من الجهاد إعلاء كلمة الله وليس الجاه وحب الظهور والطمع فى الغنيمة والغلبة، «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله».

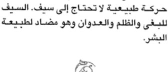


وبالرغم من القتال إلا أن الرحمة واردة فى الجهاد. إذ يحرم الاعتداء، (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين). والعدل عام ينطبق على الناس جميعاً أقرباء وأباعد، (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)، فالغزو باسم الله دون غل أو غدر أو تمثيل أو قتل للأطفال والنساء والشيوخ، «اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا». ولا يتطلب القتال تشويه الوجه والتمثيل بالجثة، «إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه». وإن من الجهاد أيضاً قول الحق فى وجه إمام جائر، «إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». فالجهاد ضد الطغيان فى الداخل والخارج.

ويبين المودودى فى رسالته «الجهاد فى سبيل الله» خطأ ترجمة الغربيين لها بلفظ Holy War أى الحرب المقدسة أسوة بما كانت تقوم به الكنيسة فى الغرب. وذلك مثل خطأ الغرب فى اعتبار الإسلام نحلة Religion والأمة دولة وطنية . Nation وحقيقة الجهاد من طبيعة الإسلام باعتباره فكرة انقلابية ومنهجاً انقلابياً، تعيد بناء المجتمع بأسره على أساس من الحرية والمساواة وتحت شعار «لا إله إلا الله». وهذا يتطلب الجهاد. وهو يعادل لفظة Struggle بالإنجليزية. وهو جهاد فى سبيل الله، وابتغاء وجه الله ضد الذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت، (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت). الجهاد فى سبيل الله جهاد فى سبيل الحرية والمساواة ضد العلو والإفساد فى الأرض، (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين). ودعوة الإسلام الانقلابية تقتضى ألا تكون العبودية إلا لله، (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله). فالإسلام دعوة إلى انقلاب عالمى شامل وتطبيق للحاكمية، (إن الحكم إلا لله)، ضد الملوك والطغاة. (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون). وقد ادعى فرعون الألوهية وقال (أنا ربكم الأعلى)، (ما علمت لكم من إله غيرى)، (أنا أحيى وأميت)، (وقالوا من أشد منا قوة)، وتقتضى دعوة الإسلام الانقلابية تغيير النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتغييرها تغييراً شاملاً دون سطوة طبقة على طبقة. الجهاد إذن هو الوسيلة لتحقيق الحاكمية، وتحويل العقيدة إلى شريعة، نظام العدل فى مواجهة نظام الظلم.

ولا تجوز قسمة الجهاد إلى هجومى Of- fensive ودفاعى Defensive فالدفاع اعتذار، إنما الإسلام بطبيعته حركة تحرر فى التاريخ، يقلب نظم البغى والطغيان. فالإسلام والجور نقيضان. والحرية والقهر لا يلتقيان. ولا خوف على حقوق أهل الذمة فى الإسلام فقد جمعته المواطنة والمساواة فى الحقوق والواجبات مع المسلمين. إنما يناهض الجهاد قوى الطغيان. وهما بلغة العصر الاستعمار والاستغلال .

ويأخذ سيد قطب فى رسالته «الجهاد فى سبيل الله» نفس الاتجاه التحررى معتمداً على الكتابات السلفية لابن القيم وتقسيم المجتمعات غير الإسلامية إلى أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. ولا يقاتل أهل العهد إلا بعد خرقهم له وإعلامهم بذلك. وأهل الذمة جزء من الأمة. أما أهل الحرب فهم الذين يقاتلون الذين نزلت فيهم سورة «براءة». وهذا يدل على أن الإسلام يتسم بالواقعية الجدية، والواقعية الحركية، والحركة الدائبة، والضبط التشريعى لعلاقة المجتمعات بعضها بالبعض. الجهاد ضد الاستكبار فى الأرض والقوى السياسية التى تقوم عليه. ولا فرق بين دفاع وهجوم كما هو الحال عند المودودى. والإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان فى الأرض من عبودية العباد إلى عبودية الله (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله)، وهو ليس الحكم الثيوقراطى المعروف فى الغرب بل حكم الشريعة. القتال إذن لدرء العدوان، والدفاع عن الحرية، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله). فالقتال للبغاة، (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم). والجهاد ضد البغاة ومن يساعدونهم، (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة). ولقد أخطأ المستشرقون عندما تصوروا أن الإسلام انتشر بالسيف للإكراه على العقيدة مع أن تحرر البشر حركة طبيعية لا تحتاج إلى سيف. السيف للبغى والظلم والعدوان وهو مضاد لطبيعة البشر.



وفى «ضرب الكليم» والذى أعلن فيه الحرب على العصر الحاضر أنشد محمد إقبال شعرًا فى الجهاد ضد فتاوى الشيوخ التى تنكر الجهاد وتكتفى بالعلم، فى حين أن السيف أصدق إنباء من الكتب. فالوعظ مجرد لغو فى حين أن السيف هو أداة النضال ضد الطغاة، فلدى المسلمين الحق دون القوة، ولدى الغربيين القوة دون الحق.

الشيخ أفتى أنه عصر القلم
والسيف فيه حاكم بين الأمم
أما درى الشيخ أن وعظه
فى مسجد قد صار من لغو الكلم
فما ترى السلاح كف مسلم
بل قلبه من لذة الموت حرم
من قلبه يهاب موت كافر
فكيف ميتة الشهيد يغتنم
فعلمن ترك الجهاد طاغية
من كفه يسيل فى العالم دم
أما ترى الغرب بدا مدججاً
ليحفظ الباطل فى عز عمم
يا مفتياً على الكنيس مشفقاً
قد صار فى أحكامه أولو الفهم
الحرب فى المشرق شر داهم
والحرب فى المغرب شر لا جرم
إن يبتغ الحق فكيف حاسب
المسلم لا الفرنج ذلك الحكم ▪

يقاتل المسلم استعداداً لردع العدوان وحماية للأمة لأن الإسلام رسالة هداية وعدل . فإذا ما طلب العدو السلم استجيب له، والقصد من الجهاد إعلاء كلمة الله وليس الجاه وحب الظهور والطمع فى الغنيمة والغلبة



■■ استطاع كمال الشيخ بأول فيلم من إخراجه (المنزل رقم ١٣) ١٩٥٢، وما تلاه من أفلام، أن يسجل اسمه باعتباره رائدًا لأفلام التشويق في السينما العربية عامة. وإذا كان كل عمل فني لا يخلو من التشويق بالضرورة، إلا أن ما نقصده بأفلام التشويق هنا هو الأفلام التي تعمل على إثارة نوع معين من التوتر الذهني والعاطفي لدى الجمهور مما يدفعه إلى ملاحقة أحداثها وترقب نتائجها، والأهم من ذلك أنها تجعل من هذه الإثارة هدفًا في حد ذاته باعتبارها مصدر متعة للجمهور وليست مجرد وسيلة لتمرير مضامين معينة، وإن كانت هذه الأفلام لا تخلو من مضامين (أخلاقية عادة). وفيها تقوم الجريمة بالدور الرئيسي غالبًا حيث تمثل مركز الثقل في معظمها.

والنموذج الشائع لهذه النوعية من الأفلام على المستوى العالمي هو أفلام هتشكوك، وإن كان كمال الشيخ (في حديث خاص معي) ينكر تأثره بهذا الفنان العالمي ويرى أنه أقرب إلى التأثر بفنان عالمي آخر هو «فريتزلانج» الذي شاهد له وهو في مرحلة التكوين فيلمه الرائع «متروبوليس» وكان من عوامل إبهاره بالسينما وانجذابه إليها.

ومع حرص كمال الشيخ على الاحتفاظ بعامل التشويق في كل أفلامه (٣٤ فيلمًا حتى الآن)، فإنه حرص في نفس الوقت على تقديم نماذج مختلفة منها، كما كان لعامل النضج الفكري والحرفي معًا أثرهما بالطبع في اختلاف مستوياتها وتعميق اتجاهاتها على نحو ما يتبين لنا من محاولتنا التالية لتأمل أعمال هذا الفنان السينمائي المبدع.

أفلام الجريمة

هي الأفلام التي تبني عوامل التشويق فيها على أساس جريمة يرتكبها الشخص بدافع ذاتي هو الطمع في الحصول على المال أو الجنس في غالب الأمر، ويمثلها من أفلام كمال الشيخ: «المنزل رقم ١٣» عام ١٩٥٢، «تجار الموت» ١٩٥٧، «من أجل امرأة» ١٩٥٩، «ملاك وشيطان» ١٩٦٠، «لن أعترف» ١٩٦١، «الشيطان الصغير» و«الليلة الأخيرة» ١٩٦٣، و«الخائنة» ١٩٦٥.

وتمتلك السينما الأمريكية - خاصة - تاريخًا طويلاً من أفلام الجريمة، يبدأ مع بدايات السينما بفيلم «سرقة القطار الكبرى» إخراج بورتر ١٩٠٣. وتدور الكثير من هذه الأفلام حول جرائم العصابات، ومن أشهرها «بوني وكلايد» إخراج آرثربن ١٩٦٧، والأب الروحي إخراج كوبولا ١٩٧٢، غير أن الجريمة لا تقتصر على العصابات وحدها، هناك الكثير من الجرائم التي يرتكبها أفراد يعيشون على السطح كمواطنين يراعون القانون ولكنهم متورطون في مشروعات غير قانونية. وهذا

من التشويق إلى التحريض

هاشم النحاس

الشكل من الجريمة الفردية هو ما يتناوله كمال الشيخ - غالبًا - فى أفلامه، ولعل هذا يرجع إلى أنه الأقرب إلى مجتمعنا الذى يخلو تقريبًا من عصابات الجريمة المنظمة.



ويعتبر فيلم «المنزل رقم ١٣» ١٩٥٢ - فى رأيى - نموذجًا نمطيًا بارزًا لأفلام الجريمة التى أبدعها كمال الشيخ فى السينما المصرية حيث يبدأ بجريمة يرتكبها (عماد حمدى) بدون وعى وإن كان يتذكرها كما لو كانت حلمًا أو كابوسًا. إلا أنه يجد على قميصه بقعة دم، كما يجد مفتاحًا غريبًا فى جيبه نعلم فيما بعد أنه مفتاح الشقة التى ارتكب بها الجريمة، ومع تقدم الأحداث نعلم أن المجرم الحقيقى هو الطبيب النفسى (محمود المليجى) الذى يعالجه، وقد ساقه لارتكاب الجريمة تحت تأثير التنويم المغناطيسى للحصول على التامين الذى رصده الضحية لعشيقته من بعده.

ويعتمد السيناريو فى إثارة التشويق على توظيف «المفارقة الدرامية» حينما يكشف للمتفرج عن شخصية المجرم الحقيقى بينما تبقى مجهولة بالنسبة للضحية. وإمعانًا فى إثارة التوتر ورفع نسبة التشويق بتطوير استخدام نفس الحيلة - وهى المفارقة الدرامية - نجد عروس الضحية (فاتن حمامة) بعد القبض على عريسها وسجنه تلجأ إلى الطبيب (محمود المليجى) وهو المجرم الحقيقى طلبًا لمعونته فى إنقاذ عريسها، وفى سبيل ذلك تكشف له عن خطة المحامى فى البحث عن المجرم دون أن تعى خطورة ما تقدم عليه.

وتلعب المفاجأة دورها فى إثارة التوتر عندما تقبل العروس (فاتن حمامة) على شقة الشاهد الوحيد على المجرم فى نفس اللحظة التى يغتاله فيها (محمود المليجى)، لكنها بدلاً من أن تكتشف حقيقة المليجى يستطيع هو أن يختبئ لتفاجأ بالقتيل ثم تفاجأ بقدوم المليجى ليأخذها بعيدًا عن موقع الجريمة بينما ترك حقيبتها إلى جانب القتيل ثم يبلغ عنها البوليس ويدفع المجرع الأحداث إلى مزيد من التشويق عندما يجبر العروس وهى تحت تأثير التنويم المغناطيسى على كتابة اعتراف بقتل الشاهد وقرارها بالانتحار.

ويصل الفيلم إلى ذروته بحيلة التشويق التقليدية التى تتمثل فى «المطاردة والإنقاذ فى آخر لحظة»، حيث يهرب البرىء (عماد حمدى) من سجنه ليطارد المجرم (محمود المليجى) بعد أن عرف حقيقته، فى اللحظة التى يقود فيها المجرم عروسه (فاتن حمامة) للانتحار من فوق الكوبرى. ويتم الإنقاذ فى آخر لحظة بعد معركة بين البطل والشرير، ويأتى البوليس فى الوقت المناسب للقبض على المجرم الحقيقى.

ويلجأ كمال الشيخ فى هذه المطاردة الأخيرة إلى استخدام تكنيك «التوليف المتوازى» لينقلنا بالتناوب عدة مرات بين طرفى الصراع حيث نرى الطبيب وهو يقود ضحيته إلى موقع الانتحار بينما يحاول البطل اللحاق به قبل تنفيذ جريمته. وهى نفس الحيلة التى اشتهر باستخدامها هتشكوك لإثارة الترقب والتشويق فى كثير من أفلامه كما فى أفلام «الدرجات التسع والثلاثون» ١٩٣٥، و«الفتاة الصغيرة» ١٩٣٨، و«السيدة المختفية» ١٩٣٨، و«المراسل الأجنبى» ١٩٤٠، و«الشك» ١٩٤١، و«المخرب» ١٩٤٢.. وغيرها.



يقول كمال الشيخ - فى حديث خاص - أنه استمد فكرة الفيلم من خبر قرأه فى إحدى الجرائد عن طبيب نفسانى فى الخارج استعان بالتنويم المغناطيسى للسيطرة على شخص وتوجيهه إلى إطلاق مسدس (فارغ) على شخص آخر. ولجأ كمال الشيخ إلى على الزرقانى لكتابة سيناريو الفيلم الذى جاء على صورة تخالف الفيلم المصرى التقليدى الشائع وقتها بابتعاده عن الرقص والأغنية والأحداث الرومانسية أو الميلودراما.

كما جاء الفيلم على مستوى من التمكن الحرفى فى سرد الأحداث وضبط الإيقاع والأداء عامة - بالنسبة لمرحلته التاريخية فى إطار السينما المصرية خاصة - مما يجعله فتحًا جديدًا لهذه النوعية من الأفلام فى السينما العربية، مستعينًا فى ذلك بأساليب التشويق الدرامية التى وظفها بمهارة وحافظ على استخدامها فى أفلامه التالية بحيث أصبحت سمات أسلوبه المميزة، ومنها مما جاء ذكره فى التحليل السابق: الغموض، والمفارقة الدرامية، والمفاجأة، والمطاردة، والتوليف المتوازى، والإنقاذ فى آخر لحظة.

هذا بالإضافة إلى أن الفيلم تضمن أيضًا من الأفكار ما كان بمثابة الجذور أو المحاور الرئيسية لبعض أفلامه الأخرى مثل: الجريمة الغامضة (كما فى تجار الموت، والخائنة، والليلة الأخيرة، وعلى من نطلق الرصاص) والمتهم البرىء (كما فى لن أعترف والخائنة)، واستخدام المفارقة الدرامية باللجوء إلى المجرم نفسه طلبًا للمعونة (كما فى لن أعترف والمخربون)، واستغلال فكرة بوليصة التامين (كما فى تجار الموت ومن أجل امرأة)، والاستعانة باكتشافات علم النفس (كما فى أفلامه النفسية التى نتعرض لها لاحقًا).

ويعتبر فيلم «تجار الموت» ١٩٥٧ - فى نظرى - إعادة صياغة (من بعض الوجوه) لفيلمه الناجح الأول «المنزل رقم ١٣». ذلك أن دافع الجريمة فيهما واحد وهو القتل من أجل الحصول على التامين، والمجرم المدبر فيهما طبيب يستغل مهنته فى تدبير الجريمة، وكان ممثل هذا الدور فيهما واحدًا هو (محمود المليجى). ولا عجب أن كاتب السيناريو لهما واحد وهو على الزرقانى.

ولكن الأحداث فى الفيلم تبدو أكثر كثافة وأكثر تشابكًا وأكثر حبكة وإحكامًا، وبذلك يصعد المخرج فى هذا الفيلم بأسلوب التشويق إلى مستوى أكثر حدة. الفيلم يتضمن ثلاث جرائم لا جريمة واحدة، وكل منها يتم بطريقة مختلفة تكشف عن سعة حيلة هذا الطبيب المجرم، لكن أطرفها وأكثرها تعقيدًا الجريمة الأساسية الثالثة التى لم تتم، حيث يغرى طبيب شركة التامين (محمود المليجى) أحد المتورطين فى سرقة الخزينة (فريد شرقى) على الزواج، مع وضع خطة لقتل الزوجة بعد التامين على حياتها بمبلغ كبير، على أن يتم تقسيم المبلغ بينهما بعد نجاح المؤامرة. غير أن أمين الخزينة (فريد شوقى) يقع فى حب زوجته البريئة. ومن هنا ينشأ صراع حاد بينه وبين نفسه، وبينه وبين الطبيب (محمود المليجى) الذى ينتهى بعد تشابكات عديدة بهزيمة الشرير رغم ما أبداه فى تدبيراته من ذكاء حاد كان يفاجئ به خصمه كما يفاجئ المشاهد مما يضاعف من عامل التشويق. والفيلم مأخوذ من وقائع حقيقية لعصابة كشفت عنها أجهزة الأمن ودفعت بأصحابها للمحاكمة.

ومع ذلك لم يحقق الفيلم النجاح الكبير المتوقع له، ويرى كمال الشيخ - فى لقائى معه - أن السبب هو أن الدور الذى أسند لفريد شوقى جاء على غير ما يتوقع الجمهور، حيث يتوقعه فى دور شرير (كما ظهر فى أفلامه السابقة)، فلم يقتنع به رغم إتقان فريد لدوره فى الفيلم. ولكن لعل من الأسباب أيضًا - فى رأيى - أن الجمهور اعتبر هذا الفيلم تكرارًا لفيلمه السابق «المنزل رقم ١٣».



وفى فيلم «ملاك وشيطان» ١٩٦٠ يبدأ التشويق باقتحام اللصوص المنزل لسرقة المجوهرات. ويزداد التشويق مع اختطاف الطفلة التى كادت تكشف عنهم.

ويكشف الفيلم بوضوح عن مقدرة كمال الشيخ فى توجيه الأطفال بمهارة نادرة فى أفلامنا. وقد ظهرت هذه المهارة فى فيلمه «حياة أو موت» ١٩٥٤ الذى قامت ببطولته أيضًا طفلة صغيرة. كما أسند دورًا بطوليًا لطفل فى فيلم ثالث فيما بعد هو «الشيطان الصغير» ١٩٦٣. ولكن دور الطفلة فى هذا الفيلم «ملاك وشيطان» كان أكثرها عمقًا وأقواها تأثيرًا، ولا يرجع ذلك إلى أدائها المتقن وإنما يرجع فى الأساس إلى البناء الدرامى للشخصية الذى جعل منها عاملاً فعالاً فى تطوير الأحداث وتطوير الشخصيات من بداية الفيلم حتى نهايته.

الطفلة هى التى تحول بين اللصوص وسرقة المجوهرات، ويؤدى اختطافها إلى تحويل خطة اللصوص من السرقة إلى الابتزاز بطلب فدية من والديها. وعندما يخفيها رئيس العصابة عند أحد أعوانه (رشدى أباظة) تؤدى تصرفاتها البريئة التى لا تخلو من ذكاء - منها إنقاذ (رشدى أباظة) من ورطته فى البئر - إلى تحويل مشاعره نحوها مما يؤدى بالتالى إلى الصراع بينه وبين رئيس العصابة وأعوانه، وينتصر عليهم ليعيد الطفلة إلى أهلها ومعها المجوهرات التى سرقتها العصابة.

ويعتبر فيلم «الليلة الأخيرة» ١٩٦٣ نموذجًا لاستخدام أسلوب الغموض الفنى فى أفلام كمال الشيخ حيث نرى الفتاة «فاتن حمامة» من بداية الفيلم تقوم من النوم لتكتشف أن كل ما حولها غريب عنها، فحجرة النوم ليست حجرتها، وثيابها ليست هى ما تعرفه عن ثيابها،

بدأت أفلام كمال الشيخ عن الجريمة. كما بدأت فى تاريخ السينما عامة والأمريكية خاصة. بتقديم المجرم الذى يُولد ولا يُصنع، لكنه ما لبث أن انتقل إلى مستوى آخر من المعالجة للجريمة فى فيلم «اللص والكلاب» ١٩٦٢، حيث لم يقتصر على الكشف عن الدوافع النفسية للجريمة، وإنما يسعى للكشف عن جذورها الاجتماعية، حتى ليبدو المجرم نتاجًا طبيعيًا لبيئته



وتفاجأ أن «محمود مرسى» زوجها بينما ما تعرفه أنه زوج أختها، كما تفاجأ بأن لها ابنة واليوم هو زفافها، حتى اسم «فوزية» الذى يطلقونه عليها ليس اسمها وإنما هو اسم أختها أما هى فاسمها «نادية».

ويظل المشاهد فى حيرة طوال الفيلم من حقيقة الفتاة: هل هى نادية كما تدعى وتحاول أن تثبت ذلك رافضة الحياة المفروضة عليها وإن عرّضها ذلك للمخاطرة بحياتها، أم أنها فوزية كما يؤكد زوجها؟! ولا ينقشع هذا الغموض إلا فى النهاية بعد عمليات من التحقيق والمقاومة بمساعدة أحد المعارف من الأطباء (أحمد مظهر)، حيث نعلم أن الزوج (محمود مرسى) استغل فقدانها الذاكرة منذ خمسة عشر عامًا على أثر غارة فقدت فيها كل أسرتها ومن بينها أختها فوزية زوجته الحقيقية، فاطلق عليها اسم زوجته طمعًا فى الحصول على ثروة الأسرة.

وعن هذا الفيلم يقول كمال الشيخ: «هو الترجمة الأمينة والدقيقة لأسلوبى الفنى» (مجلة فن ٤ ديسمبر ١٩٩٥). وقد نال الفيلم جائزة أحسن مخرج فى مسابقة وزارة الثقافة كما مثّل مصر فى مهرجان كان ١٩٦٤ (ملفات إدارة المهرجان بالمركز القومى للسينما).

والعلاقة التى تربط هذه الأفلام ببعضها وتربطها بنوعية أفلام الجريمة، الطموح غير المشروع للشخصيات الرئيسية، والخطر الملازم لحياتهم ووجودهم. ولما كان المجتمع لا يتسامح مع النشاط الإجرامى، فإن احتمال القبض على المجرم وافتضاح أمره يمثل من الضغوط ما يشكل سلوكه ومواقفه العصبية نحو البيئة المحيطة به، وهو ما يفسر لنا حدة انفعال الزوج وأكاذيبه التى تبدو غريبة فى فيلم «الليلة الأخيرة» إلى أن نعرف السبب فى النهاية. كما أنها وراء الحرص والتدبير الدقيق لشخصيات مرتكبى الجريمة فى بقية الأفلام.

وفيما عدا الزوج المجرم فى «الليلة الأخيرة» الذى يكشف انفعاله عن افتقاده للثقة بالنفس ورباطة الجأش، نجد أن المجرمين فى بقية الأفلام يقومون بتخطيطهم الإجرامى عن ثقة شديدة بأنفسهم كما فى «المنزل رقم ١٣» و«تجار الموت» و«من أجل امرأة».

وتمثل هذه الثقة إحدى السمات الرئيسية لشخصياتهم فى هذه النوعية من الأفلام، فضلاً عما يبديه المجرم من ذكاء وإقدام وقدرة على الاستجابة السريعة مما يساعد على حدة الصراع وإثارة التشويق لدى المشاهد.



ويتولّد اهتمامنا فى هذه الأفلام من خلال رغبتنا فى رؤية التنفيذ الناجح لخطة عويصة، وهو ما يثير إعجابنا مادامت لا تمثل خطرًا مباشرًا علينا. ويؤدى هذا الإعجاب إلى اتهام هذه النوعية من الأفلام بتشويه القيم وإضفاء البهاء على المجرم. إلا أن الحس الأخلاقى فى أفلام كمال الشيخ يرتفع دائمًا بحيث لا يدع لهذا الاتهام من موضع. ولا يقتصر ذلك على أن ينال المجرم الجزاء العادل على ما اقترفه فى النهاية، وإنما غالبًا ما نجد الشخصيات الخيّرة التى تعين الضحية.

وتتكرر فى أفلامه حالات يقظة الضمير لدى الشخص المقدم على المشاركة فى الجريمة كما فى «تجار الموت» و«الشيطان الصغير»، أو بعد ارتكابها كما فى «لن أعترف». أما فى «ملاك وشيطان» فيتحول المجرم إلى منقذ للطفلة متأثرًا ببراءتها. وهو ما يكشف عن مثالية كمال الشيخ الأخلاقية الزائدة أحيانًا مما قد يضعف من شأن مصداقية الدراما.

ويحتفظ كمال الشيخ بنفس النزعة التى تمثل بُعدًا أساسيًا فى بقية أفلامه الأخرى من احترام للقيم الأخلاقية السائدة، والأسرية منها على وجه خاص.

التشويق بدون جريمة

لا يقتصر كمال الشيخ فى خلق التشويق على الجريمة وحدها التى تمثل العنصر الرئيسى فى هذا النوع من الأفلام فى تاريخ السينما عامة، ولكنه يوسع من نطاق أفلام التشويق لتشمل أفلامًا أخرى بعيدة عن تناول الجريمة. وفى فيلمى «حياة أو موت» و«أرض السلام» يقدم لنا مستوى آخر من مستويات هذا التشويق البعيد عن الجريمة.

كان «حياة أو موت» ١٩٥٤ هو ثالث أفلام كمال الشيخ، وثانى أفلامه المهمة التى لفتت إليه الأنظار وحققت له المكانة حيث يعتبر إضافة جديدة لريادة كمال الشيخ لنوعية أفلام التشويق. الفيلم لا يعتمد على قصة وإنما مجرد موقف يتمثل فى حصول طفلة على مادة سامة من الصيدلية - بدلاً من الدواء - وتحملها إلى والدها المريض بالبيت. وزمن الأحداث لا يتعدى نصف نهار. هذا وقد تم تصوير معظم الأحداث فى شوارع القاهرة. والفيلم فى كل هذا يمثل محاولة غير مسبوقة فى السينما العربية.

يبدأ التشويق فى «حياة أو موت» بعد الدقائق الأولى من بداية الفيلم حينما تأخذ الطفلة على عاتقها شراء الدواء لأبيها المريض الذى يعانى من آلام شديدة وتتركه وحده فى البيت.

والحيلة الأساسية التى يلجأ إليها السيناريو - إلى جانب المطاردة - لخلق التشويق هى وضع العقبات أمام الشخصيات وهى فى طريقها لتحقيق غايتها. فالطفلة لا تجد الصيدلية القريبة مفتوحة. والصيدلية الوحيدة المفتوحة وقتها تبعد عنها مسافة كبيرة تقتضى استخدام المواصلات.

وعندما تحصل على الدواء وتأخذ طريقها للعودة يقفز التشويق عدة درجات دفعة واحدة عندما نفاجأ بأنها أخذت سمًا بدلاً من الدواء.

الفيلم بعد ذلك عبارة عن سباق مثير، تعترضه العقبات، بين الطفلة التى تسعى للوصول إلى أبيها بالدواء والصيدلى الذى يسعى للحاق بها أو الوصول إلى والدها قبل أن يتناول الدواء السام، مستعينًا بالبوليس والجيران وحتى حكمدار العاصمة والإذاعة.

فى حديث له مع «محمد الدسوقى» فى مجلة «فن» بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٩٥، يقول كمال الشيخ عن هذا الفيلم: «قال النقاد عقب مشاهدتهم للفيلم أنه فيلم واقعى، لكنى لا أراه واقعيًا وإنما فانتازيا». وهو يشير بذلك إلى المثالية الأخلاقية التى بدت عليها كل شخصياته المسئولة وغير المسئولة، فضلاً عن أفراد الأسرة، الأمر الذى يعبر عن حلم صاحبه فيما يجب أن يكون عليه المجتمع والناس، ولم يكن يعنيه التعبير عن الواقع. وقد اشترك الفيلم فى مهرجان كان فى منتصف الخمسينيات.

أما فيلم «أرض السلام» ١٩٥٧ فكان الفيلم العربى الثانى بعد «فتاة من فلسطين» ١٩٤٨ الذى يتطرق إلى موضوع القضية الفلسطينية، وإن اكتفى بتقديم رموز القضية دون التعرض لتفاصيلها. فهناك العدو الإسرائيلى المغتصب للأرض، وهناك مجموعة من الفلسطينيين العرب المطرودين من ديارهم، وهناك المقاومة التى يمثلها ثلاثة من الفدائيين المصريين. ويركز الفيلم على العملية الفدائية التى يقومون بها، حيث يموت اثنان ويبقى الثالث (عمر الشريف) الذى يستعين بالفلسطينيين فى مهمته، ويقع فى حب إحدى بناتهم (فاتن حمامة) ويعود بها بعد نجاح المهمة.

والفيلم إذ يقوم بناؤه من بدايته على متابعة العملية الفدائية، حافظ على أسلوب المخرج فى التشويق وهو ما يتمثل هنا فى عمليات التسلل والاقتحام والصدام مع العدو والهروب والاختباء ومفاجآت الهجوم والمطاردة.

الاضطرابات النفسية

تمثل الاضطرابات النفسية وما يكتنفها من غموض مجالاً خصبًا لأفلام التشويق، وعليها اعتمدت السينما العالمية فى تقديم بعض أفلامها، ومن أبرزها بعض أعمال هتشكوك مثل «المأخوذ» و«سيكو»..

ويميل كمال الشيخ إلى الإفادة من علم النفس واكتشافاته عامة فى قصص أفلامه. وقد ظهر ذلك فى أول أفلامه «المنزل رقم ١٣» الذى كان الطبيب النفسى أحد أبطاله، وعقدة الأحداث تقوم على أساس استخدام هذا الطبيب لإمكانية التنويم المغناطيسى فى السيطرة على الآخرين وارتكاب جرائمه. ويبدأ فيلم «الملاك الصغير» ١٩٥٨ بفتاة (زبيدة ثروت) مريضة بفقدان الذاكرة أثر على حادثة قضت على والديها. وتقوم حبكة فيلم «الليلة الأخيرة» أساسًا على استرداد البطلة لذاكرتها بعد أن فقدتها لمدة ١٥ سنة. ويلعب كل من الطبيب النفسى فى الفيلم والتحليل النفسى دورًا رئيسيًا فى الكشف عن الحقيقة.



غير أن فيلم «بئر الحرمان» ١٩٦٩ هو أكثر أفلام كمال الشيخ التصاقًا بعلم النفس المرضى، فالحالة المرضية هنا ليست مجرد وسيلة لبناء أحداث درامية (خارجة عنها) كما رأينا فيما سبق، وإنما هى الوسيلة والغاية معًا، حيث يعتبر الفيلم دراسة درامية لحالة من حالات ازدواج الشخصية وما ينجم عنها من مشاكل.

الفيلم مأخوذ عن قصة لإحسان عبدالقدوس وكتب له السيناريو يوسف فرانسيس. يتناول شخصية ناهد (سعاد حسنى) المصابة بازدواج الشخصية، حيث تتحول فى المساء إلى شخصية أخرى تحمل اسم مرفت التى ترتدى فستانًا أحمر مثيرًا وتضع على وجهها ماكياجًا ثقيلاً وتطلق لنفسها العنان بالتحرر فى علاقتها بالرجال، حتى مع سائق سيارتها، مما يوقعها فى المشاكل. لكنها تستطيع فى النهاية - بمساعدة الطبيب - الكشف عن أسباب هذا المرض بالرجوع إلى مرحلة الطفولة وعلاقتها بوالديها وعلاقة والديها ببعضهما. وهى علاقة (أعنى علاقة الوالدين) تبدو غامضة فى البداية وتتكشف لنا أسباب غرابتها مع اكتشافنا لأسباب مرض ناهد.

الجاسوسية

من خلال فيلم «الصعود إلى الهاوية» ١٩٧٨ يقدم كمال الشيخ عملاً آخر من أعماله الرائدة، حيث إنه أول فيلم عربى عن الجاسوسية. والفيلم قائم على أحداث حقيقية مأخوذة من ملفات المخابرات المصرية عن فتاة مصرية تنجح المخابرات الإسرائيلية فى تجنيدها أثناء تواجدها فى بعثة علمية بباريس. وتتسرب عن طريقها

من الأخبار ما يؤدى إلى تدمير قاعدتى صواريخ أبوسلطان وفايد، ولكن المخابرات المصرية تنجح فى اكتشافها والتحايل لدفعها إلى السفر لوالدها فى تونس حيث يتم القبض عليها فى هدوء، وترحيلها مباشرة من الطائرة التونسية إلى الطائرة المصرية التى تنقلها إلى القاهرة.

أحداث متلاحقة فى إيقاع حى ومفاجآت مقنعة تكشف عن مباراة حامية بين ذكاء المخابرات المصرية والمخابرات الإسرائيلية، فضلاً عن توتر البحث، والتسلل، والمطاردات، واصطياد الفريسة من قبل المخابرات الإسرائيلية مرة ثم المخابرات المصرية مرة أخرى. وكلها من العوامل المثيرة للتشويق التى يتيحها هذا النوع من أفلام الجاسوسية. ويصل فيها كمال الشيخ إلى أفضل مستوياته الفنية. وعنه فاز بجائزة أحسن مخرج فى مسابقة وزارة الثقافة.

الخيال العلمى

يخوض كمال الشيخ من خلال فيلم «قاهر الزمان» ١٩٨٧ مجالاً آخر من مجالات الابتكار والريادة على مستوى السينما العربية، حيث يقدم لأول مرة فيلمًا من أفلام الخيال العلمى. ولاشك أن الخيال العلمى بما يثيره فى الذهن من توقعات متضاربة يمثل أحد الروافد الغنية بالتشويق، الجديرة بتغذية هذه النوعية من الأفلام التى حرص كمال الشيخ على تقديمها.



تدور الفكرة الرئيسية للفيلم حول طبيب (جميل راتب) يجرى تجاربه النهائية على الإنسان من أجل تجميد جثته لفترة من الوقت ثم إعادتها للحياة، وتؤدى تصرفاته إلى إثارة فضول أحد الصحفيين فيذهب إلى بيته للحصول على تحقيق صحفى مثير لكنه يختفى، ويبحث عنه قريبه الصحفى الآخر (نور الشريف)، ونمر معه بمغامرات التسلل والاختباء والمطاردة والاشتباك بينه وبين الطبيب ومعاونيه وابنته (آثار الحكيم).

ولكن رغم نجاح التجربة فى النهاية إلا أن أحد معاونى الطبيب يرمى هذه المحاولة العلمية بالكفر وتنتابه لوثة عصبية يندفع على أثرها إلى تحطيم المعامل بما فيها من أجهزة ومعدات ومواد. ويمثل الفيلم بذلك إنذارًا بخطورة التيار الدينى المتطرف على العلم والتقدم. إلا أن الفيلم ينتهى بلقطة للقاهرة عام ٢١١٠ لنرى لافتة على أحد المبانى تشير إلى أنه مبنى وحدة التجميد، تعبيرًا عن الأمل فى انتصار دعوة الطبيب فى المستقبل.

ولاشك أن هذه الفكرة الرئيسية التى يدور حولها الفيلم جديرة بإثارة مناقشات خصبة حول الحياة والموت وموقف الدين والعلم منهما، خاصة أن هناك محاولة فى الفيلم لربط أحداثه بعقيدة البعث عن قدماء المصريين وقصة أهل الكهف الدينية.

الجريمة وأفلام التحريض

بدأت أفلام كمال الشيخ عن الجريمة ـ كما بدأت فى تاريخ السينما عامة والأمريكية خاصة ـ بتقديم المجرم الذى يُولد ولا يُصنع، لكنه ما لبث أن انتقل إلى مستوى آخر من المعالجة للجريمة فى فيلم «اللص والكلاب» ١٩٦٢، حيث لم يقتصر على الكشف عن الدوافع النفسية للجريمة، وإنما يسعى للكشف عن جذورها الاجتماعية، حتى ليبدو المجرم نتاجًا طبيعيًا لبيئته.

والفيلم مأخوذ عن رواية نجيب محفوظ التى تحمل نفس العنوان وشارك فيه كمال الشيخ بكتابة السيناريو مع صبرى عزت. وكان الفيلم هو المحاولة الثانية من نوعها فى التعامل مع أدب نجيب محفوظ، وذلك بعد فيلم «بداية ونهاية» المأخوذ أيضًا عن رواية محفوظ التى تحمل نفس العنوان، وأخرجه صلاح أبوسيف قبل ذلك بعام واحد تقريبًا.



وإذا كان كمال الشيخ قد وجد فى رواية «اللص والكلاب» ضالته من عوامل التشويق التى تثير اهتمامه ويتسم بها أسلوبه، وتمثل الجريمة أحداثها الرئيسية، فهى إلى جانب ذلك قد أمدته بالمعنى الاجتماعى والسياسى وراء الأحداث، مما حقق نقلة كيفية داخل إطار أفلامه عن الجريمة تجاوز بها التشويق إلى التحريض، بما تحمله هذه الأفلام ـ وأولها اللص والكلاب ـ من وجهة نظر اجتماعية سياسية تدعو المشاهد إلى تغيير المجتمع وإعادة النظر فيما يدور حوله من أمور الحياة.

يبدأ الفيلم كالمعتاد فى أفلام كمال الشيخ بحادث مثير للانتباه؛ جريمة سرقة يقدم عليها سعيد مهران (شكرى سرحان) باقتحام أحد المنازل، بينما يشى به مساعده، ليزج به فى السجن ويستولى مساعده على زوجته بعد أن يطلقها منه. وعندما يخرج من السجن تنكره طفلته التى لا تتعرف عليه. وعندما يلجأ إلى أستاذه رءوف علوان (كمال الشناوى) يتخلى عنه بعد أن أصبح أحد أعلام الصحافة. وكان هو الذى سبق وبرر له السرقة باسم العدالة الاجتماعية المهدرة.

وعلى خلاف كل المجرمين الذين رأيناهم فى أفلام كمال الشيخ السابقة شديدى الحساسية بأهمية البقاء على قيد الحياة ـ الأمر الذى ينعكس بوضوح فى حرصهم الشديد فى تصرفاتهم ـ نجد أن المجرم فى «اللص والكلاب» لا يملك هذا الإحساس بالحرص على حياته، ومن ثم لا يوجد ما يحول بينه وبين الاندفاع فى تهوراته، فيندفع للانتقام ممن تخلوا عنه وخانوه، حتى يلقى حتفه.

ويحقق المجرم فى «اللص والكلاب» تفوقًا على أقرانه فى أفلام الجريمة عند كمال الشيخ من ناحية إثارة الاهتمام والتشويق، وليس ذلك لاندفاعه ومهاراته (رغم إخفاقه) فى النهاية ولكن من خلال التمسك بوجهات نظر أخلاقية فيما يقوم به من أعمال. فهو ينتقم من الخونة والانتهازيين.

ونحن إذ لا نقره (اجتماعيًا) على تصرفه العدوانى الفردى نحوهم إلا أننا نشاركه الحكم عليهم بالخيانة والانتهازية. وهنا قد نجد مكانًا لمقولة الناقد الأمريكى «روبرت شو» عن رجل العصابة الذى يراه بطلاً «ينوب عن الإنسان المعاصر الذى يعانى ضغوط إلغاء الشخصية فى حياة المدينة» (٢١٩ من كتاب أنواع الفيلم الأمريكى الصادر عن هيئة الكتاب ١٩٩٥).



والفيلم إذ يكشف عن انتهازية رءوف علوان الذى يبرر السرقة باسم العدالة الاجتماعية، يحذرنا من هذه النوعية من الشخصيات التى أودت بسعيد مهران إلى الضياع، كما ينتقد النظام الذى جعل من رءوف علوان أحد أعلام الصحافة، بقدر ما ينتقد الصحافة الكاذبة التى يتلاعب بها الانتهازيون. ومما يرفع من قيمة الفيلم الاجتماعية ـ إلى جانب قيمته الفنية ـ أنه ظهر فى نفس العهد الذى يدعو إلى الاشتراكية ويعلن ملكية الصحافة للشعب، فكشف بذلك عن التناقض بين الشعارات والواقع.

وفى مقدمة أفلام هذه المجموعة فيلم «غروب وشروق» ١٩٧٠، المعد عن رواية للكاتب جمال حماد وكتب له السيناريو رأفت الميهى: يتحول أحد ضباط الطيران (رشدى أباظة) وزميله (صلاح ذوالفقار) إلى النشاط السرى المناهض لحكومة قبل الثورة على أثر اغتيال صديقهم الثالث بتدبير من «حميه» رئيس البوليس السياسى (محمود المليجى). ويقبل (رشدى أباظة) الزواج من ابنة رئيس البوليس السياسى (سعاد حسنى) ليصور مذكرات الباشا السرية ويتم نشرها فى كتاب يؤدى إلى غضب السراى عليه وإقالته. وفى اللحظة التى يقرر فيها الباشا الانتقام من الشابين يهبط عليه معاونه السابق مع قوة للقبض عليه بأمر السراى.

إن ما يصل إليه كمال الشيخ فى هذا الفيلم من تشويق فى أعلى مستوياته، من خلال ما يقدمه من أحداث متلاحقة فى إيقاع لاهث يمتلئ بالمفاجآت ويحتدم بها الصراع، يكشف لنا عن بشاعة البوليس السياسى قبل الثورة، ويصور شكلاً من أشكال الكفاح الوطنى ضد الفساد واستبداد السلطة فى تلك المرحلة، مما يربط الأحداث بالمجتمع ويمنحها المصداقية ويجعل للفيلم معنى يتجاوز التوقف عند حد التشويق وينتقل بنا بشكل أو آخر إلى مستوى التحريض، وهو ما يؤكده كمال الشيخ بقوله: «على الرغم من أن القصة قالت بوضوح أن الأحداث دارت قبل الثورة وكانت تمهيدًا لها، إلا أننى تمنيت أن يكون الفيلم صيحة تحذير مهمة وقوية تقول أن التجاوزات لم تتوقف ولم تختف من حياتنا بعد». (مجلة فن ١٩٩٥/٢/١١).



ويمثل فيلم «الهارب» ١٩٧٥ أحد نماذج أفلام المطاردة المتقدمة فى السينما العربية. حيث تقوم فكرته الرئيسية على أساس هروب أحد المساجين، والفيلم كله مطاردة لهذا الهارب.

غير أن قيمة الفيلم تتجاوز مجرد المطاردة المثيرة بالكشف عن جوانب اجتماعية وسياسية مما يرفع من قيمته ويمنح المطاردة أبعادًا لها مغزاها. فالهارب عندما يختبئ فى إحدى الشقق تكتشف أن صاحبها صحفى كبير يقضى وقتًا مع عشيقته فى غياب زوجته وأولاده، والعشيقة تفضح استغلاله لها، كما نحاط بجانب آخر من سيرته الفاسدة باستغلال وظيفته فى الاختلاس من خلال التلاعب فى صفقة المطابع.

ونعلم أن الهارب دخل السجن بتهمة لا يعرفها، فهم يطلبون منه معلومات عن أخيه وأعضاء الخلية الوطنية الذين يعمل معهم. وهو لا يعلم عن أخيه وأعضاء هذه الخلية شيئًا. لذلك عندما يحاصرونه فى النهاية ـ وكان على وشك الهروب إلى الخارج ـ يصيح فى وجه المحاصرين أن يسمعوه أولاً قبل أن يقبضوا عليه.

وبهذه النهاية يوجه الفيلم صرخته ضد الاستبداد والحكم البوليسى بشكل مطلق، وإن شاب الفيلم بطء الإيقاع أحيانًا، وربما يرجع القصور فى كثافة الأحداث إلى ما تعرض له الفيلم فى الرقابة من حذف الكثير من مشاهده مما اقتضى إعادة صياغته على هذا النحو.





ومع ذلك فقد حصل مخرجه على جائزة أحسن مخرج في مسابقة وزارة الثقافة.

ويعتبر فيلم «على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥ سيناريو رأفت الميهي واحدًا من أشد الأفلام نقدًا للقطاع العام، كما تنبأ بالمأساة الاجتماعية الاقتصادية لعصر الانفتاح الاستهلاكي الذي لم يكن قد بدأ رسميًا بعد. وهو إذ يواجه الواقع مباشرة يؤكد طوال العرض أنه يتناول الواقع المُعاش في حينه (وليس تاريخًا لواقع سابق قريب أو بعيد).

ومن أفصح مشاهد الفيلم تعبيرًا عن مضمونه وأكثرها حيوية، مشهد يجمع بين مرح الشباب ومأساة الأوضاع، يضم (مجدي وهبة) وخطيبته (سعاد حسني) وصديقهما الحميم (محمود ياسين) وهم في نزهة بشوارع القاهرة يتطلعون إلى الفاترينات وأسعار معروضاتها المشتعلة. وعندما يلمحون في طريقهم سيارة جميلة معروضة للبيع يلتقطون صورًا تذكارية لهم إلى جانبها تعبيرًا عن إعجابهم بها. وعندما يسألون عن ثمنها لمجرد المعرفة يدركون أن مجموع مرتباتهم في العمر كله لا يبلغه، وينتهي المشهد بتعليق (محمود ياسين) الذي يبلور خلاصة الوضع - في مرارة - بأننا في بلد لا يتمتع فيه غير اللصوص.

غير أن الفيلم رغم تحليله الاقتصادي السياسي للمجتمع يحتفظ بنفس عوامل التشويق الأساسية التي تميز أفلام كمال الشيخ وتوفرها الجريمة والتحقيق والغموض الذي يتكشف في النهاية.

فالفيلم يبدأ بجريمة قتل غامضة حيث يقتحم الشاب (محمود ياسين) مكتب رئيس الشركة (جميل راتب) ويطلق عليه النار. لكنه ما أن يندفع هاربًا في الطريق حتى تصدمه سيارة. وتأتي الإسعاف لتحمل الاثنين معًا.

وخلال التحقيق الذي يستغرق الفيلم كله، ويستدعي استرجاع الأحداث السابقة يتبين لنا في النهاية أن (محمود ياسين) وهو صاحب نضال وطني سابق وعائد حديثًا من المعتقل، قتل رئيس الشركة (جميل راتب) انتقامًا لصديقه (مجدي وهبة) زوج (سعاد حسني) السابق، والتي تزوجها رئيس الشركة وكانت تعمل في السكرتارية بعد أن زج بزوجها في السجن، حيث كان يعمل مهندسًا سابقًا في نفس الشركة، ولفق له تهمة اختلاس حديد التسليح وحمّله مسئولية انهيار المساكن التي أقامتها الشركة. ثم دبر له مؤامرة قتله بالسم في السجن للتخلص منه نهائيًا.

وتتكشف هذه الحقائق تدريجيًا خلال سلسلة متشابكة من الأحداث تنتهي بوضع الحراسة على رئيس الشركة المجني عليه وقد أصبح متهمًا بعد فتح ملف المهندس (مجدي وهبة) من جديد لتأخذ العدالة مجراها. ولكن رغم تعقد الأحداث وتشابكها وما تضمنه الفيلم من استرجاعات كثيرة لأحداث ماضية (فلاش باك)، ظل الفيلم محتفظًا بوضوحه. كما كان لحيوية إيقاعه السريع ومفاجآت اكتشافاته، فضلاً عن تماسك بنائه الدرامي، وسلامة بناء الشخصيات وأدائها، وذكاء الحوار، الفضل في الحفاظ على اهتمام المشاهد طوال الفيلم وإثارة تشويقه.

أفلام الشخصية

وهي الأفلام التي تعنى بتقديم معالجة درامية متعمقة لشخصية من الشخصيات الإنسانية شأنها في ذلك شأن الأعمال الأدبية الكبيرة التي نجحت في تقديم شخصيات أصبحت لها شهرة ذائعة لما تميزت بها من بناء درامي محكم ومؤثر جعلها تعيش بيننا رغم بُعد المسافة الزمنية لتأليفها مثل أوديب وإليكترا وأنتيجونا من كلاسيكيات الأدب اليوناني، وماكبث وعطيل وهملت من مسرحيات شكسبير الخالدة. وقد لجأت السينما إلى تحويل هذه الأعمال الأدبية إلى أفلام، ومنها ما تكرر تقديمه أكثر من مرة بأكثر من لغة.



ومن الأفلام المصرية التي استعانت بالأدب العالمي لتقديم إحدى شخصياته كان فيلم «الغريب» ١٩٥٦ الذي يعتبر أحد نماذج أفلامنا الناجحة المعدة عن رواية أدبية أجنبية. والرواية هي «مرتفعات وذرنج» للكاتبة أميلي برونتي من القرن التاسع عشر. وتعتبر الرواية أحد أعمال الأدب العالمية البارزة. ولاشك أن محاولة تعريبها عن طريق الفيلم هي محاولة مشروعة لتقريب الأدب العالمي للمشاهد العربي. كتب لها السيناريو حسين حلمي المهندس وأخرجها كمال الشيخ من خلال تجربة فريدة من نوعها حيث اشترك معه في إخراجها فطين عبدالوهاب.

وقد وفق الفيلم إلى حد كبير في تعريب الرواية التي تكشف عن مدى الحقد الذي زرعته المعاملة السيئة لأبناء الطبقة الغنية في نفس الفتى الفقير الذي أطلق عليه اسم «غريب». كان الأب قد أتى به ليربيه بين أبنائه، ولكن الابن «محرز» لا يقبل وجوده بينهم ويسيء معاملته. وينمو الفتى ليصبح شابًا وينمو الحب بينه وبين ياسمين ابنة الأسرة التي ترعاه. ورغم أنه يتحمل المهانة والإذلال في بقائه إلى جانب حبه إلا أنه يفاجأ باستعداد ياسمين للزواج من ابن العائلة الثرية في القرية المجاورة، فيهجر المكان زمنًا ليعود ومعه المال والرغبة في الانتقام ممن أذلوه. وينجح في شراء القصر وكل ممتلكات الأسرة التي يفقدها ابن الأسرة بالقمار. ويشعل الغيرة بين ياسمين وليلى أخت زوجها التي أوقعها في غرامه. ويفسد العلاقة بين ياسمين وزوجها. وعندما تموت ياسمين على كتفه بسبب عملية ولادة متعسرة لا يخفى حقده عليها لدرجة أن يطلب لها العذاب في الآخرة.



غير أن تعبيره عن كل هذا الحقد أو الغضب المشتعل في قلبه من ناحيتها يكشف في نفس الوقت عن مدى حبه العميق الدفين لها الذي لايزال يصليه نارًا. وينجح الفيلم بذلك في تقديم دراسة درامية كاشفة لبعض جوانب النفس البشرية وتعقيداتها.

ورغم البداية المشوّقة التي يبدأ بها الفيلم بمحاولة فاشلة لسائق السيارة في الاعتداء على «غريب» للاستيلاء على محفظته المنتفخة (التي عاد بها)، مما يوهم بأننا بصدد مشاهدة فيلم من أفلام الجريمة، إلا أنه تناول الأحداث بعد ذلك بمعالجة كلاسيكية رصينة وأداء تمثيلي متمكن يكشف عن حدة المشاعر، حافظ على مفهوم الرواية وطابعها الرومانسي. ونجح في تقديم شخصياتها وأحداثها بوضوح يقربها إلى ذهن وقلب المشاهد العربي، وإن شاب إحساسه بعض الغرابة التي ظلت قائمة بفعل الأصل الأجنبي.

ويبتعد فيلم «الرجل الذي فقد ظله» ١٩٦٨ مثل سابقه - الغريب - عن أفلام التشويق المعهودة لكمال الشيخ القائمة على الحركة المثيرة التي تتمثل في المطاردات والتحقيقات والجريمة والمفاجأة.. إلخ، ومع ذلك هو من أنضج أفلام كمال الشيخ ومن أكثرها أهمية. ولا يخلو من تشويق، يبدو - في نظري - أكثر عمقًا وأقوى تأثيرًا في النفس. ويقوم التشويق هنا على أساس البناء الدرامي للشخصية. والفيلم مأخوذ عن رواية فتحي غانم التي تحمل نفس العنوان.

يقدم الفيلم شخصية الصحفي الانتهازي «يوسف عبدالحميد السويفي» الذي يبيع كل شيء من أجل التسلق للطبقة الأعلى. يتخلى عن أهله، ويشي بصديقه، وينافق أستاذه، ويقضي عليه عند اللزوم، ويمالئ السراي والإنجليز.. حتى حبه يتنازل عنه من أجل أن يصل.. ولأنه باع كل شيء.. فقد كل شيء.. حتى ظله.. وإن كان ما يدور في ذهنه في آخر الفيلم، يرهص بما ينوي من تغيير جلده ليواصل التسلق حتى آخر لحظة، فعندما تجتاح البلاد المظاهرات ضد الحكومة والسراي نسمع ما يدور في ذهنه وهو يعد نفسه للمرحلة القادمة بالكشف عن أصوله الفقيرة، ليجعل من نفسه البطل المكافح ويركب الموجة القادمة.

والفيلم إذ يرد أسباب ميوله الانتهازية إلى نشأته الفقيرة وعجزه عن الزواج من ابنة الباشا التي أحبها، وزواج أبيه من الخادمة، يكشف لنا - وهذا هو الأهم - عن البيئة الاجتماعية الثقافية التي ساعدت على نمو هذه الشخصية.

ومن خلال البناء الدرامي المُحكم للأحداث والشخصيات استطاع الفيلم تجسيم هذا النموذج الفريد لشخصية الصحفي الانتهازي في الأربعينيات ومرحلة ما قبل الثورة، تجسيمًا نابضًا بالحياة، يجعل منه أحد الشخصيات الدرامية البارزة في السينما العربية. ولم يقتصر الفيلم على تقديم هذه الشخصية الرئيسية وحدها التي أدّاها كمال الشناوي باقتدار، وإنما تضمن إلى جانبها نماذج أخرى من الشخصيات المصرية التي برع في تقديمها، ومنها شخصية مبروكة (ماجدة) الخادمة الجاهلة الساذجة التي تحولها الحياة إلى مناضلة في النهاية. وشخصية شوقي (صلاح ذوالفقار) المناضل الوطني الإنساني دون تشنج أو جمود أو انفعال زائد. وقد جاءت هذه النماذج البشرية المصرية الثلاثة على قدر من المصداقية غير مسبوق، مما يرفع من قيمة الفيلم ويحتفظ لمخرجه كمال الشيخ بمكانة رفيعة في تاريخ السينما المصرية.

ولاشك أن الأداء التمثيلي المتقن لكل من كمال الشناوي في دور يوسف عبدالحميد السويفي، وماجدة في دور الخادمة مبروكة، وصلاح ذوالفقار في دور المناضل شوقي كان له الفضل في تأكيد هذه المصداقية لهذه الشخصيات التي قامت على أساس سليم من البناء الدرامي للسينما والحوار، وكاتبها علي الزرقاني، الكاتب الأثير لدى المخرج كمال الشيخ الذي كتب له مجموعة من أهم أفلامه. وقد فاز الفيلم بجائزة أحسن إخراج في مسابقة وزارة الثقافة.



ورغم أن فيلم «ميرامار» ١٩٦٩ لم يلتزم الدقة عامة في ترجمة شخصيات رواية نجيب محفوظ المأخوذ عنها وتحمل نفس العنوان، وذلك على نحو ما بيّناه في كتابنا «نجيب محفوظ على الشاشة» ١٩٧٥ عندما تعرضنا لشخصيات ميرامار بين الفيلم والرواية، إلا أن الفيلم استطاع أن يقدم لنا شخصية الانتهازي سرحان البحيري في ثوبه الجديد في عهد الثورة والاشتراكية، وهي الشخصية الوحيدة

التى حافظ الفيلم على أبعادها تقريبًا كما جاءت فى الرواية. فهو يحب زهرة العاملة فى البنسيون التى أحبته، لكنه يرى أن الزواج صفقة لا جدوى منها إذا لم ترفعه درجة. لذلك يصادر حبه لزهرة ويقنع نفسه بالزواج من مدرِّستها - دون عاطفة - لأنها تحقق له نفعًا أكبر بوظيفتها وأسرتها. كان وفديًا قبل الثورة، ومع الثورة تحول إلى اشتراكى ونفذ داخل منظماتها السياسية. لا يطمئن إلى طلبة مرزوق وحسنى علام ممثلى الإقطاع لكنه يتودد إليهما. ويؤدى به طموحه المادى المنحرف فى النهاية إلى الجريمة حيث يدبر مع صديقه المهندس مؤامرة لسرقة حمولة لورى بالغزل من الشركة التى يعملان بها.

وقد نجح يوسف شعبان بتجسيد هذه الشخصية كما نجح يوسف وهبى فى تجسيد شخصية الإقطاعى وإن جاء مخالفًا لشخصيته فى الرواية. وقد وسَّع الفيلم من دوره على حساب شخصيات أخرى وجعل منه نجم الجزء الأول من الفيلم حيث يقوم بتقديم الشخصيات، ويعلق على الأحداث بخفة دم لاذعة، والأهم من ذلك أنه يعبِّر عن رأى الجمهور بسخرياته المتوالية على تصرفات وأقوال سرحان البحيرى كاشفًا عن انتهازيته.

وكان الفيلم - كما كانت الرواية - صفعة على وجه الانتهازية السياسية فى عهد الثورة الاشتراكية. كما أدان الفيلم الشيوعى (عبدالرحمن على) لتخاذله وفقدانه الإرادة، والإقطاعى (أبوبكر عزت) لاستغراقه فى اللهو، والشيخ الوفدى القديم لعجزه عن الفعل.

والفيلم على هذا النحو يشارك - نوعًا - فيما قصدته الرواية من تعرية للأوضاع السياسية والاجتماعية فى حينها، وذلك تحريضًا على طلب التغيير المنشود، بالتخلص من كل هذه السلبيات، وكان موت سرحان البحيرى فى الفيلم (والرواية) بمثابة النبوءة لنهاية النظام الذى يمثله.

ويعود كمال الشيخ إلى تقديم نموذج آخر من نماذج الشخصية الانتهازية فى فيلم «شىء فى صدرى» ١٩٧١ المأخوذ عن رواية إحسان عبدالقدوس التى تحمل نفس العنوان.

تختلف شخصية الانتهازى فى هذا الفيلم عن شخصية سرحان البحيرى فى «ميرامار» من ناحية المرحلة التاريخية التى تمثلها حيث تدور أحداثها قبل الثورة. كما تختلف عن شخصية يوسف عبدالحميد السويفى فى «الرجل الذى فقد ظله» من ناحية المجال الاجتماعى الذى تتحرك داخله. فإذا كان سرحان البحيرى يعمل بالقطاع العام ويمارس النشاط السياسى، ويوسف عبدالحميد السويفى يعمل بالصحافة، فالباشا فى هذا الفيلم «شىء فى صدرى» من رجال الأعمال. إن كمال الشيخ بهذه الثلاثية يقدم لنا دراسة لتنوعات شخصية الانتهازى (فى الواقع المصرى) فى أزمان مختلفة ومجالات مختلفة، محاولاً أن يكشف عن بشاعة هذه الشخصيات وفسادها وإفسادها مما يحرض المشاهد على اتخاذ الموقف المضاد لها. ويعتبر نموذج الباشا الانتهازى فى فيلم «شىء فى صدرى» من أنضج النماذج السينمائية فى تقديم الشخصية.



وترجع مهارة البناء الدرامى للفيلم وإتقان رسم شخصياته وعلى الأخص شخصيتا الباشا (رشدى أباظة) والأم (هدى سلطان) إلى كاتب السيناريو والحوار الفذ رأفت الميهى الذى أصبح أحد المخرجين المتميزين فيما بعد، وقد نجح فى كتابة مجموعة من أفضل أعمال كمال الشيخ، كان أولها «غروب وشروق» ١٩٧٠، وبعده جاء «شىء فى صدرى» ١٩٧١ و«الهارب» ١٩٧٥، ويصلان إلى قمة عملهما المشترك فى «على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥. وكل من الفيلمين الأولين تم إعداده عن عمل أدبى، أما الفيلمان الآخران فمن تأليف رأفت الميهى. وعنه يقول كمال الشيخ: «أذكر أن رأفت الميهى حين عمل معى لأول مرة رأيت فيه مفكرًا أكثر منه مجرد كاتب سيناريو وحوار محترف ينفذ ما يطلب منه فقط» (مجلة فن ١٨ ديسمبر ١٩٩٥).

منذ البداية يكشف الفيلم فى مشاهده الأولى عن سطوة هذا الباشا واستغلاله عندما يصله خبر عن قرار جديد لمجلس الوزراء لا يرضيه فيأمر بتحويل باخرة القمح التى استوردها إلى العراق بدلاً من مصر لإحداث مجاعة وإحراج الحكومة.




غير أن هذا الباشا الذى يملك كل هذه السطوة والتحكم فى الحكومة وقوت الشعب يؤرقه تاريخه المخزى الذى تكشف عنه علاقته مع زميله القديم - منذ عهد الدراسة بمدرسة الصنايع - محمد أفندى السيد الذى رفض دعوته للمشاركة فى مشروع مقاولات مع الإنجليز، كما رفض طلبه الزواج من أخته. وفى آخر لقاء بينهما - قبل وفاته - رفض المنصب الكبير الذى عرضه عليه فى شركته. وكانت بينهما مشادة اتهمه فيها محمد أفندى بأنه أحد حيتان الفساد.

نحن نتعرف على هذه العلاقة الكاشفة بين الباشا ومحمد أفندى من خلال لقطات استرجاعية قصيرة (فلاش باك). أما ما نراه من أحداث حاضرة فهى محاولة الباشا التسلل إلى أسرة محمد أفندى بعد موته بحجة أنه الصديق الحميم لعائلها المتوفى. يعلن لمعاونه (وللمتفرج أيضًا) أنه يريد أن يعرف سر قوة محمد أفندى وصلابته الأخلاقية والوطنية التى أرَّقته ولازالت تؤرقه. لكنه بتسلله إلى الأسرة بإغداق المال والمساعدات لأفرادها يفعل ما هو أكثر من ذلك. إنه يحاول إفساد هذه الأسرة انتقامًا من عائلها المتوفى غريمه محمد أفندى. وليثبت لنفسه - من ناحية أخرى - أنه كان على صواب فى اختيار طريقه.

يوهم الأم (هدى سلطان) بالزواج حتى تستسلم له. ويحاول أن ينال من الابنة الشابة (ميرفت أمين). وعندما يجدها فى علاقة حب مع شاب فى سنها، يتدخل بألاعيبه لإفساد هذه العلاقة وإسناد وظيفة للشاب بعيدًا بإحدى شركاته النائية فى سفاجة. وعندما تكشف الأسرة حقيقته ويتم عقد زواج الفتاة على الشاب، يدبر معاون الباشا مؤامرة فاشلة لقتل الشاب فى المصنع مما يثير غضب الباشا عليه ويعزله عن خدمته، فيتقلب عليه المعاون ويدبر له كبسة من بوليس الآداب فى غرفة النوم مع عشيقته المتزوجة، تؤدى إلى عودة إصابته بأزمة قلبية لكنها تقضى عليه هذه المرة.

ولاشك أن البناء الدرامى المُحكم للشخصية فضلاً عن قيام (رشدى أباظة) بدور الباشا فى «شىء فى صدرى» ساعد على تجسيم هذه الشخصية وأضفى عليها حيوية تترك أثرها القوى فى الذهن.

عند المقارنة بين النماذج الانتهازية الثلاثة فى «الرجل الذى فقد ظله»، و«ميرامار» و«شىء فى صدرى»، نجد أن شخصية يوسف عبدالحميد السويفى تأتى فى مقدمتها من حيث قوة البناء والتأثير، ويرجع ذلك إلى أنها الشخصية الوحيدة التى تابع الفيلم أحداث نموها خطوة بخطوة، كاشفًا عن العوامل الذاتية والاجتماعية لتكوين هذه الشخصية وتصاعدها، الأمر الذى لم يتوفر بالنسبة للشخصيتين الآخريين.

وقد يؤخذ على «شىء فى صدرى» وضوح حبكته القصصية المدبرة على خلاف «ميرامار» و«الرجل الذى فقد ظله»، ولكنه كان بهذه الحبكة أكثرها درامية وأقرب هذه الثلاثية من أفلام كمال الشيخ إلى إثارة التشويق، حيث يبدأ الصراع مبكرًا مع بداية الفيلم بقرار الباشا اختراقه لأسرة محمد أفندى، مما يضع المشاهد فى حالة من الترقب الدائم وانتظار النتيجة لهذا الصراع الذى يجرى سجالاً بين الباشا وأعضاء الأسرة. أما الصراع الأساسى فى «الرجل الذى فقد ظله» وفى «ميرامار» فيأتى بعد تقديم الشخصيات الذى يستغرق وقتًا من الفيلم ليس بقصير.

وإن كانت شخصية الباشا فى «شىء فى صدرى» أكثر إشباعًا من شخصية سرحان البحيرى فى فيلم «ميرامار» الذى توزع الاهتمام فيه بين عدد كبير من الشخصيات، إلا أن شخصية يوسف عبدالحميد السويفى فى «الرجل الذى فقد ظله» تبقى هى أكثر الشخصيات إشباعًا. كما كانت نهايته فى الفيلم أوقع من الموت الذى انتهى إليه كل من الباشا وسرحان البحيرى، حيث نراه وهو يعد نفسه لتغيير جلده استعدادًا للمواءمة مع العهد الجديد، الأمر الذى يرهص بامتداد حياته رغم سقوط الرموز التى تسلق عليها، باتخاذ رموزًا جديدة، وهذه النهاية أكثر مصداقية وأكثر تحذيرًا وأكثر تحريضًا.



الخلاصة

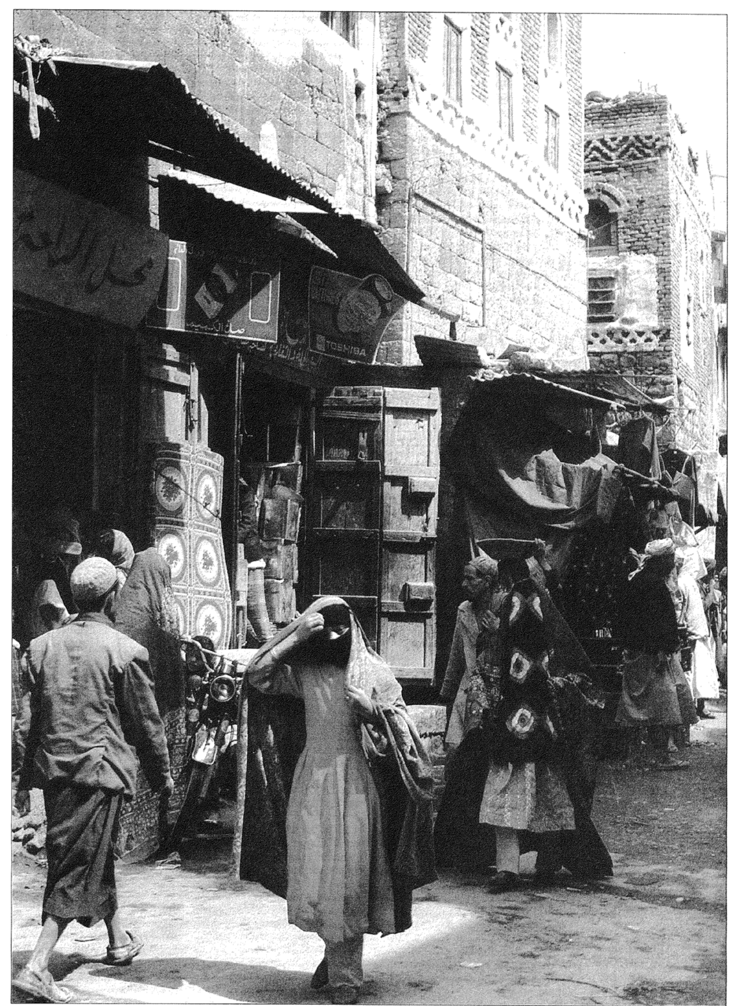
لقد اقتصر - تقريبًا - كمال الشيخ فى أفلامه الأولى على تقديم أفلام الجريمة على نحو ما بيَّناه، وكانت محاولاته التالية فى خلق التشويق لأفلامه بالاستعانة بعلم النفس إضافة جديدة إلى عامل التشويق تمثل - فى نظرى - خطوة إلى الأمام نحو فهم بعض العلاقات الإنسانية خارج نطاق الجريمة، ولم يكن ارتياده لمجالى الجاسوسية والخيال العلمى بمثابة توسيع لمجال أفلام التشويق فقط وإنما تجاوز ذلك إلى إضافة معانٍ جديدة ومحاولة لتعميق فهمنا للحياة.

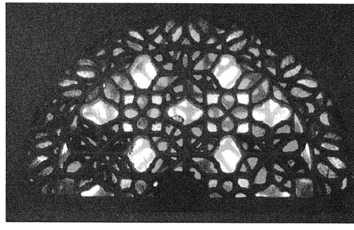
وكان كمال الشيخ فى كل ذلك رائدًا، حين قدم أول أفلام التشويق الناضجة فى السينما العربية «المنزل رقم ١٣» عام ١٩٥٢، وحين قدم تجربته الفريدة فى «حياة أو موت» ١٩٥٤، وحين قدم أول فيلم عربى عن الجاسوسية «الصعود إلى الهاوية» ١٩٧٨، وأول فيلم عربى عن الخيال العلمى «قاهر الزمن» ١٩٧٨.

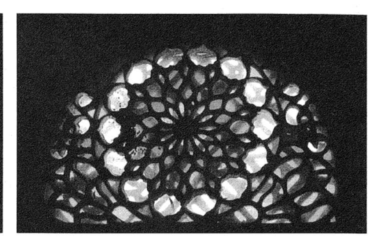
غير أنه يصل إلى أفضل مستوياته الحرفية والفنية فى مجموعة أفلامه التى تجاوزت المعالجة الأخلاقية للجريمة إلى الكشف عن أسبابها الاجتماعية، وكانت بمثابة أفلام تحريضية ضد فساد المجتمع، وفى مقدمتها «اللص والكلاب» ١٩٦٢، و«غروب وشروق» ١٩٧٠، و«على من نطلق الرصاص» ١٩٧٥.

أما أفلامه التى اعتمدت على تقديم الشخصية واحتفظت بقيمتها التحريضية، فقد وصل بها إلى ذروته وعلى رأسها «الرجل الذى فقد ظله» ١٩٦٨، و«شىء فى صدرى» ١٩٧١.

وقد حق لكمال الشيخ بهذا التاريخ الإبداعى وما أضافه للسينما العربية على امتداد ما يقرب من نصف قرن أن يكون واحدًا من الآباء البارزين لهذه السينما التى لازالت تنتظر منه المزيد. ■


TOSHIBA





صنعـــاء.. عمـارة التـاريخ

عفيـف البهنـسى

١- صنعاء وعمارة الماضى

أصبحت مدينة صنعاء كعبة الأثريين والمعماريين والسياح، يحاولون التمتع بخصائصها المعمارية، ويتعمقون فى البحث عن ميزاتها وعناصرها الفنية، ولقد اهتمت بها دول العالم والمؤسسات الثقافية العالمية بعد النداء الذى وجهته المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، فقُدمت المعونات المادية والفنية، وتشكلت فى صنعاء هيئة مؤلفة من مجلس أمناء برئاسة مجلس الوزراء، ومكتب فنى تنفيذى، وبوشرت أعمال الحماية والحفاظ على مدينة صنعاء القديمة، وتحققت حتى الآن إنجازات واضحة.

١- إن صنعاء التى كانت مجهولة تقريبًا لصعوبة اختراق حدود اليمن سابقًا، أصبحت اليوم أكثر وضوحًا، ولجمال عمارتها وخصائصها الفنية أصبحت مسئولية حمايتها عالمية.

ترتفع صنعاء عن سطح البحر ٢٣٠٠م وهى مدينة جبلية، ولذلك فإن أبنيتها مرتفعة تصل إلى حدود تسعة طوابق، وهىَ تختلف عن المدن اليمنية الساحلية التى لا ترتفع أكثر من طابقين.

وتقع صنعاء القديمة فى السفح الغربى لجبل «نُقُمْ»، وكانت المدينة محاطة بسور مازالت آثاره واضحة، ومازالت بعض أبراجه ماثلة وتجرى عمليات ترميمه حثيثًا اليوم.

تبلغ مساحة صنعاء القديمة مائة وخمسين هكتارًا، وتتصل بالخارج بواسطة أبواب ستة، ثلاثة فى الجنوب، وهى باب ستران وباب اليمن وباب خزيمة، وبابان شماليان هما باب شعوب وباب شقاديف وباب غربى، هو باب السبحة، ومازال من هذه الأبواب، باب اليمن الذى أعاد بناءه العثمانيون عام ١٨٩٧م.

وكانت صنعاء مقسمة إلى أحياء حسب التوزيع القبلى، ولقد وصف الرازى فى كتابه (تاريخ صنعاء) هذه الأحياء التى حفظت أسماءها المساجد الواقعة فيها اليوم.

وكما وصف المدينة فى القرن الحادى عشر الميلادى وعدد مساجدها وبيوتها وسمسراتها (الفنادق) ولعله بالغ فى تعدادها، ومازالت بعض معالمها القديمة ماثلة من أهمها الجامع الكبير، أما البيوت وباقى المنشآت فإنها تعود إلى عهود متأخرة.

إن مدينة صنعاء كباقى المدن الجبلية اليمنية مثل شبام ووادى حضرموت مؤلفة من نسيج عمرانى متلاحم لا تفصله إلا حارات ودروب ضيقة، وترتفع البيوت إلى ما يقرب من ثلاثين مترًا أحيانًا، فهى أبنية سامقة كالأبراج البابلية، مؤلفة من خمسة طوابق وتصل إلى تسعة طوابق فى بعض الأبنية. وتفتح واجهات هذه الأبنية على الحارات والدروب، أو على البساتين التى تسمى «المقشامة» أو المقاسم والتى تتوزع فى أنحاء المدينة القديمة، مشكلة رئة ومشهدًا جميلاً وموردًا لحاجات السكان من الخضار والفواكه.

ويبلغ عدد المساكن العالية فى صنعاء القديمة اليوم سبعة آلاف مسكن، وأقدم مسكن فيها يعود إلى ٤٠٠ سنة خلت، وكثير منها يعود إلى ٣٥٠-٢٥٠ سنة وبعضها حديثة يعود إلى ١٥٠-٥٠ سنة.

ويبلغ عدد سكان صنعاء القديمة فى عام ١٩٨٩ ثمانية وأربعين ألفًا، وهم بازدياد مطّرد. وفى صنعاء تسعة وأربعون مسجدًا، وسبعة عشر حمامًا فى قسميها الشرقى والغربى.

إن منشآت صنعاء القديمة مبنية من الحجر فى أقسامها السفلى، ثم من الياجور «وهو ألواح الطين المشوى» فى أقسامها العليا، وذلك للتخفيف من الحمولات. وهى تنفتح على الخارج بواسطة شبابيك ومشربيات ونوافذ عريضة، وتشكل واجهاتها الأربع مجالاً للزخرفة المعمارية المؤلفة من أشكال الفتحات ومن الزخارف الأفقية «الأحزمة» التى تفصل ما بين الطوابق، أو الزخارف الشاقولية التى تحيط الفتحات أو تزين بعض الجدران. وتستمد الزخارف صيغها من العناصر الطبيعية، وخاصة من النباتات ولكنها تبتعد جدًا عن المحاكاة الواقعية وتقترب من الرمز والتجريد.

إن مبانى صنعاء العالية والمؤلفة من طوابق متعددة، تشكل بمجموعها بيتًا واحدًا وليس بيوتًا مستقلة، على الرغم من أن لكل طابق منافعه المستقلة وبابه الخاص، يسمى «باب الحاجز» ويستعمل الدور الأرضى كمخازن للحبوب والحطب، وكحظائر للماشية ومستودعًا لعلفها. وفى بعض أركانه حجرة للمطاحن وسقائف تسمى «الطابق المسروق». وفى بعض البيوت حجرات فوق الطابق الأول، تسمى «المحاكم» إذا كان صاحب البيت قاضيًا أو تخصص لنزول الضيوف والشركاء.

ويسمى الطابق الأول «الحافة السفلى» وهو مؤلف من حجرات واسعة تسمى «الدواوين». والطابق الثانى خاص بالمعيشة مخصص للنساء والأكل والنوم والسهرات العائلية. ويسمى «الحافة الوسطى»، وهو مؤلف من حجرات موزعة على أطراف البناء الأربعة تسمى «المناظر». وتسمى بحسب الجهات التى تشرف عليها، المنظر العدنى فى الجنوب، والمنظر القبلى فى الشمال، ثم المنظر الشرقى والمنظر الغربى.

أما الأدوار العليا، فينفرد بها الرجال وبخاصة الحجرة المبنية فى أعلى البيت وتسمى الواحدة منها «مفرج»، وهى غرفة مستطيلة ذات نوافذ واسعة منخفضة تفسح المجال لرؤية البساتين والمشاهد الجميلة، ويجلس السمّار فى المفارج على أرائك بعد الظهيرة، فيدخنون النرجيلة، ويمضغون القات، ويستمعون إلى بعض العزف الموسيقى والغناء، أو ينشدون الشعر ويتحدثون فى التاريخ والأدب.

وترتفع المفارج عن مستوى الطابق الأخير بغرفة قليلة الارتفاع تحيطها فسحة مسورة بحاجز وتسمى «التجواب». وتقوم المفارج فوق «قطب» البناء وهو نواة السلم الصاعد لولبيا إلى الأعلى مرورًا بالطوابق جميعها.

وفى كل بيت بئر تغذى أصحاب البيت بالماء اللازم للغسل والتنظيف.



وتمتاز صنعاء بأسواقها التى تقع إلى جهة الغرب. ولكل حرفة أو تجارة سوق، مثل سوق البقر وسوق البزّ وسوق الحب، وسوق الحرير، وسوق الحلقة وسوق الزبيب وسوق العلف وسوق العنب وسوق الفتلة، وسوق الفضة وسوق القشر وسوق القصب وسوق الكوافى وسوق المبساطة وسوق المخياطة وسوق الملح وسوق النحاس. وحاليًا فى صنعاء القديمة ألف وسبعمائة دكان وثلاثون سمسرة. والدكان حجرة صغيرة مربعة مرتفعة عن مستوى الطريق العام.

والسمسرات (جمع سمسرة) هى فنادق للمسافرين والتجار وقوافلهم، وتقع فى أطراف السوق، هى أبنية مغطاة بعقود مؤلفة من طابقين أو ثلاثة فى كل طابق عدد من الغرف التى تنفتح على فناء السمسرة المغطى فى الأعلى، والطابق الأرضى مع أرض الفناء مخصص للقوافل والبضائع والدواب، اما الطوابق العليا فهى لإقامة المسافرين.

٢-الإبداع الفني في العمارة الصنعانية

عندما يتحدث المفكرون الغربيون عن جمالية العمارة العربية وعن الخلفية الفكرية والاجتماعية لهذه الجمالية فإنهم يرون هذه العمارة وقد انكفأت إلى الداخل كانعكاس لواقع المجتمع العربي المغلق بنظرهم بينما يتفاخرون بمجتمعهم المنفتح وبعمارتهم التي تخدم هذا الانفتاح إلى الخارج ومثالهم على ذلك البيوت المعلقة في بلاد الشام وفي الخليج ومصر، ولكن بعضهم يرى أنه لابد من تقسيم العمارة العربية إلى نوعين، نوع منغلق ونوع آخر منفتح ومثاله العمارة اليمنية والعمارة المغربية في الجنوب.

على أن تقسيم العمارة هذا قد تم نتيجة اختلاف البيئة، ففي الأماكن الرطبة والمتقلبة المناخ لابد من فسحة فناء داخلي تساعد على تخفيف حدة الطقس المتغير مثل الساحل اليمني ومثل مدينة زبيد وفي الأماكن الجبلية فلم يعد الفناء أساسا ووحدة تصميمية، بل إن اعتدال الطقس وجمال المناظر الطبيعية وإحاطة المساكن بالبساتين «المقشامة» قد غير تماما طابع العمارة وأعطاها شكلا جديدا نموذجه المتكامل في مدينة صنعاء.



ومع ذلك فإن العمارة الحديثة المنفتحة انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية في البلاد العربية، ومن المؤسف أن نموذج هذه العمارة كان عديم الهوية، فهو لا غربي تماما ولا هو شرقي، ذلك أن هذه العمارة المؤلفة من طوابق ذات شرفات ونوافذ منفتحة على الخارج لم تستوح ذلك من الظروف المناخية كذلك تعارضت كليا مع العمارة المنفتحة داخليا على صحن كبير يضمن للمنزل الهواء النقي والضوء الطبيعي، ويتحاشى تأثير الظروف المناخية المتقلبة.

لقد كان على البيوت الحديثة المنفتحة ضمن شروط مناخية محددة أن تختار النموذج اليمني وبخاصة الصنعائي، لكي يكون نموذج البيت العربي الحديث، ذلك أن هذا البيت المنفتح على أوسع أفق بصرى قد ضمن الشروط الاجتماعية وهي العادات والتقاليد، كما ضمن أصالة الإبداع الفني في تنظيم الواجهات والفتحات وتكوينها.

إن حديثنا عن جمالية العمارة الصنعائية يبدو أكثر وضوحا عندما نقارنها مع جمالية العمارة الدمشقية مثلا. وكلتاهما، دمشق القديمة وصنعاء القديمة موضوع حماية وحفاظ يتناول المباني العامة والمساكن الخاصة والأسواق.

إن المبدأ الأساسي في تنظيم مدينة صنعاء وأكثر المدن اليمنية في الشمال والجنوب هو مبدأ استغلال الحيز المركزي في المدينة بإقامة المباني العالية. ولكن إذا كان هذا المبدأ قد قام في المدن الحديثة في الغرب والشرق على أساس استغلال مساكن مستقلة متراكبة فوق بعضها. فإن البيت اليمني كان أقساما متراكبة تشكل منزلا واحدا مستقلا.

إن هذه الوحدة المعمارية السابقة قد شكلت بجدرانها الخارجية الأربعة مجالا واسعا للإبداع الصنعائي الذي تجلى على أكمل وجه بالألوان والفتحات والنسيج الإنشائي. وبصورة عامة تتحدد ميزات الجمالية المعمارية في صنعاء بالخصائص التالية:

١-الوحدة والتعددية:

تمتاز العمارة الصنعائية بوحدة كاملة تتجلى في شكل العمارة وبنظامها وفي زخرفتها ومادة إنشائها، وفي وحدة وظائفها الأسروية وليس من يخطئ في تحديد هوية الزخرفة والفن الصنعائي وهي هوية أصيلة لانراها مستمدة من عناصر غربية ونستطيع القول، إن جميع هذه العناصر كانت مجردة أغنت الخيط الرفيع الهندسي والرقش النباتي، لقد كانت أشكالا مجردة تحمل قيمتها من التناسق والتلوين الجمالي الذي يتفاعل مع نور الشمس التي تخترق الزجاج الملون فتزيده إشراقا أو التي تنعكس على البروزات الزخرفية أو الشرفات فتشكل ظلالها خطوطا تزيد الزخرفة حيوية وتلوينا.

على أن هذه الوحدة لم تكن نتيجة استنساخ تشكيلي، بل إن الغنى الذي تحفل به العمارة الصنعائية لاحد له، ولقد تجلى في تكوين قمريات النوافذ الملونة، وفي تصميم الأحزمة العرضانية التي تفصل ما بين الطوابق.

٢-البرانية المتلاحمة مع الجوانية:

إذا كان البيت الصنعائي منفتحا على الخارج، على خلاف البيت في زبيد، فإن هذا الانفتاح قد فرض نوعا من الإبداع الفني ينسجم مع صفة الانفتاح باتجاه العالم الخارجي. فالفن الذي خصصه المعمار الفنان لساكن البيت الزبيدي يختلف عن الفن المخصص للناس جميعا في البيت الصنعائي، ولكن هذه البرانية في التشكل الإبداعي ليست منفصمة مع الإبداعية الجوانية، فالقمريات والفتحات والنوافذ التي تفصل الداخل عن الخارج، توزع جمالها إلى الطرفين، فيتمتع الساكن أيضا بالنور المتسرب من الفتحات عبر القمريات الزجاجية الملونة فيزداد داخل الغرف فتنة ويتمتع الساكن بسعادة التعايش مع نور الطبيعة الذي لا مسته يد الفنان الصناع.

وتتلاحم البرانية مع الجوانية في محاولة إظهار متعمدة لبطانة الواجهات، وهي الطلاء الجصي الأبيض الذي يغطي الجدران الداخلية وبخاصة جدران الدواوين بزخارفها المؤلفة من رفوف «صفيف» وأفاريز وحليات جصية، وتظهر هذه البطانات البيضاء على شكل إطارات غير منتظمة، لكي تذكر من في الخارج بعالم داخلي أبيض السريرة ينظف البيئة. إذ أن هذه الإطارات البيضاء تتجدد باستمرار كتعبير وإعلان عن استمرارية الاستقرار والسعادة والنظافة في الداخل.



على أن أوضح مثال على اندماج البرانية بالجوانية هو المفرج الذي ينهض في ذروة المسكن والذي ينفتح من جوانبه الأربعة على فضاء المدينة وجبالها ومساكنها ومساجدها، فلا يشعر المواطن الصنعائي وضيوفه أنهم محصورون داخل جدران أربعة، بل إنهم في جلستهم متصلين بالمدينة بكامل مفاتنها لا يفصلهم عنها أى حاجز حتى «التجواب» المحيطة «بالمفرج» الذي ينخفض إلى حد السماح بالرؤية الشاملة.

٣-المحافظة والتواصل:

إن بناء المسكن الصنعائي أو اليمني عامة، قد كفل احترام الحياة الاجتماعية التقليدية التي تقوم على الخصوصية وعدم الاختلاط، ولكن هذا لا يعني أن المسكن قد جعل الأسرة اليمنية وبخاصة المرأة معزولة عن محيطها الخارجي، لقد عمد المعمار إلى تقسيم الفتحات إلى قسمين، قسم علوي مخصص لدخول الشمس والنور والهواء، وقسم سفلي مخصص لدخول الهواء أيضا والإطلال على المحيط الخارجي، ومن الممكن للنساء أن يزددن إطلالا على الشارع عن طريق المشربيات البارزة والتي تفسح للرؤية مجالا من جميع الجهات.

وتبدو هذه الفتحات بأشكال مختلفة، فقد تكون مؤلفة من قسمين مستقلين تماما، يبدو القسم الأعلى وقد انتهى بقوس مؤطر أو بسيط، بينما يبقى القسم السفلي مربعا أو مستطيلا. أو تكون هذه الفتحات متصلة فيبدو على شكل مستطيل ممشوق. وكثيرا ما تبدو هذه الفتحات على شكل دائرتين منفصلتين الواحدة فوق الثانية، تربطهما أشرطة زخرفية. ومع ذلك فإن ثمة فتحة مصمتة تبدو في أسفل هاتين الفتحتين لتغطية الفراغ القائم بين النهاية السفلى والحزام الطابقي.

إن الهدف الأساسي من إقامة المسكن هو تحقيق وظيفة الإسكان التي يشترط فيها الراحة والاستقلال والأمن، ولقد استوفت العمارة اليمنية هذه الشروط جميعا، على عكس العمارة الحديثة التي لم تستطع ضمان هذه الشروط، مما دفع إلى سد النواقص أو التخفيف منها بواسطة «ترقيعات» وإضافات على أن هذه الإضافات قد أخلت بجمالية العمارة، فلقد كانت الحلول الطارئة سببا في إفساد الشكل الجمالي المعماري.

ولكن في العمارة اليمنية فإن الوظيفة والإبداع يتلاحمان عضويا دون أن يفسد الواحد الآخر، فلقد كانا هدف المعمار منذ البداية.

ومع ذلك فإن الناظر إلى العمارة الصنعائية وهي أكثر العمارة اليمنية زخرفة وفنا. يرى أن الجمال الفني كان من صنع الوظيفة وليس العكس. إن عيب العمارة الحديثة المستوردة هو أن التصميم المعماري كان أساس الوظيفة وكثيرا ما يشعر الساكن فيها أنها ليست على القياس الإنساني بل هي على قياس التصميم النظري.

لقد أغنت العناصر الإبداعية العمارة في صنعاء، بل أغنت الوظيفة ذاتها، فكانت العنصر الجاذب والمنافس اجتماعيا، فالعمارة الأكثر جمالا هي العمارة الممثلة لحالة ساكنها الاجتماعية المتفوقة، ويتبارى السكان منذ العصور الحجرية لتزويق وتجميل أماكن إقامتهم للتعبير عن تفوقهم الاجتماعي وتأكيد مكانتهم الممتازة.

على أن هذا التباري الجمالي لا ينعكس فقط على مالك السكن وحده، بل ينعكس على المدينة والمجتمع كله، فالواجهات المعمارية الجمالية تصافح رؤية السكان المجاورين فتسعدهم يتمتعون بها أكثر من صاحب السكن ذاته أحيانا، وهكذا فإن الفن في العمارة الصنعائية هو فن للمدينة وسكانها والعابرين فيها، هو فن ذو وظيفة اجتماعية متبادلة مما لا نراه في البيوت التي لا تتمتع بجمال خارجي، بل إن أكثر جدرانها عارية من أية زخرفة وفن وتبقى الواجهات المطلة على الصحن الداخلي وحدها، هي المجال الواسع لاستيعاب العناصر المعمارية الإبداعية.

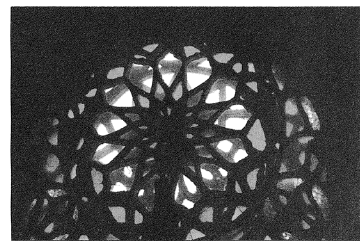


ومن جهة ثانية لقد فرضت الوظيفة الإسكانية شروطا تتعلق بتأمين التهوية والتبريد وتحقيق عمليات التصريف الصحي. وهكذا بدت المشربيات، وهي نافذة بارزة محاطة بمشبكات خشبية «البرامق» لتساعد على التهوية والإطلال. وهي شرط مهم لراحة الساكنين.. ودخلت هذه المشربيات في التصميم المعماري وفي عملية الإبداع الفني بشكل عضوي منسجم يساعد في تحقيق العمليات الاختلافية الجمالية بين السطح والبروز، بين العاتم والمشرق، وحتى الظلال التي تسببها البروزات الزخرفية فهي تساعد على تخفيف وطأة الشمس.

٤-الخلافية والانسجام:

تبدو الخلافية في الأشرطة والأحزمة أيضا، فهي مكسرات أو معينات أو مثلثات تشكل إيقاعات مستمرة تغنيها الظلال التي يصنعها بروز هذه التشكيلات.

لقد وصل الفنان في هذه التاليفات الإيقاعية إلى حدود التجريد البصري، ولكن الفنان البصري الحديث Op. art مازال يحاول جهده اصطناع التحولات الحقيقية في الأشكال، مما يخدع البصر فيوحي بالحركة والتفاعل. ولكن الفنان اليمني لم يصطنع ذلك بل لقد أصبح مألوفا لديه أن يخالف السكونية لكي يحقق الحركة، مما دفع أحد الجماليين أن يقول «إن الحركة في هذه الأشرطة هي أشبه بالرقص»،



لقد تضافرت الموسيقى مع اللون والعمارة لكى تشكل الفن المعمارى اليمنى.

هكذا نرى أن الخلافية التى دفعت الفنان للابتعاد عن المألوف والواقعى قد قامت على انسجام فنى متكامل، حتى الخلافية فى توزيع الفتحات على واجهة العمارة، فقلما نراها متناظرة متشابهة، بل إننا نرى المعمار قد وزع الفتحات بانسجام فنى وبأشكال مبدعة، مربعة، مستطيلة، دائرية وشاقولية. تم كل ذلك بانسجام كامل مع الوظيفة، فالفتحات فى المستودعات والمطابخ تختلف عن الفتحات فى غرف المعيشة، وهذه تختلف عن الفتحات فى المفارج. إن فنانه يصوره من دمشق، وقد أذهلها هذا الانسجام الرائع فى توزيع الأشكال والألوان على صفحة الواجهات المعمارية الصنعائية قامت بإنجاز مجموعة من اللوحات الزيتية التى نقلتها عن هذه الواجهات الرائعة.

إن الخلافية والانسجام فى تشكيل العناصر الزخرفية وفى توزيع الفتحات تتجلى أيضًا فى توزيع الخطوط الشاقولية والعرضانية. لقد امتازت العمارة اليمنية بالامتشاق والارتفاع، وكان بعضها شبيهًا بالأبراج، ومع ذلك فلقد استطاع الفنان أن يعدل من حدة هذا الطابع البرجى، وذلك بتقطيع الارتفاع إلى مربعات أو مستطيلات، تفصلها الأحزمة الزخرفية، وهى أشرطة زخرفية عريضة يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من المتر، تزينها كما ذكرنا تشكيلات هندسية، ويكاد لا يخلو مسكن فى صنعاء لا تتحاور فيه الخطوط الشاقولية والأفقية بانسجام عضوى مما لا نرى له نظيرًا فى العمارات الشاهقة التى نشاهدها فى المدن الأمريكية والتى تبدو كتلاً هندسية مجردة أشبه بالمعلبات.



وتعتمد هذه الأشرطة أو الأحزمة على «الياجور» المنتظم الأبعاد فى عملية الزخرفة والتشكيل، ولذلك نراها أكثر غنى فى الطوابق العليا المبنية من الياجور «أى الآجر».

ثم إن هذه الشرائط تبدو أكثر تنوعًا واختصارًا فى نهاية العمارة العليا حيث نرى «الشراتيح» فى أطراف البناء وفى وسطه، وحيث نرى «التجواب» على شكل سلسلة الأقواس الزخرفية التى تحلى الحواجز المحيطة «بالمفارج». هذه العناصر الخلافية تزيد البناء ثروة بل تزيده انسجامًا إبداعيًا.

ويبدو عنصر الخلافية والانسجام واضحًا فى تشكيل مدينة صنعاء كلها، فإذا كانت أكثر بيوت مدينة زبيد لا ترتفع أكثر من طابقين فقط لكى لا يفسح المجال للإطلال على الحياة الداخلية فى البيوت المجاورة المطلة على أفنيتها، فإن سكان بيوت مدينة صنعاء لا يقلقهم تطفل الجوار الذين تتعالى بيوتهم بارتفاعات مختلفة.

فالبيت اليمنى فى صنعاء مطل على الخارج منفتح بطبيعته، وهو مصان من فضول الآخرين على طريقته المعمارية الفذة، ولذلك فإن بيوت صنعاء المتلاحمة متفاوتة الارتفاع وإن كان أكثرها سامقًا. ومنظر المدينة يصور بوضوح تلك الخلافية بالارتفاع، ذلك الانسجام فى الإيقاعات المتغيرة التى يحدثها اختلاف الارتفاع وتشكل الفراغات وتنوع التشكيل البصرى، ثم اختلاف التشكيلات الواجهية واختلاف الألوان. لقد استغل المعمار الاختلاف القائم فى مادة البناء، فإذا كان الحجر «الجعم» البركانى هو المادة الأساسية لبناء الطابق الأول، وكانت واجهات هذا الطابق مصمتة إلا من فتحة الباب الرئيسى وفى حدود الملاط «الطِّب» الذى كان يملأ الفراغات بين الأحجار. فإن مادة بناء الطوابق الأخرى هى من الحجر الأبيض المبنى على طريقة «اللفق»، أى بدون فواصل، ثم بالآجور أو الياجور الأحمر اللون أو البنى. ولم يقم المعمار بتغطية سطوح هذه العمارة، ولم يوحدها بملاط كلسى كما فعل المعمار الشامى، بل استبقاها احترامًا لها، كما يفعل اليوم المعمار الحديث، بل إنه كحّل أطرافها بمادة الكلس الأبيض كرمز لنظافة البناء والرغبة بتجديده فى كل مناسبة، وعلى الأقل فى كل عام مرة.

وبدت هذه الخلافية بين اللون الأبيض، لون الكلس، واللون الأحمر أو الرمادى لون الحجر والياجور، طابعًا خاصًا لازم الفن المعمارى اليمنى حتى فى البيوت القروية الصغيرة.

إن دراسة العناصر الإبداعية فى العمارة الصنعائية هى جزء من دراسة الجمالية العربية التى تحتاج إلى المزيد من الإغناء لإقامة فلسفة فنية عربية متكاملة، قادرة على تفسير شخصية الفن العربى وعلى تثبيت هويته فى العمارة الحديثة. والذى نأمله أن تأخذ العمارة الحديثة فى اليمن دائمًا من النموذج الفنى الأصيل للفن التشكيلى والمعمارى الماثل فى مدينة صنعاء القديمة.

٢. عمارة الجامع الكبير بصنعاء

لم يبق من المساجد التى أنشئت فى عهد الرسول إلا مسجد صنعاء، ومن هنا تفسير المكانة التى يحظى بها هذا المسجد عند اليمنيين كافة، وبخاصة عند الصنعائيين، الذين يتلمسون فيه بركة التاريخ الإسلامى، بل آثار تاريخ اليمن فى جميع العصور، إذ قلما نرى بناء يتكون من عناصر معمارية تاريخية تنتسب إلى عهود مختلفة ويصبح بذلك متحفًا حيًا، وعندما نزور هذا المسجد نعيش فى مناخ تاريخ اليمن وحضارته.

ولأن هذا المسجد ـ فى بدايته ـ أنشئ على هدى مسجد الرسول فى المدينة، فإن الصنعائيين أشد اعتزازًا به من غيرهم.

لقد شهد عهد الرسول وحمل خصائص وشروط مسجد الرسول، وهى البساطة والتقشف. لقد بدا بناء مسجد يقيم فيه المسلمون صلواتهم ويرمز إلى إسلامهم وإيمانهم برب العالمين أمرًا جوهريًا، عندما أنشئ المسجد فى صنعاء فى العام السادس للهجرة كان فروة بن مسيك ينفذ أمرًا من الرسول أن يقيم مسجدًا يجمع المؤمنين، وأوصاه بحسن الدعوة إلى الإيمان من خلال المسجد إذ قال له ﷺ: «ادعهم إلى الإيمان، فإن أطاعوا لك به، فاشرع لهم بالصلاة، فإذا أطاعوا لك فمُر ببناء المسجد فى بستان «باذان» ما بين الصخرة المملمة إلى غمدان».. لقد كان الرسول ﷺ يؤكد على أهمية المسجد كمكان لاجتماع المؤمنين ومكان لالتقاء السلطة الجديدة مع المؤمنين حديثى الإيمان، وكان هذا اللقاء تأسيسيًا، فنحن نذكر أن الرسول عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن واليًا، أثنى على لجوئه إلى الاجتهاد، ومنذ ذلك الوقت أصبح الاجتهاد مصدرًا من مصادر الشريعة.

وحدد الرسول مكان المسجد فى بستان «باذان بن ساسان» الذى كان حاكمًا فارسيًا، ثم أسلم فسماه الرسول واليًا على اليمن، فإن القصد من إقامة المسجد فى بستانه، هو ربط جماعته بالإسلام. وتعزيز مركز باذان المسلم بين المؤمنين جميعًا.



ويجب أن نذكر أيضًا أن المكان الذى حدده الرسول كان مكانًا معمورًا حفل ببقايا المنشآت السابقة، أهمها بقايا قصر غمدان الذى تحدث عنه هشام الكلبى ووصفه شعرًا الهمدانى فى الإكليل «ج٨ ص١٩»، ثم كانت كاتدرائية «القليس» التى بناها أبرهة وتحدث عنها الأزرقى فى «أخبار مكة» وياقوت فى معجم البلدان، ولقد أنشئ على هدى كنيسة الميلاد فى بيت لحم.

إن صنعاء التى مازالت ثغر العروبة والإسلام، كانت متاخمة لبلاد الأحباش الذين حكموا اليمن آخر مرة من ٥٢٥ ـ ٥٧٥م وفى صنعاء كانوا قد أقاموا الكاتدرائية التى أطلق عليها اسم القليس.

وكانت عمارة ضخمة حتى إن أبرهة الحبشى الذى بناها كتب إلى النجاشى قائلاً: «لقد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك قبلك، ولست بمنته من بنائها حتى أصرف إليها حجيج العرب». لقد كان أبرهة يعد العدة لاجتياح بلاد العرب ولهدم الكعبة، وكان ذلك عام ٥٧٠م وهو عام الفيل الذى ولد فيه الرسول محمد بن عبد الله وهُزِم أبرهة، إذ إن السجيل «الجدرى» فتك بجنده.

وهكذا فإن ذكرى حرب الأحباش لم تكن سهلة على اليمنيين بعد الإسلام، وكان القليس يثير لديهم الشعور بتفوق الأقباط بل والأحباش الذين أنشأوا القليس.

توسع وتجديد الجامع مع توسع المسلمين فى صنعاء:

لقد كان بناء المسجد علامة من علامات تغيير النظام السياسى والدينى فى صنعاء، وعندما ابتدأ الناس يتهافتون بازدياد على المسجد، كان ذلك دليلاً على تزايد نفوذ الإسلام وانتشار تعاليمه لتحل محل التعاليم السابقة الوثنية وغيرها.

لقد حقق المسجد فى بداية إنشائه التى كانت بداية متواضعة وظيفته الأساسية، وهى جمع المسلمين وتقوية اتحادهم وإسلامهم وتنظيم شعائرهم وتحقيق تعاونهم وارتباطهم بعضهم ببعض، وأصبح المسجد منبر الحكم والعلم، وفيه كان الوالى الذى يمثل السلطة المركزية يحقق السياسة الشاملة والإدارة الداخلية من عدل وحسبة وأمن.

ولكن بناء المسجد الأول لم يعد كافيًا لاستيعاب المؤمنين ونشاطاتهم الاجتماعية والثقافية إلى جانب ممارساتهم العقائدية. كذلك عمارته البسيطة لم تكن كافية للتعبير عن عظمة دولة الإسلام، وبخاصة أن بناء القليس كان متفوقًا فى عمارته وزخارفه، وكان الأمويون فى الشام قد فطنوا لضرورة تعزيز هيبة الدولة ووظائفها بإقامة المنشآت الدينية والمدنية، فلقد أنشأوا فى القدس المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، كما أقاموا فى دمشق الجامع الكبير.



إن عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥م) كان عهد إنشاء وتعمير، ولقد امتد ذلك إلى المدينة حيث أعيد إنشاء مسجد الرسول، كما امتد إلى صنعاء، وفيها أعاد الوالى أيوب ابن يحيى الثقفى إنشاء المسجد الجامع الكبير مستوحى من مسجد دمشق، مؤلفًا من حرم وصحن ومئذنة. ومن المؤكد أنه استوعب منبرًا ومحرابًا، وهكذا أصبح المسجد مؤئلاً للمؤمنين يتزاحمون إليه حتى أن أروقة أضيفت للمسجد فى صحنه، كانت جديدة أن تستوعب العدد المتزايد من المصلين، ولم تلبث هذه الأروقة أن أغلقت فتحاتها على الصحن لتصبح حرمًا إضافيًا فى المجنبين وفى الجهة المقابلة للقبلة.



هكذا أصبح المسجد أضخم منشأة إسلامية في صنعاء استوعبت الوظائف الدينية والإدارية أيضًا. وكانت توسعاته المستمرة دليلاً على زيادة مكانة صنعاء كمدينة إسلامية، ودليلاً على حجم دوره في زيادة النشاط الاجتماعي ورفع مستواها إلى الحدود الثقافية الإسلامية التي نمت داخل المسجد وانطلقت منه.

كانت الفترة التي تمت بين ١٣٢هـ/ ٧٥٠م - ١٣٤هـ/ ٧٥٢م، فترة قلقة في اليمن وفي صنعاء خاصة، فلقد تغير الحكم وانتقل من الأمويين إلى العباسيين، وكان لابد للسلطة الجديدة في صنعاء والمتمثلة بالوالي الجديد علي بن الربيع من أن تزيد في توسيع المسجد وتحصينه ضد المقاومة التي كانت تنفجر من الموالين للحكم الأموي. وتشهد الزيادة المهمة التي حققها هذا الوالي على طبيعة هذه المرحلة القلقة والتي لم تستقر إلا عن طريق زيادة قوة السلطة وتحصين مواقعها. وكان الجامع الكبير أبرز شاهد على هذا التحصين، ومازال لوح حجري منقوش بكتابة تاريخية مثبت على جدار صحن الجامع قرب قاعدة المئذنة الشرقية. وفيه «أن أمير المؤمنين أكرمه الله، أمر بإصلاح المساجد وعمارتها على يد الأمير علي بن الربيع أصلحه الله، في سنة ست وثلاثين ومائة» ويذكر النص اسم الخليفة المهدي والصواب أن الخليفة كان المنصور.

وهكذا فلقد أنشئ بين عامي ١٣٣ - ١٣٦ تعديل مهم تمثل بإنشاء المجنب الشرقي بعرض ١١،٧ متر وأضاف للمسجد جدرانًا وأبوابًا في الشرق ومازالت ألواح تذكارية ناقصة تخلد هذا العمل، مثبتة على هذا الجدار من الخارج.

وإذا كانت هذه الزيادة قد سجلت تحولاً مهمًا في نظام الحكم وفي علاقة سكان المدينة بالمسجد المؤسسة التي ترمز إلى السلطة، فإن ما أصاب المدينة من دمار إثر السيل الذي انحدر مدمرًا من جبل نُقُم سنة ٢٦٢ هـ فهدم أجزاء كثيرة من شطري صنعاء، الشمالي ويسمى «السرار» و«السقطيع» هو الجنوبي، هذا السيل الذي وصفه وعدد أضراره الجندي في كتابه السلوك «لوح ٢٩» فإن المسجد الجامع الكبير قد سجل هذا الحدث أيضًا بعد أن أصابه من الخراب ما أصاب المدينة وسكانها، فلقد تهدمت أطراف المسجد وبخاصة الواجهة الشمالية الشرقية وتهدم الجداران القبلي والشرقي، ثم قام الأمير محمد بن يعفر بترميمه وتحسينه وتزويقه في سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م.

القرامطة في صنعاء والجوامع:

ويسجل المسجد بترميماته وتوسعاته، حادثة اجتماعية مهمة تمت في سنة ٢٩٩هـ/ ٩١٢م، ذكرها الجندي أيضًا في السلوك «ص٢٣٨». وهذه الحادثة كان بطلها علي بن الفضل والقرامطة الذين استولوا على صنعاء للمرة الثانية في تلك السنة، ويبالغ المؤرخون في أثر هذا الاستيلاء السيء على المدينة، ولكنهم لاينكرون أن ذلك تم مع أمطار غزيرة غمرت المسجد وأنحاء المدينة.

وبعد تحرير صنعاء من سيطرة القرامطة، اهتم أهل صنعاء وأميرهم أسعد بن يعفر بترميم المسجد وهو رمز السلطة الشرعية. ويتحدث القاضي الحبيشي (في الاعتبار) عن مقدار ما انفقه بنو يعفر على ترميم المسجد، والأرقام الضخمة تبين مدى تعاطف الناس في صنعاء مع مسجدهم الكبير. يقول الحبشي: «إن مقدار ما انفقه بنو يعفر على بناء جامع صنعاء خمسة وعشرين ألف خزانة، في كل خزانة أربعة عشر ألف مثقال يعفري. والجملة ثلاثمائة ألف وخمسون ألفًا، والدينار اليعفري يومئذ ثلاثة دنانير ملكية». وجمعت هذه الأموال من أهل صنعاء.

ويتحدث بعض المؤرخين عن تعديلات تمت في المسجد في عهد السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد، يقول صاحب كتاب «غرة الحق»، أن الحرة الملكة هي التي وسعت جامع صنعاء ورممت بناءه وزينته، وأمرت أن تكون أسماء الأئمة من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام المعاصر لها منقوشة على سقفه. ولقد تم نقش ذلك وتسجيله في الجدار الشمالي للمسجد بناء على أمرها. ثم أزيلت أو كشطت هذه النقوش في عهد إمام الزيدية أحمد بن سليمان (٥٦٦هـ/ ١١٧١م) ثم غلفت بالجبس والسراس في عهد حاتم بن أحمد (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م).

هكذا يبدو المسجد شاهدًا على أحداث اجتماعية أخرى فهذا التحول في التشيع والانتماء قد سجل مباشرة على جدران المسجد، وبقيت آثاره زمنًا.

أعمال المبدعين الصنعائيين في الجامع:

يختزن مسجد صنعاء أعمالاً فنية رائعة قدمها المبدعون من الصنعائيين، فكان بذلك متحفًا حيًا للمدينة، وتتمثل هذه الأعمال بالزخارف المتنوعة التي تغطي «مصندقات» سقوف الحرم، والتي تعود إلى عهود متعاقبة، وهي آيات فنية تمتاز بخصب الصيغ النجمية والزهرية، والتي حددت خصائص الفن الصنعائي، الذي انتقل إلى أماكن أخرى ليزين سقوف المساجد فيها، مثل جامع شبام - كوكبان. وثمة دراسة عرضنا فيها الشبه بين زخارف جامع صنعاء والزخارف المماثلة في مسجد الرسول في المدينة كما وصفها سوفاجيه.

ومع ذلك فإننا نعتبر أن زخارف الجامع الكبير في صنعاء، هي من إنتاج الفنانين المحليين على مر العصور. ولقد كانت هذه الزخارف مدرسة خرجت أجيالاً متعاقبة من الرسامين الذي بلغوا ذروة الإبداع، فيما قدموه من أعمال مبتكرة، مازالت قائمة حتى يومنا هذا، بيد أنها تحتاج عناية وترميمًا لابد منه.

والكتابات القرآنية التي تزين الأفاريز العليا من الجدار الغربي للحرم وهي بالخط الكوفي، تعتبر الأكثر قدمًا في الجامع، وفي أفاريز الجناح الشرقي كتابات قرآنية أخرى أقرب عهدًا، وثمة كتابات وخطوط أخرى عرضناها تفصيلاً في كتابنا عن الجامع الكبير بصنعاء.

لقد تحدث الهمداني في «الإكليل» عن الخطاطين الصنعائيين، ومما لاشك فيه أن هؤلاء الخطاطين وغيرهم شاركوا في كتابة خطوط الجامع الكبير، ومرة أخرى يبدو الجامع متحفًا يضم روائع الخط كما ضم روائع الزخرفة الملونة.



الجامع معهد لثقافة الصنعائيين:

لم يكن الجامع معبدًا فقط، يؤمه الناس لإقامة الصلاة، بل كان معهدًا للتدريس، ومازالت حلقات التدريس في الجامع قائمة حتى يومنا هذا، ويتحلق طلاب العلم حول مدرسهم، يدرسون على يده القرآن الكريم والحديث وأصول الفقه والتشريع. ثم هم يلجأون إلى مكتبته يستزيدون المعرفة مما حوته من أمهات المخطوطات.

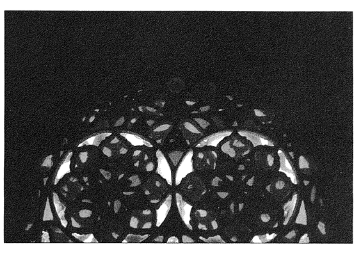
لقد أكدت المخطوطات المكتشفة في عام ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م في جدار الحرم القبلي على مدى أهمية الكتب التي كانت تحويها المكتبة، وعلى مدى روعة الخط الذي كتبت به. ولقد بلغ عدد هذه المخطوطات عشرة آلاف مخطوطة وهي تتألف من مصاحف شريفة تعود إلى القرن الهجري الأول وحتى القرن التاسع مكتوبة على الرق بالخط الكوفي الحجازي وبأحجام مختلفة، ومن المخطوطات ما هو مكتوب بالخط النسخي، وهي تمتاز بحسن الخط والتذهيب والتزويق، وتعود إلى القرن الهجري التاسع.

وعدا عن المصاحف، فمن المخطوطات ما كان موضوعه فقهيًا أو نحويًا أو بيانيًا، ومنها ما كان علميًا في الطب والفلك والتشريح.

ومما لاشك فيه، أن هذه المخطوطات كانت من محتويات المكتبة ولقد عزلت في مكان مغلق بعد أن تلفت أوراقها من الاستعمال وهي إذ تشكل ثروة فنية تم ترميمها وتصنيفها وحفظها، فهي آثار فنية تؤكد براعة الخطاطين الصنعائيين ومشاركتهم المستمرة بإغناء المكتبة الخاصة بالجامع الكبير بالمخطوطات المكتوبة بخطوط جميلة وبزخارف متقنة.

ومن المؤكد أن أفضل ما كان ينتجه الرسامون والرقاشون والخطاطون، كان يقدم إلى المسجد الجامع، وهكذا فإن هذا المسجد كان المشجع الدائم على استمرار النشاط الإبداعي في صنعاء. ومازالت المكتبة تحتفظ بشواهد من روائع المخطوطات، نذكر منها مخطوطة «مقامات الحريري» التي انجزها بخطه محمد ابن دغيش (١١٢١هـ/ ١٧٠٩م)، وفي هذا المخطوط صور إيضاحية ملونة لبعض المقامات، وتمتاز هذه المخطوطة بغلافها الخارجي الجلدي وعليه رقائق مذهبة تغطي زخارف من الرقش العربي النباتي.

ونذكر هنا كتاب «الكشاف» للزمخشري وهو مخطوطة نفيسة، كما نذكر المصحف الذي ينسب للإمام علي بن أبي طالب، وهو مكتوب بالخط الكوفي على صحائف من الرق.



إن الجامع الكبير الذى كان مدرسة عليا لتدريس العلوم والآداب والفقه خرّج كبار الفقهاء والأدباء فى صنعاء، كما خرّج كبار المدرسين والقضاة والفرضيين والمقرئين، ومازالت حلقات اختصاصية فى كل فن وعلم تقام فى إرجاء المسجد. ولعل أبرز القضاة، إذ لم يكونوا جميعًا قد تخرجوا من مدرسة الجامع الكبير التى كان يديرها قضاة كبار، كانوا يمارسون القضاء والفصل فى الخصومات بين الناس، وكان القاضى يجلس فى ركن من أركان حرم الجامع، وخلفه رئيس الأعوان ليسجل الأحكام ويامر بتنفيذها.

٤. الحفاظ على العمارة الصنعائية

ليس من مثال على الأصالة المعمارية والعمرانية يمتاز بلاغة ووضوحًا على مثال أصالة العمارة والعمران فى المدن اليمنية، صنعاء وشام وزبيد وتريم وغيرها.

ولكن هذا المثال الرائع كان محجوزًا عليه خلف أسوار الحصار الذاتى، ومغيبًا فى ضباب التعتيم المعرفى والإعلامى، حتى إذا قامت الثورة فى عام ١٩٦٠ فوجئ العالم بمشهد تلك العمارات الشاهقة والأحياء المتداخلة، حافلة بزخرفات متنوعة صنعها وابتكرها الإنسان اليمنى كما تلبى حاجاته السكنية والاجتماعية والجمالية أيضًا، وكان هذا الإنسان رجلاً معتدًا بتاريخه يتمنطق خنجرًا فضيًا معقوفًا يرمز إلى القوة السلمية والمنعة المتحدية، كما كانت اليمنية امراة تعتد بعفافها وحشمتها وقد ارتدت ملاءات وأثوابًا ملونة زينت تلك البيئة العمرانية الداكنة أو البيضاء بألوان الزهور والربيع، فكانت إيقاعًا متحركًا يبث الحياة والفعالية فى الأحياء والأسواق والمدارس والمساجد التى مازالت قائمة، بعضها يرجع إلى عصر الرسول كجامع صنعاء وجامع الصحابى مَرْوه بن مُسَيْك «الجبانة».



ومنذ الانفتاح على العالم والتعرف على روائع اليمن مدينة وشعبًا وتاريخًا، ومنذ ازدهار الحياة الاقتصادية وزيادة الحاجة إلى تطوير الحياة حسب تقنيات العصر الحديث، ظهرت أحياء جديدة تزاحم بعماراتها وخصائصها المدنية القديمة، التى لم يكن من السهل تكييفها مع تقنيات العصر الحديث.

لقد غادرت أسر كثيرة الأحياء القديمة القابعة ضمن نطاق التاريخ، وتركت منشآتها مهملة تعبث بها وظائف غريبة تزيد الإهمال تهديمًا واستهلاكًا. فكان لابد من توجيه نداء عالمى عام ١٩٨٠ تبنته منظمة اليونسكو لحشد الجهود لحماية المدن القديمة وأحيائها.

وهكذا تاسست سنة ١٩٨٧ الهيئة العامة للحفاظ على مدينة صنعاء والتى أصبحت بعد الوحدة شاملة المدن اليمنية وتحمل اسم الهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية Gophcy.

ولقد حققت الهيئة الأولى إنجازات لحماية صنعاء القديمة استحقت عليها جائزة أغاخان١٩٩٥، كترميم بيت المطهر ويعود إلى عام ١٦٠٠ وسمسرة المنصورية ١٨٥٠ وسمسرة النحاس ١٨١١ وبيت العمرى ١٦٠٠ وبيت سريع ١٣٠٠ وغيرها. كما قامت بتعبيد الطرقات، وإنشاء البنية التحتية والصرف الصحى، بعد أن تم جمع المال اللازم من الدولة ومن هيئات دولية ومن دول كبرى معنية بحماية التراث الإنسانى، مثل إيطاليا وهولندا وكوريا والنرويج وسويسرا والولايات المتحدة.

وقد كانت خطط الترميم والصيانة تخضع لبرامج علمية تراقبها الهيئة العامة وتكون نتائج أعمالها موضوع ندوات يشترك فيها كبار الاختصاصيين فى العالم. عدا عن إشراف منظمة اليونسكو المباشر.

لقد أصبحت صنعاء القديمة قادرة على مجابهة تحدى المدنية الحديثة التى تتنامى بسرعة، مستقطبة اهتمام السلطة والشعب، ولذلك كان لابد من استمرار دعم صمود المدينة القديمة بقوة تعادل دعم نمو المدينة الحديثة، ولن يقتصر هذا الدعم على عمليات الصيانة والترميم، بل على تأهيل هذه المدينة للحياة الاجتماعية، وتأهيلها لتبقى شاهدًا تاريخيًا أو تحفة متحفية تحكى قصة امتدت أحداثها الحضارية منذ سد مأرب على الأقل، كانت فيها اليمن مركزًا سياسيًا واقتصاديًا مهمًا فى جنوبى البلاد العربية.



وكان لابد من ترميم أسوار صنعاء منذ عام ١٩٨٧ وإعادة تنظيم وادى السايلة الذى كان يصون المدينة من غمار السيول السنوية الهابطة من جبل نقم. ويجب أن نعترف أن أهم انتصار تحقق فى مدينة صنعاء نتيجة عمليات الترميمات فى البنية التحتية والأبنية العامة ورصف الطرقات بالحجارة السوداء وتسهيل مرور وسائل النقل والانتقال، هو إعادة الارتباط الشعبى بهذه المدينة، فلقد أقبل المواطنون على العودة إلى مدينتهم بعد هجرتها منذ عام ١٩٧٠ وقاموا بترميمها بإشراف الهيئة، مثل بيت الروضة. وانتعشت الأسواق وأصبحت مركزية فى المدينة كلها قديمها وحديثها، وتسابق المالكون للعناية بممتلكاتهم التى سبق أن هجروها للإقامة فيها أو لتوظيفها حسبما تقتضيه ظروف مدينة ساحرة متميزة بعماراتها وطابعها، لم تستطع المدينة الحديثة مجاراتها بطرافتها وأصالتها. ولقد كان على الهيئة المسئولة أن تضع خطة لمتابعة صيانة هذه المدينة لتكون نموذجًا عمليًا يساعد فى التخطيط لصيانة باقى المدن اليمنية الأصيلة، لتحقق هدفًا يتفق مع الطموحات التقدمية للسلطة اليمنية فى الحفاظ على التراث والاعتزاز به ليبقى ذاكرة التاريخ وشاهد الحضارة، على أن يوظف فى أغراض ثقافية وسياحية، بعد أن أصبحت المدينة الحديثة قادرة على استيعاب الوظيفة السكنية حسب الشروط المعاشية الحديثة.

على أن ضخامة التراث المعمارى اليمنى تتطلب جهودًا مكثفة وتتطلب ميزانيات ضخمة، ولكن لابد من دعم المواطنين وتشجيعهم على صيانة ممتلكاتهم، ولابد من التعاون مع قطاعات الثقافة والسياحة لاستغلال هذه المدينة وتوظيف منشآتها لأغراض هذه القطاعات. وهذا لايعنى أن مهمة الهيئة العامة المسئولة تنتهى عند هذه الحدود، بل إن مهمة التنسيق بين مشاريع الصيانة والتوظيف ضمن حدود قانون الآثار تبقى أساسية، وإن وضع خطة المحافظة على المدن التاريخية اليمنية وتنفيذها مازالت من مهامها. ■

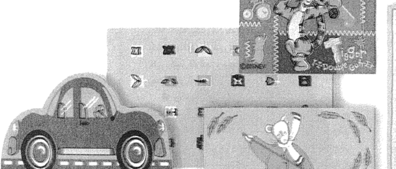


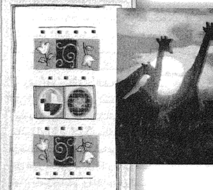
مراكز البيع:

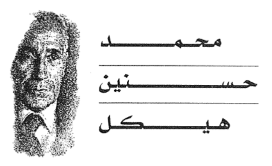
مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى ـ نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٢
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس ـ ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج ـ دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان ـ محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٢١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ‏٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر ـ طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل ـ محطة التعاون ـ الهرم ت: ٢٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية ـ خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى ـ مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع ـ السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣
السيدة زينب: ٣٨ شارع مراسينا ت: ٣٦٣٠٥٩٠
محرم بك: الإسكندرية ٦ شر أبيدوس من شارع مسجد الحضرى ت: ٣٩١٨٤٧٠-٠٣
الصحفيين : ٣ ش النيل الابيض متفرع من ش احمد عرابي ت : ٣٠٣٩٤١٢
الاوبرا : ١٠ ميدان الاوبرا محلات اسماعيل علي ت : ٣٩١٤٩٩٩
دمياط : ش جنينة سرور امام الفرن الالي ت : ٣٢٨٠١٣

العباسية: ١٥ ش العباسية ـ ميدان الجيش ت: ٥٨٩٢٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية ـ فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى ـ شارع التحرير
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٢٠ ش التحرير برج العزازى ‏٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٢٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ‏٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم ـ خلف المحكمة ‏٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش ـ أمام عمر أفندى
بورسعيد : ميدان المسلة – برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة ـ طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى – سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩
مصطفي كامل : ٥٠ ش مصطفي كامل فليمنج ‏٥٨٠٤٧٩٧
العصافرة : ش عثمان بن عفان بجوار المعهد الديني ت : ٠١٠١٠٠٤٧٣٩
العامرية : ش مجمع سيدي مسعود الإستهلاكي عمارة خميس الهواري ت : ٠١٢/٢٧٥٨٥٠٠

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com









السؤال الأول

هل كانت الثورة لازمة؟



تحالف ضد الملك!

فبراير ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤

بصرف النظر عن الوقائع والتفاصيل، والأحكام والآراء ـ فإن **تلك الأيام الثلاثة التى هزت كيان مصر ـ والتى بلغت ذروتها مساء ٤ فبراير ـ ١٩٤٢ جاءت تأكيدا قاطعا لصحة المعادلة التى حكمت الحياة السياسية فى مصر قبل ثورة يوليو ١٩٥٢**، ومجملها باختصار أن السلطة فى مصر موزعة بين ثلاثة أطراف:

● العرش ـ وهو الرمز الرسمى لفكرة السيادة.

● والوفد ـ وهو الممثل الفعلى للأغلبية الشعبية.

● والسفارة البريطانية ـ وهى مالكة القول الفصل والكلمة النهائية فى الشأن المصرى.

يلحق بذلك ويترتب عليه أن أحداث ٤ فبراير كانت بالنسبة لكل طرف من الأطراف الثلاثة فى المعادلة الحاكمة، درسا مفيدا، وخبرة مضافة، تساوى أن توضع فى أساليب التعامل وحساب النتائج!

وكانت الطريقة التى جرت بها الحوادث مساء ٤ فبراير ـ إنسانية ومباشرة فى إنسانيتها حتى لقد جعلت لعبة السلطة ـ ثلاثية الأطراف ـ تبدو على السطح كأنها اشتباك وعراك بين ثلاثة رجال. وكانت هذه الإنسانية المباشرة ثقيلة إلى درجة توارى الواقع خلف أقنعتها، فأصبحت ملامحه «فاروق» و«النحاس» و«لامبسون» ـ أكثر مما هى القصر ـ والوفد ـ والإنجليز، وحركتهم جميعا على أرض وطن محتل فى أحوال عالم مضطرب!

وكذلك على السطح وفى الظاهر فإن السياسة فى مصر لم تعد حقائق صراع وطنى وإقليمى وعالمى، وإنما أصبحت تعبيرات مشاعر فيها الحب والكره، وفيها الإقبال والصد، وفيها العطاء والحرمان، وفيها النصيحة والنميمة، بل ودخل فيها الحب والقتل!

وفى الممارسة العملية لعلاقات كل يوم فإن كل رجل من الرجال الثلاثة خرج من أزمة ٤ فبراير ومعه «خلاصة» و«عبرة تجربة» ملكت عليه نفسه، وتولت صياغة مواقفه، ووجهت ردود فعله (بأسلوب طلقات النار أحيانا!).

● كانت الخلاصة التى توصل إليها «فاروق» ـ وعبرة تجربته ـ أنه أُهين فى قصره واعتُدى عليه كملك، ورجل، ورأس أسرة وراءها فى مصر تاريخ قرن ونصف قرن. ومع أنه مجروح فى هيبته وكبريائه وكرامته ـ فإنه غير قادر على قبول ما جرى، بحيث يسكت ويترك أمره للمقادير، تجىء له بحقه وتضعه على عتبة قصر عابدين. وفى ذلك فإن الملك كان يدرك أنه لا يقدر على تحريك ساكن ضد الوفد إلا إذا وصل إلى نقطة ضمن فيها سكوت الإنجليز على أقل تقدير، وكان شبه يائس من بلوغ هذه النقطة؛ لأن «لامبسون» بتصرفه يوم ٤ فبراير وضع كل أرصدته فى رهان على رئيس الوفد، ومعنى ذلك أن ما يصيب «النحاس» يصيبه هو أيضا!

● والخلاصة التى توصل إليها «مصطفى النحاس» ـ وعبرة تجربته ـ أن التوجس التقليدى بين القصر والوفد أصبح الآن على المكشوف، وأنه وقد وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، فهو لا يحتاج أن يدارى، لأن الملك مهما كان أو يكون «خارج لاصطياده». وإذا كان هو لا يستطيع اصطياد الملك (لأنه لا يملك حق عزله بمثل ما يملك فاروق حق إقالته) ـ فهو على الأقل يستطيع حصاره، وبالتالى حصر عداوته. وفى المبتدأ والمنتهى فهو لا يستطيع ممارسة سياسته إلا إذا تأكد أن الإنجليز لن يخذلوه.

● والخلاصة التى توصل إليها «**مايلز لامبسون**» ـ وعبرة تجربته ـ أن ما وقع مساء ٤ فبراير يصعب تكراره، فليس ممكنا كل يوم أو كل أزمة أن تقوم الدبابات البريطانية بحصار قصر عابدين لكى تفرض على ملك مصر وزارة ـ حتى لو كانت وزارة أغلبية. وإذا كان ذلك، فإن حكمة السياسة أقنعت السفير البريطانى بأن عليه الابتعاد إلى مؤخرة الصورة (كذلك قال بنفسه للنحاس باشا) ـ وبهذا الابتعاد فهو يستعيد لنفسه دور الحكم فى العلاقة بين القصر والوفد. ومع أنه بمشاعره مع رئيس الوزراء الذى فرضه بالقوة المسلحة على الملك، فإنه لا يحق له نسيان أن الملك مازال جالسا على العرش، وأكثر من ذلك فإن هذا الملك الجالس على العرش ـ مجروح فى كرامته وكبريائه وحتى «شبابه»!

وهو مهما كان نفوره من «الولد» ـ كما كان يسمى ملك مصر ـ الذى كان بدوره يسميه «جاموس باشا» ـ ليس حرا فى نسيان أنه ممثل إمبراطورية تخوض حربا هى بالنسبة لها مسألة موت أو حياة!

وفى المحصلة فإن الخلاصات ـ وعبر التجارب ـ التى توصل إليها كل واحد من الأطراف الثلاثة ـ مع وجودهم فى ظرف استثنائى جميعا ـ هو ظرف حرب عالمية لها أولوياتها الحاكمة عليهم وعلى غيرهم، فرضت ـ مهما كانت مشاعرهم ـ حياة مشتركة حتى أجل غير منظور داخل إطار لا يرضيهم ـ بل سجن لا يهتم بأمزجتهم. وذلك جعل الساحة السياسية المصرية تلك الفترة أشبه ما تكون بغرفة مغلقة تسربت إليها غازات قابلة للاشتعال ـ أى أنه احتكاك عود كبريت بسطح خشن، وشرارة، وحريق!







الملكة «نازلى».ليدى «جاكلين لامبسون». السيدة «زينب الوكيل».. كان القول الشائع فى مصر أن السلطة وقعت فى أيديهن



الملك «فاروق»

تحـــالف ضــد المــــلك!

١٩٤٢ - ١٩٤٤



١ - الدروس التى تعلمهـــا القصـــر الملـكى - ومارســـها

صباح يوم ٥ فبراير كان الشعور فى القصر الملكى مزيجا من الغيظ والإحباط والإحساس بالذل والانكسار، وظهرت مشاهد قادت إليها انفعالات عاطفية مأزومة، والسبب أن سرعة الحوادث أخذت أصحاب هذه المشاهد ولم تنتظرهم حتى يقرروا كيف يتصرفون فى اللحظة المناسبة، ثم أفاق هؤلاء من الصدمة وأصبح مطلبهم تعويض ما ظنوه قصورا من جانبهم، وهكذا جاءت انفعالاتهم فالتة فى مظاهرها.

وكان أول هذه المظاهر أن عددا من ضباط الحرس الملكى قصدوا إلى عملهم فى ثكنات عابدين، وفى داخل القصر (مكاتب الياوران والحاشية) - وعرفوا بتفاصيل ما جرى، ثم هرول بعضهم إلى مكتب الملك - وكان «فاروق» قد جاء إليه بعد ليلة من الأرق المشوب بالعذاب - منتظرا أن تجىء إليه مراسيم تشكيل الوزارة، وبعض تحفزه أنه من بين الأسماء سوف يكتشف اتجاهات.

وسمع «فاروق» وهو فى مكتبه صراخ وبكاء بعض الضباط الذين وصلوا إلى بابه، وفى أصواتهم لوعة سؤال: «كيف أن أحدا لم يفكر فى دعوتهم وقد لاحت نذر أزمة تهدد «سلامة» الملك الذى أقسموا أن يدافعوا عنه حتى «الموت»؟». (وكان بين هؤلاء الضباط «اليوزباشى» «محمد أحمد صادق»، الفريق «محمد أحمد صادق» وزير الدفاع فيما بعد زمن الرئيس «أنور السادات»).

وعلى مائدة الغداء ذلك اليوم وقعت نصف مشادة بين الملكتين: «فريدة» و«نازلى». فقد تساءلت الملكة الشابة: «إنها حقيقة لا تعرف - أين كان الحرس الملكى؟» - وردت الملكة «نازلى» بتؤدة تقول: «الحمد لله أنهم لم يكونوا موجودين، وإلا لحدثت مصيبة». وحين حاولت الملكة «فريدة» تأكيد وجهة نظرها قائلة «على الأقل كان يمكن لهم رمزيا أن يظهروا استعدادهم للدفاع عن ملكهم، ويكون الملك هو الذى يأمرهم بالانحناء للعاصفة!»، واحتدت الملكة «نازلى» ورأيها «أنه لم يكن فى مقدور أحد أن يكتب «السيناريو» على هذا النحو، خصوصا أن «المجانين كتار» وليس فى صالح الملك أن تقع مذبحة فى مكتبه، لأن هناك قوة أكبر من حرسه تحاصر القصر».

ولم يكمل الملك «فاروق» غداءه، وقام عائدا إلى مكتبه، وهناك جاء إليه «أحمد حسنين» (باشا) ومعه خطاب استقالة، مهد له باعتراف «إنه فشل فى توقعاته لمسار الأزمة، وبسبب ذلك الفشل «جرى فى مكتب مولانا بالأمس ما جرى»، وأقر «حسنين» أنه لم يكن يتوقع أن السير «مايلز لامبسون» سوف يمضى فى الشوط إلى نهايته حتى حصار القصر بالدبابات، ولو كان توقع، لما اقترح على الملك دعوة زعماء الأحزاب - على هيئة جبهة وطنية - لرفض التدخل البريطانى فى الشئون المصرية». وبقى «حسنين» والملك «فاروق» وحدهما فى المكتب لأكثر من نصف ساعة، ثم عرف بعدها أن «فاروق» «جدد ثقته فى رئيس ديوانه»، وأن رئيس الديوان نزل على أمر «مولاه»، وسوف يبقى فى القصر لأن هناك الكثير مما هو لازم الآن وممكن وضرورى!

وفى ظرف أسابيع قليلة - بعد ٤ فبراير ١٩٤٢، كان «أحمد حسنين» (باشا) رئيس الديوان الملكى قد رسم الخطوط العريضة لهذا اللازم والممكن والضرورى - فى شكل خطة تنفذ على مرحلتين:

- المرحلة الأولى: عملية انتقام ملكى مما جرى (وقد سماها الملك فاروق باسم «الكونت دى مونت كريستو» - أمير الانتقام فى قصة ألكسندر دوما الشهيرة، ويظهر أنه قرأها أو شاهد فيلما عنها).
- والمرحلة الثانية: البدء بإعداد «ملف الإقالة» المقبلة لحكومة «النحاس» (باشا)، وذلك بمراقبة تصرفاتها وعد أخطائها والإمساك بأدلتها وترتيب عريضة اتهام قوية تقنع الإنجليز - وتقنع الشعب أيضا بأن حزب الوفد فقد صلاحيته، وضيع سمعته، وبدد شعبيته.

وأصبحت «خطة الانتقام» عماد سياسة القصر ومرجعيته، خصوصا أنها خطة يمكن البدء بتنفيذها على الفور ودون رجوع لأحد (السفارة البريطانية)، وذلك على عكس خطة إعداد «ملف الإقالة» لأنها تقتضى انتظار وترصد ممارسات حكومة الوفد. فضلا عن أنه لا يمكن السير فيها إلى آخر الشوط إلا بموافقة طرف ثالث (السفارة البريطانية).



كانت أجواء خطة الانتقام كما وضعها «أحمد حسنين» (باشا) - وأقرها الملك، قريبة الشبه مما عرفه التاريخ الفرنسى قبل قرون، حين كان الكرادلة الكبار (مثل ريشيليو ومازينى) يقومون بالوصاية على ملوك آلت العروش إليهم فى سن الصبا (مثل لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر)، ويكون الكرادلة هم الذين يتولون مسئوليات الحكم باسم الملوك الصبيان، وأكثر من ذلك يعشقون أمهاتهم (مارى لويز - وكاثرين دى مديتشى).

وكانت خطة «أمير الانتقام المصرى» (الكونت دى مونت كريستو - كما سماها «فاروق») تجرى على عدة خطوط:

الخط الأول: من فلق إلى كسر

العمل على كسر حزب الوفد بتعميق «الفلق» الذى ظهر على سطحه، وبان فى توتر العلاقات بين «مكرم عبيد» (باشا) و«مصطفى النحاس» (باشا)، أو بمعنى أصح قرينة «النحاس» (باشا). وذلك التوتر لم يكن خفيا، ففى قصور الريف شمال الدلتا لم تكن السيدة «زينب الوكيل» تخفى أنها لا تحب ما يراه الناس من سيطرة «مكرم» على «رفعة الباشا». ومن ناحية أخرى فإن «مكرم عبيد» (باشا) لم يخف «أنه ليس راضيا عن نفوذ قرينة رئيس الوفد عليه، وكلامه (صريحا بغير إبهام) أن نفوذها ظاهرة طارئة لم يعرفها الحزب من قبل». ثم يخفف «مكرم عبيد» (باشا) من صدمة القول على سامعيه فيضيف «أنه المسئول عن ذلك لسوء الحظ، فهو الذى خطب لزعيم الوفد عروسا كان يمكن «بالراحة» أن تكون ابنته وليست زوجته!».

ومن ناحية ثانية فإن «مكرم عبيد» (باشا) لم يكن راضيا عن زيادة تواجد «فؤاد سراج الدين» فى الدائرة الألصق بالنحاس (باشا)، وكان قوله «إن «فؤاد» يقوم بعملية «أكبر» منه وقد لعبها على أرضه (فى قصور الريف شمال الدلتا) - لكن عقلية الأعيان من ملاك الأرض لا تصلح للعمل السياسى فى العاصمة وتياراتها المتشابكة.

زيادة على ذلك فإن «مكرم عبيد» كان مع كل زيارة لقصور شمال الريف يحس أكثر وأكثر بميل «النحاس» (باشا) إلى صفقة يعود بها الوفد إلى الحكم، إما بدعوة من السراى، (بشاهد زيارة وحيدة قام بها «عبد الوهاب طلعت» (باشا) - وكيل الديوان الملكى وقتها - للنحاس (باشا). أو بدعوة من السفارة البريطانية، بشاهد الزيارات المتكررة التى يقوم بها «أمين عثمان» (باشا)، وكان إحساس «مكرم عبيد» (باشا) أن هناك «طبخة» من نوع جديد على الوفد يجرى تحضيرها.

وقد لمح رئيس الديوان «أحمد محمد حسنين» حالة «مكرم عبيد»، ولأنه يعرف أن الرجل كتلة أعصاب مشدودة باستمرار، فقد حدد خط الانفلاق وركز عليه.

وهنا كانت دعوة «مكرم عبيد» ظهر ٤ فبراير لمقابلة الملك (قبل النحاس) - وهنا أيضا كانت مفاجأة «مكرم عبيد» عندما عرف بالإنذار البريطانى بتكليف «النحاس» برئاسة وزارة وفدية، وهنا كذلك - ومؤخرا - أيقن «مكرم عبيد» أنها صفقة مستوفية الأركان (عرضا وقبولا وسعرا) - وكان تقديره أن الثمن فادح على الوفد، (وأنه إذا كانت هناك ضرورة لصفقة، فقد كان الأولى أن تكون مع القصر) - ولذلك كان إصراره على «النحاس» (باشا) لتوضيح الأصول والمبادئ بخطابات متبادلة بين «النحاس» و«مايلز لامبسون» بحيث

تتعهد الحكومة البريطانية باحترام قاعدة أن تكليف الوزارات وصرفها سلطة ملك مصر وحده.

(كانت تلك كلها مفاجآت لم يستطع «مكرم عبيد» (باشا) قبولها، على أنه وهذا رأى فؤاد سراج الدين (باشا) - وهو وارد - أن أكثر ما ضايق «مكرم عبيد» أن المسألة تمت من وراء ظهره ودون علمه، وذلك وضع جديد عليه وعلى علاقته بالنحاس، وقد تبدى له «نذير شؤم»).

والواضح أن «مكرم عبيد» دخل الوزارة فى حالة توتر شديد، وكانت حالته انكشافا خطيرا فى أوضاع الوفد.

الخط الثانى: الجيش والملك

كان الخط الثانى - على اتصال بالتداعى من السؤال الذى طرحته الملكة «فريدة» على مائدة الغداء يوم ٥ فبراير، «أين كان الحرس الملكى؟»، وكان هذا السؤال بداية خط تمادى بأكثر مما كان متصورا فى الخطة الأصلية. كان الخط الأصلى لأحمد حسنين يتعلق بالجيش المصرى، وأهمية أن يصبح بالكامل حرسا ملكيا. ومع أن الجيش تقليديا «جيش العرش»، باعتبار الملك هو القائد الأعلى - فإن الجيش المصرى بدا رقما مجهولا فى معادلة القوة الداخلية، وسؤالا معلقا.

....

[والشاهد أن الجيش المصرى الحديث واجه ظروفا متغيرة أدت مرات إلى ظهوره بالمصادفة ومرات إلى اختفائه بالحل.

● وابتداءً فإن قوات المماليك يصعب اعتبارها جيشا مصريا، ولذلك فإن الجيش المصرى الأول فى العصر الحديث كان جيش «محمد على». وكان «محمد على» فى الأساس يريد لجيشه أن يكون تركيا، ثم خطر له أن يكون سودانيا، واستقر بعد تردد على أن يكون جيشه مصريا، لكنه تعامل مع هذا الجيش المصرى بقسوة مروعة لا تصنع ولاءً وطنيا (ويمكن فى هذه الجزئية مراجعة كتاب «كل رجال الباشا» وهو رسالة دكتوراه من جامعة أوكسفورد للمؤرخ المصرى الدكتور «خالد فهمى»). والحقيقة أن ضباط هذا الجيش كانوا من الأجانب - فرنسيين أو أتراكا، وأما جنوده فقد كانوا فلاحين خطفتهم السخرة خطفا من قراهم وانتزعتهم قسرا من عائلاتهم. ومع أن جيش «محمد على» كان جيشا قويا فى وقت من الأوقات - فإن هذا الجيش أصبح مأزقا أكثر منه مخرجا، ذلك أن هذا الجيش لم يحارب دفاعا عن وطن ينتمى إليه، ولا ضد عدو يهدد هذا الوطن، وإنما استعمل هذا الجيش لهدفين:

- إما فرض طاعة الخليفة العثمانى على أقاليم جنحت إلى الخروج عليه (كما حدث فى شبه الجزيرة العربية).
- أو عصيان هذا الخليفة العثمانى نفسه عندما جمحت الأحلام بوالى مصر وزحف نحو عاصمة الخلافة يحلم بعمامتها (كما حدث فى حروب الشام) - وفى الحالتين فإن هذا الجيش حارب ضد عرب ومسلمين، وذلك ارتباك يصل إلى حد الأزمة فى عقيدة جيش مصرى. وفى نهاية الأمر فإن جيش «محمد على» جرى حله بمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠.

● ثم حاول الخديو «إسماعيل» - بعد «محمد على» أن ينشئ جيشا مصريا حديثا، وكان هدفه استكمال فتوحات السودان، متصورا أنها توسعة لملكه بطريقة تقبلها القوى الأوروبية، باعتبار هذه الفتوحات نفاذا «حضاريا» فى عمق أفريقيا (شرقها خصوصا) - على أن ضباط هذا الجيش فى الغالب كانوا من الأوروبيين، وكبار قادته من الشراكسة - وكذلك كان الجيش شرسا فى تصرفاته لأن قياداته شبه مرتزقة، حتى وإن حملوا رتبا مصرية، وانتهى أمر هذا الجيش بقياداته الأجنبية ومقاتليه المصريين إلى الحل مرة ثانية بعد فشل الثورة العرابية.

الجيش المصرى الأول فى العصر الحديث كان جيش «محمد على». وكان «محمد على» فى الأساس يريد لجيشه أن يكون تركيا، ثم خطر له أن يكون سودانيا، واستقر بعد تردد على أن يكون جيشه مصريا، لكنه تعامل مع هذا الجيش المصرى بقسوة مروعة لا تصنع ولاءً وطنيا



● كانت هناك محاولة ثالثة لإنشاء جيش مصرى حديث (محدود فى عدده وعدته بحيث لا يهدد خليفة أو يفتح إقليما حتى ولو من باب الكشف الجغرافى)، وكان ذلك فى عهد الخديو «محمد توفيق» (باشا) وولى عهده «عباس حلمى الثانى» وقد بقى هذا الجيش شبه حلية أميرية تظهر فى المناسبات وتؤدى مراسمها.

وفى المرات التى تحولت فيها وحدات هذا الجيش إلى شبه تشكيلات، فإن وحداته - آلاف المجندين بالسخرة - أرسلوا فيالق بعد فيالق هدايا من خديو مصر إلى ملوك وأمراء فى أوربا وأمريكا الجنوبية (لكى يحاربوا دفاعا عن عروش تركتها القوى الاستعمارية وراءها (فى البرازيل مثلا)، والداعى أن هذه العروش احتاجت إلى مدافعين عنها بغير أجر (غير تكاليف الطعام والملبس) - وكان ولاة مصر على علاقة بهذه العروش ويريدون مجاملتها ولو بأرواح وأجساد رعاياهم.

وتشير كل التقديرات التى يمكن الوثوق فيها إلى عشرات ألوف حملتهم السفن ولم تعد بهم، لأن الغربة ووحشتها استهلكت الأرواح والأجساد!

● زاد على ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى أن السلطان «حسين كامل»، وبعده الملك «فؤاد» وافقوا على تزويد المجهود الحربى البريطانى بمئات ألوف من الرجال، يعملون على الخطوط الخلفية للإمداد والتموين، وتمهيد الطرق، ومد خطوط السكك الحديدية، وحفر الخنادق، وتهيئة المواقع الدفاعية لعرقلة تقدم تركى محتمل فى اتجاه قناة السويس، وتشير نفس التقديرات الموثوق بها أن قرابة مائة وأربعين ألف شاب من هؤلاء المجندين بالسخرة لخدمة «السلطة» (وفق التعبير الذى شاع أيامها) ذهبوا ولم يعودوا.

● ثم جدت بعد ذلك مرحلة ما بعد معاهدة سنة ١٩٣٦، وفيها (وبمقتضى المعاهدة) - فإن أبواب الجيش المصرى فتحت لضباط مصريين من كل الطبقات، وذلك سمح لأول مرة بدخول عناصر وطنية طلبت شرف الخدمة فى صفوفه، وقد تخرجت الدفعات الأولى من هذه العناصر مع قيام الحرب العالمية الثانية، وفى ظروف تلك الحرب قام عدد من ضباط هذا الجيش ببعض المسئوليات فى الخطط الإمبراطورية فى مصر - وكانت مسئوليات محدودة ولكنها موجودة.

والآن - بعد ٤ فبراير - كان «أحمد حسنين» يطلب التفاف الجيش حول الملك، ولكن التساؤل الذى طرح فى القصر: أى جيش؟ فقد كان فى الاعتبار بالطبع أن العناصر الوطنية الجديدة التى دخلت صفوف الجيش - دخلت بالفرصة التى أتاحتها معاهدة ١٩٣٦، التى وقعها «مصطفى النحاس» - زعيم الوفد، لكن «حسنين» (باشا) طمأن نفسه (ولم يكن مخطئا) بـ: أن الجيش مؤسسة ثبات واستقرار لا تخضع لحزب أو لوزارة والجيش يؤدى يمين الولاء للملك (بعد الله والوطن) ولا يؤديه لزعيم أو لسياسى.

ومؤدى ذلك أنه جيش الملك - وإن كان التعامل معه يقتضى الحذر. بمعنى أن القصر يستطيع أن يعتمد على الجيش بصفة عامة، وأن يربط علاقته بالملك مباشرة دون وساطة، وأن يبنى على تقاليد سابقة دون داع للتردد - شريطة أن تظل العلاقة بين القصر الملكى والوطنية المصرية بغير تعارض أو تناقض.

الخط الثالث: الحرس الملكى - وتجربة ملك رومانيا

ومن داخل الاهتمام بالجيش - وهذا هو الخط الثالث فى سياسة «أحمد حسنين» الجديدة - فإن الحرس الملكى يجب أن يحظى بمعاملة خاصة تجعل الولاء موصولا ومباشرا. وهنا جرى اختيار مجموعة من أكثر العناصر فى الجيش جرأة واندفاعا - مع مراعاة انتمائهم إلى الشريحة الاجتماعية المتوسطة وما فوقها.

وكانت تلك مهمة عُهد بها إلى اللواء «عمر فتحى» (باشا) (قائد الحرس الملكى) مع صدور تعليمات إلى أفراد الأسرة المالكة بأن يكون تعاملهم مع ضباط الحرس «باعتبارهم» النطاق الخارجى من تركيبة عائلة. والهدف خلق «ولاء» مباشر بين العرش والضباط المحيطين به والمدافعين عنه. وبحيث لا ينشأ ظرف تسأل فيه الملكة «أين كان حرس الملك؟»، كما فعلت «فريدة» على مائدة غداء يوم ٥ فبراير ١٩٤٢.



ثم حدث ولم يكن ذلك فى التخطيط الأصلى لأحمد حسنين (باشا) أن زادت على ضرورة العناية بالحرس فكرة مستعارة من رومانيا، ومن تجربة ملكها «كارول» الذى أنشأ داخل حرسه الكبير نواة صلبة ومحدودة أطلق عليها وصف «الحرس الفولاذى» تعبيرا عن كون أفراده جدارا من الفولاذ حول «كارول» يحميه ويصد عنه ويرتبط به شخصيا، وكذلك بدأت فكرة «الحرس الحديدى» حول الملك «فاروق»!

لكن نقلة خطيرة حدثت عندما التحق الدكتور «يوسف رشاد» بخدمة القصر طبيبا خاصا للملك، واقترب بسرعة من «فاروق»، وتحول بعد قليل إلى صديق مؤتمن، وأصبحت قرينته السيدة «ناهد رشاد» نجمة لامعة فى البلاط الملكى. ثم راح «يوسف رشاد» يفكر أن الحرس الحديدى المحيط بالملك كى يدافع عنه - يستطيع من الآن أن يتحول إلى قوة هجوم ضد أعداء الملك (باعتبار أن الهجوم خير وسيلة للدفاع)!

وفى حين أن «أحمد حسنين» اعتمد العمل السياسى (أو المؤامرة السياسية) أسلوبا للانتقام من خصوم الملك (مثل فلق حزب الوفد مثلا واستغلال التوتر بين رئيسه وسكرتيره العام) - فإن «يوسف رشاد» (مستجيبا لغرائز «أمير الانتقام الملكى» الملك «فاروق»)، أخذ منطق الهجوم إلى نهايته الدموية، وكذلك جرى وضع قائمة بمن يتحتم عقابهم على المشاركة فى إهانة الملك يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، وكان «مصطفى النحاس» - زعيم الوفد - أول القائمة. وكان «أمين عثمان» - المهندس المصرى لدور الوفد و«النحاس» فى ٤ فبراير ١٩٤٢ - هو الرجل الثانى فى القائمة.

والقائمة بعد ذلك مفتوحة لإضافات تمليها مستجدات الظروف.



وتكشف الوثائق البريطانية (والأمريكية) عن محاولات تصل إلى درجة الحماقة مما جرى التفكير فيه والتخطيط له من جانب القصر.

وفى برقية من السفير البريطانى السير «مايلز لامبسون» تحت رقم ٨٧٨ (تاريخ أبريل ١٩٤٤) - تجىء رسالة معنونة بأنها سرية جدا وذات حساسية خاصة، إلى جانب إشارة بأن الشفرة المستعملة فيها مزدوجة لتأكيد سريتها، وبداية النص بعد ذلك على النحو التالى:

مهم: هناك أنباء عن مؤامرة يقوم بها عشرون ضابطا من الجيش لتصفية «النحاس» ومجلس وزرائه. وقد سمع رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى مصر - بذلك من وزير الدفاع المصرى «حمدى سيف النصر» (باشا) الذى ذكر للجنرال «ستون» أن رئيس أركان الحرب «إبراهيم عطا الله» (باشا)، وهو رجل القصر - ضالع فى العملية. وقال وزير الدفاع (الوفدى) أنه تقرر اتخاذ إجراءات عنيفة، أولها نقل عدد من وحدات الجيش المصرى إلى خارج العاصمة. ويقول الجنرال «ستون»: «إننى طلبت من وزير الدفاع

.. دروس تعلمهـــــا القصـــــر

المصرى عن طريق رئيس البعثة العسكرية البريطانية أهمية التصرف بحذر فى الموضوع، وضرورة تحديد المسئولية حتى يمكن حصر المسألة فى أضيق نطاق، مع ضرورة التحقق الكامل من الوقائع والأشخاص».

لكنه لم تكد تمض على ذلك أسابيع حتى طرأ جديد يتصل به، فقد ظهرت فى ملفات لجنة التنسيق العسكرى البريطانى الأمريكى فى واشنطن - وثيقة تنذر بالخطر، وكانت على شكل مذكرة طرحها الجانب الأمريكى للمناقشة، ملخصها «أن القصر الملكى فى القاهرة طلب شراء صفقة أسلحة أمريكية للحرس الشخصى للملك «فاروق»، والمطلوب فى هذه الصفقة ٢٠٠ مدفع ماكينة، ومائة ألف دورة من الطلقات، ومائة قنبلة يدوية من قنابل الدخان».

وكان طبيعيا أن تخطر السفارة البريطانية فى القاهرة بالموضوع مع طلب تعليقها عليه، وكذلك كتب السفير مذكرة قال فيها: «إن هذا الطلب «الغريب» لشراء أسلحة للحرس الشخصى لفاروق تم تقديمه إلى السلطات العسكرية الأمريكية فى مصر بدون علم وزير الدفاع المصرى. وقد سألت «أمين عثمان» (وزير المالية) - إذا كانت وزارته قد فتحت اعتمادات لهذه الصفقة بالطريق الرسمى، وبالخصم على ميزانية القصر - وأكد وزير المالية - مندهشا - أن وزارته لا تعرف شيئا عن الموضوع من أوله لآخره!».

الخط الرابع: مباشرة مع لندن!

وكان الخط الرابع فيما رسم به «أحمد حسنين» (خطته الأصلية للانتقام)، السعى لإيجاد صلة مباشرة مع «لندن»، بحيث يمكن تفادى وزارة الخارجية المصرية (ووزيرها حزبى رغم علاقتها الخاصة بالقصر باعتبار أن السفراء والوزراء المفوضين - ممثلون للملك) - وفى الوقت نفسه تفادى السفارة البريطانية فى القاهرة (والمسئول عنها ذلك الوقت هو أُس البلاء - السير «مايلز لامبسون»).

وكذلك اعتمد هذا الخط نقطتين:

● الأولى أن يكون للملك سفير خاص فى لندن، ووقع الاختيار فعلا على «عبد الفتاح عمرو» وهو بالمهنة محام (وإن قامت شهرته على أساس فوزه ببطولة العالم فى لعبة الإسكواش راكيت)، وبالفعل فإن «عبد الفتاح عمرو» بدأ فى نقل رسائل من ملك مصر إلى دوائر هوايتهول، وظل يقوم بتلك المهمة سنوات قبل أن تسنح له الفرصة ويصبح سفيرا لمصر فى «لندن» (خلفا لحسن نشأت)، وكانت مهمة «عمرو» محددة قبل أن يتولى السفارة وبعدها. ومجملها أن يعمل على توضيح صورة الملك وتصرفاته فى «لندن»، لأن القصر يعرف الكفاية عن تحيز السير «مايلز لامبسون» بعد حادث ٤ فبراير، ولأن الملك - وذلك قيل صراحة - لم تعد لديه ثقة أن السير «مايلز لامبسون» قادر أن ينقل إلى لندن حقيقة ما يجرى فى القاهرة (مهما تظاهر بالحياد بين الوفد والقصر).

(وكان رأى «حسنين» (باشا) الذى عرف به «عمرو» (باشا) فيما بعد، وتضايق منه أن رئيس الديوان الملكى يتصور دوره بالنسبة للقصر مماثلا لدور «أمين عثمان» (باشا) بالنسبة للوفد فى العلاقة مع الحكومة البريطانية، بمعنى أن «عمرو» (باشا) هو «أمين عثمان» - ملكى، بمقدار ما أن «أمين عثمان» هو «عمرو» (باشا) - وفدى).

● والنقطة الأخرى - أن يسعى الملك «فاروق» إلى إنشاء علاقة مباشرة وحميمة مع كبار القادة العسكريين البريطانيين، وهم بطبائع البشر يريدون لأنفسهم رأيا مستقلا عن رأى السفارة، فليس هناك قائد عسكرى كبير يعمل فى بلد خارج الوطن، يريد اعتبار سفير بلاده - وهو مدنى - سلطة أعلى منه، لها حق تحديد علاقاته وتكييف صلاته مع المحيط الذى يمارس فيه عمله متباهيا برتبته الرفيعة.

والواقع أن ميل العسكريين البريطانيين للقصر كان قائما قبل ٤ فبراير وكان الديوان الملكى يشعر به، ومن شواهده أن الجنرال «ميتلاند ويلسون» (القائد العام لقوات بريطانيا فى مصر) لم يضع فى تحقيقه - عن تسرب وثيقة الدفاع عن سيوة إلى الإيطاليين - إشارة تقطع بمسئولية الملك «فاروق»، كما كان معروفا أن الجنرال أوكنليك (القائد العام للقوات البريطانية) لم يكن متحمسا لتخصيص قوة عسكرية تشارك أو تصاحب السير «مايلز لامبسون» فى حصار قصر عابدين مساء ٤ فبراير ١٩٤٢.

وهكذا اعتمد القصر جهدا منظما يسعى إلى إنشاء علاقات مباشرة بين الملك وكبار القادة الإنجليز فى مصر، وكان أكبر نجاح تحقق فى هذا الصدد، نشوء صداقة خاصة بين «فاروق» والجنرال «شولتو دوجلاس» قائد الطيران البريطانى فى الشرق الأوسط ومقر قيادته مطار الماظة. وكان «شولتو» لسنوات طويلة ضيفا دائما على مائدة الملك فى سهراته خارج القصر (فى ملهى الأوبرج وسط شارع الهرم).

وفى نفس الوقت فإن أمراء الأسرة وأميراتها، تلقوا توجيها ملكيا بفتح بيوتهم لكبار الضباط الإنجليز ضمن حملة علاقات عامة واسعة، وقبل بعضهم ورفض بعضهم، وكان على رأس الرافضين - لنفسه ولأبنائه وبناته الأمير «عمر طوسون».

على أن كثيرين من شباب الأمراء والأميرات والنبلاء والنبيلات لم يكونوا فى انتظار توجيهات القصر لفتح بيوتهم للضباط الإنجليز (وللضباط الأمريكيين فيما بعد). فهذه البيوت كانت مفتوحة بالفعل، وكذلك كانت القلوب - أو على الأقل بعضها - وكان بين الأمراء والأميرات والنبلاء والنبيلات من يعمل لحساب نفسه، أو من يرتب لظروف متغيرة، وفى كل الأحوال فإن صحبة الضباط الإنجليز والأمريكان كانت حلوة، كما أن ظروف الحرب جاءت من لندن وواشنطن بنجوم جاءوا لرفع معنويات القوات، وفيهم كتاب كبار مثل «بريستلى»، ونجوم مسرح مثل «نويل كاورد»، وممثلات سينما من هوليوود مثل «آن شريدان».

الخط الخامس: عائلة رباطها الكراهية!

وكان فى خطة «أحمد حسنين» (باشا) - خط انتقام خامس لم يحقق نجاحا من البداية، فقد تصور رئيس الديوان أن «فاروق» مهما توترت علاقاته مع بقية «أمراء» و«نبلاء» أسرته، يستطيع فى الظروف الطارئة أن يبنى جسورا معهم، ولو من باب الاحتياط. وحتى لا يعثر الإنجليز على بديل «جاهز» يحل محله إذا تجددت بينه وبينهم أزمة من درجة ٤ فبراير، ولم تنجح خطة كاردينال القصر؛ لأنه رغم قربه من دهاليز قصور أسرة «محمد على»، لم يدرك أن العداء بينهم ضارب فى القلوب وفى الأعصاب إلى النخاع. ومع أن فروع الأسرة - فيما سبق من تجارب - خانت بعضها فى السباق إلى العرش، فإن ما فعله الملك «فؤاد» ظل جريمة لا تغتفر من رجل لا يستحق الغفران. وفى الواقع فقد كانت أهم فروع الأسرة: توفيق - وطوسون - وإبراهيم، تعتبر الملك «فؤاد» مغتصبا للمُلك، وذلك ينطبق على وريثه «فاروق» الذى تعامل معهم بأطراف أصابعه!

وتحفل الوثائق البريطانية بذكر زيارات شبه يومية يقوم بها الأمير «محمد على» (عميد أمراء الأسرة وولى عهد المملكة) - إلى دار السفارة البريطانية يقابل السير «مايلز لامبسون» أو السير «والتر سمارت» المستشار الشرقى، ليشكو من أفعال «فاروق».

فالملك فى نظر «ولى العهد» عميل للطليان يوما، ثم للألمان فى يوم آخر، وجاسوسا للدولتين طول الوقت، ثم إن أمه (الملكة نازلى) تسيطر عليه، و«حسنين» (عشيقها فى وصف الأمير محمد على) حاكم بأمره فى عابدين. ورغم كل ما مر «بالبلد» من ظروف، فإن الملك لم يفكر مرة فى التشاور مع عميد الأسرة المالكة وولى العهد، بل إنه فى كل مناسبة (كما حدث أخيرا فى الاحتفال السنوى بذكرى الملك فؤاد) يتعمد تجاهله أمام كل الناس بما يحرج موقفه ويسيء إلى وضعه.

وفى إحدى برقياته نقل السفير البريطانى عن ولى العهد، أنه ذهب بشكاواه إلى «النحاس» (باشا) وهو صديق له يسأله «ماذا يستطيع كرئيس وزراء دستورى أن يفعل لتصحيح وضع ولى العهد؟»، وأبدى «النحاس» عجزه عن عمل شيء مع شخص مثل «فاروق»!

وفى يوم من الأيام (برقية السفارة البريطانية ١٧٤٢) دخل الأمير «محمد على» إلى مكتب السفير البريطانى يقدم له شكوى بأن «الملك يعامل كبار الأمراء كما لو كانوا خدما له. وذلك لم يعد ممكنا احتماله من جانب كل أفراد الأسرة العلوية» - إلا واحدة فقط من الأميرات وهى «شويكار».

وفى رأى الأمير «محمد على» أن الأميرة «شويكار» تلعب لعبة غريبة، فهى تجذب «فاروق» إلى حفلاتها لكى تقوى مركزها وتزيد ثروتها، لكنها فى حقيقة الأمر تكرهه. فهى (الأميرة شويكار) زوجة سابقة لوالده الملك «فؤاد» قبل أن يلى العرش ويتزوج أمه الملكة «نازلى»، ثم هى والدة الزوجة السابقة لأحمد حسنين الذى خطفته الملكة «نازلى»، وأمرته بتطليق زوجته الأولى وهجرها - هى وأولادها - حتى تتزوجه هى (نازلى نفسها). ثم إنه (فاروق أيضا) ابن الرجل الذى أرهق شقيقها «أحمد سيف الدين» حتى أطلق عليه الرصاص فى نادى محمد على (نادى التحرير الآن)، ولهذا السبب وُضع فى مستشفى للأمراض العقلية قضى فيه بقية حياته.

وكان الأمير «محمد على» يتهم الأميرة «شويكار» بأنها فى سبيل الانتقام (الانتقام أيضا) لا تمانع فى خراب «الأسرة العلوية» كلها!

ووعد السفير (وسجل فى رسالته) - أنه سوف يبعث بشكوى ولى العهد المصرى إلى لندن!

● وكان الخط السادس أن يكون للملك إعلام خاص يسلط الأضواء الوردية عليه ويكثف الظلال الرمادية على خصومه. وكان «أحمد حسنين» (باشا) بارعا فى استمالة عدد من الصحفيين القادرين على الكتابة السهلة والجذابة، وكان بينهم الأستاذ «مصطفى أمين» وهو وقتها رئيس تحرير مجلة الاثنين التى كانت تصدر عن دار الهلال والتى حققت نجاحا مشهودا حينما كان رئيس تحريرها. ورغم أن الأستاذ «مصطفى أمين» لم يكن وحده فى محيط «أحمد حسنين» (باشا)، فقد كان الألمع وكان الأسرع. ومن المفارقات أن شقيقه التوأم

كثيرون من شباب الأمراء والأميرات لم يكونوا فى انتظار توجيهات القصر لفتح بيوتهم للضباط الإنجليز (وللضباط الأمريكيين فيما بعد)، فهذه البيوت كانت مفتوحة بالفعل، وكذلك كانت القلوب. أو على الأقل بعضها. وكان منهم من يعمل لحساب نفسه، أو من يرتب لظروف متغيرة، وفى كل الأحوال فإن صحبة الضباط الإنجليز والأمريكان كانت حلوة





الأســتــاذ «على أمـين» كـــان فى ذلك الـوقت سكرتيرا خـاصـا لأمين عثمان (باشا) ـ وكـان «فاروق» بنفسه قد اختار مستشارا صحفيا يجمع إلى جانب المهنة (كرئيس تحرير لجريدة المقطم) ـ صلة بالسفارة البريطانية، سببها أن ابنة خاله «فارس نمر» (باشا) صاحب المقطم ـ وهى السيدة «إيمى نمر» متزوجة من السير «والتر سمارت» السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية فى القاهرة.

وعندما غاب «أحمد حسنين» (باشا) سنة ١٩٤٦، تجمع النفوذ الملكى الصحفى فى أيدى «كريم ثابت»، وانتقلت إليه مهمة المحافظة على المحيط الصحفى الذى التف حول «حسنين» (باشا).

ولم يكن الملك «فاروق» يحب أن يتعامل بنفسه مع الصحافة، وكان رأيه فى المهنة لا يختلف كثيرا عن رأى والده، وربما أن «كريم ثابت» كان الاستثناء الوحيد. وقد نقل «كريم» عن الملك قوله: «إنه يفضل أن يتعامل مع الصحافة لابسا قفازًا» ـ ويضيف «كريم ثابت»: «وكنت أنا هذا القفاز»!

والحاصل أن الصحافة الموالية للقصر بدأت تهاجم الخطوط الخلفية للوفد وهو فى الحكم على طريقة حرب العصابات، وفى اللحظة التى صدرت فيها أمر «الإرادة الملكية» بإقالة وزارة «النحاس» (باشا) ـ فإن الصحافة الموالية للقصر تحولت إلى مدفعية ثقيلة تدك المواقع، ومدرعات سريعة الحركة تخترق الخنادق وتدوس فوقها.

كان «أحمد حسنين» (باشا) يواصل خطته للانتقام على هذه الخطوط الستة التى رسمها، وقد أزاح كل خصومه من الطريق، ففى تلك الظروف المحتقنة (بعد ٤ فبراير ١٩٤٢) ظهر فى عابدين حزب يدعو إلى نوع من السلم الأهلى بين القصر والوفد، وقد تزعمه «مراد محسن» (باشا) ناظر الخاصة الملكية (المشرف على إدارة مصالح القصر المالية، وهو بطبيعة عمله يرغب فى علاقة طيبة مع الإدارة الحكومية ـ وفى بعض اللحظات تصور «مراد محسن» (باشا) أن «عمر فتحى» (باشا) قائد الحرس يؤيد وجهة نظره.

على أن الاتفاق بين الرجلين (ناظر الخاصة وقائد الحرس) كان اتفاقا على مسألة واحدة فقط ـ هى أن «أحمد حسنين» (باشا) يقود الملك إلى معركة خاسرة مع الوفد، ثم تباعدت الطرق لأن ناظر الخاصة الملكية كان يريد سلاما بين القصر والوزارة يسهل تمرير المصالح الملكية، لكن «عمر فتحى» (باشا) كان يكره «أحمد حسنين»، إذ خطر بباله لحظة من اللحظات أن الملكة «نازلى» أعجبت به، لكن «حسنين» (باشا) فاز بقلبها فى النهاية.

ومهما يكن فإن «حسنين» (باشا) انتصر فى هذا الصراع الداخلى فى كواليس قصر عابدين! ثم وضع الخطوط الخمسة لحرب أمير الانتقام الملكى من خصومه ـ موضع التنفيذ، ومن ثم بدأت المعارك.



٢ ـ الدروس التى تعلمها الوفد ومخاطرها!

لا يستطيع أن يقدر صعوبة الدرس الذى تعلمه حزب الوفد وقاسى منه زعيمه «مصطفى النحاس» (باشا) ـ إلا من يستطيع تمثل دور هذا الحزب، وشخصية الرجل الذى آلت إليه زعامته.

● كان حزب الوفد عند نشأته فى قلب الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ـ نموذجا أصيلا لمقدرة الحركة الوطنية فى آسيا وأفريقيا على تعبئة شعوبها، وقيادة مطالبها لتحرير الأوطان من القهر الإمبراطورى الذى نزل عليها (بالتحديد من أوربا).

وعلى ساحة الحركة الوطنية (فى آسيا وأفريقيا) ـ كانت هناك ثلاثة أحزاب كبيرة، كل واحد منها له شأن فى وطنه ـ وحول وطنه ـ وربما أبعد.

وكانت هذه الأحزاب الثلاثة هى:

ـ حزب «الجومنتانج» فى الصين ـ وقد أسسه «سن يان سن» وقاد به حلم شعبه فى التحرر من السيطرة الأجنبية التى وزعت ساحل الصين الشرقى كله مناطق سيادة لمستعمرات أوربية، ومن هذه المستعمرات نفذت الشركات والاحتكارات التجارية والمالية إلى قلب «مملكة السماء»، وتعاملت مع أمراء حرب محليين يسيطرون على المقاطعات، ويتحكمون فى الموارد الهائلة وقوة العمل المهولة، ويتشاركون فى نزح الناتج الاقتصادى الصينى إلى ما وراء البحار، وكانت ثورة «سن يان سن» دموية فى بعض مراحلها ـ لكن الحقائق على الأرض أملت.

ـ وكان حزب المؤتمر الهندى ـ الذى تزعمه زعيم الهند الأسطورى «المهاتما غاندى» هو الذى خاض معركة شعب الهند على طريق التحرر فى معركة مزدوجة ضد الاستعمار البريطانى المسيطر وضد أعوانه فى أقاليم الهند الشاسعة من المهراجات (الهندوس والمسلمين)، وكان الفارق بين «الراج البريطانى» الحاكم فى دلهى والمهراجات المتحكمين فى أعماق الهند ـ حلف سيطرة ومصالح، وكذلك وجد حزب المؤتمر نفسه فى مواجهة ضد سلطة الحكم المركزى وسلطة التحكم فى الولايات.

وكان «غاندى» بمسئولية الزعامة يدرك حساسية التركيبة الهندية، عرقية وطائفية ودينية، ولشدة حرصه على تماسك الوطن ـ كان الدم آخر ما يريده، وكذلك جاءت إضافته العظيمة إلى أساليب الكفاح الوطنى وهى: المقاومة السلبية.

ـ وأخيرا كان حزب الوفد الذى قاده «سعد زغلول» (باشا) حركة تحرر وطنى ضد الاستعمار الأجنبى وفى طلب الحرية السياسية، ولم يكن متاحا له ما هو أكثر بسبب أوضاع ملتبسة، فهناك أسرة مالكة لها جذورها، وهناك سيطرة أجنبية على الموارد وراءها جسور عبر البحر الأبيض مباشرة إلى أوربا، وهناك قوة احتلال بريطانى ضمن شبكة دفاع عن مواصلات إمبراطورية كبيرة. (وذلك وضع ليس فيه أمراء حرب يمكن تطويقهم فى الداخل (مثل الصين)، أو مهراجات (هندوس ومسلمين) يمكن تضييق نفوذهم (مثل الهند).

ومع ذلك كان هناك تماثل فى الظروف بين الأحزاب الثلاثة الكبيرة على الساحة (آسيا وأفريقيا):

● الأحزاب الثلاثة عمليا ضد السيطرة الأجنبية ـ وهى أيضا على تناقض مع مصالح فى الداخل محلية وأجنبية.

● والأحزاب الثلاثة فى تركيبها جبهات وطنية تعتمد بالدرجة الأولى على قوى الطبقة المتوسطة، لكن أجنحتها واصلة يمينا ويسارا تتسع لتوجهات لها الأسبقية، خصوصا فى المراحل السياسية من العمل التحررى.

● وهذه الأحزاب الثلاثة تخوض معاركها على جبهة أوسع من أوطانها، بحيث يتصل نضالها بقوى صديقة لها على اتساع العالم حولها.

ويلفت النظر أن الأحزاب الثلاثة الكبرى (الجومنتانج فى الصين ـ والمؤتمر فى الهند ـ والوفد فى مصر) تحمست وقبلت بالنقط الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس الأمريكى «ويلسون» بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى (عن حق شعوب الأرض فى الحرية والاستقلال والكرامة ... إلخ) واعتبرتها دعامة لنضالها ضد السيطرة الإمبراطورية.



والواقع أن ظروف حزب الوفد، وبسبب الأحوال المصرية كانت شديدة التعقيد ـ بدايتها أنه يجىء إلى الساحة بعد محاولات وطنية متوالية ضربتها القوى الخارجية (الثورة العرابية) أو بعثرتها التناقضات الشخصية (الحزب الوطنى بعد اختفاء قياداته بالموت المبكر أو بالمنفى البعيد).

وعندما توفى «سعد زغلول» زعيم الوفد الأول ـ كان خليفته الذى انتخب رئيسا للحزب بعده هو «مصطفى النحاس» (باشا) ـ وكان «النحاس» شخصية فريدة. والواقع أنه لم يكن المرشح الطبيعى لخلافة «سعد»، وإنما كان أقرب منه إليها بعض الأقوياء داخل الحزب، بظن أنهم أقدر على تحمل مسئولياته وعلى إدارة علاقاته (خصوصا مع القصر الملكى ومع قوة الاحتلال البريطانى)، وكان أبرز هؤلاء الأقوياء «فتح الله بركات» (باشا) ـ لكن الذى حدث أن المرشحين الآخرين حاربوا بعضهم، ثم كان «مصطفى النحاس» (باشا) ـ هو الرجل الذى وصل فعلا، وقد ظن الأقوياء المختلفون فيما بينهم أنه وهو الأضعف قوة، سوف يكون الأسلس قيادا، بحيث يسيطر عليه آخرون وينفذون به أغراضهم إذا ما استقروا فى دائرته، واقتربوا من أذنه!

لكن «النحاس» (باشا) أثبت ـ كما فعل غيره فى التاريخ (وأشهرهم فى الزمن القريب الرئيس الأمريكى هارى ترومان الذى خلف الرئيس الأسطورى فرانكلين روزفلت) ـ أن من يحسبون على

ثورة يوليو

خمسون عاما

.. دروس تعلمها الوفد

الضعف قادرون على امتلاك القوة لأسباب أهمها، أن خصومهم أو منافسيهم لا يحسبون الحساب اللازم لرجل تتغير أحواله - وحتى طبيعته - إذا وقع اللقاء بين استعداد كامن عنده وبين ظروف طرأت عليه.

وكذلك فإن «النحاس» (باشا) تفوق على خصومه ومنافسيه، بل وطرد كثيرين منهم إلى خارج الحزب، وظلت له وحده شرعية الوفد (وكان «فتح الله بركات» (باشا) نفسه أول المطرودين).

وكذلك أدار «مصطفى النحاس» علاقات الوفد - مع قصر فيه الملك «فؤاد» - الكاره للدستور - كما أدار علاقات مفاوضات مع الإنجليز مرة بلا نتيجة سنة ١٩٣٠ - ومرة بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦، وكانت تجاربه تسبغ على شخصيته إضافات أعطتها طابعها الخاص مزيجا غير عادى من لقاء نادر بين الصلابة والمرونة - وعناد داخلى مع بساطة على السطح تكاد أحيانا توحى بالسذاجة - وإحساس بمشاعر ومطالب الناس تقدر عليه الزعامة - واعتزال فى نفس الوقت للحياة الاجتماعية، رسخته تجربة القضاء الذى عمل «النحاس» (باشا) فى سلكه سنوات شبابه - ثم قرون استشعار حساسة تستطيع فى ظلمات الليل أن تحس بمواضع الأشياء وتقلبات المناخ.

لكن الرجل فى منتصف الثلاثينيات - من القرن - أحس بالتعب لأسباب عديدة:

- بينها أن وزارة «إسماعيل صدقى» الأولى (١٩٣٠ - ١٩٣٣) أرهقت الحزب. (وتسجل وثائق قصر عابدين تقريرا من «توفيق نسيم» (باشا) إلى الملك «فؤاد» نسب فيه إلى «النحاس» (باشا) قوله: «إن رجالنا تعبوا») - والشاهد أن حكومة «صدقى» (باشا) حاصرت الوفد ورئيسه حتى استحقت اللقب الذى أطلق عليها: «وزارة الحديد والنار».

- والسبب الثانى أنه بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ - تصور «النحاس» (باشا) أنه حقق ما سمحت به الظروف، وأن أمامه فترة انتظار طويل لأن نصوص المعاهدة لا تفتح الباب لإعادة النظر فيها قبل عشر سنوات (أى عند منتصف مدة سريان نصوصها العامة)، وعلى أى حال فإنه حتى يحين الأوان فهناك حياة أخرى (توفرها السلطة وهو الآن فيها) وذلك حقه بنص الدستور وبشفاعة المعاهدة).

- والسبب الثالث أن الرجل فى سن السادسة والخمسين تزوج شابة جميلة فى الثالثة والعشرين من عمرها، شديدة الذكاء، وقد وجدت نفسها مرة واحدة فى عالم جديد عليها، وهو (أى زوجها) راغب أن يبهرها ويعلمها دروسا فى الحياة وفى السياسة، تعطيها مذاق العز لعله يعوض فارق السن .

وكانت تلك الظروف الخاصة لرئيس الوفد تتفاعل مع ظروف عامة فى مصر أهمها وفاة ملك عبوس («أحمد فؤاد») ومجىء ملك بشوش («فاروق»)، متفاعلة أيضا - وهذا هو الأهم - مع قيام حرب عالمية كبرى كانت مصر أحد ميادينها الرئيسية.

وكانت أجواء هذه الحرب بين مقدمات ٤ فبراير ١٩٤٢ - وهنا اختلف مسار الوفد عن مسار الأحزاب الكبرى فى عصره (الجومنتانج فى الصين - والمؤتمر فى الهند)، والحقيقة أن كل واحد من هذه الأحزاب وجد طريقا يناسبه، وتفرقت الطرق واختلفت النتائج.



كان حزب الوفد الذى أخذ السلطة مساء ٤ فبراير، وعاش الساعات المثيرة لأول انقلاب عسكرى فى السياسة المصرية - حزبا من نوع مختلف وكذلك جاءت بالضرورة ممارساته، والشاهد أنه فى كل مرة وصل فيها الحزب إلى حقه الشرعى فى السلطة، كان وصوله أشبه ما يكون بوصول قاطرة قوية، عادت من عنابر الصيانة والتجديد، لامعة متحفزة، جاهزة أمام أنصار ينتظرون فى محطة القيام - وقد طال صبرهم، متشوقين للرحلة مع وزارة يثقون فيها، فى صحبة آمال يتطلعون إليها، نحو هدف يريدون السفر إليه، مخترقين طريقا يعرفون أنه مأمون، وأنه مريح؛ لأن قائد القاطرة ومهندسها كلاهما يعرف ما يفعل، فهما - قائد القاطرة ومهندسها - اللذان أشرفا على عملية الصيانة والتجديد - أيام المعارضة - لتكون صالحة لأيام الحكم، بما فى ذلك التأكد من كفاية الوقود، ووضوح خط السير مرحلة بعد مرحلة، وسلاسة حركة العجلات تنزلق على قضبان الحديد على امتداد «السكة» الطويلة.

لكن قاطرة الوفد التى اندفعت إلى الرصيف صباح يوم ٥ فبراير وقفت بطريقة مختلفة أشبه بالارتطام منها بالوقوف، ثم إن الفوضى عمت على الرصيف زحاما وصراخا عاليا تمتزج فيه دقات طبول مع هدير جنازير دبابات وهرج ومرج على الأرصفة، وجمهور حيرته الفوضى، لا يفهم حقيقة ما يرى - والغريب أن الجمهور الذى ينتظر راوده إحساس بأن «وجهة السفر» ليست واضحة، وأن قائد القاطرة لا يبدو واثقا من نفسه، ومهندس القاطرة متردد فى الصعود إلى مكانه أمام المحركات وفوقها لوحات الرقابة والمتابعة، يسترشد بها قائد القاطرة.

وبالطبع فإن قائد القاطرة وفق هذا التشبيه كان زعيم الوفد «مصطفى النحاس» (باشا)، فى حين أن مهندس القاطرة كان «مكرم عبيد» (باشا) سكرتير الوفد.

والواقع أن كلا الرجلين - وهما فى تلك اللحظة مسئولان رئيسيان عن الوفد (ووزارته الجديدة) - كانا فى محنة إنسانية تختلف أسبابها عند أحدهما عن الآخر. وكانت للمحنة أسباب موضوعية بصرف النظر عن دواعى التوتر بين الرجلين، وأهم الأسباب:

● أن الحزب جاء إلى الحكم هذه المرة بأسلوب شديد الالتباس. فهو بالفعل حزب الأغلبية - لكن دخوله إلى الحكم جاء مناقضا للشرعية.

● والحزب لم يدخل إلى السلطة من باب الانتخابات (رغم أنها وسيلته المضمونة)، وإنما جاء بإملاء أجنبى، والإملاء لم يكن سرا وإنما علنا وبمظاهرة سلاح بريطانى.

● ولأن الحزب جاء بهذه الطريقة فإنه وصل إلى الحكم فجاة، وبالتالى فهو على غير استعداد.

● ولأن الحزب جاء فجاة فإن برنامجه (خط سيره) لم يتحدد أو يطرح على الناس، وفى العادة فإن برامج حزب الوفد تُطرح خلال الحملات الانتخابية فى مرحلة انتقال تقوم عليها بالتقاليد «حكومة محايدة» - لكن مثل هذه الحكومة لم يكن لها دور هذه المرة، وبالتالى فإن قطار الوفد وصل إلى الحكم قبل تحديد خط سيره - نحو هدفه - أى بغير برنامج.

● وكان المألوف أن إشراف وزارة محايدة على العملية الانتخابية يعفى الوفد من الظنون التى تحيط بإدارتها، ومع أن حزب الوفد عادة فى غير حاجة إلى تدخل إدارى - فإن الواقع المادى هذه المرة كان يضع الحزب إزاء بقية الأحزاب وسط مساحة معرضة للشك، خصوصا أن الإدارة فى العادة ميالة إلى هوى السلطة، حتى إذا لم تكن السلطة راغبة فى هذا النوع من الهوى!

● يتصل بذلك أن الوفد وحكومته دخلوا إلى منافسة سهلة على أرض مفتوحة، وذلك أغرى كثيرين من الذين يترددون عادة قبل دخول المعارك الانتخابية ومشاكلها ومتاعبها - لكنهم هذه المرة - والسبل ميسرة - راحوا يتقدمون ويلحون وضمنهم عدد من رجال وأبناء العائلات التى دعت ورحبت واستضافت فى مزارع وقصور شمال الدلتا، (عندما أصبحت هذه القصور ملجأ وملاذا بعيدا عن قيود الإضاءة والإظلام فى القاهرة وفى منجاة وأمان من خطر غارات الطائرات الإيطالية والألمانية).

● وكان الأصعب فى الدواعى الموضوعية للمحنة أن الوفد يعود إلى السلطة بعد غياب، لكنه لا يستطيع أن يبدأ على الفور (وكالمعتاد) بتزكية نفسه على حساب غيره، خصوصا فى القضايا الوطنية وهى وقتها موضع المحك والاختبار!

فوزارات الأقلية التى سبقت الوفد (وهى بالفعل أقلية) - هى التى أعلنت ونفذت سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»، وهى التى نادت بشعارات من نوع «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل»، ثم إن قصارى ما تعاونت فيه تلك الوزارات مع الإنجليز هو تنفيذ نصوص - وليس روح - معاهدة ١٩٣٦ التى وقعها «مصطفى النحاس» (باشا) بنفسه، وسماها أمام الناس معاهدة الشرف والفخار (وإن كان الرجل بضميره الوطنى أقل حماسة فى أعماقه مما بدا فى تعبيره) - فقد أخذ الممكن فى الظرف المستحيل (هكذا كان تقديره).

ومهما يكن فإن الوفد هذه المرة لا يستطيع أن يتهم أحدا بالتفريط، ولا أن يشير بأصبعه إلى آخرين يسميهم «برادع الإنجليز» - أو أنه «جورج السادس يفاوض جورج السادس» (كما قيل من قبل عن «عدلى يكن» مع جورج السادس!).

● وزاد على ذلك أن الطريقة التى جاء بها الوفد إلى الحكم، أخذت تتسرب تدريجيا إلى الناس، وراحت أحزاب المعارضة تستأسد بما تذيع عنها من روايات، وقد بادرت بعض هذه الأحزاب على ضعفها إلى طبع منشورات سبقت دخول الوزراء الوفديين الجدد إلى مكاتبهم، والمنشورات حافلة بتفاصيل ما جرى فى القصر بصيغة المبالغة، ولكنها مبالغة لها أساس من الحقيقة، وتلك أكثر أنواع المبالغات قابلية للتصديق، لأنها تصل إلى العقول ومعها شواهد - تعززها وقائع!

● ثم إنه كان هناك مناخ عام مختلف وغير صحى خيَّم على الأفق، فقد كانت العادة أن الوفد يجىء إلى السلطة «مظلوما يستعيد حقه»، وفى هذه المرة فإن الملك «فاروق» كان هو المظلوم الذى اعتدى عليه فى قصره - فى بيته وأمام أهله.



و«النحاس» (باشا) ليس رجلا «ساذجا» - «مبروكا» - كما كان يروج بعض أنصاره (وخصومه!)، وإنما سياسى ذكى وقادر على «وزن» المواقف، وكان «وزنه» لموقفه صحيحا،

كانت تجارب «مصطفى النحاس» باشا تسبغ على شخصيته إضافات أعطتها طابعها الخاص، مزيجا غير عادى من لقاء نادر بين الصلابة والمرونة. وعناد داخلى مع بساطة على السطح تكاد أحيانا توحى بالسذاجة. وإحساس بمشاعر ومطالب الناس تقدر عليه الزعامة



عندما أدرك أن أكثر ما يحتاجه الوفد الآن هو «التغطية السياسية» أمام الناس بكل الوسائل، وتلك في العادة مهمة مهندس الحزب (أي سكرتيره العام «مكرم عبيد» (باشا).)

فهو الرجل الذي يدير عجلة الحزب: يكتب البيانات، ويصك الشعارات، ويختار قوائم المرشحين، ويتصدر لإدارة الحملات الانتخابية عنيفا على خصوم الوفد، فاتحا الطريق مثل مدفعية ثقيلة أمام مرشحيه كي يكتسحوا ويتقدموا ويحتلوا مقاعد البرلمان. لكن زعيم الوفد هذه المرة ليس واثقا في سكرتيره العام، لأن العلاقة بين التوأمين تأثرت بشروخ زاد اتساعها وتحولت إلى كسور.

وكانت تلك فترة ألم مكبوت وصامت في حياة رئيس الوفد، فقد كان ممزقا بين شريكة سعادته وشريك جهاده، فضلا عن أنه كان في أعماقه يحس أنه ليس «في ثوبه» (على حد تعبير «على الشمسي» (باشا)).

لكن طبائع الأشياء كانت لها قوة اندفاعها في حد ذاتها، ذلك أن الأجواء التي مهدت لصفقة الحكم، فتحت الأبواب لكثيرين أمسكوا بمواقع السلطة دون أن يكونوا مثقلين بالهموم مثل زعيمه، بل وكان لدى كل منهم جدول أعمال وقائمة فرص.

وعندما انتهى شهر فبراير - أي في ظرف ثلاثة أسابيع من انقلاب ٤ فبراير ١٩٤٢ - كان انتشار القادمين على مواقع النفوذ سريعا وواسعا:

- في هذه الأسابيع الثلاثة تعرض ١٥٢٠ من كبار ومتوسطي موظفي الدولة للإحالة إلى المعاش، أو الفصل، أو النقل، وعين بدلهم آخرون من الموثوق بهم، وطالت التغييرات مناصب الإدارة في القاهرة وفي الأقاليم على السواء.

وبادر السير «ألكسندر كين بويد» (مستشار الأمن الداخلي في السفارة وكان من الأصل مستشارا لوزارة الداخلية المصرية) بلفت نظر السير «مايلز لامبسون» إلى الآثار السلبية التي تترتب على هذه «التصرفات»، واتصل «مايلز لامبسون» بأمين عثمان (باشا) يطلب إليه أن يتحدث في الأمر مع «النحاس» (باشا): «لأن تلك التصرفات قد تنسب إلينا بمسئوليتنا عن إعادة الوفد إلى الحكم». - ورجع «أمين عثمان» برسالة من «النحاس» سجلها السير «والتر سمارت» في تقرير له بتاريخ ١٣ مارس ١٩٤٢: «دافع «النحاس» (باشا) عن نقل وفصل هذه الأعداد الكبيرة من الموظفين بأنهم من رجال أحزاب الأقلية وممن ناصبوا الوفد العداء، ولا تستطيع الوزارة الجديدة أن تضبط الأمور في البلد إلا بمن تثق فيهم، وكذلك لا تستطيع أن تنفذ سياساتها إلا برجالها، وذلك يحدث في أعقاب كل انتخابات، وعند تشكيل كل وزارة».

- في نفس الفترة لاحظ وزير المالية (وهو مكرم عبيد باشا) أن عشرات الطلبات انهالت على وزارة التموين، تطلب تصريحات بتصدير «أرز» و«غـزل» و«زيت بذرة قطن» و«سكر» و«صابون» - إلى بلدان عربية وشرق أوسطية مازال التبادل التجاري معها ممكنا، لم توقفه ظروف الحرب. وفي وزارة التموين (وتصدير السلع الغذائية اختصاصها) - كان سيل الطلبات لافتا للنظر، خصوصا أن اسم السيد «أحمد الوكيل» شقيق قرينة رئيس الوفد تكرر في العديد منها، كذلك وقع سباق على حصص الأسمنت والجلود ومواد الصباغة التي كانت لها سوق سوداء واسعة. وكان معظم الطلب والإلحاح من «أصهار وأنسباء» بتعبير «مكرم عبيد» (باشا). وبوصفه وزير المالية (ومشرفا على وزارة التموين) - فإن «مكرم» (باشا) وحتى لا يتهم بالتعنت - وافق فعلا على بعض الطلبات، ورفض عامدا بعضها الآخر، وتوجهت التظلمات إلى رئيس الوفد.

واكتشف بعضهم أن تجارة الذهب في العالم العربي مربحة لأن سعره في مصر أرخص، وكذلك جرت عملية متابعة ورصد تبين بعدها أن هناك خروجا للذهب من مصر على نطاق لفت نظر مدير البنك الأهلي (وكان وقتها يقوم بدور البنك المركزي) - واتصل المستر «جيمس كوك» بمكتب وزير المالية «مكرم عبيد» (باشا) ينبه ويحذر!

ويسجل السير «مايلز لامبسون» في تقرير له «أنه استدعى «أمين عثمان» ولفت نظره إلى تصرفات لا يمكن وصفها إلا بأنها استغلال للنفوذ». ويروي «مايلز لامبسون» في تقرير إلى وزير الخارجية البريطاني «أنني أعرف، وكذلك أكد لي «أمين عثمان» أن «النحاس» نفسه بريء من هذه التصرفات، لكن قرينته تتدخل، كما أن بعض أقاربها أفاقون «Rascals» ثم اختص السير «مايلز لامبسون» في تقريره السيد «أحمد الوكيل» (شقيق قرينة رئيس الوفد) بعدد من «الأوصاف الثقيلة» (لا داعي لترجمتها). وأبدى السفير البريطاني قلقه مرة أخرى من أن المسئولية قد تنسب «إلينا» لأننا جئنا بالوفد. وكان رد «أمين عثمان» أن تلك مسألة يجب أن تؤخذ باحتراس، لأننا لا نستطيع أن نطلب من «الرجل» أن يخاصم بيته!

ثم يسجل السير «مايلز لامبسون» واقعة كاشفة ملخصها أنه:

«في يوم ٢٧ مايو ١٩٤٣ استقلت السيدة قرينة «النحاس» (باشا) عربة مخصصة لرئيس الوزراء ضمن قطار للسكة الحديدية المصرية - وكان في رفقتها شقيقها السيد «أحمد الوكيل»، ومعها شريك له اسمه «الشويكلي». وكانت عربة القطار مليئة بـ: «السبائك الذهبية»، ومجموعات من النقود الذهبية، وشحنة من الماس والمجوهرات. وكانت القاطرة متجهة بكل عرباتها - وضمنها العربة المخصصة لقرينة «النحاس» (باشا) ومعها شقيقها السيد «أحمد الوكيل» - إلى فلسطين محمية بالحصانة المكفولة لرئيس وزراء مصر. وفي القدس نزل الجميع بما معهم من حقائب وصناديق، وجرى تسليم كل شيء إلى مجموعة من السماسرة هما، «ميشيل طرابي» و«عمر داود الدجاني».

ويشير التقرير إلى «أن الماس له أهمية خاصة بالنسبة لعمليات المخابرات؛ لأنه بسبب صغر حجمه وغلو سعره، أسهل في دفع كبار العملاء من سبائك الذهب لأنها ثقيلة الوزن، وأوراق النقد التي لا يثق فيها أحد، خصوصا أزمنة الحروب!».

ثم يكون تعليق السير «مايلز لامبسون» عن هذه الوقائع وغيرها في تقريره السنوي إلى وزير الخارجية البريطانية في ختام سنة ١٩٤٣، قوله بالحرف:

«ليس لدي شك في أن حكومة الوفد في صراعها مع الملك، قامت باستغلال كل الإمكانات الاقتصادية والاجتماعية لمصلحة الحزب وأعضائه، وفي عملها ذلك فإن هذه الحكومة أضرت بعناصر الاستقرار في البلاد. ومن سوء الحظ أن الوفد لم يعد يملك الحماسة التي تؤهله للإخلاص اللازم للإصلاح السياسي والاجتماعي. والحقيقة أن الوفد الآن لم يعد يؤيده إلا مجموعة مصالح متنوعة، لها شهية مفتوحة على الآخر، وبعضها بلا مثل أعلى ولا خلفية ثقافية حتى أنه أصبح مثل Tamany Hall (هو مقهى للشراب اشتهرت حجراته الخلفية المعبأة بدخان التبغ - بأنها مجال الصفقات المشبوهة بين النفوذ السياسي والانتفاع المالي)، وقد أصبحت هذه البارات نموذجا للفساد في عصر الرئيس الأمريكي «هاردنج» - وكان من أسوأ عصور السياسة الأمريكية».

يستطرد السير «مايلز لامبسون» في تقرير لاحق (٧٣١) - إلى القول:

«إن حكومة الوفد أبعد ما تكون عن الكفاءة، لكنها الأقدر على مواصلة «تقديم البضاعة» but they continue to deliver the goods، ونحن لا نستطيع نسيان موقفهم أيام العلمين، مضافا إلى ذلك فإني أظن أن الأغلبية مازالت معهم!

وفي الفترة نفسها وقعت تصرفات لم يكن في مقدور السفير البريطاني أن يلفت النظر إليها لأنه كان المسئول عنها. وفي تقرير له بتاريخ ٢ أبريل ١٩٤٢ يكتب السير «مايلز لامبسون» ما نصه: «بناء على طلب مني تشكلت لجنة مشتركة لتنسيق التصرف في المواد الغذائية. وعقدت هذه اللجنة أول اجتماع لها يوم ١٤ فبراير، واتفقنا على أن تدخل هيئة التموين البريطانية في السوق المصرية مشترية للقمح بسعر ٣ جنيهات للأردب، وهو السعر الذي حددته الحكومة. ونفس الشيء بالنسبة للأرز والقطن».

ولحق بذلك أن «أحمد محمد عبود» (باشا) وهو رئيس مجلس إدارة شركة السكر، عقد اتفاقا مع هيئة التموين البريطانية يبيعها بمقتضاه «مائة ألف طن من السكر» سنويا. وكان «مكرم عبيد» (باشا) هو الذي لفت نظر السفير البريطاني على خطورة هذه التصرفات بوصفه وزيرا للمالية، وكان رأيه وقد أبلغه في الوقت نفسه لأمين عثمان (باشا) - «أن هذه الصفقات سوف تؤدي إلى نقص في المواد يتحول بالتكرار إلى أزمة، تتحمل حكومة الوفد مسئوليتها، وإذا دافعت عن نفسها بأنها مسئولية الإنجليز - وقعت في «فخ» لا تستطيع النجاة منه».

وينقل «أمين عثمان» (باشا) ملاحظات «مكرم» (باشا) إلى السير «مايلز لامبسون»، ويكون رده: «أولا نحن في العام الماضي قمنا بتسليف الحكومة المصرية كميات من القمح بسبب نقص المحصول. وثانيا فإن ظروف الحرب في «العلمين» استدعت اعتماد بريطانيا على حليفها المصري بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ - التي وقعها «مصطفى النحاس» بنفسه»!

- وإلى جانب ذلك، وقعت تصرفات أخرى بطلب من السفير البريطاني، وأولها سلسلة من الاعتقالات، فلم تمض على وزارة الوفد غير أيام (يوم ١٢ فبراير) حتى صدر أمر الحاكم العسكري «النحاس» (باشا) (بوصفه رئيسا للوزراء) باعتقال «على ماهر» (باشا)، والنبيل «عباس حليم»، و«محمد طاهر» (باشا) رئيس مجلس إدارة نادي السيارات وابن عمة الملك، والأمير «عمر الفاروق» (من آل عثمان). وكان المزعج في اعتقال «على ماهر» أنه كرئيس سابق له مصادر في وزارة الداخلية، ولذلك عرف مبكرا بصدور أمر اعتقاله وأن توقيته هذه الليلة، ونزل من بيته مسرعا إلى مبنى مجلس الشيوخ يلجأ إليه باعتباره عضوا فيه، وظنه وهو يدخل رحابه أنه تحت حماية إضافية إلى جانب الحصانة

يسجل السير «مايلز لامبسون» في تقرير له «أنه استدعى «أمين عثمان» ولفت نظره إلى تصرفات لا يمكن وصفها إلا بأنها «استغلال للنفوذ». ويروي في تقرير إلى وزير الخارجية البريطاني «أنني أعرف، وكذلك أكد لي «أمين عثمان» أن «النحاس» نفسه بريء من هذه التصرفات، لكن قرينته تتدخل، كما أن بعض أقاربها أفاقون



.. دروس تعلمـــهـــا الوفـد

المكفولة لأعضاء البرلمان. لكن أوامر «النحاس» جاءت صريحة: «اقبضوا عليه أينما كان». وروى «النحاس» (باشا) لضيوف على العشاء في بيته ليلتها (بينهم أحمد عبود باشا ـ وأمين عثمان باشا) ما حدث وهو يلخص رأيه في الأمر كله: «أن على ماهر جرى إلى مجلس الشيوخ بتصور أن الحصانة تحميه، وهذا شغل تياترو ـ لا أقبله!».

وبالفعل فإن البوليس اقتحم حرم مجلس الشيوخ واعتقل «على ماهر» (باشا)، وتوالت بعدها الاعتقالات.

ـ يتبين أيضا أن المخابرات البريطانية M.I.S تعمل بنشاط في مصر، وذلك يمكن أن يكون من طبائع الظروف ـ لكن تقارير السفارة ما تلبث أن تسجل وصولا إلى مصر ونشاطا وترتيبات يقوم بها الجنرال د.س. «هوليس»، وهو رئيس M.I.S، وتلك هى الهيئة المشرفة على الأمن الداخلى فى بريطانيا، وهى مماثلة لـ "F.B.I مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية». وكان أهم ما قام به الجنرال «هوليس» في مصر أنه احتل جناحا في مبنى مصلحة التليفونات المصرية، ووضع فيه أجهزة تابعة لإدارته، تقوم بالتنصت والتسجيل ـ وتلك أول مرة في مصر ـ بجهاز رقابة على التليفونات يتابع ساسة مصريين، بعضهم في القصر الملكى نفسه، وبعضهم من خارجه، وممن تعتقد الـ M.I.S باحتمالات أن تكون لهم علاقات مع «الأعداء»!

وكان حكمدار بوليس القاهرة الإنجليزى «راسل» (باشا) يعرف ويتابع، وإن لم يظهر دليل في الأوراق أنه أخطر أحدا من رؤسائه المصريين بما فيهم وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين».



ومن ذلك كله ومن غيره، ما كان «مكرم» (باشا) متأكدا منه في حينه أو عرف به فيما بعد واطلع على وثائقه، فإن الرجل لم يكن راضيا. وكانت أسباب عدم رضاه تتراكم كل يوم!

كان «مكرم عبيد» (باشا) يخسر المعركة على عقل «النحاس» (باشا) وقلبه، لأن «صديق العمر» وقع في مازق إنساني، فهو الآن فوق الستين، وقد اقتصت منه سنوات الجهاد ضرائبها. وكان مناه أن يستريح ويسعد، لكن الراحة مستحيلة، والسعادة مؤرقة، والسبب أن «مكرم» لا يسكت. وطبقا لما قاله «النحاس» ووصل إلى أسماع «مكرم»: «لقد بدأ «مكرم» في الأول ينق بالشكوى مثل الضفادع، وهو الآن ينفث السم مثل الأفاعي».

وكان القصر جاهزا للحركة، وكان الكاردينال الملكى فيه «أحمد محمد حسنين» (باشا) متأهبا.

وجرى وضع خطة عمل تصور فيها «حسنين» (باشا) أنه يقدر على ضرب عصفورين بنفس الحجر (والغريب أنه وهو يسعى إلى تنفيذ خطته بدا كما لو أنه مطلع على فكر «النحاس» (باشا):

● العصفور الأول هو انتزاع «مكرم عبيد» من قلب الوفد إلى خارجه، وفي الواقع فتلك ليست رمية حجر ـ بل سكينا يقتطع من جسم الوفد. فخروج «مكرم» الآن من الوفد أكبر من أي خروج سبق من الوفد بلا استثناء، وذلك في حد ذاته انتصار كبير. ثم إن «مكرم» (باشا) ـ جاهز للخروج وقد تدرج موقفه من «مندهش» إلى «معاتب»، ومن «ساخط» إلى «غاضب»، ومن «رجل لا يستطيع أن يقبل مثل هذه الأوضاع» إلى «رجل لم يعد أمامه غير الخروج منها»، والتفصيل الوحيد الباقي هو كيف يمكن تهيئة السبل لذلك.

● العصفور الثانى تقدير «حسنين» (باشا) أنه إذا استطاع تحويل موقف «مكرم عبيد» (باشا) من كونه خروجا «من» الوفد بحيث يصبح خروجا «على» الوفد، وبحيث يتحول من شقيق وشريك إلى معارض وعدو ـ إذن فتلك بداية الهجوم المضاد على «مصطفى النحاس» (باشا)، وبالتبعية على الذين جاءوا به أي السير «مايلز لامبسون». وإذا أمكن التخطيط جيدا لمراحل هذا الهجوم المضاد بحيث لا تتسرب قوة الدفع منه، فقد يصبح الخطوة الأولى على الطريق الطويل إلى «الإقالة»!



ولتحقيق هدف خروج «مكرم» «من» الوفد، وتحويله إلى خروج «على» الوفد، كانت خطة المعركة إجراءات متوالية:

ـ يستقيل «مكرم عبيد» من الوفد ويسبب استقالته بأسلوب لا يحتمل الظنون.

ـ وقبل أن يستقيل ـ ومن موقعه في السلطة ـ يتعين عليه أن يعد ملف أسباب استقالته بوقائعها ومستنداتها.

ـ وهذه الأسباب يمكن أن تتحول إلى «عريضة» يقدمها «مكرم» (باشا) «لملك البلاد» باعتباره المرجع الدستورى الأعلى في ظرف خلل رزئ به الوطن.

ـ وبعدها يقوم الملك بإخطار رئيس الوزراء (مصطفى النحاس) بمحتوى العريضة التى تلقاها من رجل لا سبيل إلى الشك في أنه كان قريبا، ولا سبيل إلى التشكيك في أنه كان عارفا، فهو سكرتير الوفد الملقب بـ: «المجاهد الأكبر»، وهو الوزير الأقوى في الحكومة حتى هاله ما رأى ومن ثم اشتكى، واحتج، ثم إنه الآن ـ وبلا خيار آخر مفتوح أمامه ـ جاء يعرض على «مليك البلاد» وعلى الرأى العام أثقالا زادت وطأتها على ضميره الوطنى، والوفدى، والإنسانى!

وخطة «أحمد حسنين» ساعتها أن يكون التوجيه الملكى إلى رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» ـ إبلاغه أنه مسئول عن سمعة البلد وسمعة الوزارة، وليس أمامه غير إبلاغ النائب العام كي يتولى التحقيق فيما أورده «مكرم عبيد» من وقائع بالمستندات في عريضته.

وإذا بدأ النائب العام تحقيقا ـ فمعنى ذلك أن الباب انفتح على مصراعيه لإصابة الوفد ورئيسه وأسرته وأنصاره!

وكانت تلك في التخطيط: افتتاحية المعركة، وبعدها تكون الحركة وفق ما تتيحه الفرص، وتمكن منه تداعيات الأفعال وردود الأفعال.



ومثل أي معركة كانت المفاجأة هي العنصر الأهم في تنفيذ الخطة، بمعنى أن التحضير لابد أن يُحاط بأقصى درجات السرية والكتمان، وبالفعل أمكن ترتيب قناة اتصال سرى بين القصر الملكى و«مكرم عبيد» (باشا)، بحيث لا يراها أحد لا «النحاس» (باشا) ولا وزراؤه ولا القلم المخصوص (الأمن السياسى) في وزارة الداخلية، وجاء الترتيب محكما.

فقد كان أحد الأمناء في الديوان السيد «على الحمامصى» شقيقا للصحفى الأقرب من «مكرم عبيد» (باشا) ـ الأستاذ «جلال الحمامصى».

وبدأت قناة الاتصال تعمل خفية والسجلات تتضخم بالوقائع والتصرفات والتفاصيل والمستندات والتهم: من الرضوخ للإنجليز، إلى الرضوخ للأنسباء والأصهار والأقارب، إلى فصل ونقل وتعيين مئات في وظائف الدولة الكبرى بالاستثناء أو بغير استحقاق، إلى وقائع استغلال النفوذ عن طريق أذونات التصدير والاستيراد، واحتكار السلع للمضاربة في السوق السوداء ـ إلى غيره ـ والقائمة طويلة.

واكتمل السجل واختير له عنوان «الكتاب الأسود»، وأضاف «مكرم» (باشا) في اللحظة الأخيرة للعنوان جزءا آخر يكتمل به السطر: «للعهد الأسود».

كان التحضير لهذه المعركة السياسية الداخلية يجرى في السر بين «مكرم» و«حسنين»، لكن معركة كبرى في مسار الحرب العالمية الثانية ـ كانت على وشك أن تبدأ، ومسرحها صحراء مصر الغربية، ذلك أن ربيع سنة ١٩٤٢ شهد هجوما صاعقا شنه الماريشال الألمانى «إروين روميل»، وفوجئ به قائد القوات البريطانية والحليفة الماريشال «أوكنليك» (من أصل نيوزيلندى)، وفي اندفاعة واحدة نفذت قوات الفيلق الأفريقى الألمانى من طبرق إلى العلمين، وهناك تمهلت الحركة استعدادا لاندفاعة أخرى تأخذها إلى الإسكندرية ثم إلى قناة السويس (بينما تترك القاهرة للقوات الإيطالية يدخلها موسولينى على حصان أبيض وصل فعلا بالطائرة إلى مرسى مطروح ينتظر وصول راكبه الذى قرر (كما تكشف الوثائق الإيطالية) أن يتخذ لنفسه لقب «حامى الإسلام» (على مثال نابليون قبله).

كان الجيش البريطانى يرتب لوقفة في «دلتا النيل»، وكانت السفارة البريطانية تحرق أوراقها المهمة استعدادا للرحيل، وراح السير «مايلز لامبسون» يطرح ـ على لجنة الحرب التى يرأسها الوزير البريطانى المقيم في الشرق الأوسط ـ عددا من الأسئلة العاجلة:

١ ـ هل يأخذون الملك «فاروق» في حالة الانسحاب معهم، وكيف إذا رفض؟ (ونفس الشيء مع «النحاس» (باشا) ونفس السؤال؟).

٢ ـ إلى أين الانتقال؟ إلى الخرطوم (في السودان) كما يقترح بعضهم ـ أو جنوب أفريقيا كما يقترح البعض الآخر؟

٣ ـ إلى أين ينقل احتياطى الذهب المصرى في البنك الأهلى قبل إخلاء القاهرة ـ إلى الخرطوم أو إلى جنوب أفريقيا مرة أخرى؟!

٤ ـ متى وكيف يمكن إخطار «الحكومة المصرية» بأن خطط الدفاع عن مصر تقتضى نسف القناطر الخيرية لإغراق دلتا النيل كي تتحول إلى بركة من طين يصعب فيها زحف المدرعات وجرارات المدافع الثقيلة!

وكان القصر الملكى يتابع.

وكان «النحاس» (باشا) يسمع، وفي الحقيقة فإنه مع غياب «مكرم عبيد» ومع الفراغ الذى تركه في الوفد وفي الوزارة، فإن «النحاس» (باشا) لم يعد يجد متحدثا معه غير «أمين عثمان» (باشا) ـ و«أمين عثمان» (باشا) ينقل رأى السفارة البريطانية ـ و«النحاس» (باشا) متحير.

كان القصر مازال يتلقى تأكيدات يقدمها السفير وعدد من كبار الضباط البريطانيين في القاهرة، ملخصها أن الجبهة في صحراء مصر الغربية سليمة، وأن «روميل» يحتاج إلى قدر

كان «مكرم عبيد» (باشا) يخسر المعركة على عقل «النحاس» (باشا) وقلبه، لأن «صديق العمر» وقع فى مأزق إنسانى، فهو الآن فوق الستين، ومناه أن يستريح ويسعد، لكن الراحة مستحيلة، والسعادة مؤرقة، والسبب أن «مكرم» وطبقا لما قاله النحاس: «بدأ ينق بالشكوى مثل الضفادع، وهو الآن ينفث السم مثل الأفاعى»





كبير من «الحظ» لاختراقها ودخول الإسكندرية!

ومع ذلك فإن القصر كان أمام سؤال لا يستطيع الاعتماد على التقديرات، والافتراضات بماذا؟ وإذا؟ وأشار «حسنين» (باشا) أكثر من مرة فى لقاءات له مع «والتر سمارت» المستشار الشرقى للسفارة «أن الملك فى كل الظروف يشعر أن مكانه مع شعبه».

وكان «النحاس» (باشا) يسمع ويتصرف بطريقته وهو بدوره جعل الإنجليز يعرفون أنه لن يخرج من «البلد».



ووقع تلك الأيام مشهد من أطرف ما عرف التاريخ المصرى الحديث، والمشهد حوار جرى بين «مصطفى النحاس» رئيس الوزراء من ناحية، ومن الناحية الأخرى «عبد الخالق حسونة» (باشا) محافظ الإسكندرية من الناحية الأخرى (وقد أصبح «حسونة» (باشا) أمينا عاما لجامعة الدول العربية).

وجرى الحوار حين اتصل «عبد الخالق حسونة» (بوصفه محافظا للإسكندرية) برئيس الوزراء يقول «إن مدير المباحث فى المحافظة أبلغه أن إحدى الدوريات الألمانية وصلت إلى منطقة الدخيلة على طرف الإسكندرية»، وأنه (مدير المباحث) عندما طلب من ضابط الاتصال البريطانى تأكيد الخبر - نفى له الضابط البريطانى صحة ما بلغه. لكن محافظ الإسكندرية يرى أن الوضع بالغ الخطورة ولا يعرف «ماذا يفعل إذا أطبق «روميل» على مدينته - وماذا تفعل الإدارة وفيها البوليس إذا وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام القوات الألمانية؟ ورد رئيس الوزراء بقوله «لا تدخلوا فى قتال». وأراد المحافظ أن يستوضح «وإذا طلبوا أن نسلم سلاح البوليس»، ورد «النحاس» (باشا) «لا تسلموا السلاح!».

وكان «حسونة» (باشا) يريد أن يستوثق، فقال «وإذا حاولوا نزعه منا بالقوة؟» ورد «النحاس» (باشا) «تصرف يا أخى. تصرف!»

ولم يكن ذلك مما يمكن أن يتصرف فيه محافظ الإسكندرية، وهكذا عاد الرجل يطلب توجيهات محددة، وهنا قال له «النحاس» (باشا) «رأيى عندما تتأكد من صحة البلاغ، أن تسبق وتذهب بنفسك إلى القائد الألمانى «روميل» وتسلم له «مفاتيح المدينة» وتبلغه أنها مدينة مفتوحة»!

واتصل «حسونة» (باشا) بالديوان الملكى يطلب مشورة إضافية من «حسن يوسف» (باشا) (وكيل الديوان وعديله فى الزواج)، وشرح «حسونة» (باشا) مشكلته: «الإسكندرية ليس لها باب، وبالتالى ليس لها مفتاح، ووضع أى «مدينة مفتوحة» يقتضى إعلانا دوليا مسبقا يعترف به الآخرون بموجب اشتراطات متفق عليها. وفضلا عن ذلك فإنه («عبد الخالق حسونة») لا يعرف كيف يتأكد من البلاغ، ثم يسبق بالتصرف ويذهب بنفسه إلى لقاء «روميل» وسط معركة هائلة يتقرر بها مستقبل البحر الأبيض المتوسط كله وما حوله؟!

وتلقى «حسونة» (باشا) توجيها من القصر «بأن ينتظر فى مكانه ولا يفعل شيئا لأن الحوادث نفسها وفى الوقت المناسب سوف تقرر له جواب سؤاله وتحدد أمامه: كيف يتصرف!»



ومن حسن الحظ أن معركة البحر الأبيض لم تعد مجرد معركة، وإنما أصبحت نقطة تحول كبرى فى مجرى الحرب، فقد انتصرت قوات الجيش البريطانى الثامن تحت قيادة الماريشال «مونتجمرى»، بينما تراجع الفيلق الأفريقى وقائده الماريشال «روميل»، وتواصل التقدم والتراجع حتى أصبح انسحابا ألمانيا وإيطاليا كاملا من كل أفريقيا!

ويظهر أن معركة «الكتاب الأسود» كانت تنتظر الحسم فى معركة البحر الأبيض، ذلك أن أصوات المدافع التى خفتت وتلاشت أصداؤها بابتعاد ميادين القتال إلى ليبيا وتونس - أخلت الأجواء فى القاهرة بلا حرج لمعركة «الكتاب الأسود»، وكانت الأوراق والمستندات قد اكتملت فى ملفات استقرت فى خزينة رئيس الديوان الملكى. وجاء يوم قدم فيه «مكرم عبيد» (باشا) استقالته من الوزارة وخرج ومعه عدد كبير من رجاله وأنصاره، وكان خروج «مكرم عبيد» (باشا) أكبر فلق فى تاريخ الوفد، بل وتحول إلى كسر بحساب الظروف التى خرج فيها.

وقصد «مكرم» (باشا) إلى القصر وليس فى يده شىء، ودخل مكتب رئيس الديوان، وخرج وفى يده ملف متضخم بما فيه، وتوجه نحو مكتب الملك «فاروق» ليقدم له ما يحمله على شكل عريضة مرفوعة «إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك».

وذاع النبأ فى المحافل السياسية المصرية بسرعة البرق.

وقام «فاروق» بنفسه بعد أيام - وكان السير «مايلز لامبسون» على موعد معه يقدم له زائرا كبيرا - بانتهاز الفرصة وأعطاه نسخة من العريضة، وكتب «مايلز لامبسون» يقول: «لقد كان سخفا منه أن يحرجنى بإعطائى هذه الأوراق!»، واستطرد «لامبسون» «إننى سمعت عما تحتويه من فضائح وكلها مما يمكن أن يقع فى مجتمعات الشرق الفاسدة، والشره الطامع بين أصحاب النفوذ إلى كسب المنافع الشخصية».

وبينما كان السفير خارجا من مكتب الملك، جاءه الأمين الخاص المناوب، برجاء من «حسنين» (باشا) يرجوه المرور خمس دقائق على مكتبه، وتوجه «مايلز لامبسون» إلى مكتب «حسنين» (باشا) الذى بادره بقوله «ألا تعتقد سير «مايلز» أن مصر تستحق حكومة أنظف؟ لقد كنا نعذركم فى تأييد هذه الحكومة عندما كان «روميل» على الأبواب، والآن ألا ترون أن الموقف تغير؟!

ورد السفير البريطانى بقوله: «لماذا تصرون على دفع الملك إلى صدام مع وزارة تمثل الأغلبية فى بلده. لم يتعلم القصر حتى الآن درس احترام الدستور من أيام الملك «فؤاد» و«زغلول» حتى الآن.

ورد «حسنين» قائلا: «لكن الوضع الآن مختلف؛ لأن الشعب مع الملك، أى أن الملك «فاروق» الآن هو فى الموضع الذى كان فيه «سعد زغلول» - فى حين أن «مصطفى النحاس» الآن فى الوضع الذى كان فيه الملك «فؤاد».

ورد «مايلز لامبسون» «بأنه ليس متأكدا من هذه الفرضية، ثم أضاف بحدة: «إن الحرب مازالت مستمرة، والقوات المتحالفة فى مصر لها ضروراتها. وعلى أى حال فإنه لا يمكن أن تتخذ اتهامات «مكرم» على علاتها حجة ضد «النحاس»، لأن الأمر يحتاج إلى تحقيق وليس أكثر الآن.

وتحولت معركة الكتاب الأسود إلى مواجهة:

(رأى «النحاس» (باشا) أن النائب العام لا اختصاص له فى تحقيق ما ورد فى الكتاب الأسود (كما يطلب الملك)، وإنما الاختصاص للبرلمان حيث يستطيع «مكرم» أن يحول عريضته إلى استجواب للوزارة أمام مجلس النواب (وكان ذلك رأى اثنين من فقهاء الوفد وقتها: «أحمد نجيب الهلالى» (باشا) وزير المعارف - و«محمد صبرى أبو علم» (باشا) وزير الحقانية).

(وحاول القصر أن يعاند ويصر على أن يكون البلاغ للنائب العام؛ لأن هناك فى التصرفات جرائم، وفى النهاية لم يكن القصر على استعداد لتفويت الفرصة وتضييع الوقت فى جدل قانونى حول الاختصاص: النيابة العامة أو البرلمان. والظن أن الطرق على الحديد وهو ساخن مفيد فى أى مكان!

وكذلك فاز النحاس (باشا) بما أراد، ومن منظور القصر فإن عملية «الطرق على الحديد وهو ساخن» بدأت فى شكل استجواب قدمه «مكرم عبيد» (باشا)، (وكان المشهد مأساة إغريقية بين صديقين قديمين - توأمين فى الروح - وقعت الفتنة بينهما، وتحولت الفتنة إلى قتال وقتل!).

....

....

[كانت معركة «الكتاب الأسود» أول تجربة مباشرة لى مع الحياة السياسية المصرية، وكان رئيس التحرير الذى قضيت معه فترة التأهيل العملى للاشتغال بالصحافة وهو رئيس تحرير الإجيبشيان جازيت «هارولد إيرل» من مدرسة فى المهنة تعتقد أن «صنع صحفى» يجب أن يبدأ أولا بالعمل فى تغطية أخبار الجريمة، فتلك فى رأيه - نظرة بالعمق إلى المأزق الإنسانى على مستوى الأفراد - تليها فترة ثانية فى تغطية أخبار الحرب لأنها فى رأيه أيضا - رؤية بالعمق إلى مأزق المجتمعات فى صراعها مع غيرها، وبعد ذلك يكون اقتراب الصحفى - (إذا توافر لديه الاستعداد) - من السياسة، بدءًا من «البرلمان» لأنه الساحة التى يتبين فيها تجليات الفعل السياسى - سواء عند صلاحه أو عند فساده.

ومثل غيرى مشيت على نفس الخطى، وكان أول تجربتى فى البرلمان - بعد الجريمة والحرب طوال سنة ١٩٤٢ - تغطية استجواب «الكتاب الأسود» من شرفة الصحافة فى مجلس النواب، جالسا بين اثنين من كبار الصحفيين المصريين - الأستاذ «كامل الشناوى» مندوب الأهرام (وكان المقعد الأول من الشرفة محجوزا باستمرار لهذه الجريدة الأعرق بين صحافة مصر، فى حين كان المقعد الثانى مخصصا للإجيبشيان جازيت، وذلك هو المقعد الذى جلست يومها عليه) - إلى جانب السيدة «روزاليوسف» التى جاءت تتابع الاستجواب (وكان ذلك أول لقاء لى بالاثنين).

ومن شرفة الصحافة صيف سنة ١٩٤٣ ألقيت أول نظرة على الساحة السياسية المصرية، حين بدأ «مكرم عبيد» (باشا) يعرض وقائع استجوابه، وبدا لى الرجل لأول وهلة متوترا، مشدود الأعصاب، يمسك نفسه بصعوبة بالغة، ويبتسم ابتسامات يختلط فيها انفعال يحاول صاحبه كبته، وافتعال للتماسك لا يستطيع صاحبه إحكام السيطرة عليه. ومع أن الصخب الذى ووجه به «مكرم» (باشا) كان شديدا، فلم يكن ذلك فى حد ذاته كافيا لشرح الحالة العصبية لسكرتير الوفد السابق كما رأيناها من شرفة الصحافة.]

....

....

قدم «مكرم عبيد» (باشا) استقالته من الوزارة وخرج ومعه عدد كبير من رجاله وأنصاره، وكان خروج «مكرم عبيد» (باشا) أكبر فلق فى تاريخ الوفد، بل وتحول إلى كسر بحساب الظروف التى خرج فيها

.. دروس تعلمها الوفد

[وفيما بعد بسنوات ـ وحين أتيح لي أن أتعرف على «مكرم» (باشا) سمعت منه تفسير ما استغربته في أوانه ـ فقد قال «مكرم» (باشا) ما مؤداه أن: «إلى شهور قليلة مضت كان هؤلاء الصاخبين من رجاله هو ـ «مكرم» (باشا) ـ يوجههم، وهو يصك الشعارات التي يهتفون بها، وهو يحدد لهم ماذا يفعلون وأين يذهبون؟ ومع أن بعضهم الآن أعضاء في مجلس النواب، فهم في نظره «مشاة الوفد المشتبكين مع خصومه في الشارع» (ينظمون المظاهرات ويقودونها ويطلقون الشعارات ويحركون تنظيمات الحزب في الجامعات وفي النقابات العمالية) ـ والآن كان رئيسهم النائب «حسن ياسين» يقود عملية تحريض ضد «مكرم» (باشا) داخل قاعة مجلس النواب، وكان المنظم لصخب الشوشرة والمقاطعة وإرباك السياق الذي اختاره صاحب الاستجواب لعرض موضوعه.]

....

....



وكان «مكرم عبيد» (باشا) قد قسم استجوابه إلى عدة محاور:

١ ـ الحصول على الثراء عن طريق النظارة على الأوقاف.

٢ ـ استغلال أملاك الدولة ضد المصلحة العامة وضد القانون.

٣ ـ التستر على فساد انغمس فيه «أصهار وأنسباء».

٤ ـ تفشي الوساطة والرشوة والتلاعب في شئون الوظائف، بما في ذلك تعيين العمد والمشايخ، وحتى إلحاق الطلبة بالمدارس والجامعات ـ وتعطيل تنفيذ الأحكام القضائية.

٥ ـ الشبهات الظاهرة في صفقات التموين سواء للسوق السوداء في مصر أو للتصدير، (أو التهريب) خارج الحدود.

٦ ـ وقائع استغلال شخصي صغير (مثل قيام السفارة المصرية في لندن بشراء معطف فراء لقرينة رئيس الوفد من أحد محلات بوند ستريت) ـ وكذلك قبعات رأس لمختلف المناسبات. (ومن المفارقات أن السفير المصري في لندن ذلك الوقت كان نفسه «حسن نشأت» (باشا) كاتب تلك التقارير المستفيضة قبل سنوات من برلين، الذي تحدث فيها عن سوء اختيار السيدة «أم السعد» مربية «زينب هانم الوكيل» لقبعات قرينة رئيس الوفد أثناء زيارة رسمية لألمانيا سنة ١٩٣٧).

٧ ـ فضائح المحسوبية والاستثناءات (وذلك هو الوصف الذي اختاره المؤرخ المتميز «الدكتور يونان لبيب رزق» في كتابه «الوفد والكتاب الأسود»)، وذلك بإجراءات فصل ونقل لمئات ومئات من الموظفين صنفهم الوفد أنصارا لخصومه ـ مع تعيين آخرين بدلهم يستطيع الوفد أن يطمئن إليهم!

وكان في الأسئلة والأجوبة ما يمس «النحاس» (باشا) شخصيا، مثل النظارة على الأوقاف، ومثل انتقاله من مسكنه في مصر الجديدة (قريبا من بيت مكرم عبيد باشا) إلى بيت آخر في جاردن سيتي (مواجه لبيت فؤاد سراج الدين باشا)، وكان هذا البيت الجديد في جاردن سيتي مدرسة للتدبير المنزلي تابعة لوزارة المعارف، وتقرر إخلاء المدرسة لكي يتمكن رئيس الوفد من تاجيره وسكناه، (والبيت الآن مقر لجمعية أصدقاء الفنون الجميلة) ـ وقد وقف «النحاس» (باشا) بنفسه يدافع عن تصرفه قائلا لأعضاء المجلس بالحرف: «وأنتم تعرفون أن زعيمكم لا يحب من المسكن غير المريح، ولا من الملبس غير المليح».

....

....

[ووصل صدى هذه العبارة إلى سمعي وإلى شعوري، مستغربا (فقد كنت ولا أزال أحتفظ للرجل ولدوره ـ وحتى لظروفه ـ بتقدير لم أخفه في أي وقت!)]

....

....

وتوالت مراحل الاستجواب، وما تلاه من مناقشات ـ فيها ما يثير الدهشة مرات، وفيها ما يبعث عن الحزن أحيانا، فقد كانت المأساة الإنسانية (شبه الإغريقية) ـ وراء المشهد في قاعة مجلس النواب المصري ـ دامية وراء الصور وخلف الظواهر.

....

....

[لكن المشهد الذي لم أستطع إبعاده عن خيالي (ولا عن مشاعري) جاء قرب نهاية معركة «الكتاب الأسود».

كان مشاة الوفد الذين حاولوا قطع الطريق على «مكرم» (باشا) عند عرض استجوابه قد انتقلوا من الدفاع إلى الهجوم بتوجيهات من قيادتهم، وكذلك تقدم أحد نوابهم بسؤال إلى وزير المعارف، وهو وقتها «أحمد نجيب الهلالي» (باشا) عن عملية صنع أثاث في مدرسة الفنون التطبيقية لبيت «أحمد حسنين» (باشا) ـ ثم إن صاحب البيت ـ رئيس الديوان الملكي ـ لم يسدد ثمن ما طلبه رغم أنه استلمه، وكان واضحا أن السؤال والجواب كلاهما غارة وفدية مضادة على أكبر مواقع القصر الملكي (رئيس الديوان) ـ وقام «الهلالي» (باشا) يرد على السؤال. والحقيقة أنه ثبت التهمة وتركها معلقة فوق رأس «حسنين» (باشا)، وهنا وقف عدد من نواب الوفد يعلقون على هؤلاء الذين يتهربون من ديونهم على حساب الدولة. واحسست من تعليقات هامسة أسمعها من الناحيتين (الأستاذ كامل الشناوي والسيدة روزاليوسف) أن التحدي الوفدي للقصر قد خرج سافرا، وأصبح مخاطرة على أرض مجهولة (خصوصا أن السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» كان قد وضع نفسه في موضع الحكم بين الوزارة والسراي!).

وبعد ظهر اليوم التالي عدنا كما أصبحت العادة على مدى أسابيع ـ إلى مقاعدنا في شرفة الصحافة، وأمسكت نسخة من مضبطة اجتماع المجلس بالأمس، ورحت أقرؤها مستغربا فقد وجدتها خالية من أي ذكر لما رأيناه وسمعناه بالأمس فقط. ولاحظ الأستاذ «كامل الشناوي» أنني أقلب الصفحات وأعيد تقليبها، فقال لي وللسيدة روزاليوسف وهي بجانبي من الناحية الأخرى «لن تجدوا شيئا، لأن كله حُذف من المضبطة وسوف نرى ونسمع الآن عجبا».

وكان كذلك بالفعل(!) فلم يلبث أن وصل إلينا أن المستشار الشرقي للسفارة البريطانية السير «والتر سمارت» جاء إلى مجلس النواب قبل منتصف الليل أمس، وقابل «عبد السلام فهمي جمعة» (باشا) رئيس المجلس، الذي استدعى من بيته يتلقى منه ما لديه، ومؤداه «أن السفارة البريطانية ترى أن ما دار من مناقشات بالأمس يمثل استفزازا «لملك البلاد» يستحيل قبوله، بالنسبة للسفارة البريطانية وسفيرها. والقرار أنه لابد من اعتذار علني عنه». واتصل رئيس مجلس النواب برئيس الوزراء، يوقظه من نومه، وفهم «مصطفى النحاس» (باشا) أن السفارة البريطانية تلوح باستعدادها لرفع يدها، تاركة الملك يرد العدوان على رئيس ديوانه بالطريقة التي يراها مناسبة. وبعد اتصالات تدخل فيها «أمين عثمان» (باشا) ودخل فيها «فؤاد سراج الدين» (باشا)، أمكن التوصل إلى حل وسط يكون بمثابة اعتذار صامت من الوفد: حزبا وحكومة، وهذا الحل الوسط حذف كل ما دار بشأن رئيس الديوان الملكي من مضبطة المجلس وتم ذلك ـ وطبعت مضبطة الجلسة وكان شيئا لم يكن!

ولما كانت العادة أن تبدأ كل جلسة لمجلس النواب بالتصديق على مضبطة الجلسة السابقة ـ فإن النائب البرلماني اللامع والصحفي الكبير الأستاذ «فكري أباظة» رفع يده مستأذنا في الكلام يقول «إن مضبطة جلسة الأمس التي وجدها أمامه اليوم ليست صحيحة، لأنها خالية من أي ذكر لوقائع وكلمات «رأيناها جميعا» بالأمس و«سمعناها». وصدر زعيق وصياح من بعض أعضاء المجلس (مشاة الوفد في الشارع)، ودعواهم أن «المضبطة صحيحة»، وأن ما نطق به «فكري أباظة» كذب وافتراء، ثم تكررت النداءات على «فكري أباظة» «اقعد.. اقعد». لكن «فكري أباظة» لجأ إلى رئيس المجلس يوجه له خطابه ويستشهد بكل من يراهم أمامه، وفي المقدمة منهم رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) الذي كان جالسا على المقعد الأول لمقاعد الحكومة (وكان فكري أباظة يتكلم من الصف الثاني من مقاعد المعارضة)، وتضايق «النحاس» (باشا) وزاد ضيقه، حتى راح بصوت خافت، تنبئ به حركة الشفاه أكثر مما تنطق به أصوات الحنجرة «اقعد.. اقعد يا ابن الـ...».

وسمع «فكري أباظة» ورأى (ولمحنا نحن في شرفة الصحافة ولاحظنا)، وهكذا سأل موجها الكلام مباشرة «هل صحيح ما سمعت منك يا رفعة الباشا؟»، ورد «النحاس» بصوت مسموع «أيوه صحيح.. صحيح»، وأراد الأستاذ «فكري أباظة» أن يمسك باللحظة ويسجل. وكذلك كرر سؤاله للنحاس (باشا) «ما هو الصحيح يا رفعة الباشا.. وماذا قلت؟». ولمح «النحاس» (باشا) أن ذلك البرلماني الواعي نصب له فخا، فتحفظ، ولكنه أصر على القول: «صحيح.. صحيح»، ولم يزد.

....

....

[وبجواري سمعت صوت «كامل الشناوي» يعلق بعفويته «يا نهار أسود»!]

....

....

[وكان رئيس مجلس النواب يطلب من المجلس أن يقرر إخراج «فكري أباظة» من القاعة لأن مسلكه «شائن» ولا يليق بنواب الشعب، وقال «فكري أباظة» موجها كلامه للمجلس إنني خارج قبل أن يطردني أحد»!]

....



وتلاحقت الحوادث بعد معركة «الكتاب الأسود» ـ واتخذ مجلس النواب قرارا بإسقاط العضوية عن «مكرم عبيد» (باشا) لأنه فقد

قامت السفارة المصرية في لندن بشراء معطف فراء لقرينة رئيس الوفد. ومن المفارقات أن السفير المصري في لندن ذلك الوقت كان نفسه «حسن نشأت» (باشا) كاتب تلك التقارير المستفيضة قبل سنوات من برلين، الذي تحدث فيها عن سوء اختيار «أم السعد» مربية «زينب هانم الوكيل» لقبعات قرينة رئيس الوفد!





أهلية «تمثيل الأمة» ـ ثم صدر قرار باعتقاله من الحاكم العسكرى العام وهو رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) ـ وكان الرجل الذى أوكل إليه التنفيذ هو «فؤاد سراج الدين» (باشا) الذى أصبح وزيرا للداخلية، (وكانت المأساة الإغريقية قد بلغت ذروتها).

ومن الواضح أن هذه التطورات المتلاحقة تركت أثرها على زعيم الوفد، وكذلك تدهورت فجأة صحة الرجل ولزم الفراش أكثر من ستة أسابيع!

وكان فى وسع أى مراقب للسياسة المصرية (خصوصا من المنظور الإنسانى) ـ أن يدرك أن أوجاع «النحاس» (باشا) نفسية أكثر منها عضوية، فالرجل فى ظروف مستجدة عليه (ومتعارضة مع تاريخه وشخصيته وفكره) ـ يواجه فى أعماقه تناقضات لا يستطيع حلها، ولا يستطيع قبولها، ولا يستطيع فى نفس الوقت تجاهلها. وكان خروج «مكرم عبيد» (باشا) وانقلابه عليه (بصرف النظر عن الأسباب) يطرح عليه أزمة حزب الوفد من أولها لآخرها.

ذلك أن الحزب منذ تكوينه حكمت حركته معادلات دقيقة وحساسة:

● المعادلة الأولى: أن الوفد قام على أساس تحالف بين قوتين من أكبر القوى فى المجتمع المصرى، عدد من كبار ملاك الأرض الزراعية فى الريف، وصفوة من المثقفين فى المدن (معظمهم من رجال القانون). وكان التقليد فى الوفد يجرى على أن المثقفين فيه هم القيادة الشعبية للحزب فى المدن (دائما محامين ومن نجوم المرافعات القضائية غالبا)، ثم إن ملاك الأراضى هم العمود الفقرى لقوة الحزب، فى الريف يؤثرون على جماهير الفلاحين، ويضخون التبرعات فى خزائنه.

وعلى أساس هذه الصيغة بدأت زعامة الوفد بمحام «سعد زغلول» ثم توالى على سكرتارية الوفد «مصطفى النحاس» (قاض) ـ «مكرم عبيد» (محام).

وبعد خروج «مكرم عبيد» (باشا) من الوفد، فإن موقع السكرتير العام للحزب آل إلى الأستاذ «محمد صبرى أبو علم» (باشا)، لكن موازين القوة الحقيقية فى الحزب راحت تميل أكثر إلى ناحية كبار الملاك، يمثلهم ذلك النجم الصاعد بقوة فى مراتب الوفد العليا: «فؤاد سراج الدين».

● والمعادلة الثانية وهى مهمة فى تكوين الوفد، مضمونها أن التحالف بين «المثقفين» و«ملاك الأراضى» يجاوره توافق إسلامى ـ قبطى يعطى للوفد طابعا خاصا يعبر بصدق عن «تآلف دينين فى وطن واحد»، وهو معنى صاغه بفهم سياسى وثقافى عميق «مكرم عبيد» (باشا) حين وصف نفسه بانه «قبطى دينا ومسلم وطنا»، يقصد بذلك أن يؤكد ما عبر عنه كل المتنورين من مسيحيى المشرق، ومؤداه أن «شعوب الأمة العربية ـ مسلمين ومسيحيين ـ عربية باللغة وإن اختلفت الأديان، ثم إن شركة الحضارة العربية تفاعلات فى محيط إسلامى وذلك جوهر أربعة عشر قرنا من التاريخ».

وفى مصر فإن هذه المعادلة (اختلاف الأديان ووحدة الأوطان) عكست نفسها فى تركيب عرفته مصر فى أوقات رفعتها، ومؤداه أن الإمارة فى الأساس إسلامية، وإن الإدارة بالمشاركة ـ قبطية. وفى حزب الوفد بالذات فإن عبقرية هذا التركيب وضعت الوفد طول الثلاثينيات من القرن العشرين فى موضع لا يقاربه حزب آخر: كان «النحاس» (باشا) فى الإمارة، وكان توأمه «مكرم» (باشا) فى الإدارة، أولهما على رئاسة الحزب، والثانى على أمانته العامة.

● كانت هناك معادلة ثالثة شبه كيميائية، خلاصتها أن مناخ الوفد قادر على تربية قيادات لها جاذبية تشبه السحر فى تأثيرها على الجماهير ـ كذلك كان «سعد زغلول» (باشا) وبعده «مصطفى النحاس» (باشا)، وأيضا «مكرم عبيد» (باشا)، وبظروف «النحاس» (باشا) فإن الرجل أصبح شبه محتجب، وعندما خرج «مكرم عبيد» من الوفد، فإن نجم الحزب الساطع فى سماه اختفى تاركا وراءه ثقبا مظلما وموحشا. وكان الصف التالى فى قيادة الوفد رجالا من أمثال: «صبرى أبو علم» (باشا)، و«محمود سليمان غنام» (باشا)، و«أحمد حمزة» (باشا)، و«زكى العرابى» (باشا)، و«عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) ـ لكن هؤلاء جميعا على ما لدى كل منهم من مزايا، كانوا رجالا يقدرون على الجلوس فى المكاتب، ولا يقدرون على التألق وسط السماء، وإذا كان المعيار هو العمل داخل المكاتب، فإن الأحزاب الأخرى لديها فى المكاتب ـ وأكثر من الوفد ـ شخصيات أثقل وزنا وأعلى شأنا.

وكانت المعادلات الآن تتغير، وكانت الرموز تمارس تعبيرها عن تغيير فى حركة المعادلات.

● فانتقال «النحاس» (باشا) من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت آخر (قصر) فى جاردن سيتى ـ بدا رمزا له معناه فى انتقال مركز الثقل من دائرة المثقفين إلى دائرة كبار الملاك حتى بالجوار ـ أى من بيوت شركة مصر الجديدة إلى قصور جاردن سيتى.

● ثم إن خروج «مكرم عبيد» (باشا) من الوفد استوجب خروجا قبطيا ظاهرا من الحزب لم يستطع «النحاس» (باشا) تعويضه. وبعد خروج «مكرم»، فإنه أسند وزارة المالية إلى «كامل صدقى» (باشا) ـ لكنها شهور قليلة ثم عجز «كامل صدقى» عن الدور، فترك الوزارة إلى ديوان المحاسبات. وظهر فى دائرة الحكم قبطى آخر: «فهمى ويصا» (بك) وهو سليل واحدة من الأسر القبطية الكبيرة.

● بل إن هؤلاء الرجال الوفديين الجالسين فى المكاتب أصبحوا بالطبيعة غير راضين عن مجرى الأمور، حتى أن السفير البريطانى ينقل عن رئيس مجلس الشيوخ «زكى العرابى» (باشا) فى تقرير له إلى لندن «قال لى «زكى العرابى» (باشا) رئيس مجلس الشيوخ أنه محبط مما يجرى فى البلد الآن، وقد فقد قدرته فى الدفاع عنه واستنفد حججه وذرائعه، وأنه لا يعرف لمن يتحدث فى همومه». وحاول السفير البريطانى طبقا لكلامه أن «يقوى عزم رئيس مجلس الشيوخ المصرى، وأن يحرضه على طلب مقابلة زعيم الوفد ومصارحته بالحقائق مهما كانت قاسية عليه الآن، ذلك صالحه وصالح الحزب وصالح البلد».

لكن تقرير «مايلز لامبسون» إلى لندن لا يظهر أن «العرابى» (باشا) على استعداد لأن يأخذ فى يده زمام المبادرة.

وكانت شكوى رئيس مجلس الشيوخ ـ قطب الوفد الكبير ـ للسير «مايلز لامبسون» (السفير البريطانى فى مصر) ـ من أحوال الوزارة الوفدية رمزا آخر له دلالته.

ومضت الرموز تواصل تعبيرها عن الحقائق ـ وكلها مُرة.



والواقع أن الذين تعرضوا لدراسة تلك الفترة من الحياة السياسية المصرية ـ لم يتوقفوا بالقدر الضرورى والمنصف أمام الظروف الإنسانية التى أحاطت بذلك الرجل الذى ظل لسنوات طويلة ممثلا لإرادة الأمة.

كان «النحاس» (باشا) تلك الفترة مرهقا يحارب معركتين:

● معركة فى داخله تعصف بسلامه النفسى، ومحركها عودته إلى الحكم بالطريقة التى عاد بها فى فبراير ١٩٤٢، وكان تناقضه الداخلى أنه مع حقه الشرعى فى السلطة ممثلا لأغلبية الشعب المصرى ـ تسلم رئاسة الوزارة من سلطة غير شرعية. ثم لحق بذلك أن حزب الوفد جاء إلى السلطة وقد اهتزت كل معادلاته الحاكمة بخروج «مكرم» ومعه دور المثقفين فى قيادة الحزب العليا، ومعه أيضا «شىء ما» من الصيغة الجامعة للإمارة والإدارة فى وحدة العمل الوطنى، ثم إن الرجال الذين بقوا فى الحزب ينقصهم شىء ما فى كيمياء التأثير على الجماهير.

● وكانت المعركة الثانية خارجية ـ بالذات مع القصر الملكى المتربص، يتحين الفرص لأى خطأ، ويساعد على قسمة الصفوف، ويعطل ويعرقل تمهيدا للانقضاض على الوزارة بخطاب إقالة (إذا أحس أن الظروف خففت (لسبب أو آخر) من استعداد السفارة البريطانية للتدخل بكل الوسائل لمساندة الوزارة)!



وكان «النحاس» (باشا) فى تلك الفترة يشعر بحسه المرهف أن الحزب والوزارة يخسران المعارك واحدة بعد الأخرى أمام القصر وحتى من قبل معركة «الكتاب الأسود»، فقد مضى «النحاس» (باشا) يستجمع كل ما تبقى لديه، مدركا أن معركته مع القصر مسألة بقاء أو ضياع، وقد رأى ضرورة أن يخرج الوفد للهجوم ولا ينتظر على الدفاع. وأجرى حسابا لمواقع القوة العامة للقصر «للسراى»، وأخذ يستعد لمهاجمتها، وتقديره (فى إجماع عدد كبير من أقطاب السياسة المصرية وكذلك رجال السفارة البريطانية) ـ على النحو التالى:

١ ـ أن هناك ثلاثة مواقع تقليدية لقوة «القصر الملكى» هى: الأزهر ـ والجيش ـ والقضاء.

والداعى أن هذه المؤسسات الثلاث هى قبل كل شىء وبعد كل شىء «مؤسسات استقرار» تصون نفسها عن التأثر بنجاح حزب فى الانتخابات أو بمجىء وزارة أو ذهابها، ولذلك فإنها فى الاعتبار العام قلاع القصر ـ ولابد من الاقتراب منها على نحو ما.

وبرغم محاولات متكررة جرت لتقليل النفوذ الملكى فى هذه المؤسسات فإن الوفد لم ينجح، وأبسط الأسباب أن تولى المناصب الكبرى فى هذه المؤسسات (الأزهر والجيش والقضاء لا يتم إلا بمرسوم ملكى).

٢ ـ أن الملك فى يده سلطة شديدة التأثير (فى الحياة السياسية المصرية وقتها) وهى سلطة منح الرتب والألقاب، ومع أن العُرف جرى على أن الأعضاء الجدد فى أى وزارة يمنحون رتبة «الباشوية» تلقائيا، فإن منح «الباشوية» اختصاص ملكى، وهكذا فإنه بعد شهور كان الوزراء الجدد مع «النحاس» (باشا) مازالوا «عراة» بلا ألقاب، كذلك كان عدد من الأقارب والأصهار الذين انتظروا بالشوق الحارق أن يصل الوفد إلى الحكم كى «يتغطوا» بالألقاب.

لكن القصر يؤجل ويسوف.

كان انتقال «النحاس» (باشا)
من بيته فى مصر الجديدة إلى بيت آخر
(قصر) فى جاردن سيتى ـ رمزا له معناه
فى انتقال مركز الثقل من دائرة المثقفين إلى دائرة
كبار الملاك حتى بالجوار ـ أى من بيوت
شركة مصر الجديدة
إلى قصور جاردن سيتى

.. دروس تعلمهـــا الوفـد

وحين رأى السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» أن الوزارة متأزمة من هذا العُرى، قرر أن يتحدث في الأمر مع رئيس الديوان الملكي «أحمد حسنين» (باشا)، الذي رد عليه بقول سجله «مايلز لامبسون» في تقريره إلى لندن: «إن جلالة الملك لا يستطيع أن يمنح الوزراء الوفديين ألقابا يظهر منها أنه يكافئهم على ما تورطوا فيه».

٣ ـ يتصل بذلك أن هناك الكثير من التصرفات الحكومية لابد لنفاذها من اعتماد ملكي، ومرسوم، وتوقيع. والقصر يناقض كل إجراء ويتعسف ويتمنع ـ بما يؤدي إلى تعطيل في جهاز الأداء الحكومي يكشف قصوره أمام الناس دون أن يكون في مقدور الوزارة أن تشير صراحة إلى الأسباب، وإذا أشارت ولو ضمنا فإن القصر جاهز لتغطية موقفه بطرح دواعي للشك يراها في هذه التصرفات (وذلك سهل في كل الأحوال).

٤ ـ أن القصر الملكي قرر بعد معركة «الكتاب الأسود» أن يوقف تعاملاته مع عدد من الوزراء، بعضهم لأن التهم التي وردت عنهم في «الكتاب الأسود» بقيت معلقة دون تبرئة لساحتهم. وبالتالي فإن القصر «لا يستطيع أن يتعامل مع رجال تقع عليهم ظلال الشك، وبعضهم الآخر لأنهم أثناء معركة «الكتاب الأسود» تصدوا بما لا يليق للقصر وللملك، وكان منهم «نجيب الهلالي» (باشا) وزير المعارف الذي اتهم رئيس الديوان الملكي بأنه ماطل في دفع ما عليه لورش مدرسة «الفنون والصنايع» التي وردت له أثاثا طلبه لبيته!

وفي تلك الأيام فإن مقاطعة القصر لأعمال وزير، كانت تؤثر على أعمال وزارته، وعلى هيبته الشخصية، خصوصا إذا وقع استبعاده من استقبالات الدولة واحتفالاتها الكبرى ومراسمها الباذخة (إلى جانب العُرى من الألقاب).

وظلت المعركة بين الوزارة والقصر دائرة بين شد وجذب، حتى فوجئ «مصطفى النحاس» (باشا) وهو مازال بعد على فراش المرض بالملك «فاروق» زائرا لأقاليم الصعيد ـ مشغولا ومحزونا؛ لأن وباء الملاريا انتشر بسرعة في مديريات الجنوب، ثم راح يفتك بـ «رعاياه الطيبين»، فيما الحكومة القائمة على الأمر في غفلة لا تستطيع معها تقدير «كارثة الوباء» وجل همها أن تغطي «بالرقابة» على أخبار الكارثة بالرقابة على الصحف أكثر مما كان همها أن تبادر بتوفير العلاج والدواء.

والمدهش أن تقارير السفارة البريطانية إلى وزارة الخارجية في لندن كانت لشهور متواصلة تلفت النظر إلى «الكارثة الإنسانية التي أحدثها وباء الملاريا في الصعيد» ـ بل إن السير «مايلز لامبسون» طرح مشكلة قصور الجهود الحكومية في مواجهة الوباء عن الحد الأدنى الضروري والممكن، كما أنه كرر نفس الشيء في لقاءات متعددة مع «أمين عثمان»، ومع ذلك فإن الملك «فاروق» سبق الوزارة وذهب بنفسه إلى المناطق المنكوبة، يواسي رعاياه ويتحدث عن مأساتهم، عارفا أن الرقابة لا تستطيع أن تتعرض لما يصدر على لسان الملك، وقصارى ما تستطيع عمله أن تحدد المساحات المخصصة لكلامه، وتطوق أحجام الصور المنشورة لمواقع زياراته، واتساع العناوين المستعملة لتغطية أخباره ذاهبا إلى القرى والنجوع، متفقدا للمستشفيات في المدن، وشاكيا طول الزيارة من نقص الجهد إزاء فداحة الخطر. وعندما عاد الملك إلى القاهرة راح يتحدث عن المأساة في كل مكان ومع كل من يلقاه، حتى لقرينة الوزير المفوض السوفيتي التي فوجئت بملك مصر يقول لها (وقد نقل زوجها للسفير البريطاني ما سمعته، ما نصه طبقا للبرقية رقم ٣٥١ المسجلة ٤١٣٢٦ / ٣٧١ محفوظات الخارجية البريطانية):

«قال الملك «فاروق» لعدد ممن التقاهم أخيرا حتى في مناسبات اجتماعية وبينهم زوجة الوزير السوفيتي المفوض، أن الأحوال في صعيد مصر بالغة السوء، وأن المرض يحصد «رعاياه» بلا شفقة، وأن هناك نقصا فادحا في كل شيء حتى في المواد الغذائية، والسبب أن القوات البريطانية في مصر لها الأولوية في كل شيء من الغذاء إلى الدواء».

وتمضي برقية السفير إلى وزارة الخارجية في لندن فتقول بالنص:

«أنه ليس هناك شك في أن موقف الحكومة ضعيف، فوباء الملاريا متفش من أواخر سنة ١٩٤٢ وهو يزداد تفاقما حتى الآن، وقد لفت النظر أكثر من مرة إلى فداحة الكارثة دون أن أجد استجابة كافية، والآن فإن القصر يستغل الكارثة ويتباكى على الفلاحين التعساء بدموع تماسيح، لأن الملك نفسه وهو أكبر ملاك الأراضي في جنوب مصر كان يستطيع أن يخفف قليلا من استغلال رعاياه العاملين في مزارعه ولا يزيد شقاءهم، على الأقل كان يستطيع أن يساعدهم بالدواء بدلا من أن يصرخ بالشكوى».

ويمضي تقرير السفير فيقول: «المأزق بالنسبة للسفارة أننا لا نستطيع أن نترك للملك هذا الميدان يصول فيه ويجول، مستغلا كارثة إنسانية كبرى، وفي نفس الوقت لا نستطيع أن نبرئ أنفسنا لمجرد أننا لفتنا نظر الوزارة بإلحاح منبهين إلى خطورة الأحوال، ولو حاولنا أن نرفع المسئولية عن أنفسنا فسوف يؤدي ذلك إلى إضعاف موقف الوزارة وكشفها».

وفي برقية تالية تحت رقم ٣٩٣ (٤١٣٢٧/ ٣٧١ محفوظات وزارة الخارجية البريطانية) يكتب السير «مايلز لامبسون»:

«دعاني «النحاس» (باشا) إلى لقائه، ذهبت إليه وكان يريد أن يتحدث عن الأوضاع الداخلية، قلت له «إنه لا يساورني أدنى شك في أن أداء حكومته إزاء الأحوال في مصر العليا كان بالغ السوء وبدرجة تدعو للرثاء، وأن الملك «فاروق» لسوء الحظ استطاع استغلال الموقف وعزز شرعيته في شئون البلاد».

ذكّرت «النحاس» (باشا) بأن قصور الوزارة يكلفنا نحن غاليا «لأننا الذين جئنا بالوزارة وفرضناها على الملك ومازلنا ندعم وجودها.

قلت له: «إننا لم ننس عرفاننا لوزارة الوفد أنها تعاونت بإخلاص في الظروف العسكرية الحرجة سنة ١٩٤٢ (معركة العلمين) لكننا الآن نجد أنفسنا في وضع مزعج بسبب تأييدنا له.

ويمضي قول السفير: «لفت نظر «النحاس» إلى أن وزارته حاولت تقليل الضرر الذي لحق بها، بزيادة تدخلها في الرقابة على الصحف، ولكن ذلك نوع من قصر النظر لأن المسألة لن تذهب لمجرد أن الرقابة تحذف من الصحف أخبارها»!

ثم يكتب السير «مايلز لامبسون» خطابا إلى وزير الخارجية البريطانية يقول ما نصه:

«إن رئيس الوفد ـ وبالذات قرينته ـ لابد لهما من إعادة ترتيب البيت».

ثم يضيف السفير البريطاني:

«ولسوء الحظ فإن «حكومة الوفد» لم يعد لها محرك إلا ضرورات الحكم، ومن الواضح أن «النحاس» (باشا) معزول عن الواقع، وأن كبار الوفديين أنفسهم وبينهم رئيس مجلس الشيوخ «محمود زكي العرابي» (باشا) لا يخفون سخطهم على ما آلت إليه الأمور».

ويزيد السفير البريطاني (تقرير رقم ١٢٠٨ ـ مسجل في المحفوظات برقم ٤١٣٢٧/ ٣٧١ وزارة الخارجية) ما نصه:

«إن التفاصيل عن استغلال الرقابة على الصحف وصلت إلى حد يثير الضحك، فقد منعت الرقابة نشر خبر اعتقال طباخ في بيت «النحاس» (باشا)، والسبب أن هذا الطباخ دأب على «استعمال البصل» بكثرة في أطباق يقدمها لسيده، ومع أن قرينة «الباشا» قامت بتأنيب الطباخ لأنه يضع في طبق الشوربة الخاص به كمية من البصل يمكن أن تضر صحته، فإن الطباخ وهو يعرف مزاج «النحاس» (باشا) واصل ما دأب عليه، وكذلك صدر أمر من وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» بوضع الرجل في السجن عقابا له، ومنعت الرقابة نشر الخبر عندما تسرب إلى إحدى الصحف».



كذلك كان نفوذ الملك يكبر ونفوذ الوفد يضمر.

وأسوأ من ذلك كان القول الشائع في مصر وقتها «أن سلطة الحكم في مصر وقعت في أيدي ثلاث سيدات:

- الملكة «نازلي» ـ في القصر الملكي ـ وهي والدة الملك (وزوجة ـ بعقد عرفي ـ لرئيس ديوانه).
- والسيدة «زينب الوكيل» زوجة «النحاس» (باشا) (وتأثيرها طاغ في الحزب وفي الحكومة).
- والليدي «جاكلين لامبسون» زوجة السفير البريطاني في القاهرة ونفوذها واصل إلى كل مكان.

والسيدات الثلاث يتشابهن في ظروف معينة: كل منهن جميلة على نحو ما ـ كل منهن قوية في محيطها ـ كل منهن زوجة لرجل كان يمكن أن يكون والدها!

ثم تدخلت المقادير لترفع شعبية الملك إلى القمة الأعلى، ذلك أنه أصيب في حادثة سيارة خلعت فخذه، وأحدثت شرخا في الحوض، عندما كان عائدا من الإسماعيلية إلى القاهرة. وكذلك نقل «ملك مصر» إلى أقرب مركز طبي وكان مستشفى ميدان بريطاني في «نقطة القصاصين» وعندما أذيع الخبر، والملك أيامها يقود معركة تفشي وباء الملاريا في صعيد مصر، انقلبت الدنيا رأسا على عقب، وأصبحت قرية القصاصين (الشرقية) ومستشفى ميدان عسكري بريطاني فيها، مقصدا ومزارا لجموع رسمية وشعبية زحفت إلى هناك تطمئن على صحة الملك وتدعو له بالشفاء، وتجدد مشاعر الولاء له.

وجاء شهر ديسمبر ١٩٤٣، كان الملك «فاروق» مازال في القصاصين في عهدة أطباء

دأب طباخ «النحاس» (باشا)، على «استعمال البصل» بكثرة في أطباق يقدمها لسيده، ومع أن قرينة (الباشا) قامت بتأنيبه لأنه يضع في طبق الشوربة الخاص به كمية من البصل يمكن أن تضر صحته، فإن الطباخ واصل ما دأب عليه، فصدر أمر من وزير الداخلية «فؤاد سراج الدين» بوضع الرجل في السجن عقابا له



الجيش البريطاني، وقد انتهز قادة الجيش البريطاني الفرصة وتحلقوا حول الملك وقضوا سهرات طويلة معه في فترة النقاهة، يسمعون منه ويكتشفون الجوانب الحلوة في شخصيته.

وفي تلك الظروف وبينما شباب الملك يلعب دوره مستغلا كهولة رئيس وزرائه، الذي زادت وتكاثرت عليه الضغوط وأرهقته المعارك، تقدم شاب آخر من صفوف الوفد يعرض نفسه، وكان هذا الشاب هو الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» الذي ترك وزارة الزراعة التي ظهر فيها وزيرا لأول مرة في تشكيل ٤ فبراير، ثم وصل في نهاية السنة إلى وزارة الداخلية، وبدا أنه يشق طريقه بقوة إلى شغل قوة ومنصب «مكرم عبيد» (باشا) ـ وكان ذلك انتقالا مهما في قيادة الوفد بين جيلين: جيل الشارع، وجيل القصور: جيل الفلاحين وجيل ملاك الأراضي، جيل التعبئة الجماهيرية، وجيل الاتصالات السياسية والتسويات. وهكذا كان الانتقال ينطوي على إشارات اجتماعية وفكرية وسياسية.

....

....

[وكانت قضية انتقال قيادة الوفد من المثقفين إلى ملاك الأراضي الزراعية موضع مناقشة طويلة بين «فؤاد سراج الدين» (باشا) وبيني منذ طرحتها أول مرة في كتاب «ملفات السويس» (١٩٨٦)، وكنت أهديت نسخة من ذلك الكتاب إلى الصديق الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين» ـ تحية لذكرى شهور في السجن تقاربت فيها الزنزانات (أثناء اعتقالات سبتمبر ١٩٨١) ـ ويومها وكنا على الغداء في قصره في جاردن سيتي ومعنا صديق السجن «عبد الفتاح حسن» (باشا) ـ وهو من أقطاب الوفد في مرحلة متأخرة ـ ومعنا السيدة «ليلى المغازي» (وكانت لسنوات عديدة وحتى وفاته ـ سيدة في بيت «فؤاد سراج الدين» ـ راعية لشئونه ومضيفة رسمية إلى جانبه، وكان وجودها إلى جواره في سنوات سنه المتقدمة، لمسة من الإخلاص والحنان خففت وحشة السن وثقل المرض) ـ لم نصل في تلك المناقشة إلى توافق. فقد كان هو يقلل من أهمية انتقال النفوذ داخل الوفد من المثقفين إلى كبار ملاك الأرض الزراعية (باعتبار أن كبار الملاك يمكن أيضا أن يكونوا مثقفين)، وقد حاولت أن أشرح أن ما كتبته «وصف طبيعة» وليس «حكم قيمة»].

....

....

وفي أواخر سنة ١٩٤٣ وأوائل سنة ١٩٤٤، كان «فؤاد سراج الدين» يعرض نفسه بشدة على دائرة أوسع من تلك الدائرة المحدودة المحيطة بالنحاس (باشا) ـ ويكتب السير «مايلز لامبسون» السفير البريطاني تقريرا (برقم ٨٧٤٣ مسجل تحت ٤١٣٢٧/ ٣٧١ محفوظات وزارة الخارجية) ـ موجها إلى وزير الخارجية عنوانه «مناقشة مع فؤاد سراج الدين (بتاريخ ١١ مارس ١٩٤٤) وفيه قوله:

«اشتكى لي «فؤاد سراج الدين» من الطريقة التي تصرف بها الملك «فاروق» ـ عندما كان معه (بوصفه وزيرا للداخلية) في زيارة لمنطقة قناة السويس.

وكان «فؤاد سراج الدين» يشعر بقلق لأنه يحس في معاملة الملك «فاروق» له بشعور لا يريحه، فقد كان الملك في تصرفه مع النجم الصاعد في الوفد يوحي إليه بأنه يعرف عنه أكثر مما يقول، ويكاد في بعض اللحظات يشير إلى أن لديه شيئا يداريه، وكان ذلك يجعله متوترا على الدوام في حضرة الملك.

يمضي تقرير السفير البريطاني:

«قال لي «فؤاد سراج الدين» أن الملك أنعم برتبة الباشوية على محافظ بورسعيد وعلى اثنين غيره من أعيان المدينة برتبة الباشوية، وتم ذلك دون علم الوزارة، وأن «النحاس» (باشا) تضايق عندما أبلغه على التليفون بخبر هذه الإنعامات الملكية».

ويمضي تقرير السفير البريطاني:

«كان «فؤاد سراج الدين» يتحدث إلى بطريقة فائقة الود، وكان يحاول إعطائي الانطباع بأنه يفتح لي قلبه كصديق يؤتمن، لكن عندما كان يتكلم كان يراودني الشعور بأنه يكاد يموت حتى يعرف رأي السفارة فيه وما هو تقديرنا فيه كوزير للداخلية» He is dying to know what the Embassy thinks of him as Minster of Interior.

يستطرد السفير: «ناقشت «سراج الدين» في شدة الرقابة على الصحف، قال لي أنه سوف يبذل جهده لتخفيف القيود، ثم أكد لي «أنني أستطيع الاعتماد على نفوذه لدى رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» (باشا) في أية مسألة، واعتقادي أنه بالفعل يملك نفوذا عظيما لدى رئيس الوزراء، وقد أعطاني الانطباع بأنه ينتظر أية إشارة مني تحدد له الخط الذي أريد منه اتباعه»!



وكانت وزارة الوفد تشعر بالأجواء المحيطة بها وتخشى أن يكون في هذه المرحلة ما يغري القصر بأن ينقض على الوزارة بخطاب إقالة، وكانت الدائرة المتنفذة في الوفد والمحيطة برئيسه تخشى من أن السفارة في القاهرة ربما تقل مساندتها، خصوصا بعد الصلات التي توثقت بين الملك وبين عناصر من الدبلوماسيين والعسكريين الإنجليز، عندما كان طريح الفراش في مستشفى ميدان بريطاني عقب حادث القصاصين.

وهكذا فقد تقرر إرسال مبعوث سري إلى لندن يقابل كبار المسئولين في وزارة الخارجية، وأولهم وكيلها الدائم السير «ألكسندر كادوجان» ـ إلى جانب رئيس القسم المصري فيها «سكريفنر».

وسافر المبعوث بالفعل يؤدي مهمته السرية لتحذير من يعنيهم الأمر في لندن، كي يتنبهوا إلى أن الملك «فاروق» يتربص وعلى وشك أن ينقض، وعليهم أن يكونوا على حذر أكثر مما كانوا في أي وقت مضى.

وكان مما يتسق مع التطورات الجديدة على الوفد أن هذا المبعوث الخاص كان المليونير «أحمد محمد عبود» (باشا). وقد روى طبقا لما ورد في تقارير الخارجية «أنه يتحدث باسم النحاس باشا» (والحقيقة أن سفره إلى لندن كان تكليفا من صديقه الأستاذ «محمد فؤاد سراج الدين»).



٣ ـ السفارة البريطانية ـ خصمًا وحكمًا ـ وكل شيء!

كان السفير البريطاني السير «مايلز لامبسون» ما يزال يخوض معركة المحافظة على الإنجاز الذي حققه بانقلاب عسكري مساء يوم ٤ فبراير ١٩٤٢.

وبرغم معارك البحر الأبيض ـ والكتاب الأسود، فإن السفير البريطاني ظل يرى أن بقاء الوفد في الحكم لازم، وأن محاولات القصر لإقالته عليها أن تنتظر إلى يوم آخر، ولعل اليوميات الخاصة للسير «مايلز لامبسون» أكثر ما يكشف عن موقف السياسة البريطانية إزاء ما يجري في مصر تلك السنوات المحكومة بضرورات الحرب العالمية. وتجري بعض المداخل الهامة في يوميات السير «مايلز لامبسون» على النحو التالي:

٢٧ يناير (١٩٤٣):

اتصل بي «أحمد حسنين»، سألني إذا كان رئيس الوزراء البريطاني «ونستون تشرشل» هنا في البلد؟ فقد ترامى إلى أسماعهم شيء يفيد ذلك، وأوحيت له بأن ما فهمه صحيح (جاء يتفقد القوات التي حققت النصر ضد روميل ويهنئ قائدها مونتجومري).

سألني «حسنين» هل يستطيع الملك «فاروق» أن يرى المستر «ونستون تشرشل» ولو لبضع دقائق، فهو يريد أن يرحب به بنفسه على أرض مصر. وأضاف «إن الملك سوف يجيء بنفسه إلى السفارة لكي يرى «الرجل الكبير» ويسلم عليه ويمشي. وقلت لحسنين إنني ساعرض اقتراحه على رئيس الوزراء. ووافق «تشرشل» وأبلغت «حسنين» أن رئيس الوزراء سوف يكون جاهزا ما بين السادسة والنصف إلى السابعة والنصف لكي يرى الملك «فاروق» في أي وقت خلال هذه الفترة. أبلغت «حسنين» أيضا أن رئيس الوزراء لا يريد مراسم لا لزوم لها مع مجيء الملك. أخبرني «حسنين» أن الملك سوف يجيء ومعه ياور واحد. نسيت إبلاغ أمن السفارة أن يسمحوا للملك بالدخول، ولذلك عدت مسرعا من دعوة كنت فيها قبل الفترة المحددة، ومن حسن الحظ أنني عدت ووجدت أن «فاروق» تمكن من

.. السـفـارة البـريطانيـة

الدخول بسلام، لأن أحدا من الداخل أبلغهم أن يسمحوا بدخول سيارة «فاروق».

دخل «فاروق» إلى مكتبي الذي يعمل منه «تشرشل»، ودعيت في منتصف المقابلة للانضمام إليهم. عندما دخلت كان «فاروق» يتحدث عن مجموعته من الأسلحة الصغيرة، وعندما شاركت في الحديث انتقل «تشرشل» بالمناقشة وبمهارة إلى الكلام عن الملك «جورج السادس» وعن علاقته به، وأنه (ملك بريطانيا) يدعوه لتناول طعام الغداء معه كل أسبوع في قصر «باكنجهام». وفهم «فاروق» الإشارة بذكاء، ورد عليها بقوله «إنه مستعد أن يدعو «تشرشل» للغداء معه كل أسبوع ولكن لسوء حظه فإن رئيس وزرائه اسمه «مصطفى النحاس»».

كان «فاروق» قد وصل الساعة السابعة تماما ونظرت في ساعتي وكانت الثامنة، وأشرت إليه أن الوقت قد حان لترك رئيس الوزراء يمارس مهامه. وبينما نحن خارجون من المكتب توقف «فاروق» أمام خريطة لشمال أفريقيا، وأشار إلى مقاطعة برقة (في ليبيا)، والتفت إلى «تشرشل» الذي كان يشارك في وداعه وقال له «هذه المنطقة كانت جزءا من مصر في يوم من الأيام». ولم تفت «تشرشل» الملاحظة، وإنما قال لفاروق «كانت هذه المنطقة من أملاك تركيا (الدولة العثمانية) كما كانت مصر نفسها».

على العشاء سألت جاكلين (زوجة السفير) - رئيس الوزراء عن رأيه في الملك «فاروق» فقال لها أنه " Cheeky " صفيق».

ويتواصل ما سجله السير مايلز لامبسون.

٢٨ يناير:

اتصل بي «أمين عثمان» يسألني هل صحيح أن رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» هنا (في مصر) وأنه استقبل الملك «فاروق»؟ ورددت بالإيجاب. وقال «أمين عثمان»: إذن فإن «النحاس» (باشا) لابد أن يقابله ولو ليصافحه وإلا استقوى الملك وفرد أجنحته.

بالفعل جاء «النحاس» وبدأ بتهنئة رئيس الوزراء على انتصارنا في «طرابلس». وشكره «تشرشل» على المساعدات التي تلقيناها من مصر، وعلى الإخلاص الذي تصرفت به وزارته. لم يضيع «النحاس» فرصة، وإنما راح يشكو مما يقابله من عرقلة القصر لعمل وزارته. كذلك ألقى بكمية كبيرة من الشكوك على مواقف «أعيان الجالية البريطانية في مصر» وفي مقدمتهم عميدها السير «سيسل كامبل» متهما إياهم بأنهم متعاطفون مع القصر.

بعد أقل من شهرين يكتب السير «مايلز لامبسون» في يومياته:

٨ أبريل ١٩٤٣:

قابلت «حسنين» الذي أثار معي على الفور موضوع «الكتاب الأسود» الذي كتبه «مكرم عبيد» عما أسماه فضائح الوزارة. وأبلغني أن «مكرم» جاء إلى مكتبه في مقابلة رسمية وقدم إليه هذا الكتاب، راجيا اعتباره عريضة مرفوعة إلى صاحب الجلالة الملك، عن حقائق الأحوال في مملكته. أبلغني «حسنين» أن الملك متأثر جدا بما جاء في الكتاب ويراه إدانة كاملة للوزارة، ودليلا قويا على فساد تصرفاتها.

قلت لحسنين أنني أعرف شيئا عما جاء في هذا الكتاب، وقد تلقينا نسخة منه (مباشرة من «فاروق»)، لكن الملك لا يستطيع اتخاذه ذريعة لإقالة الوزارة، وقال «حسنين» أنه لا يفهم سببا لتحفظي على إقالة الوزارة إذا كانت قد فقدت ثقة الشعب بكل هذا الذي نسب إليها، خصوصا أن الموقف العسكري قد تغير بطريقة كاملة عما كان عليه قبل عام. قلت لحسنين أن عليه أن يتذكر أن الحرب مازالت مستمرة، وأن الحلفاء مازالوا يواجهون تحديا كبيرا في أوربا، قلت أيضا أنني لست متأكدا من قوله أن «النحاس» فقد ثقة الشعب، وإذا كان ذلك رأى القصر فالسبيل الوحيد هو إجراء انتخابات جديدة وتكون تلك عودة بالأمر كله إلى الشعب.

لم يبد لي أن «حسنين» اقتنع وأحسست أنهم ربما يدبرون شيئا.

٢٧ أبريل:

بدأت في استطلاع موقف القيادة العسكرية في حالة ما إذا اضطرتنا الظروف للتدخل ومنع الملك «فاروق» من ارتكاب أي حماقة، أحسست أن الجنرال «باجيت» (القائد العام للقوات البريطانية في مصر) لا يظهر حماسة بظن أن الجزء الأكبر من القوات البريطانية ابتعد غربا بكثير عن مصر (وراء العاصمة الليبية طرابلس)، وبالتالي فإن «باجيت» يخشى أنه لا يستطيع توفير القوات اللازمة لأي «تصرف» نقوم به أو لمواجهة «عواقبه». اتفقنا على استشارة لندن.

١ مايو ١٩٤٣:

وصلتني نسخة من البرقية التالية التي بعث بها رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» إلى الجنرال «ميتلاند ولسون» (القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط) - نصها كما يلي:

«إنك مكلف بتأييد سفير حكومة صاحب الجلالة الملك في تنفيذ الإجراءات التي يراها ضرورية لتأكيد نصيحته للملك «فاروق» (بعدم تغيير الوزارة)».

١٧ مايو ١٩٤٣:

اتصل بي «حسنين» يبلغني أن الملك «فاروق» يدعوني لمقابلته في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم. ذهبت إلى القصر ووجدت الملك في حالة معنوية طيبة، وقد هنأني بالانتصارات التي أحرزتها قواتنا في تونس، وقدم لي مذكرة قرأتها في حضوره، وكان مؤداها أنه يدرك أن مصالحنا العسكرية كانت تمنع تغيير «النحاس»، وأما الآن وبعد التحولات الكبرى في مسار الحرب، فهو يريد أن يفهم حقيقة موقفنا.

وضعت المذكرة على المكتب وقلت لفاروق بدون مواراة أننا لا ينبغي أن نلف وندور، وقلت له أنه مازال شابا في مقتبل العمر، وأمامه سنوات طويلة يقضيها على العرش، في حين أن الحكومات تذهب وتجيء، لكن عليه أن يعرف أن هناك أصولا وقواعد تحفظ الممالك وتحافظ على الملوك. قلت له إن «الكتاب الأسود» الذي قدمه «مكرم عبيد» لا يصح أن يكون أساسا لإقالة وزارة، وأن عليه أن يفكر جديا في التعامل مع وزارته بطريقة تطمئنها إلى أن القصر لا يتربص بها، والدليل على ذلك أنه يقاطع نصف الوزراء ولا يتعامل معهم.

١٨ أغسطس ١٩٤٣

ذهبت إلى الأوبرج (كازينو في شارع الهرم)، ومعي «نويل كاورد» (فنان يكتب ويمثل ويغني، وكان في ذلك الوقت من أشهر الفنانين الإنجليز). وجدت الملك «فاروق» على إحدى الموائد ومعه الجنرال «شولتو دوجلاس» (قائد الطيران البريطاني في الشرق الأوسط)، وكانت مع شولتو «صديقته» وهي ممثلة شابة.

لم أعرف فيم كان يتحدث الاثنان وما هو سر العلاقة بينهما، وعلى أي حال فقد اكتشفت عندما أردنا الانصراف أن الملك دفع حسابنا بالنيابة عنا، بمعنى أننا كنا ضيوفه دون أن نعلم.

يواصل السفير البريطاني يومياته:

٣ يناير ١٩٤٤:

جاءني الأمير «محمد علي» (ولي العهد) الساعة ١٢ ظهرا، قال لي إن الملك على وجه التأكيد سيء الخلق ومختل العقل، والدليل أنه حضر حفلة في بيت الأميرة شويكار أمس، وجاء إليه الأمير «محمد عبد المنعم» يهنئه بشفائه بعد حادثة القصاصين، ورد الملك على تهنئته بقوله «لابد أن نجاتي سببت خيبة أمل لأناس كثيرين». كانت «جاكلين» (زوجة السفير) موجودة في الحفلة، وقد حضرت المشهد وقالت لي أنها تعتقد أن «الولد» حالة ميئوس منها، وأخشى أن ذلك صحيح.

١٢ أبريل ١٩٤٤:

أشعر أن القصر يفكر في ألاعيب جديدة، وهم يعرفون أن الجنرال السير «برنارد باجيت» يتخذ موقفا مترددا، ويظنون أن ذلك يعكس اتجاها له تأثير في لندن.

تلقينا اتصالا من القصر بأن الملك يريد أن يراني في الساعة الرابعة بعد الظهر. دخلت لأجد الملك مبتسما، لكن ابتسامته كانت تمهيدا لقنبلة، فقد سلمني مذكرة نظرت فيها ووجدته يقول إنه لم يعد مستعدا لتحمل «النحاس» أكثر من ذلك. He could not stand Nahas any longer. أكملت قراءة المذكرة، لابد أن أعترف أنها تحتوي على حجج وجيهة. انتهيت من قراءتها ووضعتها أمامي، وسألني إذا كنت أوافق على أن الوقت قد حان كي يكلف وزارة محايدة يرأسها صديق له ولنا، بمعنى أنه يحوز رضا الطرفين. سألته أولا عن السبب الذي يدعوه إلى طلب التغيير الآن، فقال إنه غاضب لأن «النحاس» ذهب إلى بعض محافظات الصعيد في زيارة أعقبت زيارة سبقه الملك بها لمناطق انتشار وباء الملاريا، وأنه هناك تصرف بطريقة «ملكية»، وأنه ليس هناك بلد يتحمل وجود «ملكين» في نفس الوقت.

وقلت له ضاحكا إنه لا سمح الله أن يكون في مصر ملكان وقد اكتشفنا أن ملكا واحدا فيه الكفاية. God forbid, we have found that one king is quite enough.

سألته من هو مرشحه لرئاسة هذه الوزارة الموالية له ولنا، وأجابني بأنه يفكر في «أحمد حسنين» رئيس الديوان. وعرض على قائمة بأسماء عدد من المرشحين للمناصب الوزارية

قال «تشرشل» للنحاس
أن ملك بريطانيا يدعوه (تشرشل)
لتناول طعام الغداء معه كل أسبوع في قصر
«باكنجهام». وفهم «فاروق» الإشارة بذكاء، ورد عليها بقوله
«إنه مستعد أن يدعو «تشرشل» للغداء معه
كل أسبوع ولكن لسوء حظه فإن رئيس
وزرائه اسمه «مصطفى النحاس»».





المختلفة. قلت للملك أنني لا أستطيع أن أجيبه إلا بعد الرجوع إلى لندن. ذكرته بأن رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» هو الذى يشرف بنفسه الآن على أعمال وزير الخارجية فى غياب الوزير، وأبدى «فاروق» ارتياحه الشديد لما قلت معلقا أن ذلك أفضل لأن «تشرشل» «صديقه». ولا أعرف من أين ولا كيف نشأت هذه الصداقة بين الاثنين.

١٨ أبريل ١٩٤٤:

أبلغنى «سمارت» (السير والتر سمارت المستشار الشرقى للسفارة) أن «حسنين» اتصل به تليفونيا ليبلغه أن الملك «فاروق» وقع خطاب إقالة وزارة «النحاس». طلبت من «سمارت» أن يتصل تليفونيا بحسنين وأن يبلغه أننى أطلب مقابلة الملك فورا، وأننى مكلف بإبلاغه رسالة من رئيس الوزراء. وعاد «حسنين» فاتصل بسمارت يخطره بأن الملك ينتظرنى فورا ولا ينبغى أن أتأخر حتى لتغيير ملابسى، بحيث أرتدى بذلة الردنجوت التى تفرضها المراسم على زوار الملك.

دخلت مكتب الملك الساعة ١,٤٥ بعد الظهر، وبدأنا بمجاملات استغرقت ثوانى، ثم دخلت فى الموضوع، فقلت له أننى قلقت من رسالة أبلغها «حسنين» إلى «سمارت». أخرجت من جيبى رسالة كنت قد تلقيتها قبل الظهر من لندن، وهى بتوقيع «ونستون تشرشل» نفسه نصها كما يلى:

«إن المشاكل التى تستحكم لسوء الحظ بينكم وبين وزارة «النحاس» (باشا) مهمة بحيث أننى أفضل أن أستطلع فيها رأى وزارة الحرب. وسوف أفعل ذلك فى الأسبوع القادم، وأثق أنكم لن تقوموا بأى تصرف فى هذه المهلة، وقد أصدرت تعليماتى للسفير البريطانى بأن يتخذ كل الإجراءات التى تكفل أن «النحاس» (باشا) من جانبه سوف يمتنع عن أى تصرف مستفز. وأود أن تعرفوا أن حكومة صاحب الجلالة الملك سوف تعاقب أى طرف يبدأ بتصرف فجائى تجاه الطرف الآخر. إننا استطعنا حماية مصر من بشاعة غزو محتمل ومن أن تتحول مدنها إلى ميادين قتال وحشية، ونحن مصممون على تحمل مسئولياتنا فى ظروف هادئة نسبيا، ولذلك فمن حقنا أن نبدى رأينا فيما يحدث».

أعطيت الملك الرسالة ولفت نظره إلى المقاطع المهمة فيها، وقد راح يبدى حججا عرجاء فى شرح موقفه، لكنه بوضوح كان يغطى تراجعه. قال إن «النحاس» فى طريقه الآن إلى الإسكندرية، وسوف يكرر نفس المظاهر التى تصرف بها فى الصعيد، والملك لا يطيق مثل ذلك. أبلغت الملك أن لدينا الآن تعليمات من «تشرشل» نفسه وأن علينا أن ننتظر لنعطيه (تشرشل) الفرصة لعرض الموضوع على وزارة الحرب.

عدت إلى السفارة، اتصل بى «حسنين» تليفونيا. أبلغنى أن الملك سوف يؤخر أى قرار يتخذه إلى حين أتلقى تعليمات من لندن.

١٩ أبريل ١٩٤٤:

تلقيت برقية شخصية من رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» نصها:

«سوف تجتمع وزارة الحرب غدا وهى فى الغالب سوف تقرر منح تأييدها للوزارة المنتخبة ديمقراطيا فى مصر ضد عصابة القصر التى يرأسها طاغية شرقى أثبت فى كل مناسبة أنه ليس صديقا لبريطانيا. تأكد من أن القائد العام سوف يؤمن لك ما قد تحتاجه من القوات حتى تتمكن من التعامل مع أى شغب ملكى يقدم عليه «فاروق»».

عقدت اجتماعا مع وزير الدولة شارك فيه العسكريون. لاحظت أن الجنرال «باجيت» يتخذ موقفا مترددا. تذكرت ما قاله لى الأمير «محمد على» قبل فترة عن علاقة «باجيت» بسيدة معينة (إحدى أميرات الأسرة المالكة فى مصر). شرح الجنرال «باجيت» تردده بأنه يخشى من تدخل وحدات عسكرية مصرية دفاعا عن الملك، خصوصا وأنه يعرف أن عددا من ضباط الجيش المصرى أحسوا بالإهانة من تصرفنا فى ٤ فبراير، وأقسموا ألا يسمحوا بتكراره. عرضت على المجتمعين برقية رئيس الوزراء لى وكانت نسخة منها قد وصلت إلى وزير الدولة. وشرحت لهم الأسلوب الذى أنوى اتباعه. قلت أننى سوف أحذر الملك، لكنى فى النهاية سوف أذهب إلى لقائه ومعى الجنرال «باجيت» وسوف أقول له بوضوح أنه إذا لم يمتثل فإننى سوف أتركه (مقبوضا عليه) فى عهدة الجنرال «باجيت» نفسه.

٢١ أبريل ١٩٤٤:

أصبحت الأمور شديدة الوضوح أمامنا جميعا. فقد تلقيت رسالة عاجلة من لندن نصها:

«عاجل جدا»

الرسالة التالية من رئيس الوزراء «ونستون تشرشل»:

ناقشت وزارة الحرب اليوم عدة احتمالات واردة من الشرق الأوسط بشأن العلاقات بين الملك «فاروق» وحكومته. وقد صدرت تعليمات إلى سفير حكومة صاحب الجلالة البريطانية بأن يسلم تبليغا من وزارة الحرب إلى الملك «فاروق» هذا نصه:

«إن وزارة الحرب استمعت بقلق إلى آراء لجلالتكم تشير إلى اعتزامكم تغيير الوزارة فى مصر رغم أن هذه الوزارة لا تزال تتمتع بأغلبية فى البرلمان ولازال أمامها ثلاث سنوات قانونية تقضيها مع الأغلبية التى تمثلها. ومن وجهة نظر برلمانية ودستورية فإن تصرفكم على النحو الذى سمعنا به يدفع بالأمور إلى منحنى خطر. وإذا كنتم جلالتكم تشعرون أن هناك دواعى للتغيير فإن السبيل الوحيد أن تقنعوا رئيس وزرائكم بأن يعرض نفسه على الناخبين من جديد، وأن يدعو إلى انتخابات عامة تشرف عليها وزارته لانتخاب برلمان جديد. وقد أصدرت وزارة الحرب تعليمات إلى السفير البريطانى فى القاهرة للتأكد من تنفيذ سياساتها وأخطرت قائد القوات البريطانية فى مصر بأن يتخذ كل الإجراءات التى تدعم أى خطوات يرى السفير البريطانى فى القاهرة اتخاذها».

فى الساعة الخامسة توجهت إلى مقابلة الملك «فاروق» وسلمته دون مقدمات رسالة رئيس الوزراء وطلبت إليه أن يعتبرها تبليغا شفويا إليه. وسألته على الفور عن تصرفه وهو لن يخرج عن واحد من اثنين: أن تبقى وزارة «النحاس» كما هى، أو يقوم «النحاس» بالدعوة إلى انتخابات برلمانية جديدة. نظر إلىَّ الملك وسألنى هل الحكومة البريطانية مستعدة أن تختار نهائيا بين ملك مصر وبين بقاء «النحاس» (باشا) فى الحكم؟ وسألت الملك عن داعيه إلى وضع الأمر على هذا النحو الفظ، وقال الملك أن عليه الدفاع عن شرفه. وسألته: هل يختلف شرف الملك عن شرف الدستور الذى ينظم ممارسة السلطة فى بلاده؟

كان موقفى حازما وقد راح الملك يتمتم بما فهمت منه أنه مستعد للوصول إلى النهاية (التنازل عن العرش).

٢٤ أبريل ١٩٤٤:

اتصل بى «حسنين» (باشا) تليفونيا. أبلغنى أن الملك لديه رد على رسالة وزارة الحرب إليه. أملانى نصها وهى على النحو التالى:

«ردًا على رسالة وزارة الحرب التى قمتم سعادتكم بإبلاغها إلى صاحب الجلالة الملك يوم ٢١ أبريل - أمرنى جلالته بإبلاغ سعادتكم أنه قرر عدم تغيير الوزارة الحالية فى الوقت الحاضر».

قلت لحسنين أن ما سمعته منه يريحنى كثيرا.

أبلغت لندن برد الملك.

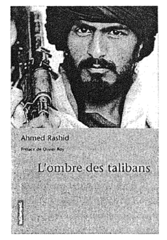
تلقيت رسالة من «تشرشل» نصها كما يلى:

«برافو. كنت واثقا من أن تقديرك للموقف سليم، والآن أريدك أن تبلغ «النحاس» أن يصحح مواقفه ويرتب أموره مع القصر بطريقة تعفينا من التدخل ما بين وقت وآخر. والحقيقة أننى أعترض على إدخالى بهذا الشكل فى الشئون الداخلية المصرية».

وكان صبر الحكومة البريطانية على هذا «النكد» المستمر بين القصر والوفد على وشك أن ينفد!







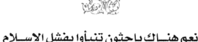




عـولمـة وأصوليــة

كـــــتب يقـــــرؤها الغــــرب

محمـد الميـلى



نعم هنـاك باحثون تنبأوا بفشل الإسلام الراديكالى؛ وهناك شهادات تسجل عناد المقاومة التى تقودها مجتمعات مدنية ضد النظام الذى يريد إقامته مجانين الله. لكن الإسلام الأصولى كان يسجل باستمرار تقدماً ملحوظًا وانتشاراً واسعًا كما يدل على ذلك تتبع ما يجرى فى بلدان إسلامية من الجزائر إلى السودان، ومن أفغانستان إلى إيران وحماس الفلسطينية



لم تسجل أى فترة من فترات التاريخ المعاصر من الاهتمام بالإسلام فى بلاد الغرب، دراسة ونقدًا أو هجومًا وتجريحًا، ما سجلته فترة ما بعد ١١ سبتمبر. وقد تجدد الاهتمام بالقرآن إلى درجة أن مبيعاته سجلت أرقامًا لم تبلغها قبلاً: بل لقد نفدت المصاحف من مكتبات عديدة فى باريس.

ومن المفارقات الغريبة حادثة وقعت فى مطار «أورلى»، نهاية شهر نوفمبر الماضى تدل على مدى التوجس من كل ما من شأنه أن يمثل دعاية «إسلاموية» كما يقال. وقد روت صحيفة «لوموند» الصادرة بتاريخ أول ديسمبر ٢٠٠١ هذه الحادثة. وهى تتصل بالرقابة التى أصبحت شديدة بعد ١١ سبتمبر على كل ما يرد على فرنسا من كتب أجنبية أو كتب فرنسية مترجمة إلى لغات أجنبية. وقد تعودت مكتبة تركية تقع فى الدائرة العاشرة بباريس على استيراد كتب مترجمة للتركية أو عنها، يرتادها الأتراك والأكراد المقيمون فى باريس.

فوجئت صاحبة المكتبة بحجز ٣٣ عنوانًا من بين ١٨٤٩ فى الشحنة التى وصلت يوم ٢٢ نوفمبر الماضى. وبعد اطلاع الجهات المختصة على الكتب المحجوزة يتقرر إذا كان يسمح بتوزيعها أم لا. وهو ما يستغرق ثلاثة أشهر. ومن بين هذه الكتب التى حجزت، ترجمة لكتاب صدر فى أكتوبر بالفرنسية تحت عنوان «ظل طالبان» وهو يوزع فى فرنسا دون قيد. كما حجزت ترجمة لكتاب «ناعوم شومسكى» عن التدخلات الأمريكية فى العالم، وكذلك كتاب «فرانز فانون» «معذبى الأرض» الذى يوجد فى مكتبات فرنسا منذ أربعين سنة. وكتب مسموح بها، مثل الكتب عن الحزب العمالى الكردى المسموح بتوزيعها فى تركيا!



كانت حادثة ١١ سبتمبر تحولاً جدد الاهتمام بقوة بالإسلام الذى أصبح موضوع تصريحات سياسية من طرف مسئولين فى أوروبا وأمريكا على أعلى مستوى، فى نفس الوقت الذى أَجَّجَ الخوف منه.

وإذا كانت الإحاطة صعبة بكل ما كُتب عن الإسلام، وعن التيارات الإسلامية السياسية، فالملاحظ أن هناك قاسمًا مشتركًا يجمع بين العديد من تلك الكتابات، وهو التكهن بأن الأصولية الإسلامية قد بلغ أجلها ودقت ساعتها.

ونكتفى فى هذا الصدد بعينة واحدة تعبر عن تيار كامل، وهو ما كتبه المفكر الفرنسى بيرنار - هنرى ليڤى (Bernard-Henri Levy) فى صحيفة لوموند الصادرة بتاريخ ٢١ ديسمبر الماضى، إذ يقول:

«إن الأصولية (يعنى الإسلامية) ما فتئت منذ عشرين سنة تسير من انتصار إلى انتصار. نعم هناك باحثون تنبأوا بفشل الإسلام الراديكالى؛ وهناك شهادات تسجل عناد المقاومة التى تقودها مجتمعات مدنية ضد النظام الذى يريد إقامته مجانين الله. لكن الإسلام الأصولى كان يسجل باستمرار تقدمًا ملحوظًا وانتشارًا واسعًا كما يدل على ذلك تتبع ما يجرى فى بلدان إسلامية من الجزائر إلى السودان، ومن أفغانستان إلى إيران وحماس الفلسطينية.. إنها انتصارات توالت على امتداد العقود الأخيرة.. وهنا تحدث المفاجأة، تنقلب الأدوار. وإذا كانت الأصولية لم تسحق كلية فقد عرفت هزيمتها الأولى عسكريًا. إنها بداية الانحسار والجزر.

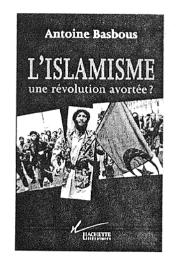
صراع بين إسلامَيْن؟

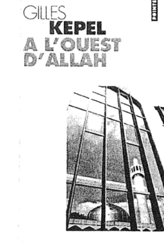
فى هذا المقال ينفى الكاتب عن نفسه الأخذ بفكرة «صدام الحضارات». بل هو ينتقدها محتجًا بالتدخل العسكرى الأمريكى فى صربيا دفاعًا عن مسلمين ضد الصرب وهم مسيحيون. ويبسط فى هذا الصدد فكرة رددها فى العديد من كتاباته، لينشرها أخيرًا ضمن أبحاث ومقالات جمعها فى كتاب صدر عن دار Grasset فى أكتوبر الماضى تحت عنوان: «تأملات فى الحرب والشر ونهاية التاريخ». وخلاصة هذه الفكرة أنه إذا كان لابد من الحديث عن صدام، فهذا الصدام «ليس حربًا صليبية تقودها أمريكا ضد الإسلام، ولكنه صدام بين إسلامين». إسلام أصولى تمثله «الطائفة الجديدة للحشاشين التى تمثل حركة متطرفة تطورت على مستوى العالم لتحارب ما يقال عن انهيار التدين وتراجع المعارف الدينية، ولتعلن حربًا لا هوادة فيها على الكفار من جهة وضد الإسلام العلمانى من جهة أخرى». ويصف هذا الإسلام العلمانى بأنه إسلام متفتح معتدل يعاود الاتصال بفكر ابن رشد (الحفيد) فى نفس الوقت الذى يسجل فيه قطيعة مع التأويلات الأيديولوجية التى عرفها القرن الثامن عشر والتاسع عشر والتى حوصلتها الحركة الوهابية بعد ذلك بعشرة قرون».

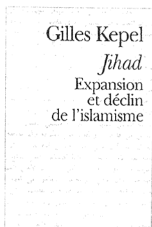


ويشرح الفكرة نفسها فى مقدمة كتابه الذى أشرنا إليه آنفًا، وهى مقدمة كتبها يوم ١٨ سبتمبر ٢٠٠١. وفيها يستعرض بعض ما قيل عن الإسلام بعد الهجوم على نيويورك وواشنطن، ويحوصل أفكار المهاجمين فى موقفين: موقف - يمثل أحسن الحالات - يعتبر الإسلام متضمنًا لنظرة ظلامية عن العالم، غير قابلة لأن تتعاطى مع الحداثة، وغير متلائمة مع حقوق الانسان والديمقراطية والعلمانية والأفكار التنويرية. والموقف الثانى يمثل أسوأ الحالات، يعتبر الإسلام دين قتل وغزو، يتضمن فى طياته التحريض على التقتيل، دين قرر إعلان حرب مطلقة على أمريكا وأوروبا. وفى سياق الموقف الثانى يسوق ما قاله ملاحظون بأن الأدب قال كل شىء عن الإسلام قبل كل الناس، «لأن قاصًا فرنسيًا ندد بالإسلام وبكتابه المقدس قبل مأساة ١١ سبتمبر ببضعة أيام».

والأديب الذى يشير إليه بيير هنرى ليفى،









عـــن الإســـلام

هوالحائز على جائزة جونكور عام ١٩٩٨، وهو «ميشيل هويلبيك» الذى أصدر قصة بعنوان «مصطبة» أو «قاعدة» فى العام الماضى والتى سجلت مبيعات قياسية.

وهى قصة تروى وقائع موظف فى وزارة الثقافة، أصبح عشيق مسئولة فى شركة سياحة كبيرة. وبدلاً من أن تقتصر الحكاية على مغامرات غرامية عادية، تحولت بسبب هذا اللقاء إلى سرد لمجهودات العشيقين من أجل بناء قرى سياحية فى آسيا أو أمريكا اللاتينية تستهوى كل من يلهث وراء السياحة الجنسية.

وفى القسم الأخير من القصة يشن هجومًا شديدًا على لسان بطل القصة الذى يحمل نفس الاسم (Michel) ضد الإسلام والعرب والفلسطينيين.

وقد أجرت معه مجلة «Lire» حديثًا ظهر فى عدد سبتمبر ٢٠٠١ - أى قبل ١١ سبتمبر، فهى شهرية - سألته فيه عن هجومه على الإسلام والسياحة الجنسية، وهل هو يبحث عن المواضيع التى تصدم وتثير السخط، فيجيب:

«لا أبحث عن تلك المواضيع، ولكنى أصطدم بها، فقد أثار انتباهى شىء نتيجة التقاء هذين الموضوعين، يتمثل فى السواح العرب الذين يترددون على بانكوك. كنت أتصور بكل بلاهة أن كل المسلمين طيبون.. لكنى تبينت أن كثيرين لا عقيدة لهم ويعيشون فى نفاق مطلق. فى تايلاند يكونون أشد سعارًا من الغربيين فى بحثهم عن اللذة».

يلاحظ مستجوبه أن حديثه عن الإسلام لا يوحى بالاحتقار بل ينم عن الحقد، فيجيبه: نعم يمكن أن تسميه حقدًا.

ثم يسأله الصحفى: هل يرجع سبب حقدك على الإسلام لكون أمك اعتنقته؟

فيقول:

- كلا.. لأنى لم آخذ إسلامها مأخذ جد. لكنها وجدت فى ذلك آخر وسيلة تزعج بها الناس بعد سلسلة تجارب لا تقل عن الإسلام تفاهة. والواقع أنى شعرت فى سيناء، حيث تلقى موسى الوصايا العشر، بنوع من الوحى السلبى يدفعنى لرفض كل الديانات التوحيدية. قلت فى نفسى: إن الاعتقاد فى إله واحد لا يصدر إلا عن غبى أبله».

ويسأله محاوره: «إن بطلك الرئيسى ينطق بهذه الجملة: «كلما عرفت أن إرهابيًا أو طفلاً فلسطينيًا أو امرأة فلسطينية حبلى سقطت تحت الرصاص فى قطاع غزة، تعترينى نشوة ارتياح». فيكون جوابه:

«الانتقام شعور لا أعرفه. لكن الوضع الذى يوجد فيه ميشيل، (بطل القصة) يدفعه إلى قتل أكبر عدد ممكن من المسلمين. إن الإسلام دين خطر.. ومن حسن الحظ أنه محكوم عليه بالزوال من جهة لأن الله غير موجود، ومن جهة أخرى لأن الإسلام ملغوم من الداخل بالرأسمالية».



إلا أن بيرنار - هنرى ليفى لا يوافق طبعًا على ما جاء فى القصة على لسان بطلها، ولا على ما جاء فى حديثه للمجلة، بل هو يشير مجرد إشارة إلى القصة وصاحبها دون أن يسميهما، فى سياق استنكارى يرفض أمثال هذه المقولات. بل إنه يؤكد - على رغم كونه غير متخصص فى الإسلام كما يقول - على أن بعض ما يعرفه من تاريخ الإسلام ومواقف بعض المسلمين وما يعرفه عن الفكر القومى العربى الناصرى، يجعله يتأكد أن الإسلام فى جوهره لا يتعارض مع العلمانية. ثم يقول:

«عرفت عن قرب إسلام البوسنة، وعرفت بدرجة أقل إسلام الطرق الصوفية فى السنغال، وكلاهما يقوم دليلاً على أن الإسلام ليس أجنبيًا عن الديموقراطية». ثم يذكر أن الادعاء بأن الإسلام كله يعادى كل الغرب، يعنى تقديم هدية لا تعوض إلى بن لادن لأن مثل هذا الادعاء يعزز صف الذين يسيرون فى ركابه وعلى نهجه.



إن الذى يهمنا من استعراض آراء هذا المفكر هو رأيه فى أن ما يسميه بالأصولية، وما يسميه آخرون بالإسلام السياسى، آخذ فى الانحسار والانكماش.

والواقع أن التكهن بهذا الانحسار لم يظهر بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فقط. فقد سبق لمجلة العالمين الإسلامى والمتوسطى (Revue des mondes musulmans et de lo Mediranee) فى عدديها ٨٥ و٨٦، اللذين صدرا فى مجلد واحد فى مارس ١٩٩٩ أن خَصَّصَتْهُ لموضوع سمته «ما بعد الإسلام» (Le Port - Islamisne) أو «ما بعد الإسلام السياسى»؛ شارك فى كتابة أبحاثه عدد من الخبراء والأساتذة لا يقل عن ثمانية. وبعد ذلك بسنة واحدة بالضبط، صدر كتابان بفرنسا، فى مارس ٢٠٠٠، أحدهما لصحافى لبنانى مقيم بباريس والآخر لأستاذ جامعى وباحث فرنسى مختص فى شئون الإسلام المعاصر.

الإســـلام الســـياســى

بالنسبة للمجلة يرى كاتب التقديم أن التساؤل حول ما بعد الإسلام السياسى يعنى فشل هذا التيار فى إقامة دولة إسلامية تدير المجتمع حسب المبادئ الإسلامية. وفى هذا التقديم يقول صاحبه إن التساؤل عما بعد الإسلام السياسى، مرادف للتساؤل حول ما بعد الإسلام: ويشرح مقصوده من ذلك قائلاً:

«من الواضح أن الآثار أو الجراح التى خلفتها فترة انتشار الاتجاه الإسلامى جراح عميقة. ومن الواضح أيضًا أن ظهور فضاء العلمانية خارج فكر دينى يضع تصورًا له ويمنحه الشرعية، يمكن أن يتسبب فى أزمة تدينه (أى تراجع الممارسات الدينية).

لكن ملاحظاتنا هنا لا تنصب على انحسار الممارسة الدينية، (لأن الأبحاث تنقصنا) ولكنها تتناول ظهور الممارسة الدينية فى مجالات اجتماعية وفردية متنوعة».



أما الإجابات التى تمت صياغتها لبلورة الاهتمام بالممارسة الدينية فيلخصها صاحب المقدمة فى ثلاثة:

** هناك قبل كل شىء صيغة الأصولية الجديدة التى تسعى، بعد أن لاحظت أزمة الإسلام السياسى، إلى تحديد الممارسة الإسلامية بالاحترام الدقيق للواجبات والممنوعات. وحتى فى حالة ما إذا كان الأصوليون الجدد ماسكين بزمام الحكم (مثل الطالبان) بحيث يكون باستطاعتهم أن يستعملوا ضغط الدولة لتحقيق ذلك، فإن نقطة الحسم فى نشاطهم لا تتناول المجتمع بوصفه مجتمعًا فهم يجهلونه، ولكنه ينصب على الفرد المؤمن. فالأصولية الجديدة تساهم فى فردية التدين، وترفض الدولة، رغم ما تردده فى خطابها عن «الأمة» لأن هذه أصبحت مجرد صورة خيالية.

** يأتى بعد ذلك التقليد المحافظ الذى يتصف به علماء مندمجون فى جهاز الدولة، مثل مصر، فهم يفاوضونها حول الفضاء الذى يمكنهم أن ينشطوا فيه ليمارسوا رقابتهم الاجتماعية؛ وبذلك فهم يحدّدون المشروع الإسلامى بحدود الأخلاق، تاركين مجال السياسة للدولة التى تستعملهم.

** وهناك أخيرًا المشروع المتعلق بعلم الكلام الحديث (أو فلسفة الدين) الذى يسعى لإجراء تفكير جديد فى الإسلام على ضوء معوقات تجرده من مفهوم الثقافة وتبعده عن ميدان السياسة.

بعد التقديم يأتى المبحث الأول فهو الذى يهم موضوعنا، وهو يحمل نفس العنوان الموضوع على غلاف المجلة «ما بعد الإسلام السياسى». وقد كتبه

«أوليفيي روا» (Olvier Ray) الذى يبدأ بحثه بتقرير حقيقة قل أن ينازع فيها أحد إذ يقول:

«إن الإسلام السياسى يواجه اليوم مأزقًا، رغم أنه لايزال عامل تعبئة شعبية». أما المأزق فيفسرد بوجود آراء متضاربة داخل مشروعه السياسى والاجتماعى، سواء عندما يتعلق الأمر بصياغة برنامج حقيقى للحكم كما هو الشأن فى إيران، أو بسبب القمع وانسداد باب العمل السياسى كما هو الشأن فى سوريا ومصر والجزائر وكذلك تركيا. فذلك من شأنه أن يدفع عددًا من المنظرين إلى إعادة صياغة غير تكتيكية لمشروع العودة إلى الإسلام، (بينما تتجه أقلية منهم نحو أعمال العنف اليائس).

ذلك أن ممارسة السياسة كان من نتائجها أن المجتمع المدنى الذى هو مجال تحركهم الذى ينطلقون منه إلى الحكم، ينفلت منهم، دون أن تتمكن السلطة الرسمية من احتوائه، كما هو الشأن فى مصر والجزائر، ودون أن تستفيد من ذلك المعارضة كما هو الشأن فى إيران.

وبعبارة أخرى إن العوائق التى اصطدم بها مشروع الدولة الإسلامية ـ وهى تختلف باختلاف الفضاءات التى يتحرك فيها الإسلاميون ـ اضطرت منظريهم إلى تكييف دعوتهم والبحث عن صياغة جديدة لمشروعهم. وهذا ما أدى إلى تعدد الاجتهادات والمدارس، بما فيها مدارس التكفير التى توالدت بصورة أميبية ترجع فى جملة ما ترجع إليه إلى سطحية التكوين، وضحالة الاستيعاب لأصول الإسلام، مع غياب ثقافة تاريخية وانعدام الاطلاع على الفقه فضلاً عن التمكن من اللغة العربية والتضلع فى علوم الدين وأصوله، الذى هو ضرورى لكل من يريد أن يجتهد فى الدين ويستنبط أحكام الشرع.

إن العراقيل التى اصطدمت بها المشاريع الإسلامية، لأن هناك أكثر من مشروع لتصور كيفية إقامة الدولة الإسلامية، قد أفضت عمليًا إلى نتيجتين: الأولى: هى اضطرار دعاة المشروع إلى إعادة صياغته بما يتلاءم مع المحددات والضغوط المذكورة. وهذا يستلزم التخفيف من الغلو الذى اتسمت به الدعوة الإسلامية فى أوج انتشارها؛ وبالتالى يدفع ذلك الوضع الإسلاميين إلى صياغة مشروع أكثر اعتدالاً وأقل شططًا.

الثانية: البحث عن فضاءات جديدة للتبشير بمشروعهم فى صياغته الجديدة، وخاصة فى اتجاه الجاليات العربية والإسلامية التى تعيش فى أرض المهجر بأوروبا وأمريكا.

إن الالتجاء إلى تلك الأقليات تسبب فى خلق وضعية جديدة مليئة بالتناقضات:

ـ فالأقليات المذكورة تعرف أنها لا تستطيع أن تصبح أغلبية فى موطنها الجديد؛ ونظرًا إلى أنها لا تفكر إطلاقًا فى العودة إلى الوطن الأم، فهى تضطر لأن تتكيف مع القوانين اللائيكية التى هى قوام النظام فى أوروبا وأمريكا.

ومن شأن ذلك أن يؤثر على الخطاب الإسلامى الموجه إلى هذه الأقليات. وهذا ما يفسر ظاهرة برزت فى بلد مثل فرنسا تتمثل فى إقرار فكرة التلاؤم مع النظام القائم، ومواءمة قوانينه. وهو ما يؤدى إلى اجتهادات وتأويلات فى صياغات الدعوة الإسلامية تهدف إلى كسب المسلمين المهاجرين دون أن

David Pujadas • Ahmed Salam
La tentation du Jihad
L'islam radical en France

الأصولية الجديدة تساهم فى فردية التدين، وترفض الدولة، رغم ما تردده فى خطابها عن «الأمة» لأن هذه أصبحت مجرد صورة خيالية

تصطدم مع النظام الغربى أو نظام الأغلبية. من هنا أصبحت هذه الأقليات مصدرًا من مصادر الاجتهاد عندما يكون المنظر من داخلها، وملهمة للاجتهاد عندما يكون المنظر من خارجها. ويتوجه إليها بالخطاب، لأنه مضطر لمراعاة ظروفها، وسواء كان هذا أو ذاك فإن النتيجة العملية هى أن تلك الاجتهادات تؤثر على الإسلام السياسى.

ثم إن دولة القانون السائدة فى أوروبا وفى أمريكا والمناخ الديموقراطى المتوفر هناك لمواطنيها ولغير مواطنيها كان فرصة لأنصار الاتجاه الإسلامى المتطرف، استغلوه فى إقامة شبكات دعم وتمويل وإمداد لبعض التنظيمات «الجهادية» المسلحة العاملة فى بعض البلدان كالجزائر مثلاً.

أدَّتْ هذه التناقضات إلى نتائج متضاربة وخاصة بعد ١١ سبتمبر. فالملاحظ، قبل ذلك التاريخ، أن شكوى البلدان المتضررة من شبكات الدعم المشار إليها، مثل مصر والجزائر، لم تلق آذانًا مصغية فى أوروبا أو فى أمريكا، مادامت شبكات الدعم تلك لم تمس الأمن الداخلى فيها. وليس من المستبعد، كما تدل على ذلك بعض المؤشرات، أن البلدان الغربية كانت تتصور أنها بذلك اشترت الأمن، وضمنت عدم تجرؤ الشبكات المذكورة فى أن تتحرك ضد محتضنيها؛ ومن الواضح أن هذه الشبكات تعرف أن مصلحتها هى فى عدم القيام بأى عمل فى أرض الغربة، لأن أى إخلال بالأمن من شأنه أن ينقلب عليها.

هذه المنفعة المتبادلة لم تمنع من ظهور أفكار داخل المغتربين الذين يعدون من جمهور الإسلاميين، تدعو إلى تكيف الأقلية المسلمة مع المجتمع اللائيكى الذى تعيش وسطه. وهذا فى الوقت الذى كانت فيه عناصر أخرى تعتبر أن واجب المسلم الملتزم يفرض عليه أن يسعى لنشر الإسلام بين الأوروبيين والأمريكان؛ وهو مسعى يكمل وينسجم مع مسعى «أسلمة» المجتمعات العربية والإسلامية التى يرى بعض المنظرين أنها ابتعدت عن الإسلام، بل هناك من حكم عليها بالكفر، فيجب أن تدخل فى الإسلام من جديد.

هذا الاتجاه يمثل فى الواقع أقلية بالنسبة للاتجاه الداعى للتكيف مع المجتمعات اللائيكية، إلا أنه تعزز بعناصر الجيل الثانى من أبناء المهاجرين الذين ترددوا على أفغانستان وباكستان، ليتلقوا نوعًا من التأهيل فى مدارس إسلامية، ينتقلون بعدها إلى معسكرات التدريب العسكرية فى بيشاور، ويقدر مؤلفا كتاب «إغراء الجهاد»، دافيد بوجادا وأحمد سلام، (باريس عام ١٩٩٥، La Teutation du Jihad) عدد الذين ترددوا على أفغانستان وباكستان بعدة آلاف، دون أن يذكروا رقمًا مدققًا (ص ٦٤). وهذا يعنى أن هذه الأقلية من الإسلاميين متحفزة للتحرك والتبشير بالإسلام. بل إن بعض الجمعيات الإسلامية أصبح يستعمل مصطلحًا جديدًا: فجمعية «اتحاد الشبان المسلمين» عقدت مؤتمرها عام ١٩٩٤ الذى أعلن فيه بعض الخطباء أن «فرنسا لم تعد دار عهد» بالنسبة للمسلمين، بل أصبحت دار كفر يجب التبشير بالإسلام فيها، أو تعتبر «دار إسلام» مادام هناك مسلمون فيها يمارسون شعائرهم الدينية دون قيود.

كما ذكر ذلك جيل كيبيل فى كتابه A l' mest d' Allah (منشورات لوسوى عام ١٩٩٤. ص ٢٣٩).

ولا شك أن الذى ضاعف من تحفيز الجيل الثانى لهذا العمل وتقبلهم الدعوة لنشر الإسلام فى فرنسا أنهم سمعوا ما يحكيه آباؤهم عن بطولات حرب التحرير ضد فرنسا، فكان لديهم نوع من شعور الحرمان إن لم يدركوا ذلك العهد؛ فهم يريدون من خلال هذا الموقف أن يعوضوا ما فاتهم، بل أن يكونوا أفضل من الجيل السابق.

هذه الشريحة من المغتربين وجدت فى دعوة بن لادن ما يوافق هواها، فى نفس الوقت الذى وجد فيه تنظيم القاعدة أن هذه الشريحة «خميرة» صالحة للاستعمال يمكن تحريكها عندما يقتضى الحال.



لكن الدعوة إلى أسلمة فرنسا لم تثر الاهتمام لأنها لم تؤخذ مأخذ الجد، وخصوصًا أن هناك وجهة النظر الأخرى التى تطالب بتكيف الأقلية مع واقع مجتمع لائيكى، علمًا بأن هناك مؤشرات ترجح كون هذه الدعوة قد أتت ثمارها ممثلة فى الذين اندمجوا فى المجتمع الفرنسى اندماجًا كليًا، وفى بعض مشائخ الدين الذين لهم جنسية فرنسية ويعتبرون أن واجبهم هو الانسجام مع القوانين اللائيكية.



يتبين مما تقدم أن الأقليات المسلمة فى بلاد الغرب، غير منسجمة فيما بينها، ولا تنطق بصوت واحد؛ إلا أن تناقضاتها لم تظهر إلا بعد ١١ سبتمبر، فقد وجدت مع ذلك اليوم، وضعية جديدة جعلت السلطات الغربية تشعر بخطر يمكن أن يدهمها من داخل هذه الأقليات التى تبين أنها تحتضن «شبكات نائمة من الإرهابيين» الذين هم على استعداد لضرب مصالحها عندما تأتيهم التعليمات.

وهذا ما يفسر لجوء كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إلى سن قوانين جديدة تمكنها من ملاحقة «الإرهابيين» المحتملين.

أما فرنسا فلم تفعل ذلك؛ ولعلها شعرت أن دعاة التكيف نجحوا فى مسعاهم. لكن ذلك لم يمنع بعض السياسيين والصحافيين من أن يثيروا، ما حدث فى مباراة كرة القدم بين الجزائر وفرنسا يوم ٦ أكتوبر: فقد عمد بعض الشبان الفرنسيين من أصل جزائرى إلى التصفير عندما عزف النشيد الوطنى الفرنسى «لامارسييز». اعتبر بعضهم ذلك نذير خطر ولاموا الوزير الأول الفرنسى على أنه لم يغادر الملعب احتجاجًا على الاستهزاء بالنشيد الوطنى. لكن هناك سياسيين ومفكرين فرنسيين آخرين لم يعطوا لهذا الحدث أية دلالة خاصة، واعتبروه مجرد انفعال عابر لشباب عديم التجربة.

جيل جديد من رجال الإسلام الرسمى

والواقع أن السعى لتحسين صورة الإسلام فى الغرب قد بدأ منذ عدة سنوات، من خلال ندوات ودراسات عديدة. ولعل هذا هو ما دفع بعض البلدان العربية ـ الإسلامية إلى التفكير فى الخروج كليًا أو جزئيًا عن المألوف فى إسناد بعض المهام الدينية، مثل مشيخة الأزهر فى مصر والمجلس الإسلامى الأعلى فى الجزائر، إذ وجدت كل منهما أنها واقعة بين شقى رحى: مجتمع مدنى يدفع إلى مزيد من الأخذ بالحداثة والاندماج فى العصر، ودعوة الإسلام السياسى التى تتخذ أحيانًا صورة انغلاق مطلق ورفض كامل للحداثة، حتى بلغ الأمر فى الجزائر بهذا التيار إلى أن يحمل السلاح ضد نظام يعتبره كافرًا.

فقد عينت الجزائر، منذ ١٩٩٤ رئيسًا للمجلس الإسلامى الأعلى شخصية «مدنية» إن صح هذا التعبير، هو المرحوم عبد المجيد مزيان الذى يتقن اللغات الأجنبية زيادة على العربية، كما يتقن اللهجات المحلية، وقد كان أستاذًا جامعيًا لامعًا، عرف بسعة اطلاعه وتضلعه فى علوم الاجتماع والتاريخ. وقد شغل قبل ذلك منصب أمين عام رئاسة الجمهورية فى أول حكومة جزائرية بعد الاستقلال، تحت رئاسة الزعيم أحمد بن بلا. وقد عرف أيضًا بقدرته العجيبة على المحاجة.

وعندما توفى عين مكانه الأستاذ «الشيخ بوعمران» الذى يتمتع هو الآخر بإتقان اللغة العربية واللغة الفرنسية، وكان مهتمًا منذ شبابه الباكر بالدراسات الإسلامية، ومن ثم كان احتكاكه بفكر شخصيات أوروبية اهتمت بالإسلام وحضارته مثل الفرنسى «ماسينيون»، والإنجليزى «جيب» وتجدر الملاحظة أن لفظة «الشيخ» هى جزء من اسمه، وليس صفة علمية تعطى لمشايخ الدين، وقد أجرت معه صحيفة الوطن الناطقة بالفرنسية الصادرة بتاريخ ١٣ ديسمبر الماضى استجوابًا حول مشاكل الساعة المتصلة بالإسلام والتعاطى مع الحداثة، ومعنى الجهاد.



وقد أجاب عن سؤال الجهاد بما ترجمته:

«إن مفهوم الجهاد له معنيان: أحدهما واسع والآخر ضيق، فالجهاد بالمعنى الواسع يعنى الجهد الذى يبذله المرء إزاء نفسه للتحكم فى أهوائه. والمعنى الآخر يعنى الحق المشروع فى الدفاع ضد احتلال أجنبى. إن الغرب يترجم عادة هذا الجهاد بـ «الحرب المقدسة» فى حين أن الترجمة الأمينة هى «الحرب العادلة»».

وقد ترك لنا نبى الإسلام حديثًا مشهورًا يتضمن هذين المعنيين، قاله عند عودته من إحدى الغزوات: «عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». والإسلام ما فتئ يحرم العنف غير المشروع كما تؤكد ذلك الآية التالية من سورة «المائدة»:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾.. ثم يواصل الأستاذ بوعمران حديثه قائلاً: «إن بعض الحركات (الإسلامية) قد أوّلت أثناء ظروف تاريخية معينة مفهوم الجهاد تأويلاً خاطئًا لا يجيزه الإسلام الصحيح. ثم إن المرجعية فى إعلان الجهاد هم كبار العلماء الذين يمثلون الأمة الإسلامية فى مجموعها وليس هذه الأقلية أو تلك ممن هم غير مؤهلين لإبداء الرأى فى الموضوع».

ومعروف أن أكثر من جهة إسلامية أيدت مثل هذا الرأى لتصحيح صورة الإسلام عند غرب يضع أحيانًا كل المسلمين وكل مدارس الإسلام فى سلة واحدة جنبًا إلى جنب مع الإرهاب.

الإسلام السياسى والعولمة

هناك ظاهرة أخرى جديرة بالتسجيل فى هذا السياق وهى أن العولمة قد أجبرت الإسلام ـ والإسلام السياسى خاصة ـ على أن «يتعولم» هو الآخر. ولا شك أن وجود أقليات مسلمة فى أوروبا وأمريكا ساعد على عولمة التيار الإسلامى المسيس، فلم يعد نشاط الإسلام السياسى قاصرًا على بلد واحد: أصبح ممثلوه يسعون لإقامة تنظيمات تربط أشتاته وتعمل على توحيد ممثليه على مستوى العالم.

ونظرًا للظروف التاريخية التى قامت منذ انفراد أمريكا بالهيمنة على العالم، فقد عمل أبرز تيارات الإسلام السياسى وأكثرها حركية على توحيد المسلمين فى ظل الكراهية لأمريكا. وهكذا كانت أمريكا، وهى أكبر داعية لانفتاح العالم بعضه على بعض فى إطار عولمة بلا حدود هى الضحية المشهودة لإسلام سياسى معولم.

إن الإسلام السياسى إذ استغل العولمة، قد أعطى الانطباع بأنه هدفه ليس فقط محاربة لأمريكا، ولكنه يتمثل أيضًا فى إقامة مجال حضارى إسلامى يخترق الحدود ويعبر القارات.

لقد كانت الأمم والبلدان الإسلامية، تأخذ كل منها بالإسلام على طريقتها، وبمقتضى الظروف التاريخية التى تحكمت فى صياغة ثقافاتها وتكوين فهمها للإسلام. فلم يكن يوجد اتصال وثيق بينها، ولم يكن هناك تبادل فعلى متواصل بين تياراته.

أما بعد عولمة الإسلام السياسى فقد تبين أن هناك مسعى جادًا لتوحيد تيارات الإسلام السياسى، بصورة مرعبة فى عدائها للغرب ولإسرائيل كما سجل بعضهم.

وهذا ما جعل مجلة «Le Debat» (النقاش) ـ وهى مجلة تاريخية وسياسية اجتماعية، تتعرض للموضوع، فى عددها رقم ١١٧ الصادر بتاريخ نوفمبر وديسمبر ٢٠٠١.

وبما أن مواد العدد قد جهزت قبل ١١ سبتمبر فقد كتبت تعليقًا فى خاتمته بعنوان: «عالم أصبح مظلمًا، طرحت فيه عددًا من التساؤلات تنم عن حيرة وخوف. فهى تلاحظ أن توحيد الإسلام السياسى بصدد أن يتحقق فى ظل الكراهية لأمريكا والعداء لإسرائيل، لكن محتواه غير واضح: فهل هو يعادى الغرب أم يعادى الحداثة. وفى هذه الحالة لابد أن نفحص العوامل التى أدت إلى هذا الواقع، فهى فى آن واحد تاريخية وكولونيالية واجتماعية وسياسية، واقتصادية وثقافية وتقنية ودينية. وهى عوامل لا ترجع إلى زمن تاريخى واحد، ولاتتعلق كلها بكل المجتمعات الإسلامية، فأى الأحاسيس كان حاسمًا داخل هذه الشبكة من الحقد والعداوة والرفض للآخر؟».

ثم تضيف:

«إن الاختصاصيين يقولون إن الإسلام السياسى قد فشل، وأن الثورة الإسلامية قد انتهت، وأن حلم إقامة أنظمة سياسية حسب تعاليم العقيدة الإسلامية فقد إشعاعه كما فقد قدرته على التعبئة. لكن هل يعنى ذلك أننا تخلصنا من المشكل السياسى للإسلام، أى من طموح العقيدة للتأثير على المجرى السياسى للمجتمعات وعلى نظام العالم؟ إنهما أمران مختلفان لا يجوز لنا أن نخلط بينهما. فبقدر ما يكون الخلط بين الإسلام والإرهاب باعثًا على السخرية، بقدر ما تكون غير ذات موضوع الفكرة التى ترى فى الإسلام كتلة واحدة لابد من الاصطدام بها؛ على أن ذلك لا يجردنا من حقنا وواجبنا فى أن نُسائل الإسلام عن التبعات والتطبيقات السياسية التى تستلزمها رسالته الدينية. إننا لا نستطيع أن نتجنب نقاشًا فى العمق مع المؤمنين الصادقين. لماذا يفلت الإسلام، دون الأديان الأخرى مثل اليهودية، من امتحان النقد الذى خضعت له المسيحية فى العصر الحديث؟ يجب التذكير بأن المسيحية لم تصبح متسامحة ولم تقبل بفصل الدين عن الدولة من تلقاء نفسها ولكن تحت ضغط عدة قرون من كفاح فكرى واجتماعى وسياسى لا هوادة فيه».

AU MILIEU DU MONDE

Michel Houellebecq

Plateforme

roman

Flammarion

العوائق التى اصطدم بها مشروع الدولة الإسلامية اضطرت منظريهم إلى تكييف دعوتهم والبحث عن صياغة جديدة لمشروعهم. وهذا ما أدى إلى تعدد الاجتهادات والمدارس، بما فيها مدارس التكفير التى توالدت بصورة أميبية

بعد هذا تسجل المجلة التلازم الذى يلحظه المرء بين تأكيد الهوية الدينية فى المجتمعات الإسلامية وبين السخط والاحتجاج الاجتماعى نتيجة الأوضاع الاقتصادية المتردية، لتنتهى إلى القول إن هذا الاقتران بين الهوية والسخط الاجتماعى «يفرض أيضًا التساؤل عن أسباب فقر أغلبية سكان البلدان الإسلامية. فى هذا الإطار يجب أن نطرح السؤال حول مسئولية الخطاب الدينى للإسلام فى تجميد التطور بالبلدان التى يوجد فيها على رأس الحكم».

وإذا كان القارئ يسلم ببعض الاستنتاجات السابقة فلا يَسَعُ القارئ خصوصًا المسلم إلا أن يشك فى سلامة الربط بين الفقر وحكم الإسلام. لأن هناك عدة بلدان غير مسلمة فضلاً عن أن يحكمها الإسلام، وتعانى من الفقر الشديد، سواء فى القارة الأفريقية أو فى آسيا. كما أن هناك بلدانًا محكومة بنظام إسلامى لا تعانى من ظاهرة انتشار الفقر. فمحاولة إيجاد علاقة بين الإسلام والفقر تهدف ـ سواء قصد لذلك صاحب التعليق أم لم يقصد ـ إلى تبرئة النظام الاقتصادى العالمى وصندوق النقد الدولى من مسئولية انتشار الفقر. وهذا لا يعنى طبعًا إعفاء حكومات بلدان إسلامية من مسئوليتها فيما آلت إليه مجتمعاتها من فقر وضياع.

ومهما يكن من شىء فإن أكثر من ملاحظ غربى يسلم بأن الصدى الذى لقيته دعوة بن لادن فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى يرجع إلى كونه أعطى الانطباع بأنه لا يكتفى بمحاربة أمريكا. وأنه يسعى لإقامة فضاء حضارى إسلامى. هذا ما جعل فيلسوفًا مثل الفرنسى «إدجار موران» (Edgard Morim) يعتبر أن مشروع بن لادن إذا جُرِّد من «البنلادنية»، وتَعَاطى مع الديمقراطية يصبح إيجابيًا لأنه يسير فى اتجاه التجمعات الكبرى.

الإسلام السياسى ثورة أجهضت؟

أنطوان بسبوس (٤٧ سنة تقريبًا)، صحافى يعيش فى فرنسا منذ نحو عشرين سنة. كان قريبًا من «الكتائب» خلال الحرب الأهلية فى لبنان. أنشأ منذ أكثر من عشر سنوات «مرصد البلدان العربية» وهو مكتب استشارة متخصص فى الدراسات الاستراتيجية، التى تهم الشركات الصناعية الكبرى كما تهم المؤسسات الفرنسية.

كتابه «الإسلام السياسى ثورة أجهضت» خصصه للحديث عن ظاهرة انحسار المد الإسلامى، وهو يشتمل على خمسة فصول. خصص الفصل الأول للتيار الإسلامى السياسى كما ظهر فى خضم النزاع الأمريكى السوفياتى، ويركز بصفة خاصة على دور الأفغان العرب فى أفغانستان، وعن احتضان الطالبان، بعد استلامهم الحكم، لأسامة بن لادن، وبعد أن يشير لأهم الأحداث والظواهر التى عرفتها المنطقة العربية، مثل «الانتشار الذى حققه الإسلام الشيعى» فى لبنان، حسب تعبيره، ومثل تمرد جهيمان فى الكعبة مطلع ١٩٨٠، ينهى هذا الفصل بتخصيص نحو ست عشرة من الصفحات لأسامة بن لادن الذى يسميه «شى جيفارا» الإسلام. ويذكر أنه أصبح ملتزمًا التزامًا كليًا بقضية الإسلام السياسى منذ ١٩٨٤، وأنه انتهى من تنظيم «القاعدة» عام ١٩٨٨. ومن أفغانستان نشر بواسطة الأفغان العرب شبكاته فى أكثر من عشرين بلدًا عربيًا وغربيًا. وما لبث بن لادن أن أصبح العدو رقم واحد لأمريكا ومطلوبًا رأسه من أكثر من بلد عربى بالإضافة إلى أمريكا. وبعد أن يستعرض محاولات الاغتيال التى تعرض لها، يتحدث عن مفاوضات الأمريكان مع نظام الطالبان من أجل تسليم أسامة بن لادن مقابل اعتراف أمريكا والأمم المتحدة بنظام طالبان. لكن المفاوضات فشلت لأن العقلية الأفغانية لا تقبل تسليم من هو فى حمايتها. ويستشهد المؤلف فى هذا الصدد بأن الأفغان، رفضوا عقب الحرب العالمية الثانية تسليم ألمان لجأوا إليهم وأصروا على عدم تسليمهم إلى الحلفاء.

فى الفصل الأول يتعرض الكاتب للعلاقة بين التيار الإسلامى العالمى ومذهب محمد بن عبد الوهاب، هذا المذهب الذى تطور حتى أصبح بمثابة

كتاب الزاوية



دير ياسين
مراسل أجنبي يروي

وصف مراسل الإسوشييتد برس فظائع اليهود في قرية دير ياسين فقال إنه ذهب إلى أحد مستشفيات الحكومة ليلة أمس حيث التقى بفتاة عربية تسمى فهيمة مصطفى على أصيبت بجراح نتيجة لانفجار قنبلة يدوية وراحت تروى له في فزع شديد كيف هاجمت عصابات الإرهاب اليهودي قريتها.

ومضت الفتاة تقول: كانت القرية كلها نائمة عندما بدأ حوالي ٥٠٠ يهودي بمدافعهم الثقيلة هجومهم الفظيع، وحاول حراس القرية وعددهم حوالي ٤٠ رجلاً أن يصدّوا هذا الهجوم. ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح. واقترب اليهود من باب بيتنا فألقى أبي عليهم قنبلة يدوية، فأطلقوا عليه رصاصهم فأصابوه في كتفه. فخرج من البيت مسرعًا ليختفي في فرن القرية، وصحبت أنا أشقائي وشقيقاتي إلى فناء البيت، واحتمينا خلف حمار، ولكن شقيقتي الطفلة أعولت فدلّت اليهود على مخبئنا وأوقفونا جميعًا في صف واحد بما فينا جدتي وانهالوا علينا بالسباب والإهانات التي أعقبوها برصاص مدافعهم الرشاشة.

ونقلونا في سيارتين إلى مستعمرة غفعت شاؤول حيث وقف اليهود يسخرون منا ويضحكون، ونُقلنا بعد ذلك إلى الطريق العام حيث طُلب منا أن نغادر السيارتين.

وطلبوا إلينا بعد ذلك أن نعطيهم كل ما نملك وإلا أطلقوا علينا النيران. ثم وقف اليهود في دائرة حولنا ودخلت الفتيات اليهوديات إلى الدائرة ونزعن ثيابنا جميعًا، وتركننا عاريات كما ولدتنا أمهاتنا وسلبن الأقراط والخواتم التي نملكها، والتقطوا لنا صورًا ونحن عاريات ثم أمرونا أن نرتدي ملابسنا ونسير في اتجاه بوابة يافا.

«فاتيكان» للإسلام الحنبلي كما يعبر عنه المؤلف.

يعقد بعد ذلك فصلاً ثالثًا عنوانه «خاتمي يقلب صفحة الثورة الخمينية». وهو يعتبر خاتمي نصيرًا للحداثة ومنفتحًا على الغرب. وهو إذ يتعرض للعبة الشد والجذب بين رئاسة الجمهورية ومؤسسة الملالي، يؤكد أن «الإيرانيين بعد عشرين سنة من الثورة الإسلامية أدركوا أن مكان الدين هو المسجد وليس الحلبة السياسية. لأن طبقة رجال الدين خسرت ما كانت تحظى به من تقدير عندما أصرت على ممارسة حكم مطلق» (ص ١٠١).



أما الفصل الرابع فيخصصه للجزائر تحت العنوان التالي: «فشل الديمقراطية وإفلاس الإسلام السياسي بالجزائر». وفيه يستعرض الأطوار التي مرت بها الجزائر منذ «انتفاضة» ١٩٨٨ إلى أن تم انتخاب الرئيس عبد العزيز بوتفليقة.

وفي الفصل الخامس يتحدث عن النظام المصري ومزاوجته بين التفاهم مع التيار الإسلامي وقمعه.

ويختم الكتاب بخلاصة يقول فيها: «انتهى القرن العشرون بكارثة حقيقية حلت بالتيار الإسلامي الراديكالي في البلدان العربية، كارثة قضت على فرصته في أن يستولي على الحكم في المدى القريب. إن الإسلاميين إذ اعتمدوا مذهبًا يتناقض مع العالم العصري واستعملوا عنفًا أعمى، قد تعرضوا للانقسام، وتلاعب بهم البوليس السياسي، وأصبحوا يمثلون الشر في نظر السكان، فخسروا المعارك التي أنشبوها ضد الحكومات القائمة، لأنهم اصطدموا مع سلطات متسلطة، وواجهوها في ميدانها المفضل: وهو العنف والقمع. إن الأنظمة العربية تدافع عن نفسها بأقصى ما يمكن من قوة، دون أن تأبه بالرأي العام، وطنيًا كان أو عربيًا أو دوليًا: كل الأنظمة العربية واجهتهم بصرامة سواء كانت ملكية أو جمهورية، علمًا بأن النظم الجمهورية سجلت أرقامًا قياسية في طول البقاء، ويحاول بعضها أن يؤسس لتوريث الحكم في خلفه». (ص ٢٥٧).

ويتساءل المؤلف في هذه الخاتمة: «هل يعني هذا أن الخطر الإسلامي قد زال نهائيًا؟ رغم أننا شرعنا في نهاية دورة تفضي إلى وضعية جديدة، فإننا أبعد ما نكون عن استخلاص نهاية الإسلام السياسي كايديولوجية سياسية - دينية، تطمح إلى ممارسة الحكم وتدين «المنحرفين»، وتبعد آخرين، وتدعو إلى العنف وتمارسه. ونظرًا لاستمرار الأسباب التي مهدت لظهور وانتشار الإسلام السياسي حاضرًا، فسوف نشهد في المستقبل انبعاث هذه الظاهرة خاصة في بلدان لم تعرف جحيم العنف والحرب الأهلية، في الوقت الذي يتواصل فيه العنف، بدرجات متفاوتة في الجزائر التي انفجر فيها عام ١٩٩٢».

لقي هذا الكتاب عند صدوره رواجًا كبيرًا، إذ يلبي حاجة جمهور متلهف لمعرفة كل شيء عن الإسلام السياسي، وقلق من الآثار التي يمكن أن يخلفها في بلد مثل فرنسا عرف عمليات إرهابية، كان تنظيم بن لادن وراءها ولو بصورة غير مباشرة، كما يلمح لذلك كتاب أنطوان بسبوس.



ولعل أحد عوامل نجاح هذا الكتاب عندما صدر أنه زيادة على ما ذكر، سهل التناول؛ فهو يعتمد في معظم ما يقدمه من معلومات على كتابات صحفية مستقاة من صحف عربية وغربية. ومن هنا وقوعه في أخطاء تاريخية، اقصد أنه يسوق أحيانًا معلومات صحيحة لكن يضعها في غير وقتها. فهو مثلاً ينسب تصريحًا للرئيس بومدين حول الرشوة على أنه صدر عنه سنة ١٩٧٤، في حين أنه صدر منه أثناء اجتماع في عاصمة الغرب الجزائري انعقد عام ١٩٦٦. (ص١١٢). كما أن هناك مصطلحات مثل «الإسلام الثوري» تحتاج إلى تدقيق. كما أنه لم يتعرض بالتحليل للأسباب التاريخية التي أدت إلى أزمة السكن (ص١١٤) فهي ترجع إلى عهد الرئيس بومدين الذي رفض منذ ١٩٦٦ سياسة تنظيم النسل التي اقترحت عليه، ولم يضع سياسة إسكان اجتماعي، بل صدرت تنظيمات غير مفهومة تمنع التعامل مع العقار أي الأرض المعدة للبناء، بيعًا وشراء.

وكذلك ما ذكره في هامش ص ١١٦، عن فتوى صدرت بإعدام «ابن بيتور» عندما عين رئيس حكومة عام ١٩٩٩ «لأنه إباضي» حسب ما أورده. فهي لا تستحق الذكر إلا في سياق توضيحي كامل، لأنها تجعل القارئ غير الجزائري يتصور أن حكم الإعدام صدر في حقه لانتمائه الطائفي وليس لكونه تحمل مسئولية في نظام تعتبره الجماعات المسلحة «كافرًا». فالمذهب الإباضي ما فتئ مقبولاً في الجزائر، ولم يتعرض الإباضيون لأي اعتداء أو معاملة سيئة بسبب مذهبهم. وهم متواجدون في جميع أنحاء الجزائر. وأول ما ظهرت فكرة التمييز ضد الإباضيين عام ١٩٥٥ بإيعاز من مصدر استعماري، لذلك تصدت لها جبهة التحرير في الإبان وأحبطتها بسرعة.

وفي صفحة ١١٧ يستعرض ما يقوله السكان وما تردده صحيفة الجبهة الإسلامية للإنقاذ عندما تنتقد أزمة السكن وتندد بانعدام المساواة فيه؛ فهو يصدر عن فكرة التسوية المطلقة بين الناس، كأنهم «أسنان مشط» (egalitarinne) وليس عن المساواة بمفهومها الإسلامي أوالمدني أو هما معًا - فالصورة التي يقدمها في هذا الصدد كانت تبدو نشازًا عام الاستقلال. أما في عام ١٩٩٨ فقد تنوسيت وتعود عليها الناس، فلا مكان لها في كتاب يحلل أزمة التيار الإسلامي، إلا إذا كان ذلك ضمن تحليل شامل ومعمق لجميع مظاهر الأزمة وجذورها التاريخية.

ومجمل القول في هذا الكتاب أنه سد، كما قلنا، فراغًا عند صدوره، لكنه لا يمثل دراسة

معمقة لأزمة التيار الإسلامي. ولعل عذر كاتبه أنه يتوجه به لقراء عاديين في فرنسا وليس لباحثين أو متخصصين.



إنهاك الأيديولوجية الإسلامية

أما كتاب «جيل كيبيل» «الجهاد: انتشار وانحسار الإسلام السياسي» الذي صدر عن دار جاليمار عام ٢٠٠٠ أيضًا، فهو من تأليف باحث متخصص، ٤٦ سنة، أستاذ جامعي وعالم اجتماع وسياسة. وقد كان أول أعماله أطروحة عن الحركات الإسلامية المصرية عام ١٩٨٤، وأصدر كتاب «ضواحي الإسلام» عام ١٩٨٧، و«انتقام الله» عام ١٩٩١. وكتابه الذي نعرض له اليوم عن انتشار وانحسار الإسلام السياسي، قضى خمس سنوات في إعداده.

وهو يحدد هوية كتابه هذا في المقدمة عندما يتعرض للكم الضخم من الخُطب والمواثيق والنشرات والأدبيات والأبحاث التي صدرت عن الإسلاميين خلال الأربعين سنة الماضية بدءًا من المودودي في باكستان، وسيد قطب في مصر، والخميني في إيران، وانتهاء بالجيل الجديد الذي خلفهم هنا وهناك. ولا شك أن استنطاق هذا الكم الكبير من الوثائق أمر صعب لأنه يتطلب معرفة جيدة باللغات التي كتبت بها، واطلاعًا واسعًا على الظروف التي حفت بصدورها، والتي تختلف باختلاف المناطق من ماليزيا إلى باكستان إلى الجزائر إلى مصر وتركيا وإيران والبوسنة. ويشير أن ما صدر من أبحاث معتمدة على استنطاق تلك الوثائق ظل حبيس الدوائر الأكاديمية، ثم يقول: «إن طموح هذا الكتاب هو أن يعرض الظاهرة في مجموعها، من خلال العالم، على مدى ربع القرن الذي مضى. وذلك بملاحظة تطورها وتتبع مختلف مكوناتها وعلاقاتها مع محيطها، سواء في البلدان المعنية بها بدرجة أولى، أو في مجتمعات ودول البلدان الغربية. إذ من الممكن الآن بعد مرور جيل كامل على بدايات ظهورها أن نضبط حصيلة حقيقية لها».



وهو إذ يشير إلى اختلاف الظروف الاجتماعية والنفسية والتاريخية التي تطورت فيها الظاهرة الإسلامية، يسجل أن تعقيدات تلك الظواهر وسمكها وكثافتها تجعل لاغية كل محاولة تؤسس على أحكام قيمية تنطلق من تصوير مثالي للحركة، أو تنديد شديد بها. كما يسجل أن مثل المسعى الذي التزم به كان يبدو مستحيلاً منذ عشر سنوات، لكنه أصبح الآن ضرورة لا محيد عنها. لأن الحركات الإسلامية دخلت مرحلة انحسار تضاعفت وتيرتها منذ منتصف سنوات التسعينيات من القرن العشرين. ومن هنا فإن التعرف على أسباب هذا الانحسار، وتقييم تأثيراته، والتنبؤ بنتائجه، يمثل رهانًا عصيبًا بالنسبة للمستقبل القريب لعالم إسلامي أصبح يَعُدُّ في بداية الألفية الثالثة أكثر من مليار نسمة متجاوزًا بذلك عدد المسيحيين في العالم.

إن الظاهرة الإسلامية خلال الفترة الفاصلة بين عام ١٩٧٠ وعام ٢٠٠٠ كانت - كما تبين لنا فيما بعد - قد كشفت عن الانقلابات المهمة والمتغيرات المأساوية التي عرفتها عوالمها بعد مرور جيل بعد الاستقلال. إنها شكلت إلى حد بعيد مرحلة النفي للعصر الذي سبقها وهو عصر الحركة الوطنية. ومن هنا فإن الإنهاك الذي لحق بالأيديولوجية الإسلامية يفتح الطريق لعصر ثالث يفترض فيه أن يتجاوز ما سبقه. ثم يقول المؤلف: «إن هذه المرحلة التي تبتدئ مع القرن الحادي والعشرين سوف تشهد دخول العالم الإسلامي في زمن الحداثة حسب أشكال من الاندماج في العالم الغربي لم يسبق أن عُرفت، وخاصة عن طريق الهجرات وما تفرزه من ظواهر، وبسبب الإعلام وثورة الاتصالات. ولكي يكون توقعنا للنتائج المستقبلية دقيقًا، يجب أن نقدم حصيلة للعصر الذي مضى، ونفهم كيف استطاع الإسلام السياسي أن يَخْلُفَ الفكر الوطني مع احتفاظه ببعض خصائصه، ثم يجب أن نفهم كيف يمكن للانحسار الإسلامي أن يفتح الطريق بدوره لديمقراطية إسلامية تبحث عن طريقها».



من الصعب أن يحوصل الإنسان هذا الكتاب - الحصيلة ويلخصه في صفحات محدودة؛ فهو أولاً كتاب ضخم، من حيث عدد الصفحات، بالقياس إلى سابقه، إذ يمثل ثلاثة أضعافه. وهو ثانيًا دراسة متعمقة وشاملة في الوقت نفسه؛ فقد خصص الفصل الأول للتحول والانقلاب الذي حدث في كل البلدان العربية بعد يونيو ١٩٦٧، ثم يتناول بالتشريح حالة الإخوان المسلمين بمصر؛ ويقدم في نفس الفصل صورة عن العلاقة بين الإسلاميين ورجال الأعمال في ماليزيا والتوترات العرقية فيها. كما يتناول دكتاتورية ضياء الحق في باكستان والشرعية التي أصبغها عليه التيار الإسلامي. وينهي هذا الفصل الأول بقسم عن الدروس المستخلصة من الثورة الإيرانية ومفارقاتها.

في الفصل الثاني يسهب الحديث عن انتشار الإسلام السياسي وتناقضاته، فيستعرض الفورة التي أحدثتها الثورة الإسلامية في إيران وما ترتب عليها من تأثير في محيطها العربي وغير العربي. كما يتعرض للحواجز التي أقيمت في وجهها، ومن ضمنها الجهاد في أفغانستان. ويخصص قسمًا من هذا الفصل، هو الثالث للكلام عن الإسلام المالي والهيمنة السعودية. وفي القسم الرابع من



دير ياسين
دموع التماسيح؟!

علقت صحيفة «فلسطين» على الحادث قائلة: مضت ثلاثة أيام على الهجوم الوحشي الأثيم على قرية دير ياسين ولم يصدر عن الهيئات اليهودية أي تصريح سوى ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده اثنان من السفاحين قالا إنهما يمثلان عصابتي شتيرن والإرغون وقد أفضوا أمام المراسلين الأجانب بأنهم قتلوا مائتي عربي أو يزيد محاولين إيهام المراسلين بأن القتلى الرجال هم المجاهدون العرب، وقد تسنى لهم بذلك إحراز نصر عسكري مزعوم.

وقصدت العصابات اليهودية - ومن ورائها الوكالة اليهودية - في كذبتها هذه إظهار مقدراتها العسكرية في العالم الخارجي ولاسيما في أمريكا حيث أخذ الرأي العام يدرك قوة اليهود العسكرية على حقيقتها وليس كما صورتها له الدعاية الكاذبة، وأرادوا من عرض نساء وأطفال القرية العربية في القدس رفع الروح المعنوية عند أهالي القدس اليهود الذين تحطمت أعصابهم مؤخرًا وعرتهم خيبة أمل شديدة بسبب الهزائم المتلاحقة التي مُنوا بها على أيدي الأبطال العرب.

إن تنصل الوكالة من ذلك العمل الإجرامي الشنيع كذب وتضليل جديد تضيفهما إلى سجلها الحافل بالأضاليل.

إن مناورات الاستنكار بالكلام لم تعد تجوز على أحد حتى ولا على حكومة الانتداب التي أوجدت الوكالة وعصاباتها المختلفة. فإن لم تستطع الوكالة اكتشاف المجرمين والقبض عليهم وتسليمهم للعدالة، فلا يعني ذلك إلا موافقتها على عملهم الدنيء وعجزها عن السيطرة على الشعب الذي تدَّعي رعاية شئونه.



الفصل الثانى يتحدث عن الانتفاضة فى فلسطين و«أسلمة» القضية الفلسطينية، لينتقل فى القسم الموالى إلى سنوات الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الجزائر. ويعنون القسم السادس بـ «الانقلاب العسكرى والإسلاميين بالسودان»، ليختتم هذا الفصل الثانى بقسم يخصصه لأوروبا كأرض إسلام والحجاب والفتوى.

أما الفصل الثالث فيعنونه بـ «بين العنف والديمقراطية». ويجزئه إلى أحد عشر فرعًا، يبدئها بحرب الخليج الثانية وما أحدثته من تجزئة وانقسام فى الصف الإسلامى، ويعقب عليه بشرح ما يسميه «الفخ الذى نصبته السعودية لنفسها». وينتقل بعد ذلك للحديث عن «تحلل وتوالد الجهاد الأفغانى» ثم حرب البوسنة ورفض تطعيمها بالجهاد. وفى قسم خامس يتحدث عن «حرب الجزائر الثانية ومنطق المجازر»، لينتقل إلى مصر وخطر الإرهاب على الظاهرة الإسلامية، ثم يحلل ما يسميه «الحرب التى أخطأت الغرب». وفى جزء ثامن من هذا الفصل الثالث يتحدث عن «أسامة بن لادن وأمريكا والإرهاب والمشهد الكبير». ثم يعود إلى فلسطين «بين المطرقة والسندان: حماس، إسرائيل وعرفات». ليتحول إلى الأردن، ويختتم هذا الفصل عن تركيا والضغط على الإسلاميين الأتراك ليقبلوا باللائيكية.

وفى خاتمة الكتاب يخصص نحوًا من أربعة عشر صفحة للخلاصة التى يعنونها بتساؤل: «نحو ديمقراطية إسلامية».

توظيف أفغانستان ضد إيران وضد فلسطين

يتبين من استعراض الفصول الثلاثة ومحتوياتها، أنه من غير الممكن تلخيص الكتاب ونقده فى هذه الصفحات. وفى انتظار فرصة تسمح بكتابة عرض نقدى مفصل، يمكن أن نأخذ فكرة عن محتواه من خلال تلخيص التمهيد أو المدخل الذى كتبه فى نحو خمسين صفحة، فهو يرجع - وليس الوحيد الذى فعل ذلك - بدايات الإسلام السياسى إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣. ويعتبر أن المرحلة الأولى للانتشار الكاسح تمثلها الثورة الإسلامية فى إيران ١٩٧٩. ونظرًا للقفزة الكبرى فى أسعار البترول التى تسببت فيها حرب أكتوبر، فقد وجدت إيران الإمام الخمينى فى متناولها أداة تخدم توجهها الراديكالى وتعبئتها لمن تسميهم «المستضعفين»، بينما «وضعت المملكة العربية السعودية ثروتها الضخمة فى خدمة مفهوم محافظ للعلاقات الاجتماعية». ومن هنا اتسم الإسلام السياسى منذ بداياته بـ «الازدواجية»، وذلك ما يفسر الصعوبة التى يصطدم بها من يحاول فهمه. فنحن نجد فى صفوفه شباب المدن الفقير نتيجة الانفجار الديموجرافى فى العالم الثالث، والهجرة الجماعية من الريف إلى المدينة التى مكنت لأول مرة فى التاريخ هؤلاء من الدخول إلى أقسام المدرسة. كما نجد ضمن الصفوف نفسها البرجوازية التجارية والطبقات الوسطى المتدينة؛ ونجد أيضًا أطباء ومهندسين أو رجال أعمال انتقلوا إلى البلدان البترولية بحثًا عن عمل. فهؤلاء إذ أصبحوا أثرياء، أُبعدوا عن السياسة. إن هذه الجماعات و«الفئات الاجتماعية التى تفرق بينها مطامحها ونظرتها إلى العالم، ستجد، طيلة جيل من الزمان، فى لغة الإسلام السياسى وخطابه ترجمة مشتركة لمشاعر الحرمان المختلفة لدى هؤلاء وأولئك وتعبيرًا عن آمالهم المستقبلية التى تختلف من فئة لأخرى».

لقد كانت الأمم والبلدان الإسلامية، تأخذ كل منها بالإسلام على طريقتها، وبمقتضى الظروف التاريخية التى تحكمت فى صياغة ثقافاتها وتكوين فهمها للإسلام. فلم يكن يوجد اتصال وثيق بينها، ولم يكن هناك تبادل فعلى متواصل بين تياراته

أما الخطاب السياسى الذى يجمع بين هذه الفئات المختلفة فهو صادر عن «شباب مثقف، حديث عهد بالتخرج من كليات علمية وتقنية يغذيها أصحاب الأيديولوجيات التى ظهرت فى سنوات الستينيات». (وهو يقصد بذلك كلا من الإمام الخمينى، والمودودى وسيد قطب).



وهكذا تشكلت قوة ضخمة، سياسية لفتت انتباه دول المنطقة؛ بعضها حاول قمعها، وبعضها شجعها. ذلك أن الثورة الإسلامية الإيرانية جعلت الأنظمة تنتبه إلى أن هزيمة الشاه ترجع إلى أنه استعدى رجال الدين، وأن الخمينى انتصر لأنه عرف كيف يوحد الجماهير حوله، فقراء وتجارًا وحتى الفئات اللائيكية المتوسطة. وقد انصرف جهد الأنظمة فى المنطقة إلى محاولة فصل البرجوازية المتدينة عن الإسلام السياسى، بتقديم تنازلات معنوية وثقافية ساعدت عمليا على مناخ «الأسلمة» التى تمت «فى اتجاه رجعى»، كما ضحت الأنظمة بالمثقفين اللائيكيين والكتاب وكل النخبة المتأثرة بالغرب. وقد «أدت المملكة العربية السعودية دورًا مركزيًا فى هذا المسار، بتوزيع المال واستقطاب الطبقات الوسطى المتدينة اعتمادًا على ما يوفره النظام البنكى الإسلامى الذى تهيكل فى هذه الفترة» (ص ١٣).

وقد تميزت العشرية الأولى (١٩٧٩ - ١٩٨٩) بصراع حاد على المستوى العالمى بين المملكة السعودية وإيران الخمينى. «ففى مواجهة تصدير الثورة الذى تسعى لتحقيقه إيران، على النمط السوفيتى وحسب ما عمدت إليه الثورة الفرنسية، عبأت المملكة السعودية إمكانياتها لإيجاد سدود توقف انتشار وتصدير الثورة، حسب الأسلوب الذى استعملته أمريكا ضد الاتحاد السوفيتى فى سنوات الحرب الباردة» (ص١٣).

ذلك هو الإطار الذى يتناول فيه المؤلف حركة «الجهاد» التى دارت معاركها على الأرض الأفغانية، والتى خطفت الأضواء من المعارك التى يديرها صدام ضد إيران بدعم من دول الخليج، ومن الممارسات الإيرانية فى لبنان بواسطة حزب الله وفى الحرم المكى حيث سعت إلى إثارة القلاقل. فحرب أفغانستان ضد الوجود السوفيتى تهدف - زيادة على إلحاق هزيمة بموسكو مثل الهزيمة التى لحقت بأمريكا فى فيتنام - تهدف أيضًا إلى استقطاب المناضلين الإسلاميين فى العالم وصرفهم عن تلبية دعوة الإمام الخمينى للتعبئة ضد «الشيطان الأكبر»، أمريكا - وفى نفس الوقت تحل قضية أفغانستان وتأخذ مكان فلسطين فى الخيال العربى، فاتحة الطريق لأن يأخذ الإسلام السياسى مكان القومية العربية.

«وقد ظلت المصالح الخاصة السعودية والأمريكية والباكستانية، تتطور إلى غاية ١٩٨٩ أن حركة الأفغان تحت السيطرة (ص ١٤) لكن هذه السنة عرفت الانتفاضة الفلسطينية التى برزت فيها «حماس» مكان منظمة التحرير، كما ظهرت الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر، فى الوقت الذى فتح فيه انقلاب عسكرى بالسودان الطريق أمام حسن الترابى الذى يصبح هو المنظِّر الأساسى للإسلام السياسى وسيد النظام فى الخرطوم.

وإذا كان الإمام الخمينى قد اضطر فى هذه الفترة إلى الانسحاب من الجبهة العراقية موقعًا الهدنة مع صاحب بغداد، فإنه سعى لتعويض هذا الفشل بالفتوى التى أصدرها بإعدام سلمان رشدى: فهو بذلك وَسَّعَ الفضاء الإسلامى رمزيًا إلى العالم الغربى ابتداء بأوروبا الغربية. وتزامن ذلك مع مسألة الحجاب التى شغلت فرنسا عندما أصرَّت تلميذات على ارتداء الحجاب داخل المدارس الفرنسية، فسجلن بذلك دخول الجيل الجديد من المهاجرين فى معترك السياسة. ولا شك أن انهيار الاتحاد السوفيتى قد فتح مجالاً جديدًا للإسلام السياسى فى عدد من الجمهوريات السوفيتية سابقًا.

لكن الإحساس بالانتشار الساحق للإسلام السياسى يعتمد على قواعد اجتماعية هشة. فالحلف الذى يضم الشباب الفقير فى المدن مع الطبقات الوسطى المتدينة، الذى عززه مثقفون صهروا المذهب النظرى الإسلامى، لم يصمد كثيرًا فى مواجهته للأنظمة القائمة؛ فقد نجحت هذه فى الكشف عن التعارض بين الطموحات الملموسة والحلم المبهم بإقامة الدولة الإسلامية وبين تطبيق أحكام الشريعة.



وهكذا لم تتحقق آمال البعض ولم تتأكد مخاوف الآخرين. فقد بدأ عقد التسعينيات باحتلال جماعات متطرفة للمجال الإسلامى العالمى، مثل «الجماعات الإسلامية المسلحة» فى الجزائر، وحركة الطالبان فى أفغانستان.

وينسب المؤلف بدايات الشروخ التى عرفتها تحالفات الإسلام السياسى إلى حرب الخليج الثانية. وبعد سقوط «كابول» فى أيدى بعض الحركات الجهادية، أبريل ١٩٩٢، توزع المجاهدون بين بلدان ثلاثة: البوسنة والجزائر ومصر، لكن اتفاقيات «دايتون» عام ١٩٩٥ سجلت فشلهم فى البوسنة، بينما حمل الأفغان العرب للجماعات المسلحة فى الجزائر دعمًا معتبرًا. ولا شك أن الأساليب والممارسات التى عمدت إليها الجماعات الإسلامية فى الجزائر، وانفصالها عن واقع الطموحات الشعبية التى كانت تغذى التيار الإسلامى، على امتداد سنوات الثمانينيات، قد وضعت حدًا لانتشار المد الإسلامى الذى بدأ فى الانحسار منذ ١٩٩٤ - ١٩٩٥. وفى ١٩٩٦ عندما استولى الطالبان على الحكم فى كابول، شرعوا فى ممارسات أفزعت الطبقات الوسطى المتدينة، مثل الإجراءات التى اتخذت ضد النساء وإعدام العصاة، وعمليات القتل ضد الكفار، وضد شيعة البنجاب وهندوس كشمير.

وابتداء من عام ١٩٩٧ ظهرت مؤشرات على أن عددًا من القوى التى يتشكل منها التحالف بين الإسلاميين، بدأوا يبحثون عن مخرج. وقد كان انتخاب الرئيس خاتمى ضد إرادة رجال الدين ومؤسستهم وبفضل دعم الشباب الذى لم يعرف الثورة الإسلامية والطبقات المتوسطة فى المدن أول مظهر قوى من مظاهر التحول الجديد.

ويختم المؤلف هذه المقدمة بتساؤل يتراوح بين التفاؤل بالمستقبل والشك فيه، إذ يقول: «يبقى الآن أن ننتظر كيف يتطور هذا التيار الجديد، وهل تستطيع النخب الحاكمة خاصة أن تغتنم فرصة تاريخية من أجل أن تؤسس الديمقراطية فى البلاد التى تحكمها، وهل تقدر على تقديم التضحيات اللازمة لتوسيع القاعدة الاجتماعية، أم تصر على التمسك بمنطق امتلاك الدولة، وهو ما ينذر بعواصف جديدة وكوارث شديدة». ■

أبـــــراج أمـــــريكـــــا العـــــاجيـــــة..

هبـــة رءوف عـــزت

إسبوزيتو تعـرض بعـد ١١ سبتمبر مباشـرة لهجـوم شرس كان كفيلاً بأن يسكته أو يهـزه على الأقـل مثلمـا أفلـح فى إسـكات وإرهـاب آخرين من أسـاتذة الدراسـات الإسـلامية والشـرق أوسـطية بـل ودفـع بعضهـم لترك الساحة الأكاديمية الأمريكـية برمتها والذهـاب للتدريـس فى إنجلترا

ربما لم نسمع مؤخرًا كلمات أصدق من كلمات جون إسبوزيتو الأستاذ البارز بجامعة جورج تاون ومؤسس ومدير مركز التفاهم الإسلامى المسيحى فى زيارته للقاهرة منذ أيام والتى التقى فيها بمحررى وكتَّاب مجلة «الكتب وجهات نظر» حين قال فى معرض تحليله لأحداث الحادى عشر من سبتمبر وآثارها الواسعة: «يجب أن ندرك جميعًا أن هذه اللحظة كانت لحظة تحول حقيقى، وأن تداعياتها ستغير وجه العالم وتوازنات القوى به، وأن علينا أن نعمل بضعف الجهد ونعطى ضعف الوقت لدعم قيم الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية.

الإرهاب والساحة الأكاديمية الأمريكية:

فى جولته التى استغرقت ٥ أيام بالقاهرة وحاضر فيها إسبوزيتو فى أكثر من دائرة فكرية والتقى بالعديد من الباحثين والأكاديميين والمفكرين، وأصر على أن يؤكد أنها زيارة خاصة للالتقاء بالأصدقاء والزملاء، قام جون إسبوزيتو بتدشين كتابه الأخير الذى صدر مع وصوله لمصر فأرسلت له دار أوكسفورد الجامعية للنشر النسخ الأولى للقاهرة مباشرة، وهو الكتاب الذى اختار له عنوان «حرب غير مقدسة: الرعب باسم الإسلام»، والذى تم طرحه بالمكتبات فى أوروبا وأمريكا منذ أقل من أسبوعين. ولعل المتابع لأعمال إسبوزيتو بدءًا من «التهديد الإسلامى: وهم أم حقيقة» ومرورًا بموسوعة أوكسفورد للعالم الإسلامى (٤ أجزاء)، و«الإسلام: الطريق المستقيم» و«الإسلام والعلمنة فى الشرق الأوسط» و«المرأة فى القوانين الإسلامية للأسرة» و«الإسلام والتنمية»، يدرك أهمية أن نقرأ ما نشره إسبوزيتو بعد ١١ سبتمبر.



ليس لأن إسبوزيتو كان موضوعيًا فى كتاباته كلها عن الإسلام وفى نشاطات مركزه بجامعة جورج تاون والذى يدرس الإسلام ويدرِّسه لطلاب الجامعة فى المراحل الأكاديمية المختلفة، مثلما يدرس ويدرس المسيحية الشرقية ودور نصارى العرب فى التاريخ والحضارة والواقع والمستقبل، بل لأن إسبوزيتو تعرض بعد ١١ سبتمبر مباشرة لهجوم شرس كان كفيلاً بأن يسكته أو يهزه على الأقل مثلما أفلح فى إسكات وإرهاب آخرين من أساتذة الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بل ودفع بعضهم لترك الساحة الأكاديمية الأمريكية برمتها والذهاب للتدريس فى إنجلترا. ولا عجب أن يأتى هذا الهجوم من اللوبى المناوئ الذى يقدم أسوأ صورة للإسلام والمسلمين فى الدراسات الأكاديمية وينشط فى الدوائر السياسية الأمريكية لدعم إسرائيل والدفاع عن صورتها ومصالحها لدى الإدارة الأمريكية.

ولكن دعونا نبدأ بالهجوم. وتحديدًا بكتاب مارتن كريمر الأكاديمى القادم من جامعة برنستون حاملاً رسالته للدكتوراه والذى قام بالتدريس فى أبرز جامعات الولايات المتحدة وهى جامعات شيكاغو وكورنيل وجورج تاون، وكان زميلاً لمركز وودرو ويلسون الدولى بواشنطن، ثم معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، إحدى أبرز الدوائر الأكاديمية اليهودية فى واشنطن، والأهم من ذلك كله أن كريمر كان مديرًا لمركز موشى ديان للدراسات الشرق أوسطية والأفريقية بجامعة تل أبيب.

كتاب مارتن كريمر الذى صدر بنهاية عام ٢٠٠١ كان بمثابة قنبلة فجَّرت جدلاً حادًا فى حقل دراسات الشرق الأوسط بأمريكا، واختار كريمر لكتابه عنوان «أبراج عاجية فوق الرمال: فشل دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا» والناشر هو معهد واشنطن مرة أخرى. الأهم أن هدف نشر هذا الكتاب لم يكن سرًا، بل كتبه معهد واشنطن فى تقديمه للكتاب حيث أكد المعهد أنه يقوم بنشر هذا الكتاب «ليكون بين يدى صانع القرار فى واشنطن، هذا السياسى الذى قد لا يجد وقتًا لقراءة الكتابات الضخمة أو البحوث الطويلة». وبالفعل الكتاب جاء فى متن لا يزيد على ١٠٠ صفحة بعد حذف الهوامش والملاحق البحثية، رسالته واضحة وأفكاره محددة المعالم.. ورسالته لا لبس فيها ولا غموض. ضربة ١١ سبتمبر الموجعة هى مسئولية الأكاديميين فى مجال دراسات الشرق الأوسط والذين فشلوا فى أن «يتنبأوا» بالكارثة. ولماذا فشلوا؟ لأن الحقل برمته يرزح تحت وطأة أزمة حادة، أوضح كريمر معالمها بوضوح فى فصول الكتاب المختلفة وصاغها بإحكام ليصل إلى نتيجة محددة. مراجعة الدعم الفيدرالى لمراكز وأقسام دراسات الشرق الأوسط بالجامعات الأمريكية، ووضع معايير صارمة لأى تمويل لهذا الحقل، والدفع بعدد أكبر من غير الأكاديميين فى موقع الإشراف على المنح الأكاديمية بالحقل، وأخيرًا: اشتراط أن يخدم الحقل الحكومة الأمريكية بشكل مباشر فى سياساتها تجاه الشرق الأوسط.



هذه النتيجة كانت بمثابة الحل الوحيد للمشكلة المعقدة، والأزمة الحادة التى حدد كريمر معالمها عبر ترتيب أفكار أطروحته كالتالى:

١ - إن الحقل كان أصلاً اختراعًا أمريكيًا بنهاية الأربعينيات كما تقوم الدوائر الجامعية الأمريكية بتقديم فهم أعمق للمنطقة يخدم سياساتها و«المصلحة القومية» الأمريكية ويضمن أن سياساتها التى ستؤثر على ملايين البشر بها ليست سياسات عمياء بل رشيدة. لكن الأكاديميين الذين قام الحقل على أيديهم كانوا فى أحيان كثيرة من الأمريكيين العرب أو من العقول الأكاديمية الأوروبية التى هاجرت لأمريكا للتدريس، وبذلك فإن المصلحة القومية لم تكن شغلها الشاغل بقدر ما كان البحث العلمى ومنهجيته، وهى مسألة مفهومة لكنها حالت دون أن يكون الحقل على صلة مباشرة بصنع السياسة الأمريكية.

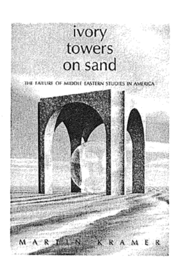
٢ - إن اللحظة التى بدأت فيها أزمة الحقل تتضح مع نهايات السبعينيات هى اللحظة التى نشر فيها إدوارد سعيد (الفلسطينى!) كتابه «الاستشراق»، والذى ما لبث أن صار نصًا مرجعيًا يتهم كل من يدرس العرب والمسلمين وفق المناهج الغربية بالعنصرية والتحيز والمركزية الأوروبية، مما «أرهب» الأكاديميين وجعلهم «يحاولون» إثبات موضوعيتهم بالبحث فى الجوانب الإيجابية فى الثقافة والسياسة العربية، ورغم أن الحقل فشل فى «التنبؤ» بالثورة الإيرانية، فقد استمر أثر كتاب إدوارد سعيد كاسحًا فى دعم «ما بعد الاستشراق» وكتاباته.

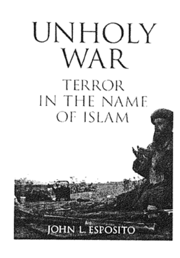
٣ - إن المد الإسلامى الذى شهدته المنطقة العربية فى الثمانينيات والتسعينيات وكان «ينذر» بالخطر قد تم التعتيم عليه من قبل الباحثين فى مجال دراسات الشرق الأوسط ويخص هنا كريمر كتابات إسبوزيتو بهجوم خاص يتكرر فى فصول الكتاب المختلفة ويفرد له ١٢ صفحة من الكتاب محدود الصفحات، حيث يرى أن إسبوزيتو قد ضلل صانع السياسة الأمريكية خاصة فى عهد كلينتون وصرف نظره عن هذا الخطر الإسلامى بحديثه عن القوى الإسلامية باعتبارها قوى اجتماعية مدنية يجب دراستها فى سياق دراسة التحول الديمقراطى كعملية تاريخية ممتدة، وأن

1- Unholy War
Terror In the Name of Islam
(حرب غير مقدسة: إرهاب باسم الإسلام)
John Esposito
OxFord University Press, 2002.

2 - Ivory Towers on Sand: Failure of Middle Eastern Studies in America
(أبراج عاجية فوق الرمال: فشل دراسات الشرق الأوسط فى أمريكا)
Martin Kramer
Washington: The Washington Institute For Near East Blicy, 2001.

وحروبها غير المقدسة





محاولة إسبوزيتو التركيز على أصوات الاعتدال والتجديد كانت السبب الأول في التقليل من خطر أصوات التشدد والعنف.



ويرى كريمر أن الانتفاضة الفلسطينية قد كرَّست هذا التوجه، إذ تمت دراستها باعتبارها حركة مدنية اجتماعية نضالية مما صرف النظر أيضًا عن الآفاق الخطيرة للانتفاضة على الصراع العربي - الإسرائيلي وتفجر «العنف».

وقد اعتبر الكتاب أن أحد عناصر قوة دراسات الشرق الأوسط في أمريكا هو الدعم الفيدرالي الذي يعطي مكانة للهيئات الأكاديمية التي تتلقى هذا الدعم (على ضآلته والتي أشار كريمر ذاته إلى أنها لا تتجاوز ٤ ملايين دولار أي أقل من ثمن ٥ صواريخ كروز على أي بارجة أمريكية!)، ودعا للتدخل المباشر للكونجرس في الرقابة على هذا المال وإلزام الأكاديميين بالتواصل مع السياسيين كشرط لتلقي الدعم الفيدرالي بعد أن أصرَّت الجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط MESA لعقود على الحفاظ على استقلال البحث العلمي عن السياسة الرسمية الأمريكية ومؤسسات صنع القرار لضمان نزاهته ومصداقيته في الداخل وفي الشرق الأوسط، وهو الاتجاه الذي ظل كريمر يسخر منه ويكيل له الاتهامات بأنه كان البرج العاجي الذي اعتصم به الأكاديميون فكانت النتيجة هي أنهم فشلوا في الحفاظ على الأمن القومي الأمريكي (وهي أقسى تهمة يمكن أن توجه لأي جماعة في الولايات المتحدة الآن!)، ويبارز كريمر رموز حقل دراسات الشرق الأوسط بشتى الاتهامات والتلميحات، فإسبوزيتو الذي تعده الهيرالد تريبيون أبرز باحث في شئون العالم الإسلامي في الولايات المتحدة، والذي وصفته جريدة الوول ستريت بأنه أحد العقول الأمريكية البارزة في فهم واقع الإسلام، وهو الوصف الذي يرافق عروض كتبه ومحاضراته وتقديمه في أجهزة الإدارة الأمريكية وفي الإعلام السياسي كمستشار وكمرجعية في هذا المجال، يختزله كريمر في كونه «باحثًا قادمًا من جامعة يسوعية حاصلاً على درجة الدكتوراه في الأديان المقارنة تحت إشراف إسماعيل الفاروقي (الفلسطيني!) ومؤسس مركز التفاهم الإسلامي - المسيحي في جامعة جورج تاون والذي قام على تمويل من مسيحي عربي قومي بالأساس، و«ارتضته» دار إكسفورد للنشر الجامعي ليصبح أبرز كتَّابها في واقع العالم الإسلامي ما بين موسوعات ومعاجم وكتب بحثية».



وتهمة إسبوزيتو الأساسية أنه «قدم الإسلام للغرب بشكل ميسور الفهم ومن خلال المفاهيم الغربية حتى لا يظل الإسلام غريبًا وبعيدًا عن الذهنية الثقافية والأكاديمية الغربية»، وبسرعة يقفز كريمر للحديث عن العمليات «الانتحارية» في «إسرائيل» وأحداث ١١ سبتمبر ليسخر من أي كلام عن التجديد الإسلامي، مؤكداً أن قوة التغيير الحقيقية نحو الديمقراطية والاعتدال هي الأنظمة العربية والدولة وليس المجتمع المدني الوهمي، وربما نجا هنا نزيه أيوبي من هجوم كريمر لأنه غادر دنيانا بعد أن دحض هذا الزعم في كتابه الضخم والمهم «تكريس الدولة العربية» (Overstating the Arab State) في حين يؤكد كريمر أن الذي حدث في حقل دراسات الشرق الأوسط «الراكد» هو «خطأ تأويل الدولة» (Misstating the State)، وادعاءات الأفق المدني الديمقراطي للتيارات الإسلامية بل وللإسلام بشكل عام، ولا يخفي كريمر رؤيته هذه، بل يكرسها في مدحه لمدرسة الاستشراق التي «كان لها آباء عظام» - على حد قوله - في حين أن مدرسة ما بعد الاستشراق وجهود حقل دراسات الشرق الأوسط الأمريكي «بلا رموز»!

ويصوغ كريمر حججه متجاهلاً حقيقة أن حقل دراسات الشرق الأوسط في الولايات المتحدة متنوع التيارات، ثري بالتوجهات، وأن دراسة الأفق الليبرالي للإسلام وللمجتمع الإسلامي كان الشغل الشاغل للعديد من الباحثين في العقدين الماضيين وفي دوائر دراسات المنطقة العربية والشرق الأوسط في دول مختلفة ودوائر عديدة، وأن «اختراق الأمن القومي الأمريكي» ليس مسئولية الأكاديميين بل مسئولية أجهزة المخابرات والدفاع التي فشلت بشكل مذهل في التنبؤ بأحداث سبتمبر، ورغم التهديد الصريح لأسامة بن لادن منذ ١٩٩٤ بما حدث، وتكرار إنكاره لمسئوليته عن أحداث العنف في الرياض والظهران رغم مدحه المستمر الصريح لمن قام بها، وهي ذات الاستراتيجية التي اتبعها إلى نهاية العام الماضي قبل الدخول في مرحلة «الجزيرة»، وهكذا فإن مسئولية الأكاديميين التي يؤكدها ما هي إلا محاولة منه للتعتيم على مسئولية الإدارة وأجهزتها الأمنية، في حين يقدم نفسه ومركزه البحثي القريب من اللوبي اليهودي بمستشاريه من دبلوماسيين وعسكريين سابقين باعتبارهم الأكثر فهماً وحرصًا على المصلحة القومية الأمريكية، ويخاطب بهذه الفكرة العنكبوتية وبدون مواربة صانع السياسة في واشنطن «ليتجاهل» كل ما يقال له من أهل التخصص الذين «خذلوه»!



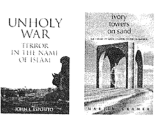
ويختتم كريمر كتابه بإلقاء ظلال من الشك حول جدوى حقل دراسات الشرق الأوسط برمته، متأرجحًا ما بين القول بأن تخلف المنطقة العربية مرجعه ثقافتها وبذلك فلا داعي للدراسات المقارنة أو ربط تحولها بتحولات عالمية من ناحية، ومؤكدًا في المقابل في فقرات أخرى أن العولمة ستقلل من خصوصية المنطقة بما يدفع للتساؤل حول مستقبل دراسات المناطق والحاجة إليها ولاستمرارها. لا عجب إذًا أن يثير كتاب كريمر «المتحلي» بالموضوعية والذي لا يصمد أمام البحث والتمحيص والتدقيق ضجة هائلة بين المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط في الولايات المتحدة، وأن يفلح في إخافة البعض واستعداء فريق من صنَّاع القرار ضد أهل التخصص في لحظة تاريخية تحتاج فيها السياسة الأمريكية عقولاً مركبة تعرف ثقافة المنطقة وتاريخ الصراع العربي الإسرائيلي وأبعاده وتتجاوز معرفتها بواقع العرب والمسلمين تقارير المخابرات ودردشات الدبلوماسية في حفلات الكوكتيل بعد تبادل الأنخاب مع رموز فكرية لا تختلف في رؤيتها كثيرًا عن نخبة واشنطن.

هكذا تحدث إسبوزيتو:

في المقابل نجد كتاب إسبوزيتو يؤكد منذ اللحظة الأولى أن الحرب ضد الإرهاب لا يجب أن تقترن برؤية موازية لصراع الحضارات. وأن مكافحة الإرهاب لا يجب أن تعني تهديد قيم الليبرالية في الداخل أو في سياسات أمريكا في العالم الإسلامي، وهي رسالة يرسلها في كتابه في المقدمة ثم يتدرج عبر فصول الكتاب في شرح خريطة «الجهاد الإسلامي». تلك الكلمة التي صارت تُخيف الغرب وتقترن بالعنف والعمليات «الإرهابية» ليدعو إلى التمييز بين الجهاد في مدلوله الإسلامي الشرعي والفقهي وبين توظيفات هذا المصطلح في صراعات السياسة.

وإذا كان كريمر قد اتهم الباحثين في دراسات الشرق الأوسط بأنهم قللوا من خطر بن لادن فإن إسبوزيتو يبدأ كتابه بتحليل مسيرة بن لادن موضحًا - كما ذكرنا - أن بن لادن لم يكن خافيًا على أحد، وأن تهديده لأمريكا بدأ عام ١٩٩٤، وأن السعودية لم تسقط عنه الجنسية السعودية عبثًا، وأن تحركاته وتحركات القاعدة كانت معلومة لجميع المراقبين، وتنقلاته بين السودان وأفغانستان مرصودة ومسجلة، ومبايعته للملا عمر منذ أواخر التسعينيات وتحالفه مع طالبان علني، وبذلك يؤكد في تحليله (دون أن يذكر ذلك نصًا) أن الادعاء بأن بن لادن تم التقليل من شأنه وخطره هراء، لكن تحديد الخطر على الأمن القومي مهمة أجهزة الأمن القومي لا مهمة الباحثين والأكاديميين بالأساس.

وعبر تحليله لشخصية بن لادن وتطور علاقته بأيمن الظواهري يكشف إسبوزيتو عن نظرة القاعدة للخطر الغربي، تلك النظرة التي تبلورت عام ٢٠٠٠ في الإعلان عن تشكيل «الجبهة الإسلامية للجهاد ضد اليهود والصليبيين» والتي طالبت



بطرد الأمريكان من جزيرة العرب والتزامها بدعم الجهاد الإسلامي في الشيشان وكشمير وفلسطين.

ويفرد إسبوزيتو جزءًا من كتابه للبحث في مفهوم الجهاد، مؤكدًا أن الفقه الإسلامي قدم رؤى ثرية للجهاد وضوابطه ومستوياته، وأن هذا الفقه في تأصيله للجهاد المسلح ضد الآخر قد اتجه في مدارسه الكبرى لرؤية الجهاد الدفاعية، وأن التعريفات الراديكالية للجهاد كانت وليدة ظروف راديكالية، وهنا فالإسلام لا يختلف عن الديانات السماوية الأخرى ويمكن بسهولة إجراء مقارنات مع المسيحية واليهودية، وتاريخ نظرة الفقه والفكر في الديانتين عبر التاريخ للحرب وضوابطها، مؤكدًا أن التمييز بين الدفاع عن النفس والعدوان مسألة محسومة في الفقه الإسلامي الذي لا يقرن التجديد بالإرهاب ولا المقاومة بالعنف، ومستعرضًا المدارس الرئيسية في هذا الجدل مرورًا بابن تيمية، ومحمد بن عبدالوهاب، وصولاً إلى سيد قطب، وأحداث الحرم المكي ١٩٧٩، وباحثًا في دور الاستبداد في تغذية رد الفعل المتطرف.

ويقف إسبوزيتو أمام تجربة «حماس»، فيؤكد أن اختزال «حماس» في «حركة إرهابية» اختزال سطحي، فالحركة حركة اجتماعية اقتصادية طورت جناحًا عسكريًا لطبيعة وضع الاحتلال والصراع مع العدو الإسرائيلي. ويرصد إسبوزيتو أن أول استخدام للجسد في عمليات استشهادية كان في بداية التسعينيات في أعقاب أحداث الحرم الإبراهيمي التي قتل فيها متطرف إسرائيلي العشرات وهم في صلاتهم بالمسجد، أي أنها بدأت كرد فعل للتطرف الوحشي الإسرائيلي، وأن عنف الجزائر على الطرف الآخر فجَّرته مصادرة الديمقراطية التي اختار فيها الناس التيار الإسلامي في مواجهة سلطة العسكر، وهي حقائق يذكر بها إسبوزيتو حتى لا تضيع في ظل دخان المعركة ضد الإرهاب، مؤكدًا أن الساحة الإسلامية الفقهية والشعبية متعددة الرؤى، بل والفتاوى في مجملها تدين العنف ضد الأبرياء، وهكذا فإن تسليط الضوء على حركات العنف وتجاهل التيار الوسطي التجديدي الواسع في الفقه وبين الحركات في عالم الإسلام بالشرق الأوسط وفي آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا هو موقف لا يساعدنا كثيرًا على الفهم، ناهيك عن صنع سياسة رشيدة.

الخيار الديمقراطي والإسلام الحضاري

الفصل الأخير من كتاب إسبوزيتو هو حقًا الصفحات القليلة التي يجب أن يقرأها صانع السياسة الأمريكي الذي لا يجد وقتًا لقراءة البحوث الطويلة والكتب الأكاديمية، وهو فصل تتضح فيه خبرة إسبوزيتو في مجال دراسة عالم الإسلام في العقود الثلاثة الماضية، إذ يستخلص فيه تحت عنوان: «إلى أين نذهب؟» الرؤية التي يجب أن تحكم صناعة القرار في واشنطن وعلاقة أمريكا بالعالم الإسلامي.

ويرى إسبوزيتو أنه يتوجب بداية إعادة إدراك الإسلام باعتباره السياق الحضاري للعالم الإسلامي وللقضية الفلسطينية تحديدًا، وأن الكثير من صنّاع السياسة والإعلاميين والمثقفين في واشنطن لا يعرفون معلومات أساسية عن الإسلام، وكلمة «الله» بالنسبة لهم لا تعني المقابل لكلمة God في اللغة العربية بل هي وصف «لإله المسلمين».. وأن أحداث ١١ سبتمبر كانت السبب المباشر في إدراك البعض في واشنطن وببالغ الدهشة أن عدد المسلمين من الأمريكيين يقارب عشرة ملايين وأنه آن الأوان لإدراك الثقافة الأمريكية في الألفية الجديدة باعتبارها ستكون ثقافة يهودية - مسيحية - إسلامية.

وإذا كان البعض ينظرون نظرة استعلائية لعالم الإسلام اليوم، لأنه يقع في النطاق الاقتصادي لدول الجنوب في معظمه فإن إسبوزيتو يوضح أن هذه مرحلة تاريخية وليست سمة حضارية، مشيرًا للصعود والهبوط في الحضارات كسنة تاريخية، وسارداً ومضة من تاريخ الحضارة الإسلامية في أيام صعودها وتفوقها، وصيغ التعايش بين الثقافات والأديان التي احتضنتها تلك الحضارة، ومنتقدًا أسئلة العلاقة بين الإسلام والحداثة، باعتبارها تستبطن أن الحداثة الغربية عالمية، وأن عالم الإسلام يجب أن يلحق بها، ومؤكدًا أن الفكر والفقه الإسلامي الحديث والمعاصر حاول تقديم إجابات مركبة باتجاه حداثة إسلامية معاصرة، وأن مراجعات المشروع العلماني في الغرب على يد أبرز علماء الاجتماع الديني وإعلان أزمة العلمنة الحداثية، وكذلك أزمة الفكر القومي الذي قامت عليه الدولة الحديثة في ظل العولمة، كلها تحولات لا تقلل من شأن الإسلام كعقيدة وحضارة بل بالعكس تستدعي البحث في الإجابات التي يحاول عالم الإسلام صياغتها للرد على هذه الأسئلة سواء أكانت إجابات نظرية أم اجتهادات اجتماعية وأهلية وسياسية تقرأها على خريطة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العالم الإسلامي بتنوع ثقافاته الفرعية، ويقرأ إسبوزيتو هنا فكر خاتمي في إيران وأنور إبراهيم في ماليزيا في معرض حديثه هذا.



لكن الأزمة الآن هي أن هناك «سوقًا رائجة لفكرة صدام الحضارات» كما يقول إسبوزيتو، والضحية الأولى ستكون جهود التحول الديمقراطي في العالم الإسلامي، فإذا كانت الولايات المتحدة تبحث عن حلفاء فإنها ستتوجه للأنظمة والحكومات، وستتخذ الأنظمة مناخ «الحرب ضد الإرهاب» لتكريس شرعيتها في مواجهة ضغوط التحول الديمقراطي والحقوق المدنية، وهو ما يراه إسبوزيتو أيضًا يمثل خطرًا على المصداقية الليبرالية للولايات المتحدة في الداخل، مع تنامي إجراءات تقييد الحريات المدنية والإجراءات الأمنية بالداخل الأمريكي.

ويختتم إسبوزيتو كتابه بالقول إن إلصاق الإرهاب بالإسلام وبالعالم الإسلامي خطره أن يعفي الولايات المتحدة من مراجعة سياساتها التي خلقت شروطًا اجتماعية واقتصادية وسياسية أثمرت هذا العنف وتلك الكراهية لأمريكا، وأن التحدي الذي يواجه العالم الإسلامي على الجانب الآخر هو الدفاع عن الإسلام الحضاري والوقوف بحزم ضد الذين «يختطفون» الإسلام لمعسكرهم لصالح مكاسب سياسية، وتأكيد الضوابط الإنسانية للجهاد التي استقرت في الفقه الإسلامي منذ نشأته والتزم بها «جهاد محمد» في عصر الرسالة.

ويقتبس إسبوزيتو فقرة من مقال للمؤرخ الأمريكي بول كينيدي نشر في ٥ أكتوبر ٢٠٠١ في جريدة الوول ستريت حين قال: «إن علينا أن نتخيل أن عالم الإسلام توحَّد في قوة واحدة في حين تفككت الولايات المتحدة لدول مستقلة ومتنازعة، وأن هذا العالم الإسلامي صارت لديه قوة ضاربة تجوب البحار وتتحكم في المجال الجوي وتتدخل في النزاعات المحلية وتفرض سياساتها بالقوة وتنشر نمط حياتها، فماذا سيكون رد الفعل الأمريكي حينئذ؟ **لاشك أنه سيكون الكراهية والرغبة في إلحاق الأذى بهذه القوة المهيمنة. هذا هو بالضبط ما يجري الآن معكوسًا».**

وما يدل عليه هذا الاقتباس ورؤية إسبوزيتو التي تتفق معه، **هو أن العقل السياسي لابد له من رؤية تاريخية عميقة، والإعلان عن «حرب ضد الإرهاب» دليل على غياب هذه الرؤية في واشنطن، فالحرب الحقيقية ضد الإرهاب تكون بسياسات طويلة الأجل لتأسيس شروط عادلة للعلاقات الدولية وظروف عادلة لشعوب العالم الإسلامي، لكن البطش لن يؤدي إلا إلى مزيد من العنف والعداء، والحل هو صعود دبلوماسية شعبية تتحدى فكرة صراع الحضارات وتبني جسور الفهم المتبادل.**



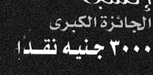
إن الأبراج العاجية في الولايات المتحدة ليست أبراج الباحثين في مجال الشرق الأوسط، إنها الأبراج العاجية في واشنطن، وهي التي تؤدي بالضرورة للحروب غير المقدسة لأمريكا دفاعًا عن وجودها الاستراتيجي في العالم الإسلامي.

والرسالة التي يرسلها كتاب إسبوزيتو (التي قالها في محاضراته بالقاهرة في مجلة وجهات نظر ومجلس العلاقات الخارجية، وموقع إسلام أون لاين. نت، وكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة)، هي أن الجهد العربي والإسلامي، الشعبي والرسمي، يجب أن يتضاعف للتأثير في السياسة الخارجية الأمريكية، وأن صفوف المسلمين الأمريكيين يجب أن تتحد وتقوى لتؤثر من الداخل، وتبقى مهمة العالم الإسلامي التاريخية هي صياغة نهضة إنسانية ديمقراطية تواجه بحسم تيارات التطرف والعنف الخارجة عن التيار العام التاريخي للفقه والفكر الإسلامي، وتدافع عن حقوق الإنسان والحريات السياسية والعدل الاجتماعي. ■

كتاب مارتن كريمر الذي صدر بنهاية عام ٢٠٠١ كان بمثابة قنبلة فجَّرت جدلاً حاداً في حقل دراسات الشرق الأوسط بأمريكا. ورسالته لا لبس فيها ولا غموض. ضربة ١١ سبتمبر الموجعة هي مسئولية الأكاديميين في مجال دراسات الشرق الأوسط والذين فشلوا في أن «يتنبأوا» بالكارثة

جواب نهائى؟

إلعب انت كمان . فيه جوايز جديدة لكل كسبان

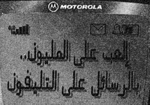


الجائزة الثانية:
- إقامة ليلتين بغرفة مزدوجة شاملة الافطار فى فندق من أفخم فنادق القاهرة فندق ماريوت القاهرة.

الجائزة الثالثة والرابعة والخامسة:
- رصيد دقائق مجانية (قيمته ٧٥ جنيه)

الجائزة السادسة - العاشرة:
- رصيد دقائق مجانية (قيمته ٥٠ جنيه)

* الجوائز الجديدة للمسابقة تمنح اعتبارا من ٢٠٠٢/٤/١



إزاى؟

إبعث رسالة قصيرة SMS مكونة من حرف (M) للعب باللغة الإنجليزية أوحرف (MA) للعب باللغة العربية وأرسلها لرقم (6565) وأجب على 15 سؤال بحد أقصى دقيقتين لكل سؤال للحصول على مليون نقطة، مع إمكانية استخدام 3 وسائل مساعدة:

50:50 حذف اجابتين . F — خذ وقت إضافى . E
أسأل الجمهور . P — قرار الانسحاب . S

✦ للإستفسار الإتصال برقم 300 من محمول موبينيل مجانا

١٠ فائزين كل إسبوعين

شروط المسابقة:
- أن يكون المتسابق مشتركا لدى موبينيل مدة لا تقل عن ٣ أشهر.
- لا يحق للمتسابق الفوز بأى جائزة مرة أخرى إلا بعد مرور ٥ أشهر من تاريخ فوزه السابق.
- يحق للمتسابق الفوز بجائزة واحدة فقط. حتى لو كان يمتلك أكثر من خط مسجل باسمه.

www.mobinil.com

من موبينيل وبس

✦ سعر الرسالة القصيرة ٢٥ قرش للاشتراك الشهرى و ٥٠ قرش لمشتركى آلو








celador
©2002 Celador International Ltd

المحمول فى يد الجميع

عروض موجزة

كتب عربية

شبابيك الغزالة

سهير أبو عقصة داود

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢، ١١٦ صفحة



غزالة بنت عيد الطقطوق هي الستار الذي توارت خلفه الكاتبة تنسج من العادي والمألوف ذكرياتها الحميمة، وتطل من شبابيكها على واقع إنسان الأرض العربية المحتلة في فلسطين ومعاناته اليومية، حديث الغزالة عن الحارة والأب والأم والمدرسة ولعب الأولاد، والذي روته على فراش الموت - هكذا تتخيل الكاتبة - لم يذهب عبثًا، أبقى الأشياء حية يافعة.. «وكان الخيال تجسد في الواقع، وكان البلاد لاتزال قائمة ولو غيبتها جميع الخرائط». والحكمة الأثيرة التي تكتسب بها أحاديث الغزالة أهميتها هي: لكي لا تموت عليك أن تتذكر، ولكي تتذكر عليك أن تنقل التاريخ كما هو.

الأم التي حلمت ببيت كبير به حديقة وزهور وأشجار بلعت حلمها مضطرة، حين اضطرت للخروج بنفسها كي تعمل في مصنع للخياطة بعد حرب يونيو ١٩٦٧، واكتفت ببيت قديم عبارة عن غرفة واحدة واسعة، شمرت يديها وخرجت إلى العمل كي تصنع أحلامها بيدها، والأب عيد الطقطوق الناشط في خلية شيوعية، عامل بسيط، يشتغل أيامًا ويتعطل أيامًا، وهو منبع الحكمة، الحكمة التي صنعت من غزالة شاعرة، أو هكذا تمنت قبل أن تموت عاجزة مقهورة.

سألت غزالة أباها يومًا عن الكائنات الفضائية وما يميزها عن الكائنات الأرضية، فقال الأب: إنهم مثلنا لكنهم يختلفون عنا، احتارت غزالة وعاودت السؤال، فأجاب الأب بأنهم يتكلمون ويتزوجون ويموتون كما يموت أهل الأرض، ونفد صبر غزالة فسألته:

- إذًا بم يختلفون عنا؟

فأجاب الأب: بالأحلام.

لم يعجب الجواب غزالة وتساءلت بنفاد صبر: أيمكن أن تكون الأحلام مهمة إلى هذا الحد، ويجيب الأب بحتمية قاطعة: لا يوجد أهم منها.

وحين كتبت غزالة موضوع إنشاء لم تصدق مدرستها أنها هي التي كتبته وكان نصيبها صفرًا كبيرًا، لم يغضب الأب وإنما كان منتشيًا بالسعادة، قال لها: ستصبحين شاعرة يا غزالة وستقفزين فوق الزمن، ويكون لك شأن كبير بين العرب، وتتعجب غزالة: ألست غاضبًا مني ولا من الصفر الكبير، ويهز عيد الطقطوق رأسه: ليس لكل الناس خيال، وأنا رأيت الصفر بخيالي موعدًا لك مع الكلمات.

تفتح غزالة رسائل أمها إلى أبيها قبل أن يتزوجا، ويدهشها أن أمها أيضًا شاعرة، وتتيقن أن الشعر وراثة، وتعاهد أمها فيما بينها وبين نفسها: سأحب يومًا كما أحببت وسأكتب الرسائل كما كتبت وأحتفظ بها كما احتفظت. لكن التاريخ يعيد نفسه وهذه المرة على شكل مأساة. فالشعر الذي كتب للحب يومًا، سيكتب للجرح والبعد والحلم البعيد.

يربت الأب على ظهر غزالة:

- راحت فلسطين يا غزالة.

وتصر غزالة: إللي فات مات.

ويسأل الأب: من علمك هذه الكلمات وهذا الحماس؟

فتجيب: تعلمتها منك، لكنك نسيت وأنا مازلت أذكر.

ويقول الأب كلمته الأخيرة قبل الرحيل: حافظي على هذا الكنز «الذاكرة».

وزارت غزالة الكاتبة في المنام وأوصتها حين تموت أن تشتري لها ثوبًا فضفاضًا بألوان علم الوطن لتلفها فيه، ثوبًا واسعًا كي تحمل معها الذكريات التي أبدًا لن تموت.

هذا بعض ما روته الغزالة.

□ □ □

ماذا يأكل مرضى السكري؟

كارولين ليونتوس

ترجمة: هناء العمري

الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١، ٢٣٥ صفحة



المصابون بمرض السكري ليسوا محظوظين قطعًا، لكنهم بالتأكيد أوفر حظًا من آخرين مصابين بالمرض لكنهم لم يعرفوا ذلك بعد، أو عرفوه بعد أن ظهرت عليهم أعراضه في أجزاء الجسم المختلفة.

السؤال الأساسي الذي يواجه مريض السكر هو: هل عليّ أن أتخلى عما أحب من صنوف الطعام، المؤلفة تدعو مرضى السكري إلى التفكير في ثلاثة أمور: التنويع والاعتدال والتوازن.

إن إحدى أسهل طرق الأكل الصحي تكون بتصنيف أنواع عديدة من المأكولات بعقلك تحصل على الفائدة الغذائية والمتعة في الوقت نفسه، مثلاً: أن تأكل رغيفًا من الخبز مضافًا محشوًا بقطع من اللحم مضافًا إليهما رقائق من الخس والطماطم، فإذا شربت مع ذلك كله كوبًا من الحليب تكون قد حصلت على وجبة غذاء كاملة.

أما الاعتدال فيعني أن تختار وتخفف من الأطعمة التي تحتوي على الدسم والسكر، باختصار: ركز على الطعام الجيد والمغذي، وأكثر من الفاكهة بديلاً عن الحلويات ولا تحذف من قاموس غذائك «الأطعمة الممنوعة» كما ينصح عادة، بل وائم بين جميع مأكولاتك المفضلة من وقت لآخر.

أما مفهوم التوازن، فهو المفهوم الذي يدمج التنويع والاعتدال معًا، والتوازن لا يعني فقط أن نأكل أنواعًا مختلفة من الغذاء، وإنما أن نأكل الكميات الصحيحة منه.

الناس عمومًا لديهم فكرة خاطئة مؤداها أن احتياجاتهم من البروتين تتوافر فقط في اللحوم والأسماك، كما أن الناس تتصور أن الكميات الكبيرة من البروتين تعني صحة أفضل، والتصوران غير صحيحين، فالبروتين يوجد في مواد عديدة أخرى، كما أن الإنسان لا يحتاج لأكثر من ٣٠ جرامًا من البروتين يوميًا، هذا يعني أن التوازن هو أن تأكل الأغذية الصحيحة بكميات صحيحة.

«هرم دليل الغذاء» الذي ينصح به الأطباء عادة هو دليل للأكل الجيد، ويتضمن إلى جانب ذلك نصائح مهمة تؤكد على تناول الوجبات في أوقات منتظمة، وأن تباعد بين الوجبات الرئيسية من خمس إلى ست ساعات، كي تعطي جسمك فرصة لهضمه.

بعض الناس يميلون إلى تناول «ست وجبات صغيرة» بديلاً عن ثلاث وجبات أساسية، وهذا يعني أن عليهم توزيع السعرات الحرارية على مدى الوجبات الست، وهذا أمر عسير نسبيًا.

تشير المؤلفة كذلك إلى عادات الأكل، وهي تختلف بحسب تراث الشعوب وإقبالها على الطعام في مناسبات بعينها بما يهدم النظام الغذائي كله، وتعدد المناسبات التي ترتبط في معظمها بالأكل، يجعل الكلام عن إنقاص الوزن أو اتباع أسلوب غذائي معتدل ومتوازن محض خيال.

إن تناول وجبات منتظمة مهمة للغاية، وخصوصًا أن نحو ٨٠٪ من مرضى السكر كان السبب الأساسي لإصابتهم به هو سمنتهم المفرطة، ويساعد تناول الوجبات المنتظمة المتوازنة في سعراتها الحرارية على ضبط السكر في دم الإنسان بصورة كبيرة، فضلاً عن ممارسة الرياضة والجهود التي يبذلها الشخص لإنقاص وزنه.

المؤلفة تقدم عبر صفحات كتابها وصفات للوجبة الصحية والممتعة وخططًا للتغذية، وأخرى لإنقاص الوزن، فالطعام الصحي سيساعدك في نهاية المطاف - حتى لو لم تكن مريضًا بالسكري - على أن تعيش حياة مديدة وأنت صحيح معافى.

□ □ □

كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية

جلال أمين

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢، ٢٧٠ صفحة



لم يرتبط الحديث عن التنمية لدى الاقتصاديين بالرغبة الحقيقية في إحداثها، وإنما ارتبط بمصالح وتحيزات جعلتهم يبدون وكأنهم يبذلون جهودًا كبيرة لتقديم التبريرات النظرية لسياسات بعينها، ما أثار شكوكًا حول اجتهاداتهم التي بدت مرتبكة إلى حد التناقض، خصوصًا خلال الخمسين عامًا الأخيرة.

المؤلف يتابع الكتابات التي تناولت موضوع التنمية في هذه الحقبة. ويقدم قبلها استعراضًا عامًا لما كان يجري حول المسألة ذاتها بدءًا من عصر التجاريين (١٥٠٠-١٧٥٠). وهؤلاء لم يقدموا نظرية حقيقية في التنمية، وإنما كانت لديهم قناعة أن على الدولة أن تلعب دورًا في الاقتصاد القومي، وأنه كلما زادت الصادرات زادت ثروة الدولة.

في هذا العصر كان التنافس حادًا بين الدول الاستعمارية على مناطق النفوذ فيما وراء البحار. وكانت الحاجة ماسة إلى حكومة قوية تبسط سطوتها في اتجاهات عدة.

وحين ظهر آدم سميث (١٧٧٦) ورفاقه من الاقتصاديين التقليديين الذين سادت أفكارهم إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر، كانت سياسة حرية التجارة المقترنة بحد أدنى من التدخل الحكومي تلائم المصالح البريطانية في ذلك الوقت، ومثّل كارل ماركس الذي ظهرت كتاباته أساسًا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تيارًا مضادًا لم يكتب له الشيوع آنذاك لتصادمه مع مصالح المؤسسات السائدة.

وخلال أكثر من ثلاثة أرباع القرن (١٨٧٠-١٩٤٥) أهمل تمامًا موضوع النمو الاقتصادي والتنمية، لأن التنمية كانت متحققة فعلاً في أوروبا، أما تنمية العالم الثالث فلم تكن موضوعًا ذا بال إلا

عروض موجزة

من زاوية تسهيل وصول المواد الخام وكيفية استغلالها في دول المستعمرات القديمة، وحتى ما بدا أنه اهتمام بالتعليم وتدريب الكوادر ومظاهر التنمية البشرية الأخرى، كان يصب في الاتجاه ذاته.

ولم يختلف الأمر كثيرًا مع الاستعمار الحديث، بقي الهدف واحدًا لكن تعددت صور الاستغلال، فبعد أن كانت الأهداف هي الحصول على مواد أولية رخيصة وقوة عمل رخيصة وتصريف فائض السلع، تضاءلت أهمية الهدفين الأول والثاني واحتاج تحقيق الثالث إلى خلق طبقة جديدة قادرة على استهلاك المنتج الغربي الجديد، الأكثر تقنية والأعلى سعرًا، وهو ما يفسر تنامي طبقة المتغربين وتصاعد نزعات الاستهلاك والمحاكاة، وتوجيه مليارات الدولارات للاستثمار في مناطق الاستعمار القديم من فوائض رأس المال الغربي، كي يصبح السوق أكثر اتساعًا وأكثر قدرة على استهلاك المنتج الغربي في صورته الحديثة.

ما يجري على هذا النحو ليس تنمية بحال، إذ لا يعني هؤلاء أن يقيموا مؤسسات وهياكل اقتصادية وسياسية وثقافية قادرة بذاتها على إحداث تنمية حقيقية تفي بإشباع الحاجات الأساسية والتوزيع العادل للثروة وليس فقط رفع المستويات العامة للدخول، ما يجري هو عملية نمو يروج لها اقتصاديو الغرب وتابعوهم، الذين يروجون كذلك لنظرية «التساقط» ومؤداها أن الثراء المطرد وتركيز الثروة في يد حفنة قليلة لابد أنه سيصيب «العوام» في نهاية المطاف، إذ ستضطر هذه الحفنة القليلة إلى توجيه ثرواتها في اتجاه الاستثمار وادخار فوائض وعوائد هذا الاستثمار، بما يعني فرص عمل جديدة ومشروعات جديدة تخدم الأغلبية، والشرط الوحيد هنا أن تبقى الدولة بعيدة تمامًا عما يجري وأن تترك الأمور تسير وفق قوانين السوق وقوى العرض والطلب دون فرض إجراءات حمائية من أي نوع.

ثمة أسباب موضوعية وعوامل متداخلة يعج بها المشهد الدولي الراهن تؤكد شيوع وسيادة هذه الفكرة: انهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد الولايات المتحدة ونموذجها الرأسمالي بالمسرح. حركة الحياد الإيجابي صارت أثرًا بعد عين، المعونات تراجعت لتحل محلها الاستثمارات الأجنبية، حكومات العالم الثالث ضعفت وترهلت، ثم كان العامل الحاسم هو نمو الشركات العملاقة متعددة الجنسيات التي يغطي نشاطها الكرة الأرضية كلها.

المؤلف ينحاز - وأظنني معه - إلى تعريف مميز للتنمية لا يتوقف فقط عند رفع مستويات الدخول العامة، قدمه - هذه المرة - عالم إنثروبولوجيا يرى أن التنمية هي «التحقيق المتزايد لقيم وثقافة المجتمع الخاصة».

ودعونا نأمل معه أن يعود الاهتمام بقضايا التنمية الحقيقية «بمجرد أن تتراخى سرعة هذه الثورة التكنولوجية الراهنة، وتضعف قدرتها على صنع الأعاجيب الخارقة للعادة».

□ □ □

مصر المحروسة: إطلالة على ذاكرة الوطن

القاهرة: ماكس جروب، يناير ٢٠٠٢



تعنى هذه الدورية بتاريخ مصر الحديث خلال فترة الاحتلال البريطاني وقبل قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وإن كانت تتناول هذا التاريخ من وجهة نظر الهاوي غير الأكاديمي. وقد خصصت الدورية عددها الصادر في يناير ٢٠٠٢ لتناول حريق القاهرة الشهير في يناير ١٩٥٢ والذي مضى عليه خمسون عامًا.

يضم هذا العدد مقالاً واحدًا فقط كتبه المهندس صلاح الدين حلمي تحت عنوان «حريق القاهرة ١٩٥٢» يسرد فيه الوقائع التاريخية الأساسية التي شهدتها مصر في الفترة السابقة للحريق من حيث إلغاء معاهدة ١٩٣٦ والأعمال الفدائية ضد الاحتلال البريطاني التي قام بها المصريون كما يتناول محاولات سلطات الاحتلال لقمع الحركة الوطنية المسلحة من خلال هدم قرية كفر عبده بالسويس ثم مجزرة الإسماعيلية.

ويعرض الكاتب سريعًا لعدة وجهات نظر حول الحريق للتكهنات المختلفة للأدوار التي يعتقد أن يكون القصر أو حزب الوفد أو سلطات الاحتلال قد لعبتها. المقال أقرب إلى موجز للآراء الشائعة عن حريق القاهرة منه إلى أي محاولة لرصد أو تحليل وقائع هذا الحريق. كما أنه - وتبعًا لكون الدورية تعنى بالتاريخ الهاوي غير المحترف - يفتقد الهوامش التي تشير إلى مصادر اطلاع الكاتب وإن كان المقال قد ذيل ببعض الفقرات من تقرير اللجنة التي شكلتها السفارة البريطانية لتقصي الحقائق بعد اندلاع الحريق.

إن ما يميز هذا العدد من مصر المحروسة هو مجموعة الصور الفوتوغرافية التي نشرت من صفحة ١٨ إلى صفحة ١٢٨ وهي عبارة عن الملف الكامل الذي صوره ستوديو رياض شحاتة بتكليف من الملك فاروق والذي أصبح جزءًا من تقرير الحادث الذي رفع لجلالته. تعرض الصور لمختلف المنشآت التي تم تدميرها بفعل الحريق وقد رتبت بحيث يشعر القارئ وكأنه في جولة في شوارع القاهرة سائرًا على قدميه وتبدأ الجولة من شارع الألفي بك مرورًا بشوارع فؤاد وعدلي وثروت وقصر النيل والأهرام وإبراهيم باشا وعماد الدين وسليمان باشا وميدان محطة مصر فشارع الملكة وأحياء شبرا والظاهر والسكاكيني والفجالة وحدائق القبة. وتمثل هذه المجموعة من الصور سجلاً لمدى الخسارة التي أحدثها الحريق فهي كلها صور لمبان ومنشآت قد دمرت، بعضها أعيد بناؤه لاحقًا وبعضها اختفى للأبد مع انتهاء هذه المرحلة من تاريخ المدينة. نادرًا ما يظهر الأفراد «المواطنون» في هذا السجل ولربما هناك دلالة ما لعدم ظهورهم في سجل القاهرة بعد احتراقها.

هذه صور نادرة للقاهرة في لحظة تاريخية فاصلة معظمها صور منشآت أجنبية: شركات، مطاعم، ملاه، وسينمات. من بين الصور النادرة عدة صور لفندق شبرد الذي كان مسرحًا لأحداث سياسية كثيرة في فترة تاريخية ما بحيث كان لاحتراقه - كما كان لاحتراق القاهرة - دلالات سياسية عميقة.

□ □ □

الجينوم

السيرة الذاتية للنوع البشري

مات ريدلي

ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠١، ٤٠٠ صفحة



يحتوي الجسم البشري على ما يقرب من ١٠٠ تريليون (مليون مليون) من الخلايا، معظمها يقل عرضه عن عشر من المليمتر، ويوجد في الداخل من كل خلية بقعة سوداء تسمى النواة، وداخل النواة مجموعتان كاملتان من الجينوم، عدا خلايا البويضات والحيوانات المنوية التي يحوي كل منها نسخة واحدة فقط، وتأتي إحدى مجموعتي الجينوم من الأم والأخرى من الأب.

وتحتوي كل مجموعة على الجينات نفسها التي يبلغ عددها ما بين ٦٠ إلى ٨٠ ألف جين موجودة على الكروموسومات الثلاثة والعشرين التي يتضمنها الجينوم البشري.

هذا هو المدخل الذي اختاره المؤلف كما يشرح بسلاسة موضوعًا يبدو مثيرًا ومعقدًا في الوقت نفسه، فلو افترضنا - كما يقترح المؤلف - أن الجينوم كتاب، فإنه يحتوي على بليون كلمة، ولو قرر المؤلف أن يقرأ كتاب الجينوم مستغرقًا ثانية واحدة لكل كلمة لمدة ٨ ساعات يوميًا، فإن ذلك سيستغرق منه قرنًا كاملاً، ولو أنه دون الجينوم البشري، بمعدل حرف واحد في كل ملليمتر فإن النص الذي سيكتبه سيكون بطول نهر الدانوب.

المؤلف يتتبع الكروموسومات الثلاثة والعشرين وكأنها نصوص بالفعل في كتاب على النحو التالي: الحياة - النوع - التاريخ - المصير - البيئة - الذكاء - الغريزة - الصراع - الاهتمام بالذات - المرض - التوتر - الشخصية - تجميع الذات - ما قبل التاريخ - الخلود - الجنس - الذاكرة - الموت - العلاج - الوقاية - السياسة - تحسين النسل - الإرادة الحرة.

يطرح الكتاب تساؤلات عميقة ومهمة مثلاً عن توارث الذكاء، وعما إذا كان غباء الشخص أو نبوغه أمرًا مفروضًا عليه، وجين الذكاء موجود على كروموسوم ٦، لكن اختبارات الذكاء التي أجراها العلماء طوال عقود لم تبرهن على أن جين الذكاء هو المحدد الوحيد لذكاء الشخص، بمعنى «حتمية» أن يكون الابن ذكيًا لأن الأب كان كذلك، وزاد الأمر صعوبة أنه لا يوجد تعريف واحد للذكاء، فهل هو سرعة التفكير أو القدرة على الاستدلال أو الحساب الذهني أو المعلومات العامة.

وبشكل عام فإن ثمة تداخلاً بين البيئة والجين، بين الطبع والتطبع، فالبيئة التي يمارسها أحد الأطفال تكون نتيجة لعوامل خارجية بقدر ما تكون نتيجة لجيناته، فالطفل يلتمس بيئته ويخلقها في الوقت نفسه، فإذا كان له نزعة ميكانيكية فإنه يمارس مهارات ميكانيكية، وإذا كان دودة كتب فإنه سيهوى القراءة وهكذا، ما لم تكن البيئة عائقًا أمام تنمية ذكائه وهذا أمر وارد في كثير من الأحيان.

ما يقال عن جين الذكاء تجد مثله عبر بقية الجينات بدرجات متفاوتة، أي أننا محكومون بجيناتنا الوراثية، لكننا أيضًا أصحاب إرادة حرة تمنحنا التمايز والاختلاف.

□ □ □

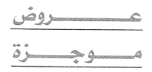
العرب الأصل والصورة

مصطفى الفقي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٣١٥ صفحة



يشتمل الكتاب على نحو ٥٠ مقالاً صنفها المؤلف تحت عناوين عدة: الماضي يتحدث، العرب والعالم، النظم العربية، العرب خصوصية وتوحد، القضية



المركزية، الخطاب المعاصر، الجامعة والقمة، التعددية ميزة قومية، الفتنة الكبرى، صورة الآخر، العرب والغرب.

وكثير من المقالات وإن تناولت أحداثًا بعينها بذل المؤلف جهودًا لتحليلها وتقديم وجهة نظر نقدية بشأنها، فإنها تظل صالحة للقراءة لأن الأمور - كما اعتدنا في عالمنا العربي - تتغير وئيدًا أو لا تتغير أصلاً. من ذلك مثلاً الرؤية النقدية التي يقدمها للخطاب العربي المعاصر الذي ينطلق في الغالب من مواريث تاريخية وقيم اجتماعية ليست مفهومة بالنسبة للطرف الآخر، كما أن هذا الخطاب يعجز في مجمله عن تقديم نفسه وفقًا لروح العصر وأساليبه وأدواته، إذ مازلنا نتحدث بروح «المونولوج» بينما أسلوب التفكير المشترك هو التعبير الجديد المقبول لدى كل الأطراف، وهو ما يفقدنا قطاعات عريضة من الرأي العام العالمي الذي قد يكون مستعدًا للتعاطف معنا بشرط أن نخاطبه بلغة يفهمها.

ويقترح المؤلف اهتمامًا أكبر باللغات الأجنبية في مناهجنا التعليمية. إذ لا معنى لمخاطبة الغرب بلغتنا وبمفاهيم بعيدة حتمًا عن إدراكه، وكذلك فهمًا أكبر لروح العصر وطبيعة ومعطيات القرن الجديد، بالبحث عن نقاط الاتفاق قبل نثر نقاط الخلاف التي قد تنهي الحوار قبل أن يبدأ.

وفي مقال آخر يتساءل المؤلف: هل من أسلوب جديد للتعامل مع إسرائيل. وبعد أن يسرد السيناريوهات المقترحة والتي تتراوح بين التلويح بالحرب وتحكيم العقل ومحاصرة إسرائيل بالسلاح وإفشال المخطط الشاروني لتفجير الأوضاع في المنطقة، يطرح اجتهادًا يستند إلى عدة محاور: توزيع الأدوار بما يضمن تنظيم الدور العربي في الصراع، وردم الهوة بين الجماهير والقيادات، ومراجعة الخطاب السياسي العربي بما يحقق التأثير المطلوب، وإعداد خطة عمل طويلة النفس لتحريك المسيرة السلمية مع الاحتفاظ بمظاهر القوة الذاتية ورفع مستوى الأداء العربي لإشعار الخصم بإمكانية توظيف الموارد عند اللزوم، ويؤكد على أهمية الديمقراطية للأقطار العربية كي تتحقق الشفافية المطلوبة والحشد الجماهيري خلف قرارات الحكام التي تضمن الديمقراطية مشاركة الناس في صناعتها. وفي واحدة من المقالات التي يتناول فيها أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتحت عنوان: «بأي حال عدت ياعيد»، يطالب بإعمال العقل ودقة الحسابات وبخطاب ديني إسلامي ومسيحي - ذكي ومتسامح ومتفهم للأوضاع، لتفويت الفرصة على إسرائيل التي ستسعى إلى الاستفادة إلى أقصى حد من أحداث سبتمبر (وهي تفعل ذلك فعلاً)، وأن تتضمن رسالتنا الإعلامية إلى العالم استنكارًا عربيًا ورفضًا فلسطينيًا لسقوط الأبرياء من أي قومية أو ديانة أو جنسية، وينهي المؤلف مقاله الذي كتبه في ديسمبر الماضي بقوله: الأجواء عاصفة والسماء ملبدة بالغيوم، ويبدو أن الأيام الصعبة لم تبدأ بعد. وقد صدق حدسه.

□ □ □

رحلات شاعر عاشق

حسن توفيق

الدوحة: مطابع الراية، ٢٠٠١، ٦٩٥ صفحة



يجمع الكتاب بين دفتيه حصاد رحلات قام بها المؤلف مشاركًا في مهرجانات شعرية وندوات أدبية في عديد من العواصم العربية والعالمية، ناقلاً انطباعاته عن المدن والبشر وليالي الثقافة والفن والسياسة أيضًا، وإلى هذه الانطباعات والمتابعات الصحفية الرشيقة، يروي نتفًا من لحظات حميمة جمعته بأصدقاء ربما قرأ لبعضهم أو سمع به وكانت هذه المهرجانات فرصة اللقاء الأول، غير أن فرحته بالمدن واكتشافها لا تقل عن فرحة اقتناص لحظات قرب حميمة من رفاق القلم والفكر، فنجده يكتب عن مدينة فاس المغربية: فاس قصيدة حب رائعة، قصيدة حب طويلة وجليلة، فيها تتزاوج الحضارات، وفيها تمتزج ثقافات، وفيها شعب رقيق تنبض قلوب أبنائه أجمعين بالإحساس العربي الأصيل.

ومعان قريبة من تلك يكتبها عن مدينتي طهران وشيراز واصفًا رحلته إلى حضارة فارس العريقة وانطباعاته عن حديث الرئيس الإيراني محمد خاتمي في افتتاح مؤتمر سعدي الشيرازي الشعري الذي نظمته جائزة عبد العزيز البابطين الشعرية، ودهشته لفيض العلم والرسوم، ووضوح الرؤية الذي بدا عليه الرئيس الإيراني، واهتمام الإيرانيين - في أرقى درجات المسئولية - بالتراث الشعري والأدبي العربي وما يمثله سعدي الشيرازي من جسر للتواصل بين الثقافتين العربية والفارسية، هذا بعض ما يتضمنه الكتاب الذي يجول في باريس ولندن ومدريد وطوكيو وهيروشيما وحواضر عربية وإسلامية عديدة.

كتب أجنبية

La Plus Belle histoire des an-imausc

(أجمل قصص الحيوانات)

Pascal Picq, Yean & Pierre Digard
Bois Cyrulnik et Karine Rou Matignan
224 pages, 2002



هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من اللقاءات تجريها محررة تدعى كارين لو ماتينون مع عالم بارز في الجيولوجيا اسمه باسكال بيك وتقابل أيضًا جون بيير ديجار وهو أخصائي الحيوانات الأليفة.

وأخيرًا مع أحد المكتشفين وأخصائي الأعصاب والنفسية بوريس سيرولينك الذي كان قد كتب سلسلة من الأبحاث الجريئة عن حياة الحيوانات. وياليتها تركت الثلاثة يتحاورون فيما بينهم!

في صفحات قليلة يروي باسكال بيك قصة تطور ٤ مليارات سنة: تاريخ الحياة على الأرض عندما لم يكن واضحًا الحاجز بين المعدن والنبات والحيوان.

لقد تطلب التطور من عصر الزعنفة إلى عصر الأطراف ٣٧٠ مليون سنة. كل الأحياء ذات الفقرات بما فيها الإنسان تنحدر من هذه الأسماك ذات الزعانف. أما الأسماك ذات الأطراف فقد كان لها من خمسة إلى ثمانية أصابع. ولم يبق إلا نموذج الخمسة أصابع ولا ندري سببًا لذلك.

إن أقاصيص بيك تدعو للتأمل: اكتشاف البيضة.. ثم ٧٠٠٠٠٠ عام من الانفجارات البركانية التي أدت إلى اختفاء الديناصورات وآلاف الأنواع من الحشرات والديدان والحيوانات المائية، كذلك أدت إلى تحول الماء إلى يابس، واليابس إلى ماء، وتحول قشر السمك إلى ريش كما أن الدجاجة لم تعد في حاجة إلى أسنان.

ويلاحظ أن الحياة اتجهت إلى البساطة. إذ إن التطور ليس في التعقيد ولكن في عمل أنظمة تعمل بأعلى كفاءة ممكنة استنادًا إلى أساس بسيط.

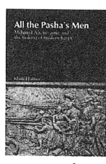
جون بيير ديجار في مشوار طويل مع الترويض واستخدام الحيوان بواسطة الإنسان، يروي لنا كثيرًا من القصص الحقيقية وعلاقات المحبة أو الفضول أو الاستغلال وهي كلها علاقات أغنى مما يبدو: الجواد البري الحقيقي الوحيد الذي مات منذ سنة ٨٨٠ ولولا أن الإنسان قرر أن يجعل من الجواد ملكية نبيلة لانقرضت السلالة بأكملها.

□ □ □

All The Pasha's men Mohamed Ali, His Army and The Making of Modern Egypt

(كل رجال الباشا.. محمد علي، جيشه وتأسيس مصر الحديثة)

Khaled Fahmy
The Auc Press, 2002, 334PP.,LE80



تقليديًا يعتبر المؤرخون والدارسون محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة، لكن مؤلف الكتاب الدكتور خالد فهمي يقدم رؤية جديدة لدور محمد علي في صعود القومية المصرية. فهو يحصر محمد علي في السياق العثماني بمعنى أنه نتاج طبيعي للامبراطورية العثمانية بكل تجلياتها السياسية والعسكرية والثقافية والاجتماعية، لكنه في نفس السياق مصطلح عثماني طموح، وإن كان هذا الوصف مثيرًا للجدل بشكل كبير.

ويعتمد المؤلف في كتابه على وثائق ومادة أرشيفية أهملها مؤرخون كثيرون ليصل إلى أن محمد علي سعى إلى تطوير الاقتصاد المصري وبناء الجيش ليس بهدف حصول مصر على استقلالها من الامبراطورية العثمانية، ولكن لدعم طموحاته بأن تصبح مصر ملكية وراثية له ولأبنائه وأحفاده من بعده.

ومن خلال التركيز على الخبرات اليومية للجيش والجنود يقوم برسم صورة تفصيلية لكل محاولات التحديث والإصلاح وكيف تم التخطيط لها وتنفيذها من جانب مصلحين مختلفين وكيف تفهم الرأي العام، على نطاق أوسع هذه الإصلاحات وتفاعل معها.

وفي هذا الإطار، فإن العمل يساهم بشكل ثري في النقاش المنهجي والنظري المتعلق بكيفية بناء الأمم وبناء سلطة الدولة وبشكل خاص في سياق التجربة المصرية خلال القرن التاسع عشر.

وينقسم الكتاب إلى مقدمة و٧ فصول عن طبيعة التوسع العسكري لمحمد علي، ومولد الجيش والمقاومة التي أبداها الذين أراد محمد علي تجنيدهم في الجيش ثم تحول المصريين من فلاحين إلى جنود وتدريبات الجيش وإنجازاته، وهناك فصل كامل عن الحياة اليومية في معسكرات الجيش ثم فصل عن جيش محمد علي والأمة المصرية وآخر ولاة مصر والبشوات العثمانيين.

عـــــروض مـــوجــزة

وخالد فهمي دارس جاد يعمل أستاذًا مساعدًا في قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة نيويورك.

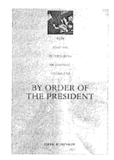
□ □ □

By order of the President FDR and the internment of Japanese American

(بأوامر الرئيس)

Gref Robinson

Harvard University Press, 2002, 322PP., £19.50,



هذا الكتاب يأتي في موعده ويمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة خاصة لأبناء الجالية العربية المقيمين في الولايات المتحدة والذين يتعرض بعضهم للاعتقال السرى ويتم انتهاك حقوقهم والتمييز ضدهم. يتحدث المؤلف عن ١٠٠ ألف ياباني كانوا يعيشون في الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، ثلثاهم كانوا يحملون الجنسية الأمريكية لكنهم جميعًا وضعوا في مراكز اعتقال خلال الحرب العالمية الثانية.

لعقود طويلة قبل تلك الحرب تعرض المهاجرون اليابانيون للتمييز والحرمان في الولايات المتحدة فلم يكن لهم الحق في الامتلاك وجرى رفض طلبات عديد منهم للحصول على الجنسية ثم توقفت الهجرة تمامًا من اليابان لأمريكا عام ١٩٢٤.

ورغم أن الرئيس الأمريكي الراحل فرانكلين روزفلت أو «إف دي آر» اختصارًا، كان صديقًا لبعض اليابانيين ودائمًا ما كان يعبر عن إعجابه بالإنجازات العظيمة للشعب الياباني، كما أنه لم يكن يعتقد أن اليابانيين أدنى من الأمريكيين إلا أنه كان يؤمن بأنه لا يمكن أن يشعر الأمريكيون من أصل ياباني بالولاء للولايات المتحدة وطنهم الجديد، وعندما واجه ضغوطًا لإبعاد اليابانيين بعد الهجوم على «بيرل هاربر» كان سعيدًا للاستجابة لهذا الطلب الذي يخالف الدستور. وقد جرى وضع هؤلاء اليابانيين في هاواي حيث عاشوا في عزلة وتعرضوا للمخاطر.

والكتاب في مجمله لا يركز على حياة هؤلاء اليابانيين المأساوية في تلك الفترة بل يتناول بشكل تفصيلي تعامل إدارة روزفلت والرئيس نفسه مع هذه القضية ويشير إلى أن روزفلت خاطب مجموعة من الكاثوليك الأيرلنديين واليهود الألمان عام ١٩٤٢ قائلاً: إن هذا بلد «أمريكا» بروتستانتي وأن الكاثوليك واليهود موجودون هنا لأننا سمحنا بذلك وعليكم أن تنفذوا أي شيء أريده منكم في هذه الأيام، وإذا كانت تلك هي طريقة تعامل روزفلت مع الكاثوليك واليهود فمن الممكن تصور كيف كان وضع اليابانيين «البوذيين وأتباع الشنتو» أسوأ بكثير.

ولأن لا شيء يبقى على حاله بالنسبة للبشر، فإن أحوال الأمريكيين من أصل ياباني حاليًا تحسنت بصورة لا يمكن تصديقها بالمقارنة بسنوات الأربعينيات للقرن العشرين وما قبلها، فالمجتمع الياباني في أمريكا حاليًا يحتل أفضل الوظائف خاصة في شركات التكنولوجيا والمعلومات. ويشغل عديد من اليابانيين من أصل أمريكي مراكز مهمة في المجتمع. وقد مرت جاليات كثيرة بما مر به اليابانيون في الولايات المتحدة بدرجة قد تختلف إلى حد ما، مثل الجالية الإيطالية التي ارتبطت باسمها عصابات المافيا والمخدرات والجرائم ثم تحسنت أحوالها بعد ذلك. واعتمد الأمر كثيرًا على جهود أبناء تلك الجاليات وإقناعهم المجتمع الأمريكي بأنهم جادون وجديرون بأن يشغلوا مكانة جيدة في المجتمع الأمريكي.

□ □ □

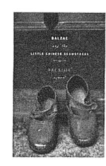
Balzac and the little chinese Seamstress

(بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة)

Dai Sijie

Translated by: Ina Rike

London- Vintage, 2002, 172PP., £6.99



مؤلف هذه الرواية صيني ولد في عام ١٩٥٤ وعاني من آثار الثورة الثقافية في عهد الزعيم الراحل ماوتسي تونج، حيث دخل برنامج إعادة التعليم في الفترة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٤ وغادر الصين عام ١٩٨٤ وهو يكتب بالفرنسية، ومؤلفه. «بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة» يرسم آثار الثورة الثقافية من خلال مغامرات كوميدية لاثنين من المراهقين اللذين ولدا في المدينة. ويعيش هذان الصديقان في قرية نائية وجبلية في الصين. ويحاول الصديقان التكيف مع حياة الفلاحين ثم يقعان في حب ابنة ترزي في القرية.

وقد فازت الرواية بخمس جوائز في فرنسا كما تحولت إلى فيلم حظي باهتمام كبير خاصة في «مهرجان كان» السينمائي الفرنسي. ويتمتع المؤلف بروح فكاهية واضحة ولديه ولع بالتاريخ. وقد أشاد مجموعة من النقاد البريطانيين بالرواية وبالمؤلف الذي يمثل نافذة أخرى على الصين التي ظلت لسنوات طويلة غامضة على الغرب.

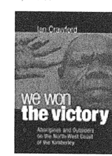
□ □ □

We Won the Victory

(فزنا بالنصر)

Ian Crawford perth, Fremantle Arts centre Australia

Distributed in the uk by Central Books, 2002, £15.99



يعيد المؤلف في هذا الكتاب بعض الحقائق والمصطلحات التي تحدث عنها الغربيون في بداية مواجهتهم أو تفاعلهم كما يقول المؤلف مع «الأوبرجين» وهم السكان الأصليون لأستراليا على الشاطئ الشمالي الغربي لتلك القارة المكتشفة. وبدون أن ينكر الطبيعة الوحشية والعنيفة للغزو الأوروبي يحاول الكتاب أن يوضح طبيعة ثقافة «الأوبرجين»، ويشير إلى أن بعد منطقة كمبرلي وعدم تناسبها مع الغزاة الجدد إلى حد ما ساهم في أن تحتفظ الجماعات الأصلية بأرضها واستقلالها لفترات زمنية أكبر من المواقع القريبة من مراكز تجمع المستوطنين الغربيين في سيدني وملبورن. ولأن هذه الجماعات كانت قريبة من الساحل فإنها كانت قبل وصول البريطانيين، على اتصال بالصيادين الإندونيسيين على سبيل المثال لقرون كثيرة خلت. ويجادل المؤلف بأن هذا التاريخ من التفاعل الثقافي مكن جماعات الأوبرجين في كمبرلي من أن يواجهوا الغربيين الذين أصبحوا «أستراليين» كأنداد وأن يعملوا لحماية مصالحهم.

ولأن المؤلف عالم آثار ومؤرخ ثقافي فإنه عمل في منطقة كمبرلي مع جماعات الأوبرجين لمدة تصل إلى أربعين عامًا، ولذلك فإن الكتاب ثرى بالمعلومات وبالقدرة على شرح وتوضيح دواخل الثقافة التي يحاول الأوبرجين الحفاظ عليها في ظل طغيان الثقافة الغربية التي أصبحت مدن مثل سيدني وملبورن وكانبرا مراكز مهمة لها. ومن خلال هذا التفاعل مع السكان الأصليين وأيضًا قراءة الوثائق الغربية يعمل المؤلف على «بناء» تاريخ مروى للمنطقة.

وما تحاول الدراسة إظهاره أن هناك تواريخ عديدة لجماعات الأوبرجين فتلك التي كانت تعيش على الساحل تختلف عن التي عاشت قرب تجمعات الأوروبيين. وفي كل الأحوال لابد من الانتباه إلى تلك الفروق ومراعاتها عند كتابة تاريخ الأوبرجين بشكل عام.

ولكن بغض النظر عن التاريخ، فإن هناك حاليًا حركة منظمة بين جماعات الأوبرجين تطالب بحصولهم على حقوقهم وباعتراف الأستراليين من أصل أوروبي بثقافتهم وبأنهم استولوا على أراضيهم عندما جاءوا للغزو أستراليا قبل قرون عديدة. الأمر الذي سيفتح المجال أمام تعويضات هائلة تخشى حكومة المحافظين الأسترالية بزعامة جون هوارد رئيس الوزراء من عواقبها. وفي المقابل فإن هناك اعترافًا شعبيًا متزايدًا من جانب الأستراليين بمدى الظلم والغبن اللذين حاقا بالأوبرجين.

□ □ □

Oscar Wild: A Certain Genius

(أوسكار وايلد.. عبقري حقيقي)

Barbara Belford

London. Bloomsbury, 2002, £8.99



الأحداث السياسية في حياة الكاتب الشهير أوسكار وايلد معروفة. فقد عاش طفولته في أيرلندا وتعلم في كلية ترينتي في دبلن وفي أكسفورد وحقق نجاحًا كبيرًا عندما عاش في لندن في نهاية القرن التاسع عشر وكان معروفًا ككاتب وفي نفس الوقت كشاب وسيم جميل الثياب والحديث.

ولذلك لا يبقى من الأحداث الخلافية حول أوسكار وايلد سوى قضية القذف التي أقيمت ضده واتهامه بالشذوذ الجنسي والتغطية الكبيرة التي حظيت بها محاكمته وصدور حكم بسجنه ثم سفره إلى فرنسا كمنفى. إن شخصية وايلد الساحرة لازالت تجتذب اهتمام الكثيرين. ومن حين إلى آخر يطفو الاهتمام به ليس في بريطانيا وحدها بل في دول عديدة ولازال وايلد هو أكثر الكتاب الذين يتم اقتباس أقوالهم بعد وليام شكسبير.

وقد استغلت المؤلفة الاهتمام الكبير بوايلد لكي تخرج هذه السيرة الذاتية الجديدة عنه.

□ □ □

قـــــراءات جـــــديـدة

"أدب"

صفحات من كتاب الحب
سلوى المناخ
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

سبعة فصول تتناول حياة وسيرة المتيمين العذريين من أمثال عنترة وعبلة والمرقش الأكبر وأسماء والمرقش الأصغر وفاطمة وعبد الله بن العجلان وهند وقيس بن الحداوية ونعم وعمرو بن كعب وعقيلة، وفي الفصل الثاني: تتناول بعضًا من سيرة شهيد الغرام العفيف جميل بثينة، وفي القسم الثالث: صفحات من كتاب الحب الحديث، وفي الفصل الرابع: شيء من سيرة إمام قرطبة أبو حزم الأندلسي صاحب «طوق الحمامة» وهو كتاب في الحب العفيف، وفي الخامس: بعض من سير الصوفية والحب، ثم تخصص السادس: لإمامهم الشاعر عمر بن الفارض، وتخصص المؤلفة القسم الأخير من كتابها لـ «أوفيد» صاحب كتاب فن الهوى.

▪▪▪

في حنايا الوطن الملهم
أحمد علبي
بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠١

أغنية حب للبنان هذا الوطن الجميل العزيز على كل عربي، بإسهاماته في الثقافة والفنون والتنوير وعطائه الذي لم ينقطع حتى في أحلك ظروفه وطوال سنوات الحرب الأهلية القاسية. والمؤلف ينسج من ذكرياته وطبيعة لبنان الساحرة وعطائه الغامر صفحات كتابه.

▪▪▪

مكان اسمه كميت
نجم والي
السويد: دار الهمبرا، ٢٠٠٢

نص يتناول فترة حرجة من حياة المجتمع العراقي، وهي الفترة التي سبقت الحرب العراقية الإيرانية في أواخر السبعينيات والضغوط التي عاناها العراقيون ومنها اشتداد وطأة الفروق الطبيعية واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء وانهيار الاقتصاد لحساب الطغمة الحاكمة والقيود السياسية الرهيبة التي كممت أفواه العراقيين.

"اقتصـــاد"

دور الملكية الفكرية والصناعية والتجارة الالكترونية في عملية التنمية
كنعان الأحمر
دمشق: دار الرضا ٢٠٠١

عن أهمية الدور الذي تلعبه الملكية الفكرية في جميع الاتجاهات وتأثيرها بالذات على الاقتصاد الدولي، يقدمها المؤلف وهو محام من زاوية قانونية وتشريعية.

▪▪▪

George Soros on Globalization
(جورج سوروس يكتب عن العولمة)
George Soros
Public Affairs, 2002, 160PP., $20

العقلية المالية الأبرز في عالمنا المعاصر جورج سوروس ترك بصمته بإيمانه بالمجتمع المفتوح وتبنيه سياسة خارجية تقدمية إلى جانب مشروعاته الخيرية المتعددة. في هذه الرسالة التي يمثلها كتابه الأخير، يقدم جورج سوروس للعالم حلاً لأزمة العولمة من أجل أن تصبح الرأسمالية العالمية أكثر استقرارًا وأكثر مساواة.

يقترح جورج سوروس إصلاح المؤسسات والتجارة المالية الدولية بدلاً من إغلاقها كما ينادي المعادون للعولمة. وهو يقترح إجراءات محددة وسياسات مفصلة توفر الدعم من الدول الغنية للدول الفقيرة من خلال صندوق نقد الدولي.

▪▪▪

The China Dream: The Quest for the Last Great Untapped Market on Earth
(حلم الصين: البحث عن آخر سوق كبير على الأرض لم يُستَغَل حتى الآن)
Joe Studwell
Atlantic Monthly, 2002, 384PP., $ 26

منذ أكثر من ألفي عام مثل عدد السكان الضخم للصين إغراءً للمصدرين والتجار والمستثمرين من جميع أنحاء العالم.

أما في التسعينيات فقد تم سكب ثلاثمائة مليار دولار في الصين، كرأس مال استثماري أجنبي وبذلت كثير من النفقات من أجل بيع بضائع مختلفة هناك. وباستثناءات قليلة، هذه المشاريع كانت كارثية. هكذا يقول مؤلف هذا الكتاب، وهو صحفي اقتصادي تخصص في تغطية الصين، يحلل ستادويل في كتابه العوامل الثقافية التي تجعل السوق الصينية غير قابلة للاختراق الأجنبي، كما يتنبأ بأزمة اقتصادية ـ سياسية قادمة في الصين.

"إعلام واتصالات"

الاتصال في عصر العولمة
مي عبدالله سنو
بيروت: دار النهضة العربية ٢٠٠١

دراسة نظرية من خمسة أقسام تتحدث عن الإطار المنهجي والنظري والعولمة وتوسع أشكال الاتصال ووسائل الاتصال الحديثة في العالم العربي ولبنان واستخدامات وسائل الاتصال، ثم أخيرًا وضع الاتصالات في لبنان مستقبلاً والتحديات التي تواجهها.

▪▪▪

التنظيم القانوني لشبكة الإنترنت
طوني عيسى
بيروت: دار الكتب الجامعية، ٢٠٠١

عن مخاطر التعامل السلبي مع شبكة الإنترنت، وكيفية ترشيد استخدامها للاستفادة القصوى مما تقدمه من إمكانات إيجابية وتجنب السلبيات إلى أدنى حد ممكن.

الصحافة الإخبارية
مرعي مدكور
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

فرضت التطورات التي شهدتها «الميديا» في السنوات الأخيرة أشكالاً جديدة ومختلفة على الصحافة الإخبارية بسبب المنافسة المفروضة عليها من وسائل الاتصال الحديثة والإنترنت والشبكات الفضائية. هذا التطور يضع الصحافة الإخبارية في موقف لا تحسد عليه ويرسم لها أدوارًا إصلاحية وتنموية وتنويرية لم تكن مطلوبة في الماضي.

▪▪▪

Mobocracy: How the Media's Obsession with Polling Twists the News, Alters Elections and Undermines Democracy
(حكم الغوغاء: كيف يؤدي الولع الإعلامي باستطلاعات الرأي إلى لي الحقائق والعبث بالانتخابات وإفساد الديموقراطية)
Mathew Robinson
Prima, 2002, 272PP., $ 24.95

هجوم شديد على استطلاعات الرأي الإعلامية من جانب المؤلف الذي ينتمي إلى التيار المحافظ في الولايات المتحدة. ويبين في كتابه المنهاجية المعيبة وغير المتقنة التي تتم في معظم الاستطلاعات، كما ينتقد وسائل الإعلام لعدم إفصاحها عن الأساليب والعمليات التي تم بها جمع البيانات. وهو يوجه هذه الانتقادات في إطار اتهام الإعلام الأمريكي بالتحيز لصالح الليبراليين، مذكرًا على سبيل المثال أن الاستطلاعات الإعلامية هذه هي التي أنقذت كلينتون من حكم القانون.

"تـاريـخ"

المدينة المنورة في العصر المملوكي
عبد الرحمن المديرسي
الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠١

سكن الأمراء والسلاطين المماليك حواضر بعيدة عن منابع الدين الإسلامي الحنيف في مكة المكرمة والمدينة المنورة مثل مصر والشام، ولم ترد في تاريخهم صور للحرمين الشريفين، وهذا هو الجهد الرئيسي الذي اضطلع به المؤلف حيث يرسم صورًا لهما اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا ودينيًا في تلك الحقبة.

▪▪▪

دراسات في التاريخ والثقافة العربية
عبادة كحيلة وآخرون
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

مجموعة من الدراسات والأبحاث حول التاريخ والثقافة العربية مهداة إلى الدكتور رءوف عباس حامد بمناسبة بلوغه السبعين، وتستعرض بعض الدراسات دور رءوف عباس في تطوير الدراسات التاريخية ومنهجه في التاريخ.

▪▪▪

فطير صهيون
العماد مصطفى طلاس
دمشق: دار طلاس، ٢٠٠١

الصهاينة هم النازيون الجدد، هذا ما برهنت عليه الأحداث الأخيرة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، ومازال شارون وزبانيته رغم كل نداءات المجتمع الدولي ورغم الضغوط الأوروبية وغيرها ماضيًا في هدفه نحو تصفية الشعب الفلسطيني والقضاء عليه، المؤلف يلقي أضواء على مجازر الصهاينة على مر العصور، ويركز على جريمة قتل الراهب توما الكبوشي وخادمه في دمشق، وغيرها مما يبين النزعة الدموية في العقلية الإسرائيلية.

▪▪▪

Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East
(ستة أيام من الحرب: يونيو ١٩٦٧ وتشكيل الشرق الأوسط المعاصر)
Michael B.Oren
OxFord University, 2002, 512PP., $30.00

عمل مايكل أورين مديرًا لإدارة العلاقات ما بين الأديان في إسرائيل ومستشارًا لوفد إسرائيل في الأمم المتحدة وهو الآن زميل في مركز شالم بالقدس. وكتابه هذا الذي يصدر في يونيو القادم، ينال اهتمامًا واسعًا، فهو يروي قصة حرب ١٩٦٧، مستخدمًا آلاف من الوثائق السرية وأوراق روسية وعربية ومقابلات شخصية انفرادية، محاولاً إعادة خلق السياق الدولي والمحلي في هذه الفترة والأزمات الداخلية التي تفجرت في الدول الأطراف. يتناول الكتاب كذلك الشخصيات الرئيسية في الصراع: جمال عبدالناصر، موشي ديان، حافظ الأسد، إسحق رابين، لندون جونسون وأليكسي كوسيجين.

"تـــراث"

السادر والمخاطب في فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء
عبد الله الغزالي
الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠١

دراسة تحليلية للخط الدرامي المتبع في كتاب فاكهة الخلفاء، وتقييم لأهم الحكايات والنوادر الشعبية التي يتضمنها وتأثير هذه الحكايات على الفن القصصي في تراثنا السردي ودلالاتها.

▪▪▪

في بيان الحاجة إلى الطب والأطباء ووصاياهم
تحقيق ودراسة: محمد فؤاد الذاكري
الإمارات: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٢

دراسة في تاريخ الطب والمدارس الطبية القديمة ومدى الارتباط بين الطب والحكمة، ويجول المؤلف في الطب النبوي وإسهاماته في تطوير مدارس الطب القديمة، ويحقق نسخًا تتحدث عن وصايا الأطباء في عصور مختلفة لعلاج عديد من الأمراض، وسلوك الطبيب وأخلاقياته.

▪▪▪

معجم صفات النساء

عبد الناصر الحمد

الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

دراسة لأهم صفات المرأة والمعايير المعتبرة للجمال والذكاء والفراسة والاستيعاب.. إلخ، مستعينًا بالشعر والشعراء ومدللاً من قصائدهم على اختلاف هذه المعايير من زمن لآخر ومن شاعر لآخر.

"تربية"

مكونات ثقافة الطفل العربي

حسن مدن وآخرون

الإمارات: دائرة الثقافة والإعلام ٢٠٠١

مجموعة من الدراسات التي ترسم خطة منهجية لتنمية الطفل خصوصًا على الصعيدين الثقافي والعقلي. وتقدم بدائل لخطاب التوجيه السائد الذي يكرّس قيمًا لا تحفل بالجدل وإثراء ملكات التساؤل والمشاركة من أجل طفل عربي جديد.

■■■

Killing Monsters: Why Children Need Fantasy, Super Heroes, and Make - Believe Violence

(الوحوش القاتلة: لماذا يحتاج الأطفال إلى الخيال والأبطال الخوارق، والعنف المحاكي)

Gerard James

Basic, 2002, 288PP., $25.00

يدافع المؤلف عن تقديم جرعات من العنف في وسائل التسلية المتاحة للأطفال. فعلى عكس ما كتب في السابق، يرى المؤلف أن تجريم مشاهدة مثل هذا العنف غير الحقيقي يؤذي التطور العاطفي لدى الأطفال. فالأطفال تعرف جيدًا الفرق بين الخيال والواقع، وفي الوقت الذي يفزع الكبار من المعنى الحرفي والمعرفي من بعض البرامج، إلا أن الأطفال يقبلون على هذه البرامج من أجل شحناتها العاطفية، التي تفيد في جعلهم يتعرفون على مثل هذه المشاعر القوية ويشعرون بالقدرة على السيطرة عليها، سواء كانت مشاعر غضب أو عنف أو جنس.

"تخطيط مدن"

Haussman: His Life and Times, and the Making of Modern Paris

(هاوسمان: حياته وعصره، وإنشاء باريس الحديثة)

Michel Carmona

Translated From the Frach by: Patrick Camiller

Ivan R. Dec, 2002, 630PP., $35.00

قام البارون جورج يوحين هاوسمان في عهد نابليون الثالث بتحويل باريس من منطقة مدنية ساكنة تنتمي للعصور الوسطى إلى مدينة امبريالية متنصرة. وكان هاوسمان يؤمن بالشوارع الرئيسية الفسيحة والمتسعة أيًا ما كان العائق في طريق إنشائها، فتم على يديه ترحيل آلاف من السكان الفقراء من وسط المدينة، وتحطيم عدة مدن تاريخية.

هذا الكتاب يلقي الضوء على حياة هاوسمان ومشروعه في إعادة تخطيط مدينة باريس، والحملات الصحفية التي قامت ضده والاحتجاجات الشعبية التي واجهها بسبب الآثار التي كانت تنتج عن تنفيذ مشروعاته.

"دوريات"

مصر الحديثة

مجموعة باحثين

القاهرة: دار الكتب القومية، ٢٠٠٢

دورية جديدة تعنى بتاريخ مصر الحديث والمرتكزات التي قامت عليها نهضتها المعاصرة وعلاقتها بدول بدأت معها النهضة في نفس الوقت تقريبًا مثل اليابان، فضلاً عن العلاقات التاريخية التي ربطت مصر بجيرانها وتأثير هذه العلاقات على مصر وجيرانها أيضًا.

"رواية وقصص"

أموت وأفهم

سناء البيسي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

مجموعة من القصص القصيرة واللوحات التي تغوص في قلب المجتمع المصري معبرة عن آمال بسطائه ومشاكلهم وهمهم اليومي الذي قد لا نعيره اهتمامًا لكن انعكاساته تؤثر في الجميع.

■■■

تكسير الركب

زكريا تامر

بيروت: رياض الريس ٢٠٠١

ثلاث وستون قصة قصيرة ترسم ملامح البيئة العربية وإشكالاتها وتخبط الإنسان العربي البسيط في موجاتها المتلاطمة، وهي مصاغة بالأسلوب الساخر الذي عُرف عن الكاتب السوري الشهير.

■■■

طريق النشر

إدوار الخراط

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

في خضم البطولات الجسورة والتضحيات العظيمة التي قدمها الشعب الفلسطيني في انتفاضته الأخيرة، تأتي هذه الرواية للمؤلف التي تتناول مواقف شبيهة وبطولات للشعب المصري في الإسكندرية في مواجهة الاحتلال في الأربعينيات، وكيف أن هذه التضحيات كانت هي عربون الاستقلال الذي حققه المصريون في نهاية المطاف.

■■■

قانون الوراثة

ياسر عبد اللطيف

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

رواية تنهل من سيرة ذاتية لراوٍ يبحث عن تاريخه وأسرته وعائلته التي يحمل وجهه الأسمر ملامحها. وهي أسرة نوبية هاجرت إلى القاهرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتتخلل ذاكرة الراوي الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية التي ميزت تلك الفترة وأهم التحولات الانعطافية فيها.

■■■

لصوص متقاعدون

حمدي أبو جليل

القاهرة: دار ميريت ٢٠٠٢

مجموعة قصصية جديدة عن المهمشين في المجتمع المصري وتفاصيل حياتهم واهتماماتهم الصغيرة وعلاقتهم بالمجتمع ورؤيتهم للتحولات من حولهم ونظرة المجتمع لهم.

■■■

The Doctor's House

(بيت الطبيب)

Ann Beattie

Scribner, 2002, 283PP., $24.00

الرواية الأحدث لإحدى أهم الأديبات الأمريكيات، وهي رواية مظلمة وكئيبة إلى حد كبير، حيث تتناول الآثار المدمرة التي تخلفها الخيانات الزوجية للوالد على زوجته وأولاده، والطفولة المضطربة التي تخلو من الحب، والنشأة بدون فهم لكيفية إعطاء واستقبال الحب مع الآخرين.

■■■

The Weather in Berlin

(الطقس في برلين)

Ward Just

Houghton Mifflin, 2002, 320PP., $24.00

بطل الرواية مخرج عمره أربعة وستون عامًا، يدعى ديسكون جرينوود، أول أفلامه كان فيلمًا صُور في ألمانيا في أواخر الستينيات، واشتهر بوصفه من الأفلام المعادية للحرب. وبعد خمسة عشر عامًا من الجفاف الإبداعي اقتنع جرينوود أنه فقد جمهوره وموهبته، ويعود إلى برلين عام ١٩٩٩ بمناسبة حصوله على الزمالة في أحد المعاهد الألمانية هناك.

"رياضة"

The Ultimate Golf Book: A History and a Celebration of the World's Greatest Game

(كتاب الجولف الأساسي: تاريخ واحتفاء بأعظم لعبة رياضية عرفها العالم)

Charles Mc Grath, David Mc Cormick, (editors)

John Garrity (Historical Text)

Houghton Mifflin, 2002, 272PP., $40.00

محرر هذا الكتاب هو رئيس تحرير ملحق الكتب التابع لصحيفة «النيويورك تايمز»، وهو يقدم في هذا الكتاب الخاص، ثمانية عشر مقالاً عن تاريخ وقواعد ومتعة لعبة الجولف. هذه المقالات كتبتها شخصيات أدبية وسياسية مرموقة مثل جون أبدايك وديفيد أوين. كذلك يضم الكتاب ثلاثمائة صورة فوتوغرافية.

"سياسة"

اتجاهات الفكر التربوي المعاصر في إسرائيل

محمد فوزي عبد المقصود

القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢

يلعب الفكر التربوي في إسرائيل دورًا بالغ الخطورة داخل المجتمع الصهيوني تدعيمًا لأفكار ونظريات الصهاينة الأوائل ومقاومة لأفكار القومية العربية. المؤلف يرصد لهذه الاتجاهات كما يبين سبل مواجهة هذا المخطط بخطط واعية واستراتيجيات بعيدة المدى.

■■■

القدس في السياسة الأمريكية

إبراهيم أبو حليوة

بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠١

ستظل القدس هي العنوان الدائم للصراع بين العرب واليهود. ولا حل للنزاع في منطقة الشرق الأوسط إلا بحل قضية القدس حلاً جذريًا. الدراسة تقدم رؤية لموضوع القدس في السياسة الأمريكية منذ الأربعينيات حتى اليوم، توضح الارتباك المدفوع بالمصلحة في الموقف من القدس كما تتبناه السياسة الأمريكية.

■■■

درب الأشواك.. حماس- الانتفاضة- السلطة

عماد عبد الحميد الفالوجي

فلسطين: دار الشروق، ٢٠٠٢

عن بدايات تكوين حركة المقاومة الإسلامية (حماس) وأهم القادة فيها والدور الذي تلعبه حماس في دعم صفوف المقاومة الفلسطينية لمواجهة العدو الصهيوني وكيف غيرت بإسهاماتها في النضال الفلسطيني صور وأشكال المقاومة منذ إنشائها وحتى الآن.

■■■

حال الأمة العربية- الوثائق- القرارات- البيانات

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

أثبتت الأحداث الأخيرة في الأراضي الفلسطينية المحتلة وتجليات الانتفاضة التي أكدت بطولة الشعب الفلسطيني وبسالته دفاعًا عن الأرض والمقدسات في مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية الغاشمة، أن الموقف الرسمي العربي أعجز من أن يتخذ قرارات ترقى لمستوى طموحات الشعوب. حوالي ست عشرة دراسة يتضمنها هذا الكتاب تحلل الوضع العربي وآليات صنع القرار على مستوى الأنظمة وأسباب ما آل إليه الحال وكيفية الخروج من المأزق.

■■■

صهيونية القرن الـ ٢١
إياد عبيد
بيروت: دار بلال، ٢٠٠١
تقوم الأيديولوجية الصهيونية على أسس عنصرية واستعلائية مستقاة من أفكار تلمودية توراتية لا صلة لها بصحيح الديانة اليهودية، لكنها تقدم التبريرات الكافية لتنفيذ الحلم الصهيوني القديم بلم شمل الأقليات اليهودية المبعثرة في العالم كله، وحشرها في «أرض الميعاد» بعد طرد سكانها الأصليين، وفي سبيل تحقيق هذا الحلم الاستيطاني تستخدم كل الوسائل عسكرية وسياسية وغيرها.
والمؤلف يتابع مسيرة هذه الأيديولوجية وسعيها لتحقيق أهدافها.

■■■

لعبة الانتخابات اللبنانية
سليمان الحكيم
القاهرة: دار الجميل، ٢٠٠٢
تحليلات سياسية عن الوضع في لبنان، وما وصل إليه الحال في أعقاب الحرب الأهلية التي استمرت ربع قرن تقريبًا والتي أدت إلى هجرة الآلاف من جحيمها إلى خارج حدود الوطن، ثم انطفاء جذوة هذه الحرب اللعينة وعودة الناس ومشهد تعمير ما خربته الحرب.
ثم يتناول المشهد الأكثر ارتباكًا في لبنان وهو المشهد السياسي الذي تتداخل فيه المصالح بالأهداف النبيلة بالتدخلات الخارجية ومصالح القوى الكبرى.

■■■

من نهج الثورة إلى فكر الإصلاح
مصطفى الفقي
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢
ثمة تمايز أكيد بين أسلوبين في صناعة التاريخ، أسلوب الثورة حلاً جذريًا لا بديل عنه لإصلاح النظام السياسي وتأكيد نزاهة الحكم وتحقيق العدالة على الصعيد الاجتماعي. وأسلوب آخر يرى الإصلاح عملية تدريجية مدروسة وليس انقلابًا فجائيًا، عملية تستلهم التطور من علاقة متوازية مع عنصر الزمن، وقد كان لكلا المنهجين مناصروه في مسيرة السياسة والثقافة المصرية منذ محمد على وحتى اليوم.

■■■

نهاية عملية السلام.. أوسلو وما بعدها
إدوارد سعيد
بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١
مجموعة من المقالات نشرها المفكر الكبير على مدى السنوات الماضية ويقر فيها سعيد بعدم إمكانية تحقيق سلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين وفق اتفاقيات أوسلو التي عكست خللاً شديدًا في توازن القوى وأجبرت الفلسطينيين وهم الطرف الأضعف على قبول تنازلات ضخمة فرَّغت السلام من مضمونه.
والمعروف أن إدوارد سعيد وقف منذ البداية ضد اتفاقيات أوسلو واعتبرها مجحفة بحق العرب والفلسطينيين.

■■■

How Democratic is the American Constitution?
(إلى أي مدى الدستور الأمريكي ديمقراطي؟)
Robert A. Dahl
Yale Univ., 2002, 184PP., $19.95
يعد روبرت داهل من أهم أساتذة العلوم السياسية وكتابه «عن الديمقراطية» من أهم المراجع العلمية عن الأسس النظرية والعملية للديمقراطية. أما في كتابه هذا، فيقدم روبرت داهل نظرة نقدية للدستور الأمريكي الذي لازال يحكم الحياة السياسية في أمريكا. يقول بروفيسور داهل: «هذه الوثيقة تم إنتاجها منذ قرنين من الزمان على يد خمسة وخمسين رجلاً فانيًا، ووقعها تسعة وثلاثون منهم فقط، وتبنتها ثلاث عشرة ولاية فقط».
والدستور الأمريكي من وجهة نظره فشل كأداة لحكومة ديمقراطية حقيقية. فقد تضمن الدستور عددًا من العناصر غير الديمقراطية مثل القبول بالعبودية، وقصر الناخبين على الرجال من البيض، إلى جانب مجلس الشيوخ والهيئة الانتخابية، الأمر الذي يربط الأصوات بالجغرافيا وليس بالسكان، ويفرز سياسات محابية لجماعات الضغط القوية بدلاً من محاباة أكبر عدد من المواطنين. على عكس الدول التي تتبنى نظام التمثيل النسبي الذي يفرز نظام التعددية الحزبية والحكومات الائتلافية ويقدم مساواة ديمقراطية أكثر نقاء.

■■■

The Shield of Achilles
(درع أخيل)
Philip Bobbit
Knopf., 2002, 884PP., $46.00
هذه دراسة رائدة في عملية تحول النظام السياسي المعاصر من نظام الدولة القومية إلى نظام الدولة التجارية. فالدولة القومية التي تطورت خلال ستة قرون ماضية باعتبارها المؤسسة الأعلى لشن الحرب وتنظيم السلام أصبحت في طريقها للتواري خلف الدولة التجارية التي تسعى لتعظيم فرص شعبها عن طريق العلاقات التجارية المختلفة. بينما الدولة القومية تستخدم القوة والقانون لتحقيق الرخاء المادي لمواطنيها.

شــعــر

انفجارات إضافية
إبراهيم داود
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢
ديوان أخير لأحد الأصوات الشعرية المهمة في التسعينيات والتي بدأها بديوانه «تفاصيل صغيرة»، وهو هنا يواصل مقاربة الواقع على طريقته، راسمًا لوحات لقضايا عديدة لا يغيب عنها الوطن والحلم والمستقبل.

■■■

دائمًا يتحدث مع غائبين
حسن خضر
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢
الديوان الثاني للشاعر برغم بداياته الشعرية المبكرة، وفيه تتضافر مشاعر الحزن الذاتية مع الهموم العامة والأصداء ذات الأبعاد الوطنية والاجتماعية وهو ما يميز إبداع الشاعر عمومًا.

■■■

قبل أن يبرد الياسمين
جهاد مديب
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢
عدة بورتريهات يرسمها الشاعر مستخدمًا خيال المبدع وأدواته، تطالعنا فيها صور للعدو الغاصب والوطن وشباب المقاومة وأطفال الانتفاضة.

عــلــوم

العلوم الطبيعية.. خواصها وملامح تاريخها وبعض أعلامها
سمير حنا صادق
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢
لم يؤثر شيء في مسيرة التطور والفكر العربيين قدر نفوره من العلم وتطبيقاته وغياب العقلية العلمية التي تعنى بالمقدمات والنتائج وتبحث عن حلول عملية وبدائلها. المؤلف يؤكد هنا أهمية العلم في حياتنا ودوره في تطور الأمم من خلال تركيزه على العلوم الطبيعية تاريخها وتطورها، والأعلام من العلماء الذين ساهموا في هذه المسيرة.

■■■

The Next Fifty Years: Science in the first Half of the Twenty- First Century
(الخمسون عامًا القادمة: العلم في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين)
John Brochman (editor)
Vintage, 2002, 320PP., $14.00
قام المحرر بتجميع خمسة وعشرين كاتبًا لمناقشة مستقبل العلم في مجالات دراسة واختصاص كل منهم. وتنقسم مجموعة المقالات التي يحتويها الكتاب إلى قسمين: المستقبل في النظرية والمستقبل في الممارسة العملية.
تحتوي الموضوعات النظرية على العلوم الفلكية، وطبيعة الوعي، وإمكانية وجود كائنات ذكية خارج كوكب الأرض. أما الموضوعات العملية فتتناول مستقبل تطبيقات «الدنا»، واستكشاف المريخ، وإنجاب الأطفال.
من ضمن التنبؤات التي يحتويها الكتاب ما كتبه روبرت سابوتسكي أخصائي علم الأعصاب عن مرض الحزن الذي يرى أنه سوف يكون إحدى الكوارث الطبية التي سيشهدها النصف القادم من القرن الحالي، جنبًا إلى جنب مع الزهايمر والإيدز.

■■■

فــكــر

التغريب في المسألة الإيرانية الحديثة
غسان طعان
بيروت: بيان للنشر، ٢٠٠٢
ساهمت الثقافة الفارسية بنصيب وافر في الحضارة الإسلامية من خلال علماء أفذاذ في علوم اللغة والحديث والفلسفة وحتى في العلوم الطبيعية، وهو فضل غير منكور لعلماء المسلمين من الفرس. لكن كيف تساهم هذه الثقافة في المشهد الثقافي المعاصر وما هو مستقبلها في ضوء الإشكاليات الراهنة.

■■■

الغرب والإسلام
رسول محمد رسول
عمَّان: دار الفارس، ٢٠٠١
تشغل علاقة الغرب بالإسلام مساحة كبيرة في أذهان المفكرين على الجانبين، ومع بروز كتابات فوكوياما عن نهاية التاريخ وهنتنجتون عن صراع الحضارات زادت هذه المساحة وربما زادتها أحداث ١١ سبتمبر ارتباكًا، هذا الكتاب إضافة في هذا السبيل.

■■■

سؤال الأخلاق
طه عبد الرحمن
الرباط: بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١
يحمل الكتاب عنوانًا فرعيًا آخر هو مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، والكتاب يبحث في الروابط بين الأخلاق والدين، وبين الاثنتين والحداثة بمظاهرها المختلفة.

■■■

كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد
جودة سعيد، خالص جلبي، هشام علي حافظ
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠١
تحليل النفس البشرية وخصوصًا في لحظات ضعفها وكيف يمكنها قبول الاستبداد والقهر، وكيف لهذا القهر والاستبداد أن يحولها إلى قطعان تصبح قابلة للقهر وعاجزة عن المطالبة بحقوقها في الحياة والحرية.

فــنــون

In Responce to Place: Photographs from the Nature Conservancy
(استجابة للمكان: صور فوتوغرافية من المحميات الطبيعية)
Terry Tenipest Williams, Andy Grundberg
Bulfinch Press, 2001, 160pp., $ 50.00
يحتفي هذا الكتاب بالمحميات الطبيعية حول العالم، ويحتوي على ٢٠٠ صورة فوتوغرافية من هذه الأماكن لكبار المصورين في العالم.

■■■

Sundance to Sarajevo: Film Festivals and the World they Made

(من ســانــدانس إلى ســرايــيــفــو: المهرجانات السينمائية والعالم الذى تصنعه)

Kenneth Turan

Univ. of California, 2002, 192PP., $24.95

الناقد السينمائى فى جريدة «لوس أنجيلوس تايمز» يمزج تاريخ الفيلم بأدب الرحلات وهو يكتب عن تفاصيل اثنى عشر مهرجانًا سينمائيًا من بين أربعمائة مهرجان سينمائى فى العالم. يبين المؤلف كيف توفر هذه المهرجانات بيئة صالحة للعلاقات العامة ونمو صناعة الفيلم ككل.

"لغــة"

العربية الفصحى شعلة لا تنطفئ

جبران مسعود

بيروت: بيت الحكمة، ٢٠٠١

سيظل القرآن الكريم حافظًا للغة العربية من الاندثار أو الضياع على ألسنة أهلها الذين لو عرفوا لآلئها وجمالياتها، انصرفوا عنها إلى غيرها تحدثًا وإبداعًا. هذا الكتاب يلقى أضواء على بعض جماليات اللغة العربية والأساليب البديعة والصور البيانية والبلاغية التى تزخر بها.

■■■

المفصّل فى صنعة الإعراب

الزمخشرى

تحقيق: محمد عبد المقصود وحسن عبد المقصود

القاهرة: بيروت: دار الكتاب المصرى اللبنانى، ٢٠٠١

هذا هو أول تحقيق علمى للكتاب رغم شهرته الكبيرة، وهو أول كتب الدراسات النحوية التى تناولت مسائل النحو بتبويب منظم، وقد دعم المحققان الكتاب بمجموعة فهارس فنية اشتملت على فهرس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشواهد الشعرية وغيرها.

■■■

علم الاكتناه العربى الإسلامى

قاسم السامرائى

الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث، ٢٠٠١

رؤية لمفهوم علم الاكتناه فى اللغة العربية ومقارنة بين المفهوم العربى لهذا العلم ونظيره فى الغرب، وكيف أفاد هذا العلم فى الفهرسة والتبويب وحفظ المؤلفات من الخلط والضياع.

"مجتمــع"

الدليل الموحد لمصطلحات الإعاقة

جمال الخطيب وآخرون

البحرين: المكتب التنفيذى لمجلس وزراء العمل بدول مجلس التعاون ٢٠٠١

شهدت السنوات الأخيرة اهتمامًا حقيقيًا بالمعاقين وذوى الاحتياجات الخاصة فى سعى حثيث لإدماج هؤلاء فى الحياة وإشعارهم بأهميتهم وبإمكانية مشاركتهم الفاعلة فى الحياة، لهذا يأتى هذا الكتاب جسرًا للتواصل بين المعاقين ومحاولة لحل شفرة لغة الإعاقة.

■■■

المسنون وربيع العمر الجميل

عبد التواب يوسف

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

كثيرون ما أن يجاوز العمر بهم العقد الخامس، حتى ييأسوا من حياتهم ويفقدوا شهيتهم للحياة والتفاعل معها، لكن الحقيقة التى يبرزها الكتاب هى أن لهذا العمر جماله وإمكانيات الاستمتاع به، والمجتمع ذاته لابد أن يستثمر هذه الخبرات التى لا يجوز تركها ليد الإهمال دون أن يستفاد منها.

■■■

زوجات قاتلات

سراج الدين الروبى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

شهدت السنوات الأخيرة فى مصر نوعية من الجرائم لم تكن معتادة فى المجتمع المصرى الذى عرف بتماسكه على المستوى الأسرى، وقد هزت حوادث قتل الأزواج المجتمع، وصارت مثار تندر واستلهمت منها السينما بعض الأعمال التى قدمتها استنادًا إلى قصص واقعية، المؤلف بحكم خبرته وتجاربه فى جهاز الشرطة، يرصد بعض هذه التجارب ودوافع القاتلات وحيلهن واعترافاتهن فى المحاضر الرسمية.

■■■

The Common Thread: Mothers, Daughters and the Power of Empathy

(الخيط المشترك: الأمهات وبناتهن وقوة التقمص العاطفى)

Martha Manning

Marrow, 2002, 368PP., $ 25.95

تبدأ العلاقة بين الأم وابنتها منذ لحظة الحمل وتمتد إلى ما بعد موت إحداهما. تقوم رؤية المؤلفة لهذه العلاقة على فكرة التقمص العاطفى - أو قدرة كل من الأم والابنة على تفهم مشاعر الأخرى. وهى تقدم قراءة لكتابات عديدة تناولت هذه العلاقة بالتحليل وتقدم نصائحها خاصة لأمهات المراهقات فى كيفية إدارة هذه العلاقة فى الفترات والمواقف الحرجة. كما تقدم نصائحها للنساء الأكبر فى كيفية معاملة أمهاتهن فى سن الشيخوخة.

"مذكرات وسير"

الأمير عبد الإله.. صورة قلمية

عطا عبد الوهاب

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

صورة من قريب للأمير عبد الإله الذى كان وصيًا على عرش العراق لمدة ناهزت عقدين من الزمان حتى وقوع الانقلاب فى عام ١٩٥٨ فى العاصمة العراقية بغداد. والمؤلف هو السكرتير الخاص فى الديوان الملكى العراقى، حيث أتاح له هذا الاقتراب أن يتعمق أكثر فى النواحى الإنسانية والفكرية لدى الأمير عبد الإله وهى مجهولة لكل من تناول سيرته ومسيرته.

■■■

المنهج التاريخى عند القلقشندى

ظمياء السامرائى

الرياض: مركز الملك فيصل، ٢٠٠٢

تتابع المؤلفة المنهج الذى اتبعه القلقشندى فى مؤلفاته، فضلاً عن سيرة حياته اجتماعيًا وثقافيًا وأهم مؤلفاته ورؤيته التاريخية للأحداث.

■■■

خالد بن الوليد.. بطل ومسجد

محمد فيصل شيخانى

دمشق: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

تحليل القائد الإسلامى خالد بن الوليد مكانة مهمة فى التاريخ العسكرى الإسلامى بفتوحاته العظيمة التى كان لها أكبر الأثر فى بناء واتساع رقعة دولة الإسلام، المؤلف يقدم سيرة هذا البطل المجاهد ويحدثنا أيضًا عن المسجد الذى يحمل اسمه، تاريخه وأهم معالمه.

■■■

رحلة فى فكر زكى نجيب محمود مع نص رسالته عن الجبر الذاتى

إمام عبدالفتاح إمام

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢

سيرة حياة المفكر الفيلسوف ومراحل تطوره وتارجحاته بين العقل والدين ثم محاولته المزج بين العقل والدين والبحث عن قواسم مشتركة بين البرجماتى والروحانى فى الفلسفات الإنسانية.

وإلى جانب مجموعة كبيرة من الدراسات التى كتبها تلاميذه وأصدقاؤه يعرض المؤلف لرأى زكى نجيب محمود فى موضوع حرية الإرادة عند الإنسان، والذى شغله سنوات طويلة.

■■■

سليمان الجزائرى.. مع فتاواه ورسائله

أبو القاسم كرو

تونس: مؤسسة عبد الله للنشر، ٢٠٠١

عاش العالم الفقيه سليمان الجزائرى فى القرن التاسع عشر وتوفى فيه أيضًا، لكن الأثر الذى تركه فى مجال الفتاوى والدراسات الفقهية والدينية مازال باديًا حتى اليوم لدى عديد من تلاميذه وتلاميذهم أيضًا.

■■■

مذكرات عربجى

فكرى أباظة

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٢

أوراق من حياة الضاحك الباكى فكرى أباظة، صاحب المسيرة الطويلة المهمة فى بلاط صاحبة الجلالة. تقدم إطلالة على عالم هذا الصحفى والكاتب البارز وتلقى أضواء على مرحلة زمنية طويلة من وجهة نظره.

■■■

من حياتى مع الموسيقى

سمحة الخولى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

تقدم المؤلفة فى هذا الكتاب خلاصة تجربتها الطويلة مع الموسيقى فى خمسة فصول تتناول خلالها فرسان الموسيقى والتلحين من أمثال سيد درويش وسلامة حجازى، فضلاً عن آخرين ساهموا بكتاباتهم فى تنمية الوعى الموسيقى من أمثال د. حسين فوزى ود. مصطفى مشرفة والمايسترو يوسف السيسى، ودور المؤلفة ذاتها فى التصدى لمن يحاولون تشويه الموسيقى الشرقية.

■■■

Herman Melville: A Biography, Volume 2, 1851 - 1891

(هرمانت ميلفيل: سيرة حياته، الجزء الثانى، ١٨٥١ - ١٨٩١)

Hershel Parker

John Hopkins Univ., 2002, 1.184PP., $45

يبدأ هذا الجزء من حياة هيرمان ميلفيل بصدور روايته الشهيرة عن الحوت الأبيض «موبى ديك» عام ١٨٥١. وكانت هذه أسعد أيام ميلفيل ولكنها شهدت تحوله من كاتب شهير وله شعبية بين جمهور القراء كاول كاتب أمريكى يكتب فى الجنس، إلى أديب يكتب روايات يهتم بها النقاد، ولا تأتى بمبيعات، وهكذا تراكمت الديون عليه واضطر للعمل فى الجمارك ليرعى أسرته، وتم نسيانه شيئًا فشيئًا.

"نقــد"

خليفة الوقيان فى رحلة الحلم والهم

نجمة إدريس

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٢

ترك الوقيان تراثًا شعريًا مهمًا ليس فى مسيرة الشعر الكويتى فحسب وإنما فى مسيرة الشعر العربى كله. وهذه الدراسة تشير إلى مسيرة الوقيان الشعرية وروافد ثقافته وإبداعه والقضايا التى عنى بها أكثر من غيرها.

■■■

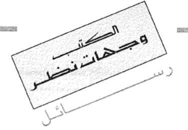
زمن للشعر والشعراء

فاروق شوشة

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

ثمة مقولة شاعت فى السنوات الأخيرة مؤداها أن الشعر لم يعد ديوان العرب وأن الرواية احتلت مكانه ومكانته. وهى مقولة حظها من الصحة ليس قليلاً، المؤلف ربما عن غير قصد يؤكد هذه المقولة حيث يحدثنا عن تذوق الشعر فى القدم وكيف كانت القبائل تحتفى بالشاعر وتقيم موائد الفرح لنبوغه بينهم، ثم يحلل الأسباب التى أدت إلى عزوف الناس عن الشعر وتقلص عدد قرائه، ويقدم نماذج لشعراء كبار تركوا بصماتهم فى مسيرة الشعر العربى مثل أحمد شوقى وصلاح عبدالصبور والهمشرى ومحمود حسن إسماعيل وآخرين.

■■■



❞ ترحب وجهات نظر بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على ان ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها ❝

كنوز جميلة فى مكتبة الطفل المصرى

لأن مجلتكم تعنى بالكتب، فقد لفت انتباهى أنكم تتجاهلون الكتب الموجهة للأطفال. الأمر الذى اعتقدت معه ولفترة طويلة، أن المكتبة العربية تخلو من كتب للأطفال تستحق العناية بها.

وقد دفعنى هذا للبحث طويلاً فى معارض لكتب الأطفال وفى مكتبات كثيرة، وكدت أن أصاب بالإحباط إلى أن ذهبت إلى معرض كتب الأطفال فى أرض المعارض فى فبراير الماضى ووجدت كنزًا من الكتب المتنوعة، الشابة المبهجة، وشاركنى فى سعادتى بها ابنتاى حيث أصبحتا الآن فى سن السادسة والسابعة وأصبحت حدوتة قبل النوم هى أجمل لحظات اليوم.

وبدأنا فى استطلاع الكنز وكانت أول جوهرة وجدناها هى «حكاية أراجوز» وهى قصة ولوحة فنية فى آن واحد، فقد استطاعت كاتبتها سميرة شفيق أن ترجعنا إلى زمن الأراجوز وعروسة المولد والفرسان وحياة الموالد الشعبية التى قاربنا على نسيانها، وكل هذا وسط الرسومات الرائعة للفنان «إيهاب شاكر» الذى أضافت رسوماته بُعدًا فنيًا رائعًا. وقد قام هذا الثنائى الجميل بعمل آخر هو «لو كنت ملكًا» ويحكى قصة شمسة ودانا فتاتان على جزيرة ومعهما أصدقاؤهما من الحيوانات وهم جميعًا يتبادلون الأحلام عما سيفعلونه لو أصبح كل منهم ملكًا. وهذا الكتاب فريد فى أنه مكتوب ومرسوم بأسلوب الكارتون فالحوار يدور بين الأبطال فى مجموعة صور تبين الأحداث فى كل موقف. هذا الأسلوب يبدو غريبًا فى بادئ الأمر لمن لم يعتد قراءة مجلات ميكى وسمير وغيرها إلا أنه سرعان ما يصبح شيقًا وسهلاً خاصة لمن يستطيع القراءة بنفسه من الأطفال.

كنزنا الثمين احتوى على لؤلؤة أخرى غاية فى الجمال وهى كتاب «أجمل الحكايات الشعبية» إعداد يعقوب الشارونى ورسم الفنان البديع حلمى التونى، وهذا الكتاب كما يوحى عنوانه من القصص القصيرة، كل منها مبنى على حكاية شعبية مصرية قديمة، ورسوم حلمى التونى كلها تضفى عليها إحساسًا بماضينا الثرى الجميل، وقد حصل هذا الكتاب على جائزة بولونيا الدولية لكتب الأطفال لهذا العام.

قام الفنان حلمى التونى برسم العديد من الكتب الأخرى التى مررنا عليها منها كتاب «أشعار وصور الحروف» شعر محمد الهراوى حيث لكل حرف من الحروف الأبجدية بيت شعر ولوحة فنية. وقد رأيت هذا الكتاب على هيئة بوستر جميل. كما أن «الفنان حلمى التونى» شارك أيضًا فى كتاب هو من أعز الكتب إلى ابنتى الصغرى، وهو «هلال القدس البسام» تأليف الكاتب والشاعر الرقيق شوقى حجاب، هذا الكتاب قدم لنا الشعر والسياسة والفن فى نسيج جميل رقيق. حيث إنه يحكى لنا قصة يمامة تعيش بجوار هلال أعلى المسجد الأقصى وهو هلال مبتسم دائمًا ومن حوله الكنائس والجوامع فى مدينة جميلة كل من بها يحب الآخر، إلى أن تأتى اليمامة ذات يوم فتجد الهلال حزينًا ذهبت عنه الابتسامة بعد أن حضرت البومة الشريرة بمساعدة الذئبة السمينة ودمرت وفجرت وساد الحزن فى مدينة السلام.

وهناك مجموعة من الكتب ذات الأفكار الجديدة والرسومات المبهجة، فهناك سلسلة كتب للدكتور عبدالوهاب المسيرى، ورسوم الفنانة صفاء نبعة وكلها تمزج الحكايات الكلاسيكية بواقعنا المصرى فتخلق مزيجًا خياليًا وجميلاً ومثيرًا، من هذه القصص «سندريللا وزينب هانم خاتون» وفيها تسكن سندريللا مع أمها فى مصرالجديدة، وتبلغها صديقتها نور بأنها مدعوة إلى حفل مقام على شرف الأمير، وكانت تبحث عن ثوب يليق بالمناسبة. وإذا بزينب هانم خاتون تحضر لزيارة والدتها وتحكى لها المشكلة فتخرج من حقيبتها السحرية فستانًا وحذاء زجاجيًا.. ويتم نسج الحكاية ما بين الماضى والحاضر، والخيال والواقع بصورة جديدة جدًا وشيقة. وقد شاركت الفنانة صفاء نبعة فى كتاب آخر خيالى جميل هو «هف بلف» قصة أمل فرح.

انتقلنا بعد ذلك إلى كتاب «الوصفة العجيبة وأخواتها» وهى حكايات من التراث الشعبى والعالمى مقدمة فى قصص قصيرة لا تتعدى كل منها الثلاث صفحات ولكنها تذكرنى بحكايات.

وحتى الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور وجدت له كتاب «حى بن يقظان لابن طفيل» وتخيلت أن يكون هذا الكتاب صعبًا فى قراءته للسن الصغيرة إلا أن أسلوبه السلس والرسومات البديعة للفنان مصطفى حسين جعلته سهل القراءة والفهم. وقرأنا أيضًا كتاب «حياة محمد فى عشرين قصة» تأليف عبد التواب يوسف ورسوم صلاح بيصار وهو تجديد فى مجال كتابة الحكايات الدينية للأطفال حيث من السهل أن تصبح مملة أو أن تكون الموعظة فيها مباشرة لكنه كتاب شيق. أما سلسلة الأستاذ أحمد بهجت مع الفنان حلمى التونى والتى يتناول فيها القصص القرآنية التى تم ذكر الحيوان فيها، مثل «حوت يونس» و«غراب قابيل وهابيل» و«هدهد سليمان» و«فيل أبرهة» وهى ليست كتبًا جديدة وإنما يجب ذكرها هنا حيث إنها تعتبر من أوائل الكتب التى قدمت للأطفال بهذا الأسلوب المبسط.

وهنا أصل إلى مجموعة من الكتب التى أراها بداية لفكر جديد فى الكتابة للأطفال، فهى كتب شابة، حية جدًا، مصرية جدًا، تمس الحياة اليومية للأطفال. فالكاتبة فاطمة المعدول والفنان وليد طاهر لهما سلسلة كتب جميلة نشارك فيها الأبطال أول يوم لهم فى المدرسة وزيارتهم للطبيب وغيرها من المواقف اليومية التى قد تكون مصدرًا للخوف أو القلق عند الطفل، وهذا الثنائى له أيضًا كتابان للأطفال الأصغر سنًا يتعلمون منها الألوان بطريقة شيقة وهما «عشر بالونات» و«الكتكوت الأبيض» وهى نفس فكرة كتاب «ألوان البهلوان» لفيفى لطفى ورسوم أحمد هنو. وليد طاهر قام أيضًا برسم كتاب «بحبوح» للكاتب الشاعر شوقى حجاب، وهو مرة أخرى كتاب سياسى وفنى فى آن واحد، حيث يعرف الحصان بحبوح صديقيه الحصانين شيشى وحاحا حقوقهما من خلال جمعية الرفق بالحيوان فنتعرف على عمل النقابات وعلاقة العامل برئيسه وكلها قد تبدو موضوعات جافة ونظرية إلا أنها مقدمة فى صورة زجل بسيط طريف وغير مباشرة وهى بحق مدخل جميل لمعرفة أسس الأنظمة السياسية والاجتماعية.

وليد طاهر له أيضًا كتاب «صاحبى الجديد» وهو كتاب فى غاية الرقة قام بكتابته ورسمه بنفسه يحكى عن اكتشاف صبى للقمر وكيف أصبح القمر صديقًا دائمًا له. وهذا الكتاب جديد فى الفكرة وفى بساطة التقديم.

قامت رانيا حسين أمين بكتابة سلسلة من القصص القصيرة للبطلة «فرحانة» والتى نرافقها فى الكثير من المواقف اليومية وهى بنت مصرية صغيرة شقية. ونفس الكاتبة لها كتاب آخر جميل هو «سيوه قصة حب صغيرة صغيرة» وهو كتاب بسيط قريب إلى القلب يحكى صداقة تنشأ بين بنت وولد صغيرين فى رحلة مع أسرتيهما إلى واحة سيوة فنكتشف هذه البقعة من أرضنا التى قلما نتذكرها.

جدير بالذكر أن الكاتبة رانيا حسين أمين ترسم كتبها بنفسها ورسوماتها بسيطة قريبة إلى القلب وقد خاض أحمد سليمان تجربة مماثلة حيث كتب ورسم «الدراجة الحمراء» وهى قصة عن طفل يحقق أحلامه عن طريق رسمها ومعايشة أحداثها من خلال لوحاته. هناك أيضًا «يافراشة طيرى طيرى» لمنى ثابت وهى تحكى عن «سرحان طفل مصرى يقع فى كثير من المغامرات لأنه دائمًا سرحان. وقرأنا أيضًا «مغامرات عمر وشبل هول» وهى قصة يتم دمج الحاضر فيها ببعض الشخصيات المقتبسة من التاريخ الفرعونى وهى للكاتب وائل نوارة ورسوم لمحمد متولى.

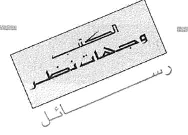
لقد انتهى سردى للكتب التى وقعت فى يدى وبالتأكيد فهو ليس شاملاً، ولكن ما أسعدنى هو أنها بداية قوية وثرية للكتابة للطفل المصرى، هذه الكتب كلها تم إخراجها بطريقة جميلة، فاختيار الورق والطباعة كلها تعطى الكتاب قيمة لابد أن تنعكس على احترام الطفل للكتاب. يبقى أن تنتشر هذه الكتب بين القراء، فالحصول عليها ليس سهلاً فهى موجودة فى مكتبات محدودة وعن تجربة شخصية فهى تحتاج إلى بحث ومثابرة للحصول عليها مما قد لا يكون متاحًا للجميع، بالرغم من أننى لا أستطيع الشكوى من أسعارها، فهى فى متناول يد الكثيرين. يبقى أيضًا أن تستمر هذه الانطلاقة قدمًا، وأن تغطى اهتمامات جميع الأعمار فيصبح لدينا كتابات جادة تخاطب الشباب من سن الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة فهذه السن لها اهتماماتها وأحلامها وقلقها وهى سن تصقل الشخصية وتحدد تفاصيلها.

وبقى أن نحلم بأن يصبح الكتاب هدية ثمينة فى أعياد الميلاد أو أن يصبح أملاً يستحق ادخار المصروف من أجله، وأن يحصل الكتاب على نفس الاحترام والتقدير الذى يحصل عليه فيلم الفيديو أو العروسة أو الملابس.

الكتاب عند أطفال هذا الزمان قيمته مهدرة مسفهة وغالبًا ما يقرن بالدراسة والواجب. وأعتقد أن هذا له علاقة قوية بطريقة التدريس وبالكتب المدرسية التى تفتقد الروح والفكر والإخراج فتقرن القراءة بالملل، فلماذا لا يكون هناك تعاون بين الكاتب للطفل وأستاذ وزارة التعليم، فيقدم الأخير المادة العلمية المطلوبة فى سنة معينة ومادة معينة ثم يخرج الكاتب والفنان هذا العلم فى إطار درامى فنى شيق. لو تم تدريس التاريخ والجغرافيا وحتى العلوم بهذه الطريقة قد تصبح الدراسة أقل جمودًا وأكثر تشويقًا وقد تعود للقراءة بهجتها.

أما وقد وجدنا أنا وابنتاى هذا الكنز فإننا نغرق يوميًا فى خياله وفنه فنتعلم الشعر المصرى، والسياسة والتاريخ المصرى، ونود أن نشكر كل من ساهموا فى هذا الكنز فقد أسعدونا وجعلونا أكثر مصرية.

د. هنا أبو الغار



ملاحظات مستمدة من اسم المجلة

أعتقد أن «وجهات نظر» لم تعد بحاجة إلى رسائل الإشادة بقدر حاجتها إلى نظرة نقدية متانية، وإذا كنت أرى أنه فوق طاقتي تناول المجلة بالنقد والتحليل فإنني أظن أنه بوسعي إبداء بعض الملاحظات غايتها أن تصل المجلة إلى درجة إشباع حاجات القارئ.

هذه الملاحظات أستمدها من عنوان المجلة..

الكتب - وجهات نظر في - الثقافة - والسياسة - والفكر

١ - الكتب: من الضروري تخصيص أبواب ثابتة لمناقشة الكتب لا باعتبارها آخر إصدارات المطابع ولكن مناقشة أهم أعمال كبار المفكرين مناقشة واسعة متعمقة أيًا كان المدى الذي تتطلبه هذه المناقشة، فعلى سبيل المثال نحن بحاجة ملحة إلى قراءة واعية ورصينة لأعمال مفكر مثل العبقري جمال حمدان، وباحث مبدع مثل الدكتور المسيري، أو صحفي متألق مثل الأستاذ هيكل، أو أعمال طه حسين والعقاد وابن خلدون.. فالمطلوب إذن مناقشة أفكار المبدعين وليس عرض كتبهم فقط منفصلة عن مشروعهم الفكري.

٢ - وجهات نظر: من المهم وجود ملف ثابت للحوار وطرح وجهات النظر المختلفة حول أهم الموضوعات التي تطرح نفسها على الساحة الفكرية، الأمر الذي يتيح للقارئ مجالاً أوسع لتعميق الرؤية وربما إمكانية المشاركة والحوار.

٣ - في السياسة: الإنتاج في هذا الباب غزير ومتميز ومثمر وتعد مشاركة المجلة ومتابعتها لأحداث العالم السياسية لاسيما بعد ١١ سبتمبر متابعة ممتازة أتاحت الفرصة لفهم صحيح وسليم، وعلى وجه الخصوص كتابات الأستاذ هيكل الرائعة.

٤ - الثقافة والفكر: هناك قصور وإهمال في تناول مجالات ثقافية وفكرية هي في الحقيقة أعلى درجات الفكر وعلى رأسها الفكر الفلسفي، فنحن في الحقيقة نفتقد معالجة جادة للفلسفة الإنسانية على اختلاف توجهاتها كما أننا في أشد الحاجة إلى محاولة لتقييم الفكر الفلسفي الغربي الحديث على سبيل المثال وأعتقد أن «وجهات نظر» قادرة بجدارة على النهوض بهذا الدور.

٥ - كتّاب المجلة: في تقديري أن عودة الأستاذ هيكل إلى الكتابة المنتظمة هو أهم إنجازات المجلة فكتابات الأستاذ هيكل - في اعتقادي على الأقل - هي أحد مكونات فكر وضمير أمة بأكملها إلى جانب كونها شعاعًا ينير الطريق أمام القارئ في محاولاته الشاقة والمضنية للبحث عن الحقيقة.

٦ - في المقابل هناك غياب مؤثر لمجموعة من كبار المثقفين والمفكرين، من المحزن حقًا أن كل إسهام الدكتور المسيري مقالة واحدة عن التفكيكية، وإسهام الأستاذ فهمي هويدي خمسة مقالات أحدها كان تعليقًا على مقالة أخرى، أين كتابات الأستاذ جميل مطر التي تفيض عذوبة وسهولة وعمقًا وأمانة؟ وأين الدكتور أنور عبدالملك، السيد يس، نعمات فؤاد، محمد عمارة، أحمد صدقي الدجاني، محمد جابر الأنصاري، محمد عابد الجابري ومحمود أمين العالم.. إلخ؟

٧ - هناك تجاهل في متابعة أحداث تاريخية مهمة ومؤثرة في واقعنا السياسي الذي تهتم المجلة بأبعاده، فعلى سبيل المثال كان إسهام المجلة في التعليق على حريق القاهرة مجرد مقال ضعيف لم نصل منه إلى التعرف على أسبابه والجهات المسئولة عنه، أيضًا تجاهلت المجلة حادث ٤ فبراير الذي مر عليه هذا العام ٦٠ عامًا رغم تأثيره الواضح، وهذا العام هو العام الخمسون على ثورة يوليو وأرى أن المجلة يجب أن تقوم بدور يفرضه عليها ضميرها المهني ودورها التنويري وهو محاولة فتح ملفات يوليو ومناقشتها بصورة هادئة وعميقة ورصينة بعيدًا عن الكتابات الدعائية الفجة أو العدائية غير الأمينة التي تبعدنا عن جوهر الحقيقة ومعرفة ما حدث.

٨ - أخيرًا.. نحتاج كثيرًا لفهارس سنوية تريحنا من عناء البحث عن الموضوعات السابقة وتحافظ على المجلة من عبث التقليب المستمر في أوراقها مما يعرضها للتلف ونحن في أمس الحاجة إليها.

مصطفى عبدالعزيز ريحان



الوليمة الشهرية

هذه أول مرة أكتب إلى باب رسائل منذ العدد الأول وحتى العدد الثامن والثلاثين من عمر «المجلة/ الكتاب/ الكتب/ وجهات نظر».

قرأت وحاولت استيعاب وتمتعت وفكرت وحمدت الله على الولائم الشهرية «كل عدد» والولائم اليومية «كل مقال أو تلخيص كتاب».

يا حبذا لو أنه مع كل مقال أو تلخيص كتاب أن تذكر نبذة قصيرة عن المترجم إذا كان الكتاب صادرًا في الأصل بلغة غير عربية (الجنسية/ العمل الأصلي/ التخصص) إذ إن ذلك يقرب المترجم إلى القارئ ويقوي استفادته بما قام به المترجم، كذلك أن تكتب جنسية أي مؤلف مع اسمه.

تحية وتقديرًا إلى كل من يساهم في الوليمة الشهرية.

مصطفى عبد الوهاب صالح
مهندس استشاري - القاهرة

تبرعًا للفلسطينيين

أود أن أتقدم بالشكر على نشر مقالتي في العدد التاسع والثلاثين (أبريل ٢٠٠٢) وأتمنى أن أواصل مقالاتي في هذه المجلة الرائعة المحترمة التي تلقى كل تقدير من المصريين والعرب على السواء.

إنني أعمل أساسًا كطبيب وأعتقد أن أي كتابات أو مساهمات لي لا أتوقع عنها أجرًا، وإنما هو شرف كبير لي أن أكتب شيئًا في مجلتكم العظيمة. وحيث إن المجلة قدمت شيكًا لي مكافأة عن المقالة وأن الشيك قد تم إصداره بالفعل فإنني أرجو أن تتبرع به المجلة إلى دعم الشعب الفلسطيني، وأشكركم وأحييكم.

محمد أبو الغار
أستاذ بطب القاهرة



الأوبرا والبنك المركزي

في عدد أبريل ٢٠٠٢، وفي مقال الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل ثورة يوليو.. خمسون عامًا وتحديدًا في الصفحة رقم «١٥» «أود أن تقوم في قلب العاصمة المصرية دار للأوبرا يفتتحها موسيقار إيطالي مثل فردي بأوبرا كتبها خصيصًا لحفل الافتتاح مثل أوبرا عايدة»!

المعلومات الواردة في هذه الفقرة خطأ شاع استعماله وصحة المعلومة كما يلي:- دار الأوبرا الخديوية بميدان الأوبرا أو ميدان إبراهيم باشا (١٨٦٩ - ١٩٧١) تم افتتاحها رسميًا في ١/١١/١٨٦٩ إبان احتفالات افتتاح قناة السويس، وقد طلب الخديوي إسماعيل من فردي إعداد نشيد أو أوبرا بمناسبة الافتتاح فرفض الأخير قائلاً: إنه ليس مؤلفًا للمناسبات وعليه تم الافتتاح في موعده بغنائية كانتانا وأوبرا ريجوليتو من أعمال فردي أيضًا، وغابت أوبرا عايدة عن حفل الافتتاح. ولكن تم تقديم أوبرا عايدة - لأول مرة في مصر - في ٢٤/١٢/١٨٧١ حيث حضر الافتتاح الخديوي إسماعيل الذي أنعم على الموسيقار الإيطالي بوسام العثمانية من رتبة كومانداتور.

وفي الصفحة رقم ١٩، العمود الثاني، الفقرة الثالثة من نفس المقال يقول بالنص: «مثل محافظ البنك الأهلي (البنك المركزي وقتها) جيمس كوك وتوخيًا للدقة التي عودنا عليها الأستاذ الكبير فإن السيد كوك Cook كان محافظًا للبنك الأهلي في الفترة من أول مارس ١٩٣١ وحتى أكتوبر ١٩٤٠، ولم يكن محافظًا إبان أزمة فبراير ١٩٤٢، وجاء بعده السيد نيكسون Nixon كمحافظ للبنك الأهلي المصري من عام ١٩٤٠ وحتى عام ١٩٤٦ كما لم يكن هناك ما يسمى بالبنك المركزي وحتى عام ١٩٦٠.

ففي العام ١٨٩٨ تم إنشاء البنك الأهلي كبنك تجاري له امتياز إصدار النقد لمدة ٥٠ سنة، وفي ١٩/٧/١٩٦٠ صدر القانون رقم ٢٥٠ لسنة ١٩٦٠ بإنشاء مؤسسة عامة مستقلة تحت اسم «البنك المركزي المصري» وأباح القانون للبنك الأهلي مزاولة جميع العمليات المصرفية العادية كبنك تجاري مسجل لدى البنك المركزي ومنذ العام ١٩٦١ تولى البنك المركزي المصري إصدار أوراق النقد المصرية.

مهندس/ شريف سيد عفت
استشاري - القاهرة



فهرس كامل للمجلة

أزجي إليكم أخلص التهاني على إصدار هذه المجلة الرائعة، التي تعتبر إنجازًا ثقافيًا كبيرًا، وإضافة مهمة بعد أن أصبحت من المعالم الحضارية في البلاد العربية.

وحيث إنني جمعت كافة الأعداد وقمت بتجليدها في مجلدات تضم ستة أعداد في مجلد واحد، فإني أرجوكم التكرم بنشر فهرس كامل في أي عدد قادم لجميع المقالات حسب موضوع كل مقال وتاريخ نشره. وهذا الفهرس الشامل مهم جدًا وأساسي لمن يرغب في الاحتفاظ بجميع الأعداد في مجلدات.

عمر النابلسي
عمان - الأردن

هذه فكرة جيدة. والمجلة بصدد تنفيذها قريبًا.

المحرر



الثقافة العالية!

الإخوة في «وجهات نظر» في الواقع يشرفني أن تكون هناك مجلة بهذا المستوى في عالم وصلت فيه الثقافة إلى الحدود التي تساوي فيها حفنة من الجوائز. وطبعًا ربما يكون هذا الكلام نابعًا من الحنين إلى الماضي حيث كان احترام القارئ هو الأساس وبالتالي تكون المادة جدية، وفي نفس الوقت ممتعة على العموم، أرجو من الإخوة في المجلة الكريمة أن يفيدوني عن اتجاه المجلة الثقافي، بمعنى هل هو أكاديمي بحت. حيث لا يحق لغير أصحاب الشهادات العليا الكتابة فيها ولا يحق لشخص مثلي لا يحمل غير الإجازة في الفلسفة أن يكتب فيها؟

فإذا كان لديكم الإفادة اللازمة فأرجو ذلك فقد انتهى زمن الثقافة العالية وحل محلها زمن ثقافة السندويتش ولا بأس فليس أمام الأزمة إلا أن تنفرج.

محمد محمود - لبنان



الطريق المسدود أمام الشباب في العالم العربي

فجرت موجة المظاهرات الغاضبة التى اجتاحت العالم العربى، احتجاجًا على المعارك الدامية التى خاضها الشعب الفلسطينى، شعورًا قويًا بأن أجيال الشباب التى أزيحت فى معظم المجتمعات العربية إلى زاوية الإهمال، تحت وطأة اليد الثقيلة لأنظمة سياسية متآكلة، وجيل من الآباء المحبطين المهزومين، قد استيقظت أخيرًا واستعادت وعيها الغائب على وقع أصداء قصف الدبابات الإسرائيلية وصواريخ طائرات الأباتشى الأمريكية والعمليات الاستشهادية التى دفع الشباب الفلسطينى، فتيانًا وفتيات، ثمنها من حياته ودمائه.

وجاءت هذه الصحوة وسط أسباب قوية تدعو للاعتقاد بأن أجيال الشباب فى العالم العربى تمر بأزمة خانقة، تحول بينها وبين ممارسة دورها الطبيعى فى حركة النمو والتقدم العالمى التى يفترض أن تكون المجتمعات العربية جزءًا منها. وقد ظهر أن كثيرًا من الأعراض المرضية التى أصابت هذه المجتمعات وأقعدتها عن ملاحقة التقدم فى مجالات متعددة، ترجع إلى أن أجيال الشباب قد أقصيت عمدًا وبتدبير مسبق من الحكومات العربية عن الخوض فى السياسات الداخلية والخارجية وعن المشاركة الفعالة فى إدارة مشاكلها بحيث يمكن القول بأن الشباب العربى قد تم وضعه فى «صوبات» أو أجواء مصنوعة، حجبت عنه عوامل الطقس الطبيعية، وحالت بينه وبين الاحتكاك بالمتغيرات الواقعية، وأبقته تحت الوصاية المفروضة بأحكام الطوارئ واستئثار الكبار بالسلطة.

وقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك والتى أثارت ومازالت تثير الحيرة والإحباط، ما لوحظ فى معظم الأوساط الشبابية من مظاهر عدم الاكتراث والسلبية واللامبالاة. وكأنهم تعرضوا لغسيل مخ جعلهم غير قادرين على المشاركة فى الاهتمام بقضايا مجتمعاتهم والرغبة فى تغييرها إلى الأفضل.. الأفضل من وجهة نظرهم وليس كما يراه الكبار. واقترنت هذه السلبية بغياب تام للثقة فى النظام، وظهور فجوة واسعة بين الشباب والسلطة. وهو ما أدى إلى انتشار الشكوى من الجيل الجديد واتهامه بأنه محدود الثقافة، منصرف عن الاهتمام بالحياة العامة والقضايا القومية، أكثر إغراقًا فى الجرى وراء الإغراءات العاجلة والمكاسب السريعة.

ولكن المفاجأة وقعت، حين انخرطت جموع واسعة من الشباب من أعمار مختلفة اقترب بعضها من سن الطفولة إلى فتيان وفتيات فى شرخ الشباب، فى أشكال غير مألوفة من التظاهر والتعبير عن الغضب بعفوية وتلقائية غير مدبرة، تضامنًا مع شعب عربى آخر يتعرض لغائلة الطغيان والجبروت الإسرائيلى المنظم.. تفجرت طاقة غضب هائلة لم تبددها ذكريات جيل مهزوم، ولا خبرات آباء تعلموا الخضوع والانصياع. واضطرت النظم الحاكمة فى الدول العربية إلى مواجهة موقف لم تكن اعتادته، لقمع المشاعر المتمردة على مظاهر العجز العربى المرسوم على الوجوه والأشكال، وقبل كل شىء على الأقوال والأفعال..



هل تمثل هذه الصحوة ظاهرة عابرة، أم أنها تعبير عن نفاد صبر جيل طال تجاهله وتجاهل دوره فى المجتمع، وأصبح لا ينظر إليه إلا باعتباره إما مصدرًا لمتاعب لا يريد أحد أن يتفهمها أو مجرد مستودع لآمال مستقبلية لا يريد أحد أن يمنحها فرصة التحقق؟

يمثل الشباب دون سن الخامسة والثلاثين فى مصر نسبة تصل إلى ثلثى تعداد السكان. وتزيد هذه النسبة عن ذلك فى مجتمعات عربية كثيرة، مما يعطى للشباب أغلبية عددية بين سكان العالم العربى. ولكنها أغلبية محاصرة ومهدرة، إما حملانٌ شاردة أو طاقات عنف متفجرة، ولكنهم فى النهاية يمثلون المشكلة والحل معًا. وبينما شهد العالم خلال العقدين الأخيرين تطورات متسارعة فى المجتمعات المتقدمة، احتل فيها الشباب مكان الصدارة فى السياسة والحكم، ودنيا المال والأعمال، والمهارات التقنية والإنجازات العلمية.. استمرت حالة الركود بل الجمود فى المجتمعات العربية فلم يطرأ تغيير يذكر على الزعامات والقيادات السياسية إلا ما تمليه قوانين الوراثة. وبينما تحرك الشباب فى المجتمعات الأخرى نحو مزيد من الاستقلال عن الأسرة وعن المؤسسة وعن السلطة، تحرك شبابنا نحو مزيد من التبعية والاعتماد على الأسرة وعلى الحكومة وعلى القبيلة أو العشيرة.

فى المجتمعات الأوروبية شهدت الستينيات والسبعينيات ثورة الشباب ضد «المؤسسة» القائمة بكل أشكالها وتجلياتها، فأفرزت جيلاً جديدًا هو الذى يتولى مقاليد السلطة فى معظم الدول الغربية الآن: فى بريطانيا تونى بلير، وفى ألمانيا جيرهارد شرودر، وفى أمريكا كلينتون وبعده بوش.. هذه الأجيال هى التى قضت على التراتبية التى تقوم على السن والأقدمية، وتتواكب مع المجتمعات الحديثة التى تقوم على التكنولوجيا وثورة المعلومات فى ظل ثقافة جديدة تختلف فى معطياتها ومهاراتها وأخلاقياتها وسلوكياتها عن تلك التى أفرزت الأجيال السابقة.

أما فى المجتمعات العربية فقد أبعد الشباب عن ممارسة السياسة بل وعن ممارسة التفكير المستقل والتعبير الحر فى ظل نظام تعليمى عقيم وفاسد. وأصبح الشباب مطالبًا إما بالانضمام إلى «المؤسسة» المفلسة فكريًا وسياسيًا وأخلاقيًا، أو البحث عن منافذ أخرى أفضت به إلى تنظيمات دينية متطرفة تتجه إلى الماضوية بحثًا عن حلول لحاضر متغير، أو إلى الانحرافات الشبابية المعروفة بالإغراق فى المخدرات والجريمة والضياع.

وقد كانت الصدمة التى فوجئ الجميع بها فى كل المجتمعات العربية: المحافظة وغير المحافظة، الدينية والعلمانية أو شبه العلمانية، هذه الأعداد الكبيرة من الشباب التى هجرت مجتمعاتها وهاجرت إلى ديار وأوطان أخرى، فى أفغانستان أو الصومال أو أحراش السودان وجبال اليمن.. أو هربت من واقعها إلى دول أوروبية بعد أن ووجهت بإجراءات قمعية وأمنية عنيفة، وعجزت مجتمعاتها عن استيعابها واحتوائها، لتنضم إلى تنظيمات وجماعات أشد قمعًا وأكثر تخلفًا، ولكنها تقدم بدائل مغرية استوعبت نزعات التمرد والغضب والثورة الطبيعية لدى الشباب.



ومع ذلك، فمازالت هذه الشريحة الواسعة التى تمثل قلب المجتمعات العربية وحاضرها ومستقبلها، بعيدة عن أن تلقى ما تستحقه من اهتمام ودراسة وتحليل.. بعيدة عن أن يُستمع إلى صوتها أو يُلتفت إلى همومها وأشواقها ومشاكلها.. بعيدة عن المشاركة فى تحمل المسئولية وأن تكون طرفًا فاعلاً فى حوار متجدد على كافة المستويات. وقد ظن البعض أنه يكفى أن تيسر للشباب فرص العمل والمسكن ومكان فى الجامعة إن توفرت الإمكانات المادية لذلك.. ولكن هذه الضروريات التى يعتبرها الشباب حقًا لهم على المجتمع، لم تسهم فى عبور الهوة الفاصلة بين هذه الأجيال وتلك التى مازالت تمسك بالزمام. بل يمكن القول بأن الهوة تزداد اتساعًا. ويضاعف منها أن الآباء لا يملكون المعرفة الكافية ولا الإجابات الشافية التى تمكنهم من الدخول فى حوار متكافئ مع أبنائهم، سواء فى التكنولوجيا أو السياسة أو الدين أو الحياة العامة أو العلاقة بين الرجل والمرأة.

ونظرة مدققة إلى ما يحدث فى المجتمع المصرى على سبيل المثال تكشف عن عمق الهوة..

فقد عجزت الأحزاب السياسية عن اجتذاب الشباب إليها، أو استثارة اهتمامهم وحماسهم حتى لمجرد الدخول من أبوابها.

ومن يقرأ ما يكتبه الشباب فى مواقع الإنترنت المفتوحة للنقاش عن رأيهم فى النظم السياسية القائمة والديكتاتوريات الحاكمة والشعوب الذبيحة.. يدرك إلى أى مدى فقدت هذه الأحزاب السياسية المصنوعة والمعلبة مصداقيتها لدى الشباب. وبقدر درجة الإحباط التى يعانون منها فى مجتمع يصعب سلوك سبل الترقى والتقدم إلى المواقع الأمامية فيه دون درجة كبيرة من الفساد والشللية، سواء فى سوق العمل أو فى مجال السياسة.

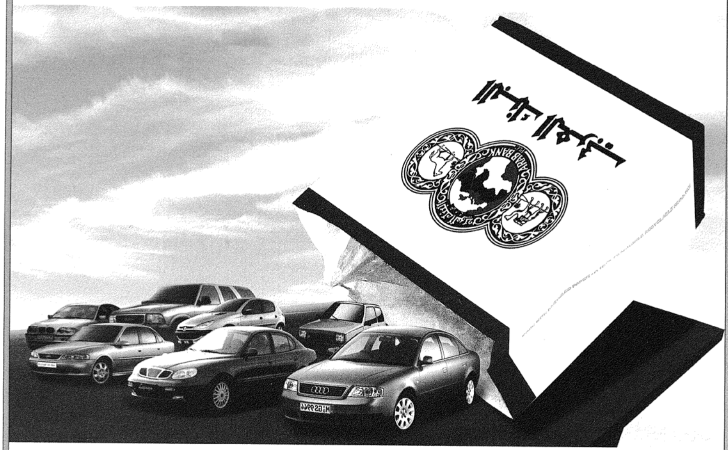
وكما عجزت المؤسسة السياسية عن استيعاب طموحات الشباب ونزوعهم إلى الاستقلال والحرية فإن إخفاق المؤسسة الدينية لم يكن أقل تأثيرًا.. وهناك أسباب قوية تدعو إلى الاعتقاد بأن المرحلة التى انساقت فيها نسبة كبيرة من الشباب وراء الأفكار السلفية والاتجاهات الدينية المحافظة قد آذنت بزوال بعد أن لم تعد تجد ما يشبعها ويلبى احتياجاتها الروحية والدينية. وأن ثمة أسئلة جديدة تمور بها صدورهم وتشغل بالهم لا يجدون الإجابة المقنعة عنها فيما تقدمه لهم وسائل الإعلام على لسان المراجع التقليدية. ولهذا تبدو ظاهرة الدعاة الجدد، الذين يقدمون فهمًا عصريًا للدين يتسم بالبساطة واليسر ولا يعادى الحداثة والتقدم، من أكثر الظواهر انتشارًا فى غير وسائل التعبير والإعلام الرسمية.. ويبدو مثيرًا للدهشة أن تنتقل هذه الظاهرة من مصر عبر الفضائيات إلى مجتمعات عربية أخرى، لتتصادم بوضوح وقوة مع أصوات الدعاة التقليديين الذين احتكروا منابر المساجد وميكروفونات الإذاعة والتليفزيون.

ويدخل فى هذا السياق ما يجرى من مناقشات حادة حول الحجاب وعلاقة الشاب والفتاة، وما يعكسه ذلك من حيرة شديدة بحثًا عن حلول وسلوكيات جديدة، لا تصطدم بتقاليد ومواضعات اجتماعية راسخة الجذور، ولا تفرض فى الوقت نفسه قيودًا على العقل والفكر وحق الشباب فى اختيار طريقه بنفسه دون إكراه أو جبر، وهو يرى ويعايش بنفسه مجتمعات وثقافات أخرى قد لا يجد فيها هويته، ولكنه يجد فيها من القواعد والمعاملات الاجتماعية ما يقرب بينه وبين الثقافات الأخرى فى العالم المتقدم.

هذه القضايا ليست غير نقطة فى بحر من المشاكل الشبابية التى تعبر عن نفسها فى طفرات وانفجارات مفاجئة، وهى تمثل تيارًا واسعًا تحت سطح المجتمعات العربية، لن يسهل التعامل معها بدون دراستها ومناقشتها والاعتراف بها.

سلامة أحمد سلامة

مفهوم جديد لتسوق سيارتك



الآن يمكنك الحصول على قرض سيارتك
بمميزات عديدة ...

- أقل سعر فائدة
- أعلى نسبة تمويل
- أعلى حد أقصى للقرض
- سهولة وسرعة الإجراءات
- بوليصة تأمين مجانية على الحياة
- أسعار متميزة على تأمين السيارات
- قروض للمصريين والأجانب المقيمين

لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال بتليفون

٣٣١ ٩٩ ٢٢

٧ أيام فى الاسبوع من التاسعة صباحاً و حتى التاسعة مساءاً

البنك العربي

رؤية جديدة

أكبر شبكة مصرفية عربية

Checkmate Adv.